يوزع مجاناً ولا يباع

سلسلة إصدارات برنامج تأصيل منهج السلف (٧)

مراقي الوعي تنبيهات على مزالق فكرية (٢)

مراقي الوعي

فصول تأصيلية، وتنبيهات على مزالق فكرية

بقلم

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة

دار اللؤلؤة

برنامج علمي للنساء

تأصيل منهج السلف

تأصيل منهج السلف

tasilsalaf

0096591107079

مراقي الوعي فصول تأصيلية، وتنبيهات على مزالق فكرية

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

دار اللؤلؤة

منشورات دار اللؤلؤة

(١٦٣)

مراقي الوعي

فصول تأصيلية، وتنبيهات على مزالق فكرية

حُقُوقُ الطَّبعِ غيرُ محفُوظَةٌ

الطَّبعَةُ الأُولَى

شَهرُ صفر ١٤٤٥

مُؤسَّسَة يَقِين الوَقفيَّة
المملَكة العَربيَّة السُّعودِيَّة - المدِينَةُ المنَوَّرَةُ
سجل تجاري: ٤٦٥٠٢٠٧٧١٩

Daralloloaa@hotmail.com
@Daralloloaa
0096170654460

مَراقي الوَعي

فُصُولٌ تأصِيليّةٌ، وتنبيهاتٌ على مزالِق فِكريّة

بِقلَمِ

أ.د. صالِح بن عبد العزيز بن عُثمان سِندي

أستاذُ العقيدةِ بالجامعةِ الإسلاميةِ بالمدينةِ

مؤسسة يقين الوقفية

دار اللؤلؤة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا، **أما بعد:**

ففي ظلِّ الغزو العقدي المكثّف، والصراع الفكري الشديد؛ لا غنى عن الحصانة اليقِظة، والوعي الرشيد.

وإن من الواجبات المتحتمات اليوم على كل قادر: السعي في التذكير والتحذير، وبذل النصح وبث الوعي؛ إذ ليس يخفى أن كثيرًا من شباب المسلمين وفَتَياتهم باتوا في مرمى سهام أعداء الله، الذين يمطرونهم ـ صباح مساء ـ بوابلٍ من قذائف التشكيك؛ ومن لم يتدرع منهم بدرع حصينة من العلم والتقوى: نهشت فيه الشبهات، وتلاعبت به الأهواء.

إن الأجواء الملبدة بالغيوم يتعين أن يسير العاقل فيها على نور وهدىً وبيِّنة، وإلَّا فما أدنى عَطَبه!

على أن تيارات الأهواء الجارفة وأمواج الشبهات المتلاطمة لا تُغرق إلا «الخفيف»، أما الراسخ: فهو ـ بتوفيق الله ـ ثابتٌ لا يتزحزح ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ [الرُّوم].

إن الراسخين ـ علمًا وإيمانًا ـ على يقين أن الضلال المزخرف: سرابٌ، وأن الحق بَيِّنٌ جَليٌّ، ودين الله ظاهرٌ منصورٌ قطعًا، وإنما هو الابتلاء ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلاًۚ﴾ [الملك: ٢]، و﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، والله غالب على أمره.

والحقُّ منصورٌ وممتحَنٌ فلا تعجب؛ فهذي سُنة الرحمٰن

هذا؛ وفي الصفحات التي بين يديك ـ أيها القارئ الكريم ـ فصولٌ من مباحث عقدية ومسارب فكرية تشتدُّ الحاجة إلى تأصيلها، وبيانٌ لوجه الصواب في «قضايا ساخنة» كثُر الأخذ فيها والردُّ، مع تنبيهات على مزالق فكرية، ومذاهب رَدِيّة، ومغالطات عقلية(١).

(١) **أصل هذا الكتاب**: حلقات إذاعية ألقيتُها عام (١٤٤٠هـ) في برنامج «وعي» بإذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية، بصحبة المذيع المتألق: أ. عبد الله الزهراني ـ وفقه الله ـ، وهي منشورة في الشبكة.

ثم لما عزم عليّ بعض الأفاضل أن أجعلها في كتاب ليعمَّ الانتفاع بها: شرح الله صدري لهذا؛ فاستعنتُ به سبحانه، ثم أعدتُ النظر فيها وعدّلت بما يتناسب مع مقروء لا مسموع، مع مراعاة الإيجاز، وسهولة العبارة، ووضوح الجُمَل، وجعلتُ كل حلقة ـ من الحلقات المذاعة ـ في فصل.

وأنبّه إلى أن المادة العلمية هنا ـ كأي كتاب ـ خليطٌ بين ما فتحه الله على عبده الفقير إلى رحمته، وما أفدتُه من غيري ـ من متقدم ومتأخر ـ؛ حيث جمعت أشتاتها من مصادر علمية ومواقع شبكية وغيرها، ولم يدُر في خَلَدي حينها أن تلك الحلقات ستؤول إلى أوراق مكتوبة؛ ولذا لم أعتنِ بتدوين المراجع وتوثيق المعلومات. وحين توجهت الهمَّة إلى ما توجهت إليه عسر علي جدًّا أن أخوض جولة جديدة للتوثيق على ما يقتضيه منهج البحث العلمي؛ فاكتفيت بهذه الإشارة التي أؤمل أن تمهّد لي العذر، راجيًا أن =

والله تعالى المسئول أن يجعلها نافعة لعباده، مقبولة عنده، إنه قريب مجيب.

= يعظم الله الثواب لأهل العلم الذين أفدت من علمهم واغترفتُ من بحارهم ولم أُنصَّ الحديث إليهم، مستعيذًا به سبحانه أن أتشبع بما لم أُعطَ.

ولا أنسى أن أقدم شكري لأخي الكريم د. سعود بن عويض العوفي على إعانته لي في إخراج هذا الكتاب، فجزاه الله خيرًا.

الفصل الأول

التحديات التي تواجه الشباب

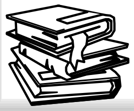

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ما هو الوعي؟

الوعي في اللغة: بمعنى الجمع والحفظ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ١٨﴾ [المعَارج: ١٨]، وقوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٢]، ثم تطور المعنى فصار يطلق على معنى الفهم والإدراك، ثم صار ينبئ عن معنى أعمق، وهو المراد في عنوان هذه الأوراق، ألا وهو: الإدراك الصحيح للأشياء، وفقه واقعها، وضبط مسار المعرفة والاستدلال، بحيث يميز ذو الوعي بين الحق والباطل، والصواب والخطأ.

ويمكن أن أعبر عن هذا بتعبير آخر فأقول: الوعي هو البصيرة، أو النظر الثاقب، أو الفهم العميق للواقعات، والإمكانات، والتحديات، والواجبات.

والوعي أدقُّ من مجرد الثقافة؛ فهو ثقافة دقيقة، مقرونة بخبرة بالأشياء، ودقة في تأملها، ومعرفة حالها.

حاجتنا إلى الوعي:

نحن في هذا العصر نعيش في حالة فريدة، سمتها تدفق معلوماتي عجيب، يلج على الناس من نافذتين واسعتين: فضائية وشبكية، وهذا ما أدى إلى تداخل ثقافي كوني عظيم، وصار الإنسان في هذا الواقع تحت ضغط رهيب، أُمثِّلهُ بطالبٍ في فصلٍ، وأمامه عشرون أستاذًا، يتكلمون ويشرحون مواد علمية مختلفة في وقت واحد!

وكثافة المنتجات الثقافية المعروضة إن لم يصحبها وعيٌ حسنٌ لِلذات والواقع والمطلوب؛ فسيكون ذلك عامل اضطراب وإرباك في العقائد والأفكار والأحكام، وسيسوقنا هذا إلى فتنة ثقافية، وخلل عقدي، وترهّل أخلاقي، إذن نحن في أمسِّ الحاجة إلى وعي، بل إلى وعيٍ ناضج، بحيث يكون مُرشِّحًا (مُفلترًا) لهذا الكمِّ الهائل من الأفكار والمعلومات والصور؛ فنتلمس حينها الصواب فنأخذه، ونبصر الباطل فنجتنبه.

والأمر لا يقف عند حدِّ هذا الزخم الثقافي والمعلوماتي الضخم وما يسببه من تشتت واضطراب، إنما الأمر أكبر من ذلك؛ فأعداء الله أحسنوا استخدام هذا الواقع بشنِّ غزوٍ عقدي ثقافي مركّز، يستهدف أبناء المسلمين في كل مكان؛ والغاية: تحقيق هدفين: إخراج هؤلاء المسلمين عن دينهم وردهم بعد إيمانهم كفارًا، وهذا الذي يقوم به الملاحدة واللادينيون والمنصِّرون وغيرهم، والثاني: تغيير المفاهيم الشرعية في نفوس المسلمين، وتقديم مفاهيم خاطئة ليست هي التي جاء بها نبيُّنا محمد ﷺ، وقد تنحو إلى جهة الغلو، وقد تنحو إلى جهة التحلل، وهذا ما قد يتولاه أناس من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا.

والخلاصة: ثمة مشكلة كبيرة تستحقُّ أن تُبذل كل الجهود في سبيل علاجها والتصدي لتبعاتها؛ فثمة سيلٌ جارف من التيارات العقدية والفكرية تغزونا في عقر دارنا، تخاطب جميع الشرائح ـ لاسيما الشباب ـ ذكورًا وإناثًا.

إنه أشبه شيء بالفايروس القاتل واسع الانتشار، يهبط من الفضاء أو يصطاد عبر الشبكة، وهو يختلف عن أي مُهدد عقدي سبَقه كمًّا وكيفًا، ومن لم يكن محصنًا منه؛ فما أقرب عطبه!

إنني لا أتكلم عن خيال، لقد رأينا وسمعنا وعلمنا نماذج كثيرة، رأينا وسمعنا من يقتل أباه وأمه أو ابن عمِّه باسم الإسلام، ورأينا من يعلن إلحاده أو تنصُّره أو يسخر من الشريعة صراحةً وهو من أبناء المسلمين!

الوضعُ جادٌّ وواقعي!

سمات الغزو العقدي الفكري المعاصر

الغزو العقدي الفكري المعاصر يتميز بسمات، ألخص أهمَّها في سبع سمات:

الأولى: كثرة التيارات التي يُروَّج لها، وكثرة الشبهات والأفكار التي تُطرح.

وطيفٌ كبير من العقائد والنزعات تقدم نفسها ـ بثقة تامة ـ على أنها الحق والصواب، وهي ـ في حقيقتها ـ تستهدف العقيدة النقيّة والأخلاق السويّة في مقتل.

إن الشبهات التي تُطرح اليوم تطال كل شيء، وأنا أعني كلمة (كل شيء): وجود الله، ربوبيته، ألوهيته، نبوة نبينا محمد ﷺ، أحاديثه، القدر، القرآن، الأحكام، الأخلاق،... إلخ، وهذا كله ليس عشوائيًّا، إنما هو استهداف مركّز ومدروس.

الثانية: استخدام وسائل متنوعة ـ مسموعة، مقروءة، مرئية ـ؛ فهناك مواقع شبكية ـ وأهمها وسائل التواصل ـ، وهناك قنوات فضائية، وهناك كتب، وروايات، ومجلات، إلى غير ذلك.

ويبقى أن الكلمة الكبرى اليوم هي للشبكة ولوسائل التواصل؛ فهي

المهيمنة ـ غالبًا ـ على الفكر والثقافة، وجميع المنتجات الثقافية تكاد تدور عليها.

والحقُّ أن أرباب تلك التيارات أجادوا استغلال كل وسيلة، وطوّعوها لنشر أفكارهم، ولذا وُجدت قنوات ثقافية وثائقية علمية تثقيفية، ومع ذلك تتبنى نظريات إلحادية! مع كونها تدخل في أكثر البيوت المسلمة.

ثمة أفلام أجنبية تنتجها دور سينما عالمية، الأصل أنها للمتعة والفُرجة، ويتخللها ما يتخللها مما حرم الله، ومع ذلك فإنها تقدم رسائل إلحادية مبطنة.

بل إن بعض الألعاب الإلكترونية لم تسلم من بث هذه الرسائل.

إن هذا واقعٌ جديد، والأمر في السابق لم يكن كذلك؛ ففي السابق كانت القوالب ـ التي تقدَّم الأفكار من خلالها ـ كانت محدودة، وتكاد تدور على كتاب، ربما على إذاعة، والغالب أن من يبحث عن هذه الأفكار هو الذي يصل إلى تلك المنتجات الثقافية لا الغافل عنها؛ إذن التأثير كان محدودًا، بخلاف الأمر اليوم؛ فالوسائل اليوم هي التي تطارد الناس، حتى من هم في غفلة عنها، مع ملاحظة أننا نتحدث عن وسائل تميَّزت بالتنوع والكثرة، كما تميزت بالجِدّة ـ وكل جديد له لذة ـ، كما تميزت بالجاذبية، كما تميزت بسهولة الوصول إليها، وهذا ما يتضاعف معه التأثير.

الثالثة: مما يميز هذا الطرح المعاصر: تنوع الأساليب، فهناك مخاطبة للعقل، ومخاطبة للعاطفة، وهناك إثارة لشبهات فلسفية، أو علمية

تطبيقية، وهناك تشويه للحق، وتلبيس بالمتشابهات،... إلخ، بعكس ما كان عليه الحال في السابق حيث كان الطرح ـ غالبًا ـ فلسفيًّا نخبويًّا.

الرابعة: الطرح اليوم يخاطب جميع الشرائح، فهو يُحسِن مخاطبة الكبار ومخاطبة الصغار، والذكور والإناث، ويتحدث بجميع اللغات تقريبًا؛ لذا فمساحة التأثير أيضًا عظيمة، بخلاف الأمر في السابق.

في السابق: لم نكن نسمع عن قصص أطفال مصورة ـ ملونة وجميلة ـ تبثُّ السموم الإلحادية بما يتناسب مع عقول الأطفال، لكن هذا اليوم موجود.

في السابق: ما كان هناك سلسلة من الكتيبات الإلحادية موجهة إلى محدودي الذكاء!

في السابق كانت حركة الترجمة لمخرجات التيارات الضالة ضعيفة، أما اليوم فلربما لم يبق كتاب إلحادي مشهور لم يترجم إلى اللغة العربية ولم ينشر مجانًا على الشبكة، وكل ما سبق يقابله ـ مع الأسف ـ ضعفٌ في برامج التحصين والعلاج كمًّا وكيفًا.

الخامسة: وجود واقع جديد يسمى بالاغتراب الأسري ـ أو العزلة الأسرية ـ، وهذه ظاهرة لا يُجهل انتشارها في كثير من المجتمعات المسلمة؛ ففي السابق كانت العلاقات الأسرية ـ غالبًا ـ قوية، وكانت الرقابة على الأطفال والشباب حاضرة، وشعور كل فرد في الأسرة بالآخرين وملاحظة ما قد يطرأ عليهم كان موجودًا.

لقد كانت الأسرة تُفكّر بصوت مسموع؛ فأفرادها يتناقشون ويتحاورون، ويصارح بعضهم بعضًا بما يختلج في النفس من مشكلات فكرية أو شبهات أو نحو ذلك.

لقد كانت العلاقة الأسرية دافئة قوية إلى حدٍّ كبير؛ لكن هل لا يزال واقع الأسرة كما هو الآن؟ أظن أن الجميع يدرك ما آل إليه الأمر اليوم!

فاليوم أضحت الأسرة ـ في كثير من الحالات ـ عوالمَ متعددة مستقلة يجمعها جدار واحد! أي أن كل فرد صار له عالمه الخاص؛ فلديه جواله أو حاسوبه الشخصي الذي يُبحر فيه وحده، ويُكوّن عالَمَه الافتراضي الخاص، ولا رقيب ولا حسيب، والكل ـ حتى بعض الآباء والأمهات ـ مشغول بنفسه، والكل مشغول عن غيره!

وهذا الواقع أنتج أن كثيرًا من الشباب والفتيات صاروا صيدًا سهل المنال لذوي المآرب، وهم يُحسنون اصطياد الفرائس!

السادسة: غياب المرجعية عند كثير من الفتيات والشباب؛ فأحدهم لا يعرف أين يرجع إن غرق بشبهة أو اعتاصت أمامه مسألة.

إن كثيرًا منهم لا يفرق بين المرجعية الموثوقة وغير الموثوقة، واليوم كلٌّ يتكلم، وكلٌّ يؤصّل، وهناك من يسمع!

أما في السابق فكانت المرجعية الموثوقة ظاهرةً لا تُزاحم.

السابعة: واقعنا المعاصر أيضًا فيه ضعف في إدراك حجم المشكلة الواقعة في ساحة المسلمين الفكرية، أي أن بعض الناس اليوم لا يشعر بخطورة الواقع، إما لبُعده، أو انشغاله. وعليه؛ فأمراض الشبهات القاتلة قد تفتك بمن حوله وهو في غفلة، بل قد تتعدَّى إليه ـ هو ـ وهو لا يشعر! وربما يستيقظ ـ متأخرًا ـ على واقع مؤسف يتعلق به أو بأسرته، ولكن بعد فوات الأوان!

ولذا؛ كلما كان الإنسان قريبًا من محيطه، عنده وعي ودقة ملاحظة ـ وليس وسوسة وإساءة ظن ـ كلما كان أقرب إلى أن تتكسر عند وعيه جهود الأعداء، وهذا غايةُ المحبة للقرابة، وكمالُ الرأفة بهم.

ومن أهم ما ينبغي العناية به: الأصول الفكرية التي يتفرع عنها غيرها؛ فالانحراف في الفكر غالبًا ما يكون بسبب الخلل في فهمها، والضالون غالبًا ما ينفذون من خلال التلاعب بها.

وعليه، فمن أحسن فهمها وأحكم ضبطها فسيكون في مأمن من التأثر بهذه الشبهات الفكرية الجارفة بتوفيق الله.

ونحن هنا نخاطب الشباب أصالةً، فالشباب في هذا العصر بحاجةٍ إلى معرفة الحقِّ بالطريقة الإقناعية لا التلقينية، أي: أن يعلموا الحق بدليله.

والجميع بحاجةٍ؛ من تشوش ذهنه، أو تسربت إليه بعض الشبهات، ومن كان في عافية أيضًا؛ ليكون في حرزٍ ـ بتوفيق الله ـ من التأثر بهذه المضلَّات التي قد تعترضه يومًا ما، ولأجل أن يُحسن الحوار مع من هو بحاجةٍ إلى الدلالة إلى الطريق المستقيم؛ فلا ينبغي الاستهانة بهذه الموضوعات.

إننا في هذا العصر في ضرورة إلى بناء إيماننا على أصولٍ محكمة صحيحة، تتكسر عند عتباتها أمواج الشبهات، فخذ هذه الموضوعات على محمل الجد.

وما سيأتي في قادم الأوراق بيانُ أهم الأصول وفق المنهج المستقيم الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول، وسيُحرص ـ إن شاء الله ـ على الجمع بين سهولة الطرح وأصالة المضمون.

وقبل أن أختم؛ يحسن التنبيه على أمر مهم:

وهو أن طرح موضوع الانحراف العقدي والفكري المعاصر ينبغي أن يتميز بالدقة والرفق والموضوعية؛ لأن بعض الناس يبالغ في التصور أو التصوير، وقد يُصاب بما يشبه الكآبة، فيرى الدنيا أمامه مظلمة إذا ولج إلى هذا الموضوع، وهذا غير مطلوب ولا مقبول، فالخير ولله الحمد هو الغالب، ووجود المشكلة هو المقلق وليس غلبتها، فإصابة قلة قليلة هو الحافز إلى الاجتهاد في العلاج، وطرح هذا الموضوع ينبغي أن يكون داعيًا إلى البذل والعمل وليس إلى اليأس والإحباط، والدِّينُ دينُ الله ﷻ، وهو منصور بنصره.

إننا اليوم أمام ساحة جهاد للدفاع عن الدين والإيمان، وهي منوطة بالجميع؛ بالرجال والنساء، برجالات ونساء التعليم والإعلام، والأئمة والخطباء، والمثقفين والمفكرين، والآباء والأمهات، والإخوة والأخوات، والجميع من رؤساء ومرؤوسين.

إن الإسلام سبب وجودنا، وهدف بقائنا، وأكبر قضية في حياتنا؛ فلنشمر للذود عنه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصَّف: ١٤].

الفصل الثاني

العقل: حقيقته، وحدوده، وموقف الإسلام منه

هذا الموضوع حجر الزاوية في كثير من القضايا الفكرية التي نشأ عنها الانحراف والاختلاف الحاصل بين الناس.

والحق أن الكلام في «العقل» كلامٌ في قضية شائكة، حصل فيها ما حصل من اختلاف كثير وتشعُّبات ومناهج، وهذا عجيب؛ أن يتحيَّر العقل في العقل!

معنى العقل

يُطلق العقل في النصوص وفي مجاري كلام أهل العلم، ويراد به أحد أربعة معانٍ:

الأول: الغريزة، أو الملَكة التي جعلها الله ﷻ في الإنسان وبها يدرك، أو كما يقول بعض العلماء: «هو القوة المتهيئة لقبول العلم».

وهذه الغريزة هي التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، والعاقل عن المجنون، وهذه هي موضوع بحثنا في هذا الفصل.

ويطلق العقل **ثانيًا**: على العلوم الضرورية التي يشترك فيها جميع العقلاء، كالعلم يأن الكلَّ أكبر من الجزء، وأن المخلوق لا بد له من خالق... إلخ.

ويُطلق **ثالثًا**: على العلوم النظرية التي تحصل بالنظر والاستدلال.

ويطلق **رابعًا وأخيرًا**: على العمل بالعلم، أو الأعمال التي تكون بموجب العلم، وهذا الذي جاء في نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [المُلك: ١٠].

ويبقى أن تحديد المراد من العقل في هذا الكلام أو ذاك يتضح بالسياق.

حدود العقل

العقل وإن كان له في الشرع شأنٌ؛ إلا أن حدوده ضيقة، ومجالاته محدودة، ولا يمكنه تجاوزها، والنقص لاحقٌ به، وجائز عليه؛ لذا: فهو أضعف من أن يحكم في شيء خارجٍ عن محلِّ ولايته، أو أن يستقل عن الشرع استقلالًا تامًّا، وهذا من آثار كمال الخالق، وضعف المخلوق، قال جل وعلا: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٢٨].

فالقاعدة إذن: **للعقل سلطة، لكنها محدودة لا مطلقة.**

وشواهد هذا كثيرة، منها:

أولًا: أنه لا دخل له في الغيبيات؛ فتفاصيل كثيرة تتعلق بصفات الله سبحانه أو الملائكة أو اليوم الآخر ـ مثلًا ـ لا تُعلم ابتداءً إلا من طريق النقل، وليس من طريق العقل، ولا سبيل للعقل إلى الاهتداء إليها، وحسبه الإقرار والتسليم بها إذا بلغته، والحكم بعدم امتناعها.

ثانيًا: أن العقل لا يستقلُّ بالهداية، فمن رامها به ـ وحده ـ ضلَّ.

فمَثَلُ العقل: كنور العين؛ فالعين لا تبصر إلا إن اتصل بها نور الشمس أو المصباح، وإلَّا بقيت عاجزة عن الإبصار؛ كذلك العقل؛ لا يبصر الهداية إلا إذا اتصل به نور القرآن والإيمان، وتأمل في هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦]، إذن؛ لا سبيل إلى الهداية إلا بالوحي الإلهي: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سَبَإ: ٥٠].

الأمر الثالث: أنه لا يستقلُّ بالفصل بين الناس فيما يتنازعون فيه، إنما الذي يستقلُّ به: الوحي المنزل، فهو الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، وذلك أن أقوى العقول متفاوتة مختلفة، وكثيرًا ما يشتبه المجهول بالمعقول، فلا يمكن أن يفصل بين المتنازعين قول شخص معين ولا معقوله، إنما الذي يفصل بينهم: الكتاب المنزل من السماء، والرسول المبعوث المعصوم ﷺ بما بلغه عن الله ﷻ، ولهذا نجد أنه سبحانه أمر بردِّ التنازع إلى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

سبب محدودية العقل

سبب ذلك أربعة أمور، وهي أسباب وفي الوقت نفسه أمارات.

أولًا: أنه مخلوق ناقص، خلقه الله ﷻ هكذا؛ ناقصًا لا كاملًا، ضيقًا لا يحيط بالأمور كلها، فثمة أشياء كثيرة أكبر من طاقته وأرفع من قدرته، ولذا؛ العلماء كلهم بعلومهم وعقولهم وتقنياتهم لا يعرفون كل شيء عن ذبابة!

الثاني: أن هذا العقل مكبّلٌ بالمحسوس المـُدرَك له، أي أن العقل لا طاقة له بإدراك شيء وراء المحسوسات؛ فمعيار حكمنا بعقولنا: هو المخزون المعرفيُّ في أذهاننا، أو ما نسمِّيه بالتصور الذهني، أو الخبرة السابقة، ولذا؛ لو قيل للناس قبل مئتي سنة: إنه يمكن أن يسافر إنسان بغرفة مكيفة تسبح في الهواء من المدينة إلى جدة في ظرف دقائق؛ فماذا سيُحكم على القائل؟ سيحكم عليه ـ غالبًا ـ بالجنون!

ولو قيل: إنه يمكن عبر آلة صغيرة أن تسمع رجلًا في الصين وأنت في المدينة في اللحظة التي يتكلم فيها، بل وأن تراه أيضًا، أظن أنه سيُحكم على القائل بالجنون أيضًا!.. لِمَ؟ لأن هذه الأشياء خارجة عن مدركاته، وقد قيل: في طبع الآدمي إنكار ما لم يعهد.

إذن؛ عمل العقل ـ الذي هو الفهم والتحليل والاستنتاج ـ يعتمد على معطيات حسية، فلو تجاوزها الإنسان فإنه سيحكم بغير هدى.

الأمر الثالث: أنه يعتريه ما يعتريه مما يبعده عن الصواب.

فالعقل ليس شيئًا موضوعيًّا دائمًا، فهناك أشياء قد تحرفه عن الجادة: (هوى، عاطفة، غضب، شك، غفلة،... إلخ)، حتى قال بعض الحكماء: كيف يرجو العقل النجاة والهوى والشهوة قد اكتنفاه؟ وشواهد هذا كثيرة في الواقع وفي الشرع.

الأمر الرابع: أن العقل ليس شيئًا واحدًا متفقًا عليه.

ولينتبه هنا إلى مغالطة؛ فبعض من يرفع لواء العقلانية المتطرفة حينما يجعل العقل معيارًا للحكم على الأشياء بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ لسان حاله يقول: العقل شيءٌ واحد، كأنه كتاب أو قانون عام يُرجع إليه، ويحاكَم إليه، وهذا بإطلاقه غير صحيح؛ فالواقع أن لزيد عقلًا، ولعمرو عقلًا، ولكلٍّ طريقته في التفكير، نعم؛ ثمة أمور ضرورية يتفق عليها العقلاء، لكن هناك أمورًا كثيرة جدًّا يختلف فيها العقلاء؛ فما يُثبته فلان بعقله ينفيه فلان بعقله، بينما يتوقف فيه ثالث بعقله أيضًا! بل قد يثبت الإنسان بعقله في وقتٍ ما ينفيه ـ بعقله ـ في وقت آخر!

إذن القاعدة: **العقل غريزةٌ يتفاوت الناس فيها.**

ودونك حال أهل الأرض وما هم عليه من اختلاف في أديانهم ومذاهبهم وطرائق تفكيرهم، والأمر كما قال ابن الوزير:

وما سبب الخلاف سوى اختلاف الـ ـعلوم هناكَ نقصًا أو تماما

ويجدر التنبيه على أنه ليس في القول بأن العقل محدود تسفيه له وحطٌّ من قدره، بل هذا من تكريمه وإقداره، وهو أن لا يكلف فوق طاقته، فليس من تكريم الرجل القوي تكليفه حمل بيت! وليس من تكريم حادّ البصر تكليفه أن يحدَّ النظر إلى الشمس! فكذلك العقل: تكريمه في إعماله في مجاله، لا في تكليفه فوق طاقته.

وهذه قاعدة ينبغي أن نعيها: تكريم العقل في إعماله في مجاله، لا في تكليفه فوق طاقته.

فالأمر كما قيل: إنَّ العقول مثل الأودية، لها طاقة استيعاب للماء بقدر معين، فلو صُبَّ فيها ماء البحر ـ مثلًا ـ لحصل فساد عظيم وغرق كبير.

إذن، العقل له سلطة في حدود مملكته، ومملكته لا تتجاوز بحالٍ ما يمكن إدراكه بالحسِّ وما وراءه فلا سبيل إلى أن يدركه أو يحكم فيه.

فشأنه كالهاتف (الجوال)؛ فمهما كان جديدًا؛ إذا وصلت إلى مكان لا شبكة هاتفية فيه: توقف عن العمل؛ فلا إرسال ولا استقبال، كذلك الشأن في العقل!

ويعجبني أثرٌ أخرجه ابن بطة رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الإبانة» (١/ ٤٢٢)، عن

ابن عباس رضي الله عنهما ـ والأثر معناه صحيح ونافع، وإن كان في إسناده نظر ـ وهو أن رجلًا أتى ابنَ عباس بابنٍ له، فقال: (لقد حيرت الخصومة عقله، وأذهبت المنازعة قلبه، وذهبت به الكلفة عن ربه)، أي أن الرجل وجد أن ابنه يخوض في أشياء فوق طاقة عقله؛ فأصاب عقله شيءٌ من الاختلال، فقال ابن عباس: (امدد بصرك يا ابن أخي، ما السواد الذي تراه؟)، قال: (فلان)، قال: (صدقت، فما الخيال المسرف من خلفه؟) قال: (لا أدري!)، قال عبد الله: (يا ابن أخي، **فكما جعل الله لأبصار العيون حدًّا محدودًا، من دونها حجابًا مستورًا، فكذلك جعل لأبصار القلوب غاية لا يجاوزها، وحدودًا لا يتعداها**) قال: فردَّ الله عليه غارب عقله، وانثنى عن المسألة عما لا يعنيه، والنظر فيما لا ينفعه، والتفكر فيما يحيره).

إنها حقيقة لا بد من التسليم بها: (القدرة العقلية محدودة)؛ فأي محاولة للخوض فيما هو خارج هذه القدرة: هي محاولة محكوم عليها بالفشل! وعلى «العاقل» أن يتحلَّى بالتواضع!

إنه إذا كان العقل عاجزًا عن استيعاب ما هو مشاهد له في الجملة؛ مثل عدد حبات الرمل، أو نجوم السماء، أو ورق الأشجار، أو أسماك البحار؛ فكيف يطمح إلى استيعاب ما غاب عن الحواس؟!

وههنا قاعدة مهمة لا بد أن تستقرّ في النفوس: (**الله عز وجل أعطانا العقول، لندرك بها القريب لا البعيد**)، أي ندرك المشاهد الذي تتيسر الإحاطة به، ونبدع بعد ذلك في استثماره ما أمكن، دون ما كان صعب المنال.

ومن ههنا نعلم رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته حين قال: «**تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل**»، [أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، وحسَّنه بعض أهل العلم].

الغلوُّ في تعظيم العقل أُسُّ الضلال

هذه قاعدة: (**الغلو في العقل أُسُّ الضلال**)، وعامة الانحرافات عن جادة الحق مرجعها إلى هذا الأمر.

وليس يخفى أن هناك مذاهب عقلانية متطرفة تقرر أن العقل هو المرجع الوحيد في تفسير كلِّ شيء في الوجود، وهو المعيار الوحيد لاختبار صدق القضايا والحكم عليها؛ فما أدركه فهو ثابت، وما لم يدركه فهو منفي، وفي طيّ ذلك: الاستغناء عن الوحي الإلٰهي، وإنكار كل ما لا يدركه العقل من الغيبيات.

والحقيقة الناصعة: أن هؤلاء المتعاقلين ينافون العقل منافاة صريحة؛ فالعقل الصريح ينادي فيهم ـ لو كانوا يعقلون ـ: إن لي قدرة محدودة، فلا تكلفوني ما لا أطيق!

ويكفي في بطلان مذهبهم القائم على أن العقل هو المعيار الأوحد المعصوم: الشواهدُ الواقعية الحسية؛ فهؤلاء المتعاقلون قد فشلوا فشلًا ذريعًا في إماطة اللثام عن أشياء كثيرة وعن تفسيرها تفسيرًا معقولًا، من مِثل: كيف كانت بداية الكون والحياة؟ الوعي، المشاعر، الذكاء، الروح، وغير هذا كثير؛ وعليه فهم مخطئون خطأً كبيرًا، ومن تابعهم سيكون مخطئًا خطأً كبيرًا ولا شك.

أقول للمتعاقل: لن أذهب بعيدًا؛ سأحدثك عن الدماغ.. الدماغ الذي هو في كلِّ إنسان، وبين أيدي علماء الأعصاب والتشريح، ووزنه أقل من كيلو ونصف: هل تعلم أنه يكاد يكون من أكثر الأشياء غموضًا في هذا الكون، ما استطاع أحد إلى الآن أن يفك شفرة الخلايا العصبية

وأنماط العمل فيها؛ من تفكير، ذكاء، مشاعر.. هذا وهو بين أيديهم، فكيف بما هو بعيد؟!

إذن؛ كأن خلقه هكذا يتضمن رسالة موجهة إلينا: أن تواضعوا، ولا تغتروا بعقولكم وبعلومكم، إن كنتم تعلمون شيئًا؛ فأنتم تجهلون أشياء، والذي وسع كلَّ شيء علمًا إنما هو ربكم ﷻ.

أنا أُشبِّه هذا المتعاقل بنملةٍ دبّت على ورقة بيضاء، فشاهدت رأس قلم يخط على هذه الورقة، هذا هو حدود إبصار هذه النملة، فأصبحت بعد ذلك معجبة غاية الإعجاب برأس القلم، وصارت تتغنى بشعره ونثره وإبداعه، والسبب في هذا: محدودية بصرها؛ إذ لم ترَ القلم نفسه، أو اليد التي تكتب، أو الشخص الذي هو مبدع في الحقيقة؛ كذلك حال هؤلاء الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، لكنهم غافلون عن الحقيقة الكبرى، وهي أن هناك خالقًا عزيزًا، وسع علمه ورحمته كلَّ شيء ﷻ.

الدرس المستفاد مما سبق

الدرس المستفاد: هو درس التسليم؛ أن نُسلّم لله العليم الحكيم العظيم سبحانه، ونسلّم لوحيه؛ فالله ﷻ هو خالق العقل، فحكمُ العقل منوط بخالقه، وهو سبحانه خلق العقل ليكون موصلًا إليه، لا قاطعًا عنه، دالًّا على قدرته لا مُضلًّا عن حكمته.

إذن؛ قاعدتنا معشر المسلمين أنه: (لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام)، وما أحسن ما قال الزهري رحمه الله: (من الله الرسالة، ومن الرسول ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم).

وهذا كله ممهد للموضوع الذي سيُناقش في الفصل القادم، وهو العلاقة بين العقل والنقل.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

كتاب: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٥)، طبعة دار عالم الفوائد.

وكتاب: «الداء والدواء» لابن القيم (١٤٧)، طبعة دار عالم الفوائد أيضًا.

الفصل الثالث

العلاقة بين النقل والعقل

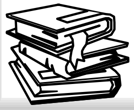

ابتداءً.. ينبغي أن يكون التفكير في الأصل والأساس؛ فما هو الإسلام؟ الإسلام هو: استسلامٌ لله، وإسلامٌ للوجه له، ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

الإسلام هو: الاستجابة لله ولرسوله ﷺ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

لسان حال المسلم الصادق مع ربِّه ﷻ يقول: يا رب أنا عبدك، جاهلٌ إلَّا إذا علمتني، ضالٌّ إلَّا إذا هديتني، لا هداية لي إلَّا بوحيك، ولا سعادة إلا باتباع نبيك ﷺ، أقيم وجهي حيثما أقمتني، وأسير حيثما وجهتني، مؤتمرٌ بأمرك، منتهٍ عن نهيك، مسلّمٌ لحكمك، راضٍ بقدرك. هذا هو المسلم حقًّا، ومن لم يكن كذلك فليُعد النظر في إيمانه.

الإيمان يقتضي اقتضاءً حتميًّا: التزام الكتاب والسنة، أي: اعتقاد وجوب الأخذ بهما، فلا يسع أحدًا الخروج عنهما، إنما الانقياد والقبول، والمقام هنا جدٌّ لا هزل، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

الإيمان يقتضي حاكمية الوحي؛ فهو الحاكم على كل شيء، المُقدَّم على كل شيء، وكل ما سواه ـ من رأي أو عقلٍ أو مذهب ـ فإنه مؤخر، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء: ٦٥]. هذا هو الإسلام.

هذه قضية لا بد أن نُذكِّر أنفسنا بها دومًا؛ لأن الناس قد ابتليت في هذه الأيام بدعواتٍ ضالَّة تطعن في القرآن والسُّنة، أو تشكك في حاكميتهما، أو تزاحمهما بعفن الأذهان من دعوة تقديم العقل على النقل،

أو محاكمة الأدلة إلى العقل، أو أن الانقياد للدليل مرهونٌ بمعرفة الحكمة منه، هذه وأشباهها دعواتٌ ضالة، روائح النفاق غالبةٌ عليها، والله جل وعلا قد قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النِّسَاء: ٦١].

إن العلاقة بين النقل والعقل علاقة تعاضد لا تناقض، وإذا قيل (النقل) فالمراد منه: أدلة القرآن وأحاديث السُّنة الصحيحة، فلا يمكن البتة أن يخالف نقلٌ صحيح عقلًا صريحًا.

يستحيل أن يتعارض الوحي والعقل أو أن يتناقضا، فلا تأتي آيةٌ ـ على سبيل المثال ـ يجزم العقل أنها مستحيلة، بل هذا الفرض هو المستحيل؛ **فلا معاندة بين شرعٍ منقول وحقٍّ معقول.**

هذا أصلٌ أصيلٌ عندنا معشر المسلمين، فإننا نعتقد:

- أن الله ﷻ هو الذي أوحى إلى عبده محمدٍ ﷺ هذا الوحي الذي هو القرآن والسنة.
- وهو سبحانه الذي خلق العقول.
- فالمصدر إذن واحد؛ فأنَّى يحصل التناقض؟

إنما يحصل التناقض في عقولٍ فاسدة أو عاجزة؛ عقولٍ فاسدة، ضالَّة، مستكبرة عن ربها، ولا غرابة أن تدعي هذا التناقض. أو عقولٍ عاجزة؛ فهي لقصورها تتوهم التناقض والتعارض والواقع خلاف ذلك.

🕮 أسباب توهم التعارض عند بعض الناس

من تتبع هذا الأمر وجد أن أسباب ظهور هذا التوهم ترجع إلى ثلاثة أسباب:

السبب الأول: عدم صحة المنقول.

وهذا ـ بطبيعة الحال ـ لا يردُّ على القرآن، إنما يختصُّ بما يُدّعى من تعارضٍ بين العقل وما يُروى عن النبي ﷺ، فيسمع إنسانٌ ـ ليس من أهل العلم ـ حديثًا فيه ما يخالف بديهة العقل، فيقول حينها: انظروا: قد تعارض ههنا العقل والنقل! لكننا عند التحقق نجد أن الحديث لا يصح عن النبي ﷺ؛ فهو إما موضوعٌ مكذوب أو ضعيف، فيتبين حينها أنه لا تعارض هنا؛ فالنقل غير ثابت، والتعارض إنما يكون بين ثابتين، مع ملاحظة أن المرجع في تصحيح الأحاديث وتضعيفها ليس إلى آحاد الناس إنما هو لأهل العلم المتخصصين في الحديث كما لا يخفى.

السبب الثاني: أن يُنسب إلى الشرع ما ليس منه.

فبعض الناس يظن في بعض الإسرائيليات أنها من كلام رسول الله ﷺ، والواقع خلاف ذلك، أو ينسب بعض الناس ـ ربما من غير المسلمين ـ تصرفاتٍ ضالة لبعض الفرق المبتدعة تُنسب إلى الإسلام زورًا، ثم يقول: انظروا؛ هذا هو الإسلام! والحق أن الإسلام من هذا بريء.

السبب الثالث: عدم صحة ما يُدعى أنه معقول.

وكم يقع الخطأ في هذا الموضوع؛ إذ قد يدعي شخصٌ أن العقل يقتضي كذا أو يمنع كذا، والصواب خلاف ذلك.

بمعنى: ما سُمّيَ عقلًا هنا لا يعدو أن يكون قضيةً نظريةً خاطئة سماها صاحبها عقلًا، وكان العقل مخطئًا إما في التصور، وإما في التصديق؛ لأن هناك مقدمات خاطئة لهذا التصور أو ذاك التصديق.

على سبيل المثال: نجد من يقول عن أدلة وزن الأعمال في

الآخرة: هذه قضية تخالف العقل، وإذا قيل: لماذا؟ قال: لأن الأعمال أعراضٌ، والأعراض لا توزن! وهذا غير صحيح؛ فالمخلوق استطاع أن يزن بعض الأعراض؛ ففي هذا العصر نستطيع ـ بفضل الله ـ أن نقيس الحرارة والبرودة وهما من الأعراض، وأن نقيس سرعة الضوء وهو عَرَض! إذن هل يعجز الخالق ﷻ عن وزن الأعراض؟

خذ هذا الموقف الطريف المفيد: أخبرني أحد أهل العلم الفضلاء أنه كان في مجلس فقال شخصٌ: أيكون لجهنم ـ عياذًا بالله منها ـ نَفَسان في الشتاء وفي الصيف كما جاء في الحديث الثابت في الصحيحين (خ: ٥٣٦، م: ٦١٧)؟! هذا أمرٌ مستحيل؛ إذ كيف يخرج من شيءٍ واحد بردٌ وحر؟ يقول محدثي: وقبل أن أجيب قال أحد الحضور ـ وهو من عامة الناس، لا من العلماء ـ: وما المـُشكل في هذا؟! هذا المكيف ـ وأشار إليه ـ يخرج من أمامه هواء بارد، ومن الخلف هواء حار(١)!

إذن: الخطأ في الحكم بأن هذا واجبٌ عقلًا أو ممتنعٌ عقلًا أمرٌ يقع كثيرًا، والسبب: خطأٌ يقع في تصور العقل.

السبب الرابع: عدم التفريق بين المحال عقلًا والبعيد وقوعًا.

المحال عقلًا: مثل أن يكون الشيء موجودًا معدومًا في الوقت نفسه، أو أن يكون الجزء أكبر من الكل، ونحو هذا، فهذا لا يمكن أن يأتي في الشريعة البتة.

أما البعيد وقوعًا ـ ولكنه ممكنٌ عقلًا ـ: فهو ليس بمستحيل، لكننا

---

(١) إن من فضل الله علينا في هذا العصر أن المخترعات والمكتشفات العلمية الحديثة سهّلت علينا فهم بعض ما كان قد يُستشكل قديمًا.

لا نعلم وقوعه في الدنيا؛ كوجود نهرٍ من عسل أو لبن يجري في الجنة أو فيما شاء الله: هو شيءٌ ممكنٌ في نفسه ليس مستحيلًا، والذي خلق بحرًا من ماءٍ مالحٍ قادرٌ على أن يخلق نهرًا من عسلٍ أو لبن مصفًّى.

إذن لا بد من التفريق بين المحال عقلًا والبعيد وقوعًا.

إن كثيرًا من الاستشكالات التي تُطرح سببها عدم التفريق بين هذين الأمرين؛ حيث يُدّعى في بعض ما جاء في الوحي أنه مستحيل عقلًا، وقد يُبنى على هذا تشكيكٌ أو تكذيبٌ، وبتأمل يسير يتضح أنه ليس مستحيلًا، إنما هو ممكن عقلًا، لكنه بعيد الوقوع، أو ليس بمعتاد، أو لم نرَ مثله، أو لم نعلم وقوعه؛ وبين الأمرين فرق!

وعليه، فتكذيب الخبر الصادق لأنه أثبت شيئًا غير معتاد الوقوع: خطأ منهجي كبير، ومجانبة لقواعد العقل والعدل، فضلًا عن كونه إثمًا عظيمًا!

السبب الخامس: عدم التفريق بين محالات العقول ومحارات العقول.

مُحالات العقول: ما يجزم العقل الصريح أنه مُحالٌ ممتنع.

ومَحارات العقول: ما يعجز العقل عن استيعابه، أو يتحير في إدراكه، أو يصاب بدهشة أمام عظمته، لكنه لا يحكم بامتناعه.

فكون الله تعالى - مثلًا - يسمع كل صوت مهما دقّ، ولا يشغله صوت عن صوت: هذا شيء عظيم جدًا، يقف العقل مندهشًا أمامه، مُقرًّا بعجزه، وعظمة مولاه وكماله، جل في علاه.

والخطأ الذي يقع هنا: أن من الناس من يظن في شيءٍ يتحير فيه العقل ويقف عاجزًا أمام استيعابه تمامًا: أنه ممتنعٌ في العقل؛ وهذا خطأ؛

فالعقل غير مؤهلٍ للحكم على كل ما جاء في الشرع، أو أن يُدركه من جميع الوجوه، بل إنه لعجزه ـ وقد سبق الكلام عن عجز العقل ـ قد يقف عاجزًا أمام بعض ما جاء في الوحي، وإن كان مع هذا لا يحكم بالامتناع.

وهذا العجز لا يُبيح له أن يتطاول على الشرع، وإنما أن يسلم بعجزه ونقصه، وأن يوقن بكمال الخالق ﷻ وتشريعه.

إذن: لا بد من التأكيد على ضرورة التفريق بين:

- ما يعلم العقل بطلانه وامتناعه، وهذا لا يأتي في الشريعة أبدًا.
- وبين ما يعجز العقل عن تصوره، أو يقصر عن معرفة تفاصيله، وهذا يقع في مسائل الغيب والقدر والصفات الإلهية، بل حتى في بعض مسائل الفقه، ولذا قال العلماء: الرسل عليهم الصلاة والسلام يُخبرون بمحارات العقول لكنهم لا يخبرون بمحالات العقول.

السبب السادس: عدم فهم النقل فهمًا صحيحًا.

فيزعم زاعمٌ أن ثمة تعارضًا بين العقل وبين آيةٍ أو حديث، والسبب: أنه لم يفهم النص، ولم يحمله على محمله الصحيح.

خذ مثلًا: ثبت في الصحيحين (خ: ١١٤٤، م: ٧٧٤) قوله ﷺ في حقِّ من نام حتى أصبح وما قام إلى الصلاة: «**بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ**»، فجاء بعض المتعاقلين فقال: هذا الحديث يخالف العقل صريحًا، إذ لا نجد أثرًا لهذا البول، وما يخالف الحسَّ يخالف العقل، إذن هذا الحديث مردود؛ لمخالفته العقل!

والخطأ قد تطرق إلى هذا المتعاقل من جهة أنه فهم أن بول الشيطان حسيٌّ من جنس بول الآدمي، وهذا خطأٌ وقياسٌ فاسد؛ فالشيطان

بالنسبة لنا غيبٌ، وهذا ما لا يخالف فيه حتى من طرح هذا الإشكال؛ إذن فبوله غيبٌ أيضًا، ومن صدق بالأول فعليه أن يصدق بالثاني، أي: إذا صدقت بوجود الشيطان مع أنك لا ترى له وجودًا حسيًا؛ فعليك أن تصدِّق بوجود بوله مع أنك لا ترى له وجودًا حسيًّا، وإنما أخبرك بهذا وهذا: الصادق المصدوق الذي آمنتَ بنبوته ﷺ.

دعوى مردودة

هناك من زعم أنه يقدم حلًّا لهذه القضية، فقال: إذا وقع تعارض بين العقل والنقل: فالواجب حينئذٍ تقديم العقل!

وهذه الدعوى الضالة قديمةٌ متجددة، وهي مكونة من مقدمتين ونتيجة:

- المقدمة الأولى: دعوى مركزية العقل وأوليته وتقدمه، وتبعية النقل.
- المقدمة الثانية: أن ثمة تعارضًا بين العقل والنقل(١).
- النتيجة: ضرورة تقديم العقل على النقل.

وقد أخطأوا في المقدمتين؛ فكانت النتيجة ـ حتمًا ـ خاطئة!

الرد على المقدمة الأولى:

هذه الدعوى لا شك أنها كاذبة، والحق أن العقل تابعٌ، والنقل هو المتبوع.

إن المركزية والأولية والتقدم هي ـ بلا ريب ـ للنقل؛ للوحي المنزل من خالق العقل سبحانه.

---

(١) فهؤلاء افتعلوا الخصومة بينهما، وهي خصومةٌ وهميةٌ لا حقيقة لها كما تقدم.

وما العقل إلا آلةٌ لفهم النقل، وليس حاكمًا على النقل.

والدليل على هذا: كل أدلة الربوبية، وأدلة النبوة.

الرد على المقدمة الثانية:

فهذه دعوى باطلة أيضًا، ويبين بطلانها عدة وجوه:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ معصومٌ، فلا يقول على الله إلا الحق، ولا يخبر عنه إلا بالصدق؛ فمن ادعى في خبره أنه يناقض صريح المعقول كان كاذبًا، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول غير صريح أو أن يكون المنقول غير صحيح، أو أنه لم يُفهم الفهم الصحيح.

الوجه الثاني: أن الاستقراء التام لأدلة الشرع قد دل على توافق العقل والنقل توافقًا تامًّا.

الوجه الثالث: أن هذه الدعوى انعدم فيها المثال الصادق والصورة الصحيحة لهذا التعارض، فكل ما ادُّعي فيه التعارض اتضح فيه مكمن الخلل ـ كما سبق في الأمثلة السابقة ـ، وتبين أنه لا تعارض.

الوجه الرابع: أن أكمل الناس عقولًا بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم الصحابة رضي الله عنهم، ثم التابعون لهم وتابعوهم، ولم يقع في نفوسهم قط معارضةٌ بين معقولٍ ومنقول، وهذه آثارهم بين أيدينا شاهدة.

وأما النتيجة وهي: زعم تقديم العقل على النقل:

فهي نتيجةٌ باطلة، بُنيت على مقدمتين فاسدتين، وإذا فسدت المقدمة فسدت النتيجة كما هو معلوم، لكن أضيف إلى هذا أمورًا:

الأمر الأول: الإسلام ـ كما تقدم ـ حقيقته: الاستسلام للوحي،

وإلا فلا معنى له، إذن تقديم العقل على النقل يناقض حقيقة الاستسلام؛ فكان مناقضًا لحقيقة الإسلام.

الأمر الثاني: كيف يُقدَّم غير المعصوم على المعصوم؟! فالوحي قد دلَّ الدليل القطعي على أنه معصوم، أما نتائج العقول فغير معصومة، وما أكثر الخطأ فيها، فكم يحكم الإنسان بعقله حكمًا، ثم يتبين له خطأ حكمه فيما بعد!

الأمر الثالث: عقل مَن هذا الذي سنجعله حاكمًا ومقدَّمًا؟ فكلُّ إنسان له عقلٌ مستقلٌّ عن غيره، فهذا يستحسن ما يستقبحه ذاك، وهذا يعكس القضية وهكذا، إذن: **العقول لا يضبطها ضابط ولا تكاد تتفق.**

🕮 المنهج الصحيح عند وقوع شيء من التعارض في نفس الإنسان بين العقل والنقل

أولًا: أن يتيقن المسلم أنه لا تعارض بين العقل والنقل في حقيقة الحال.

اجعل هذه القضية عقيدةً راسخة في نفسك، والإشكال يبقى إشكالًا، وسيزول بعد حين بتوفيق الله.

ثانيًا: أن يقصد المسلم الوصول للحق، ويُحقّق إيمانه بالله ورسوله ﷺ، وليبشر بعد هذا بالهداية لوجه الصواب، فالله جل وعلا قد قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النّحل: ١٠٤]، ومفهوم المخالفة هنا: إن الذين يؤمنون بآيات الله يهديهم الله، فالقاعدة إذن: **آمن: تهتدِ.**

ثالثًا: أن يقصد من وقع في إشكال إلى عالمٍ أو جهةٍ علمية موثوقة؛

ليعرض إشكاله عليها، وسيجد إن شاء الله شفاء عِيّه، فإنما شفاء العي السؤال، وحذارِ من أن يُرخي سمعه إلى أعداء الله الذين يلبسون عليه دينه.

رابعًا: وطّن نفسك على تقديم الوحي على العقل بل وعلى كل شيءٍ على الإطلاق، فهذا هو صريح الإيمان.

اجعل قاعدتك في حياتك: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣].

ختامًا: قد يظن بعض الناس أن سؤال المسلم عما يستشكله من أدلة الوحي ممنوع مطلقًا، وهذا الظن غير صحيح، بل السؤال لا بأس به، وهذا قد وقع شيءٌ قليلٌ منه للصحابة ﷺ، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ، ففي الصحيحين [خ: ٤٧٦٠، م: ٢٨٠٦] من حديث أنس رضي الله عنه، أن رجلًا قال: (يا رسول الله كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟) فهو قد استشكل أن يمشي إنسانٌ على وجهه؛ لأن الله عز وجل يقول عن الكفار: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ [الإسراء: ٩٧]، فبأي شيءٍ أجابه النبي ﷺ؟ أجابه بقوله: «**أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟**».

إذن، لاحظ أن النبي ﷺ أحاله إلى قدرة الله جل وعلا، وهذا الأمر من لاحظه زال عنه إشكالٌ كبير ألا وهو: استحضار عظمة الله عز وجل وقدرته، فمن هو على كل شيءٍ قدير لا يُعجزه شيء.

واعلم أنه يُشترط للسؤال عن مشكلات العقول شروط:

الشرط الأول: أن يكون قصد السائل الوصول إلى الحق.

الشرط الثاني: أن يوجه السؤال لأهل العلم، فلا يوجه السؤال

لزملائه في مجموعة «واتساب» مثلًا، أو يغرد به في «تويتر» ليجيب كل من هبَّ ودبَّ! فيزيد الإشكال عنده، وتعم البلبلة في الآخرين.

الشرط الثالث: أن يلتزم السائل في سؤاله جانب الأدب مع الله ﷻ ومع رسوله ﷺ، وأن يُجل القرآن والحديث.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

«الصواعق المرسلة» لابن القيم رحمه الله، (٣/ ٨٢٩)، (٣/ ٨٥٣) وما بعدها.

الفصل الرابع

الإيمان بالغيب

الكلام عن هذا الموضوع من الأهمية بمكان؛ لأنه ـ كما تقدم في أول حلقة ـ: ثمة تحديات تواجه المسلمين ـ ولا سيما الشباب ـ ومن جملتها: التشكيك في الإيمان بالغيب.

الغيب: كلُّ ما غاب عنك.

وقد يكون غيبًا مطلقًا، وقد يكون غيبًا نسبيًّا، وحديثنا هنا عن الغيب المطلق، أي: الذي لا يدركه الناس كافة، وعليه فقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البَقَرَة: ٣]، معناه: الذين يؤمنون بما أُمروا بالإيمان به مما هو غائبٌ عن العيون وإن كان محصَّلًا في القلوب.

والفارق بين عالمَي الغيب والشهادة: هو الحسُّ، وعليه؛ فما لا يُدرك بالحواس فهو عالم الغيب، وعالم الشهادة بعكسه، وبهذا نعلم أن الغيب ليس معناه المعدوم الذي يقابل الموجود أو الواقع، فإن من الغيبيات ما هو موجود؛ فالله ﷻ غيب لا نراه في الدنيا وهو موجودٌ عالٍ على خلقه بائنٌ منهم سبحانه، وكذلك الملائكة والجن والجنة والنار، كلها موجودة.

والإيمان بالغيب أساس الإيمان وأصل الاعتقاد؛ فعقيدةٌ لا غيب فيها ليست بعقيدةٍ! ولا إيمان إلا بالإيمان بالغيب؛ فالإيمان معناه: التصديق والإقرار والطمأنينة بأمرٍ غيبيّ.

ومن حكمة الله ﷻ أن جعل عالم الغيب مستورًا عن البشر؛ لتحقيق حكمة الابتلاء، والله ﷻ خلق العباد ليبتليهم: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [المُلك: ٢].

والخلاصة: الإيمان بالغيب يقتضي **أن نرجع في معرفة ما لا نعرفه إلى مَن عرّفَنا به، ثم نصدِّقه في قوله.**

فنحن لا نعلم كثيرًا من الصفات الإلهية، ولا نعلم شؤون الملائكة وأحوال الآخرة، لكننا نلنا علمًا عن ذلك ممن اطمأننا إلى صدقه، وسلَّمنا بأنه لا يقول إلَّا الحق؛ وهو من قال الله ﷻ فيه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التّكوير: ٢٤]، إنه محمد بن عبد الله ﷺ.

تسهيل الله لعباده الإيمان بالغيب

من رحمة الله بعباده أن سهّل لهم معرفة شيءٍ عن الغيبيات والإيمان بها، وأعانهم على ذلك، ومما يدلُّ على هذا:

- أنه ﷻ ضرب الأمثال التي تُقرِّب فهم المقصود، وهذا مِثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القَمَر: ٥٠].
- أنه ﷻ فطر عباده على إدراك القدر المشترك بين الحقائق المختلفة؛ فالعقل يربط بين ما رآه وما لم يره بأدنى شبهٍ يكون بينهما. فعلى سبيل المثال: لما جعل الله في الجنة فاكهةً وأنهارًا، فمن خلال ما نعقل في الدنيا: نجد شيئًا مشتركًا معه في الآخرة؛ فنفهم معنى ما في الآخرة فهمًا مجملًا، مع القطع بأن الكيفيات مختلفة، أي: أن ثمة قدرًا مشتركًا وقدرًا فارقًا.
- ومما يسهِّل على العباد الإيمان بالغيب: المكتشفات العلمية الحديثة التي يسَّرها الله سبحانه للعباد في هذه العصور المتأخرة ولم تكن معلومة من قبل، فكان في هذا تسهيل علينا في إيماننا بالمغيبات؛ فقبل عدة قرون لو تحدث أحدٌ عن الفيروسات بشيءٍ مما نعلمه

عنها اليوم لعُدَّ مجنونًا، لو قال قائلٌ في ذاك الوقت: إن قطرةً من الماء تحوي آلافًا من الكائنات الحية لعدُّوه مجنونًا، لكن الأمر اليوم اختلف، مع أن أهل الإيمان في يقينٍ من الغيب من قبل هذا، لكن في هذا تقريبًا للعقل ينتفع به من ينتفع؛ فهذه المكتشفات تعين المتشكك أو ضعيف الإيمان ويزداد غيره يقينًا، لماذا؟ لأن كلَّ اكتشافٍ جديد لعجائب هذا الكون يزيد اليقين بوجود عالم الغيب؛ لأن الناس ترى سعة دائرة الممكنات وضيق نطاق المحالات، فيُدركون كثرة ما يجهلون! وعليه: فهم سيتحققون أن كون الشيء بعيدًا عن الأمور المعتادة لهم لا يقتضي أن يكون محالًا يُكذَّب به، ولذا نجد الله ﷻ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلَت: ٥٣].

وليس المقصود أن يصدق الإنسان بوجود كلِّ ممكن، إنما المقصود ملاحظة موضوع الممكنات، وأنه لا يستحيل وجودها، ولكن لا بد في إثباتها من دليلٍ صادق.

وقد يظن ظانٌّ أن إيمان المرء بشيء لم يره أو يحسَّ به: فيه نوع من مخالفة العقل، وهذا تصور خاطئ؛ فالإيمان بالغيب ليس تعطيلًا للعقل؛ بل فيه الحفاظ على العقل البشري وتوجيهٌ له، فيُصان عن الانشغال بما لم يُخلق له وليس في قدرته الإحاطة به، ويتفرغ لما هو في إمكانه من التفكير في المحسوسات، واستثمارها الاستثمار الصحيح.

ومما يؤكد هذا: أن تنظر في حال الفلاسفة الذين خاضوا بعقولهم بلا وحيٍ إلهي في قضايا الغيب (أو ما يُسمى: ما وراء الطبيعة، أو الميتافيزيقيا)، كيف أتوا بعثراتٍ مضحكات، بعكس حالهم لما بحثوا في

القضايا الهندسية والرياضية ونحوها، أتوا فيها بما فيه فائدة، ولم يختلفوا كما اختلفوا في قضايا ما وراء الطبيعة.

وأما ادِّعاء أن الإيمان بالغيب فيه مخالفة للعقل: فليس في وجود الغيبيات ما يضادُّ أحكام العقل، وأعيد ما ذُكر سابقًا: ليس في أدلة الوحي مسألةٌ غيبية يحكم العقل باستحالتها، إنما في عالم الغيب ما لا يستقلُّ العقل بإدراكه والإحاطة به، أو ما يختلف عما اعتاد العقل عن التفكير به؛ لأنه خارجٌ عن حدوده وإمكاناته.

اتجاهات الانحراف في الغيبيات

الاتجاه الأول: هو إنكارها أو التشكيك فيها، وهو الذي نتحدث عنه هنا.

فمن إفرازات الحضارة الغربية وإشكالاتها العقدية التي انعكست على بعض أبناء المسلمين اليوم: الجزم بأن إثبات الحقائق لا يكون إلَّا عن طريق التجربة الحسية، وعليه فكلُّ ما كان خارج الحسِّ فهو محلُّ شكٍّ أو إنكار، ومن هذا أمور الغيب، والنتيجة: كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه.

الاتجاه الثاني: التطلُّع إلى الوصول إلى الغيب من غير طريق الوحي، كحال المتعلِّقين بالكهَّان والعرافين والأبراج.

وهذا له بحثٌ لاحق في فصل قادم.

التأصيل العقلي لقضية الإيمان بالغيب

إن التأصيل العقلي لمسألة الإيمان بالغيب يكون بملاحظة سبعة أمور، لا بد من ربط بعضها ببعض؛ لتتكامل الصورة:

الأمر الأول: ثمة أشياء مجهولةٌ لنا داخل هذا العالم وخارجه، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل، وكل اكتشافٍ علمي في هذا الكون يكشف عن هذه الحقيقة.

إذن: هناك أشياء كثيرة مجهولة لنا.

خذ مثلًا: الكون المرئيُّ المكون من المادة لا يشكل إلا نحو ٥٪ فقط من كتلة العالم، بينما الباقي من هذا الكون ـ وهو نحو ٩٥٪ ـ مجهول! وهو ما بين طاقةٍ مظلمة، ومادةٍ مظلمة. فهذه موجودة، لكنها مجهولة!

تخيل معي: ٩٥٪ من تركيبة الكون: البشر جميعًا ـ بتقنياتهم ـ عاجزون عن فهمها أو رصدها! مع علمهم بوجودها.

وعليه، فنحن **نعرف أننا لا نعرف، ونعترف أننا نجهل!**

والخلاصة: لا وجه لإنكار ما نجهل لمجرد أننا عاجزون عن فهمه وتفسيره.

وكون الشيء بعيدًا عن الأمور المعهودة لا يقتضي أن يكون محالًا، لا سيما مع قيام الدليل على صدق المخبِر به.

الأمر الثاني: العقل أضعف من أن يحيط علمًا بكلِّ شيء، وهذا ما مضى الحديث عنه في الحلقات السابقة.

الأمر الثالث: الحواسُّ ليست المعيار الوحيد لإثبات الأشياء.

وعليه: فإذا كان ما أدركه الحسُّ موجودًا؛ فلا دليل على أن ما لم يُدركه الحسُّ غير موجود، وهذه قضية عقلية مسلّمة؛ وهي: **عدم العلم ليس علمًا للعدم.**

ثم إن من قال: إن غير المحسوس ـ أي غير المُدرَك بالحواس الخمس ـ غير موجود: قد خالف العقل والحسَّ أيضًا، وسيُسْقط بكلامه أُسُس العلم التجريبي من أصلها، إذ لم يرَ أحدٌ الجاذبية، ولم يرَ أحدٌ الذرة المكوِّنة للمادة، ولم يرَ الإنسان أشياء كثيرة في هذا الكون.

إذن، مصادر المعرفة أكبر من أن تكون الحس أو العقل فقط، وللعقول والحواس حدودٌ تقف عندها، وإذا كان الإنسان عاجزًا عن إدراك كيفية روحه ـ مع علمه بوجودها ـ، وعن إدراك كُنه عقله وذكائه ـ مع أنه يُدرك بهما ـ فأقول: إذا عجزت بعقلك وحواسك عن إدراك ما بين جنبيك فأنت عن إدراك ما هو أبعد أعجز.

الأمر الرابع: الخبر الصادق مصدرٌ من مصادر المعرفة.

كل العقلاء يدركون أن هناك أشياء تُدرك بالحسِّ، وهناك أشياء تدرك بالعقل، وهناك أشياء تدرك بالخبر الصادق أيضًا، ولا ينفكُّ أحدٌ قط عن قبول الأخبار، حتى الملاحدة أنفسهم الذين يزعمون رفض الوحي لأنه مجرد خبر؛ لأنهم يقبلون نتائج أبحاثٍ علمية وفلسفية لم يجربوها بأنفسهم إنما قبلوا فيها أخبار غيرهم.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دلت الأدلة القطعية اليقينية على أنهم صادقون مبرؤون من الكذب، وخبر الصادق واجب القبول، فإذا أخبرونا عن الغيبيات وجب قبول أخبارهم، ومن أنكرها فبغير حجة.

الأمر الخامس: ليس في أخبار الغيب ما يُضاد أحكام العقل، وهذا قد بُيِّن سابقًا، فتبين أن كل الغيوب المخلوقة التي وجدت أو التي هي ممكنةٌ في نفسها: ليست مستحيلةً عقلًا، وعليه فإنكارها إنكارٌ بلا دليل.

الأمر السادس: الوحي معصوم، والعقل غير معصوم، والمعصوم مقدمٌ على غير المعصوم، وهذا فيما للعقل فيه إدراكٌ، فكيف بما ليس للعقل فيه إدراك كأمور الغيب؟

إذن: من الواجب أن يُسلَّم للوحي فيها، ومَن أقصى الوحي فإنه سيضلُّ ويحتار، إذ **منصب التحكيم لا يحتمل الفراغ والشغور! فإما وحيٌ معصوم، أو عقلٌ غير معصوم**؛ فأيهما أولى بالاحتكام إليه والتسليم له عند المنصف؟ الجواب واضح.

مع ملاحظة أن الذين جعلوا الوحي الإلهي خلفهم ظهريًّا لم ينفكوا في الحقيقة عن وحي، غير أنه وحيٌ بشري يحكمه الهوى ولا عصمة له، وقد قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، أما أهل الإيمان فمعتصمون بوحيٍ معصومٍ عن الخطأ.

الأمر السابع والأخير: الإيمان بالغيب فطرةٌ إنسانية، والله جل وعلا كرَّم بها الإنسان، ولا يُدافِع هذا إلا من في صدره كبرٌ واتبع هواه.

إن الإيمان بالغيب مغروسٌ في فطر الناس كافة، ولذا تجدهم - في كافة العصور - مؤمنين بعقائد تتضمن غيبياتٍ كثيرة.

ولاحظ أنه قد ظهر اليوم ما يؤكد هذا في الغرب؛ وذلك من خلال اللهث خلف الأفكار الباطنية أو الغنوصيات الحديثة وعلوم الطاقة وما شاكلها؛ ما سبب هذا؟ الجواب: هو أن الناس بحاجةٍ إلى ملء الفراغ الذي أحدثه الواقع المادي المعاصر، والنزعات العقلانية المتطرفة، فهم يريدون سدَّ حاجة الناس وإشباعها وتهدئتها باعتقاداتٍ غيبية، وإن كانت مع الأسف خاطئة.

دعكَ من كل هذا؛ انظر إلى حال الملاحدة الذين هم أعظم المنكرين للغيبيات، والواقع أنهم يعيشون في غابةٍ كثيفة من الغيوب! إنهم غارقون في الإيمان بالغيب!

فعلى سبيل المثال: الملاحدة يتبنون نظرية داروين ـ نظرية التطور والانتخاب الطبيعي ـ فدعنا نسألهم: الخلية البسيطة الأولى التي هي نواة الخلق كافةً عندهم: هل رآها أحدٌ منكم يا معشر الملاحدة أم أنها غيب؟!

عملية الانتخاب الطبيعي ـ التي تدَّعونها ـ، والانقسام للخلايا وتطورها، وانتقال الأحياء من طورٍ إلى طور، والطفرات المزعومة: هل أحسستم به؟ هل شاهدتموه بأعينكم أم أنه غيب؟!

إنهم في الحقيقة مؤمنون بغيب «مخترع»، ويعتمدون على أخبار «لا أساس لها»؛ فالمبدأ عندهم مُسلَّم؛ فما الذي ينكرونه إذن على أهل الإيمان؟!

والخلاصة: أن من سلم بهذه الأمور السبعة فسيسهل عليه الإيمان بالغيب والإقناع به أيضًا بتوفيق الله.

أما بالنسبة للتناقض الذي وقع فيه هؤلاء المنكرون للغيب: فهو حقيقة لا تُجحَد؛ فهم يكذبون بالشيء ويصدِّقون نظيره؛ فالملاحدة ـ مثلًا ـ يكذِّبون أن الله خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من طين ثم تناسل البشر بعده؛ لأنه عندهم غيبٌ غير محسوس، ولكنهم يصدقون أن أصل الإنسان خليةٌ وجدت قبل ملايين السنين ثم تطورت من خلال الانتخاب الطبيعي، مع أن هذا غيبٌ أيضًا! فلماذا هو مقبولٌ عندهم (مع أنه لا دليل عليه)،

والغيب الذي يؤمن به المؤمنون غير مقبول (مع أن مصدره وحيٌ إلهي صادق)؟!

ولاحظ تناقضهم في قضية أخرى وهي: أنهم يجحدون الأخبار ويقبلونها في آنٍ واحد! فإذا نوقش أحدهم فاستدلَّ بنظريةٍ ما، فنقول له: هل طبقتها أنت؟ وهل أدركتها بنفسك؟ فسيقول: لا، إنما قام بها فلان ونصَّ عليها علان! وهذه مناقضة لمنهجهم المزعوم المنكِر لقبول الأخبار؛ فهو قد وصل إلى ما يعتقد عن طريق تصديق الخبر، وليس عن طريق الحس! إذن: لِمَ تعيب أيها الملحد على أهل الإيمان قبول أخبار الغيب؟!

وإذا كانت أخبارك تتحدث عن محسوسات؛ فأخبار الرسل الغيبية عن اليوم الآخر والملائكة والجن ونحوها تتحدث ـ أيضًا ـ عن محسوسات، لكنها تُحسُّ بعد الموت؛ فإذا كانت هذه أخبارًا وتلك أخبارًا: فأخبار الرسل أولى بالقبول؛ لقيام البراهين القطعية على صدقهم.

إجمال بعد تفصيل

يمكن التأصيل للإيمان بالغيب عقلًا من خلال إدراك سبعة أمور:

١ ـ ثمة أشياء مجهولةٌ لنا داخل العالم وخارجه.

٢ ـ العقل أضعف من أن يحيط علمًا بكل شيء.

٣ ـ الحواسُّ ليست المعيار الوحيد لإثبات الأشياء.

٤ ـ الخبر الصادق مصدرٌ من مصادر المعرفة.

٥ ـ ليس في أخبار الغيب ما يضادُّ أحكام العقل.

٦ ـ الوحي معصوم والعقل غير معصوم.

٧ ـ الإيمان بالغيب فطرةٌ إنسانية.

لزيادة الفائدة

۞ أحثُّ على قراءة موضعين:

الموضع الأول: «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» للشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (٢٣١ ـ ٢٣٣).

والموضع الثاني: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (٤٠) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البَقَرَة: ٣].

الفصل الخامس

براهين نبوة نبينا محمد ﷺ

(١)

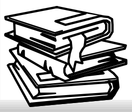

بين يدي هذا الموضوع مقدمات أربع:

الأولى: بعثة الرسل عليهم السلام أثرٌ من آثار اتصاف الله سبحانه بالرحمة والحكمة؛ لأن النفوس البشرية متعلقة بالعلم بالله، متشوفة إليه غاية التشوف، وهي في أمسِّ الحاجة إليه سبحانه كي يرشدها إلى الصراط المستقيم.

والعقول مهما بلغت فإنها لا تستقلُّ بهذا، فكان من حكمة ربنا سبحانه وإحسانه إلى خلقه أن أرسل الرسل لتحقيق السِّفارة بينه وبين عباده، ولذا كانت النبوةُ روحَ العالم ونوره ونظامه، لا يزيغ عنها إلا حائرٌ خاسر؛ ولا نجاة للبشرية في الآخرة والأولى إلَّا باتباع الرسل، فبعثتهم أعظم نعم الله على الناس، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة البهائم بل أسوأَ حالًا، فالدنيا مظلمة ملعونة إلَّا ما طلعت عليه شمس الرسالة.

الثانية: التمييز بين النبيِّ الصادق والمتنبئ الكاذب من أسهل الأشياء؛ لأن من يخبر عن نفسه أنه نبيٌّ حاله منحصرة بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يكون أصدق الناس وأكملهم، وإما أن يكون أكذبهم وأخبثهم، والتمييز بين هذا وهذا من أيسر الأشياء، بل هو أسهل من التمييز بين العاقل والمجنون، والعالم والجاهل.

الثالثة: من حكمة الله ورحمته أنه لم يرسل رسولًا إلَّا وهو متَّصف بأعلى صفات الكمال في النوع الإنساني، مؤيدٌ بأعظم الآيات والبراهين؛ لأن الأنبياء يبلغون رسالات الله؛ فلا بد أن يقيم الله سبحانه البراهين الواضحات على صدقهم، قال سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فهي إذن أدلةٌ عقلية يقينية، ظاهرةٌ بيّنة، لا لبس فيها ولا غموض.

وإذا كان هذا في حقِّ كلِّ نبي، فإن حظَّ نبينا محمدٍ ﷺ من هذه الأدلة والبراهين أكبرُ وأعظم، قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النِّساء: ١٧٤].

إذن: براهين نبوة النبي ﷺ ودلائل رسالته كثيرة جدًّا، لا تنحصر في عدد؛ فكل آية من القرآن هي برهان على صحة رسالته..

كل حديث..

كل موقف من سيرته عليه الصلاة والسلام: هو عند التأمل من أعلام نبوته.

وكل برهان من هذه البراهين حجةٌ في نفسه، وجمعها مع بعض، وربط هذا بذاك يزيدها قوة ودلالة.

الرابعة: موضوع هذا المبحث وما بعده: براهين نبوته وآيات رسالته ﷺ، ولربما قال قائل: ما الفائدة من تقديم هذا الموضوع إلى قوم يؤمنون بنبوته عليه الصلاة والسلام؟ أليس الأجدر أن يُخصَّ طرحه على أناس يكفرون به، أو دخلهم شكٌّ في نبوته عليه الصلاة والسلام؟

والجواب: أن هذا حكمٌ خاطئ، نعم؛ الكفار لا بد أن يُبين لهم هذا الموضوع؛ لكن حتى نحن ـ معشر أمَّته المصدقين له ﷺ والمُفدّين له بالأنفُس ـ أقول: نحن أيضًا بحاجة ماسة إلى أن نتذاكر هذا الموضوع، لأن استحضار هذه البراهين يزيد المؤمن إيمانًا ويقينًا، ومحبة وتعظيمًا، ويبلغ به ـ بتوفيق الله ـ مرتبة الرضا به ﷺ نبيًّا رسولًا، وقد قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً**» [أخرجه مسلم (٣٤)].

البرهان الأول: سيرته ﷺ قبل النبوة.

لقد بلغ ﷺ الذروة في خِلقته وبهاء طلعته وفصاحة لسانه، وفي شرف نسبه وعزة قومه.

عرفه قومه بقوة عقله، وصحة فهمه، ورجاحة بصيرته، وشهدوا بواسع كرمه وعلوِّ أدبه، وطهارة ذاته، وعظيم شجاعته، وكثير حيائه، وبالغ مروءته؛ وما هذه أخلاقُ كاذبٍ مفترٍ على الله.

لَــوْ لَــمْ يَــقُــلْ إِنِّــي رَسُــولٌ أَمَــا
شَــاهِــدُهُ فِــي وَجْــهِــهِ يَــنْــطِــقُ!

تأمل يا أيها الموفَّق: إنسان يلتزم بالصدق والأمانة أربعين سنة، لا يكذب فيها على أحد من الناس لا في بيع ولا في شراء ولا في غيرهما، ولا يخونُ عهدًا ولا يُخلفُ وعدًا، وهو سليم في عقله، شريف في نسبه، عليٌّ في قومه، شجاع في مواقفه، صاحب بذل وعطاء، وزهدٍ وورع ومواساة؛ كيف يُتصور مع كلِّ هذه الكمالات أن يتخلى عما هو فيه بعد أن بلغ الأربعين؛ فيرتكبَ كذِبة من أعظم الكذبات على وجه الأرض، ولا يفعلها إلا أحقر البشر؛ فيدّعي ـ كذبًا ـ أنه رسول من عند الله يوحى إليه؛ إن هذا أبعد ما يكون وقوعًا!

ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى ونبَّه كفار قريش إليه، فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون]. إنهم ـ صغيرهم وكبيرهم ـ يعرفونه معرفة تامةً بكل خلق جميل؛ حتى إنهم كانوا يسمونه قبل البعثة بالأمين؛ فلم لا يصدِّقونه حين جاءهم بالحق المبين؟

وأذكرك بما قدمتُه قبل قليل: دعوى النبوة لا تصدر إلَّا من رجلين:

إمَّا من أصدق الناس وأفضلِهم، وإما من أكذبهم وأخبثهم، ومحمد بن عبد الله ﷺ كان أحسن الناس وأصدقَهم وأبرَّهم.

لقد مكث النبي ﷺ بمكة ـ بعد النبوة ـ ثلاث عشرة سنة، وهو يُقارع قريشًا ويدعوهم ويعيب آلهتهم، ومع ذلك كله لم يتفوَّه أحد منهم قط باتهامه بالكذب قبل نبوته ولو في حادثة واحدة، ولو وجدوا عليه كذبة واحدة فقط لأعلنوها في الآفاق، وفي الصحيحين [خ: ٤٥٥٣، م: ١٧٧٣] من قصة هرقل مع أبي سفيان، قال هرقل: «وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمتَ أن لا، فعرفتُ أنه لم يكن ليدعَ الكذب على الناس ويكذب على الله».

إن المعروف من حال الناس: أن من لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزمَ، ومن سلم منه في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أسلم.

الخلاصة: الصدق والكمال الأخلاقي ـ قبل البعثة ـ من دلائل النبي الصادق، ولقد شهد لنبينا محمد ﷺ بهذا: الصاحبُ القريب والشانئ البعيد؛ إذن هو رسول الله حقًّا.

🕮 البرهان الثاني: سيرته ﷺ بعد النبوة، وكماله الخُلُقي بعد الرسالة.

لقد كان نبينا محمد ﷺ أنموذجًا أخلاقيًّا فريدًا لا نظير له، لقد كان الإنسان الذي استجمع الفضائل من أطرافها، والمحاسن من أشتاتها، حتى إن أخلاقه أضْحَتْ مقياس الأخلاق، وكل من طالع طرفًا من سيرته: أسَرَتْهُ عظمة نبله ومجده، وأيقن بصدق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: ٤].

لقد كان رسول الله ﷺ أصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وألطفهم عِشرة.

كان أحفظهم للعهد وأوفاهم بالوعد، كان دائمَ البِشْر، سهل الخلق.. كان خلقُه القرآن!

كَانَ أَجْمَلَ الْخَلْقِ ظَاهِرًا وباطنًا.

كَانَ وَجْهُهُ يَتَلأْلَأُ تَلأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، كَانَ كَلامُهُ كُلُّهُ نُورًا، وَمُدْخَلُهُ وَمُخْرَجُهُ نُورًا، لقد كَانَ أَكْمَلَ الْخَلْقِ فِي نُورِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَكَانَ نُورُهُ مِنْ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ. عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رضي الله عنه قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، قال: فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنتُ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب». [الترمذي (٢٤٨٥)].

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ
كَانَتْ بَدَاهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

لم يكن ﷺ سبابًا ولا فاحشًا ولا لعانًا، كان يطيل الصمت ويُقِلُّ الضحك، ما كان فظًّا ولا غليظًا ولا سخابًا في الأسواق، قال أنس رضي الله عنه: «والله لقد خدمته ﷺ سبع سنين أو تسع سنين ما علمتُ قال لشيء تركتُ: هلّا فعلت كذا وكذا» [أخرجه مسلم (٢٣٠٩)].

كان أشجع الناس، قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «كنا إذا احمرّ البأس نتقي به ﷺ، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به». [أخرجه مسلم (١٧٧٦)].

كان أكرم الناس وأجودَهم بالخير، يصل الرحم، ويحمل الكَلّ، ويكسِب المعدوم، ويُقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، قال

أنس رضي الله عنه: «**ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا إلَّا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم! أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة**» [أخرجه مسلم (٢٣١٢)].

كان ﷺ أعظم الناس حياءً، حتى إنه كان أشدَّ حياء من العذراء في خدرها.

كان أعظم الناس تواضعًا؛ حتى إن الأَمَةَ من إماء المدينة لتأخذ بيده فتدور به في حوائجها حتى تفرغ ثم يرجع.

إذا أخذ رجل يده لم يترك يده حتى يكونَ الرجلُ هو الذي يدعُ يده.

كان يكره أن يقوم إليه أحد إذا دخل.

كان يجالس الفقراء، ويعود المساكين، ويجيب الدعوة.

كان أزهدَ الناس في الدنيا، فلم يمِل إلى نضارتها، وما التفت إلى زخارفها، خيّره ربه بين أن يكون ملِكًا نبيًّا أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، وكان يقول: «**ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها**» [أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)].

قالت عائشة رضي الله عنها: «**ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خبزِ بُرٍّ حتى مضى لسبيله**» [متفق عليه (خ: ٥١٤٦، م: ٢٩٧٠)]

كان خيرَ رجل لأهله، وأحسنَ زوج لزوجه، حتى إنه كان في بيته يخدم أهله.

ما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلَّا تركه.

كان يُلاطف الأطفال، ويرحمُ النساء ويوصي بهن.

أخبر عن نفسه ﷺ فقال: «**إني لأدخلُ الصلاة وأنا أريد أن أطيلها**

فأسمع بكاء الصبي فأتَجَوَّز في صلاتي مما أعلم من وجْدِ أمه من بكائه» [متفق عليه (خ: ٧٠٩، م: ٤٧٠)].

بل كان يرحم الحيوان، ويعطف عليه؛ فأمرَ بإحسان الذبح، وحدِّ الشَّفرة، وإراحة الذبيحة، ونهى أن يُتّخذ شيء فيه الروح من الحيوانات غَرَضًا ـ أي هدفًا لمجرد التصويب ـ، ونهى عن اتخاذ الدواب كراسيَ لمجرد الجلوس، وكان يُميل للهرة الإناء لها لتشرب!

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرأينا حُمَّرة ـ طائر كالعصفور ـ معها فرخان لها، فأخذناهما، فجاءت الحُمَّرة تعرِش ـ أي ترفرف ـ، فلما جاء الرسول ﷺ قال: **«من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها»**. [أخرجه أبو داود (٥٢٦٨)].

بل تجاوزت رحمته ﷺ إلى الجماد، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب في مسجده ـ قبل صُنع المنبر ـ إلى جذع نخلة، فلما صُنع له المنبر تركه، فصاح الجذع صياح الصبيِّ شوقًا إليه، فأتاه فضمَّه إليه حتى سكن. وما هو إلَّا قطعة من خشب، فأيُّ رحمة هذه!

كان أعظم الناس عفوًا وحلمًا، كان أحلم في النِّفار من كل حليم، وأسلَمَ في الخصام من كل سليم، جبذه مرة أعرابي جبذة شديدة أثّرت في صفحة عنقه، فما زاد على أن التفت إليه ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء!

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلا أن تُنتهك حرمة الله» [متفق عليه (خ: ٣٥٦٠، م: ٢٣٢٧)].

إن التفيؤ في هذه الرياض طويلٌ طويل، وحسبنا من الربيع شذاه، ومِنَ الغُدْرَانِ مَا وَسعَ الإِنَاءِ.

هذا هو محمد بن عبد الله ﷺ، كان عظيمًا في كل شيء، شَهِد له بهذا القاصي والداني، والصاحبُ والعدوُّ؛ أفهذه أخلاق كاذب؟! أهذه خِلالُ مفترٍ على الله؟! حاشا وكلا، بل هي دليل عظيم على صدق نبوته عند من أنصف.

إنها ثلاثٌ وعشرون سنة من البعثة، وقبلها أربعون سنة؛ عرفه فيها الناس جميعًا بأسمى الأخلاق وأزكى الشمائل، لم يُحفظ عنه فيها هفوة واحدة؛ أفتكون هذه حالَ متنبئ كاذب ينطوي باطنه على أشدِّ الخبث؟! لا والله، إن هذا لمن المحال.

وأختم بكلمة حسنة لابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «فإن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورةً، وتشهد له بأنه رسول الله حقًّا؛ **فلو لم تكن له معجزةٌ غيرُ سيرته ﷺ لكفى**». [الفصل (٢/ ٧٣)].

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

كتاب «الشمائل المُحمَّدية» للترمذي، أو مختصره للألباني رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

الفصل السادس

براهين نبوة نبينا محمد ﷺ

(٢)

البرهان الثالث: إخباره ﷺ بالغيبيات

لا يزال الحديث موصولًا بموضوع براهين نبوة نبينا محمد ﷺ، والبرهان الثالث هو إخباره ﷺ بالغيبيات الصادقة.

والمراد بالغيب هنا ـ كما سبق ـ: الغيب المطلق، وهو ما غاب علمه عن العباد مطلقًا، فلا يعلمه الإنس والجن جميعًا، وهو مما اختص الله ﷻ به، ويُظهر سبحانه ما شاء منه لمن ارتضى من رسله، قال جل وعلا: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجنّ: ٢٦ ـ٢٧].

إخباره ﷺ بالغيبيات المستقبلة

إخباره عليه الصلاة والسلام بالغيبيات المستقبلة دليل على صدقه، لأنها تقع كما أخبر، فالإصابة فيها مع تكرُّر ذلك وكثرة ما أخبر به منها: أمرٌ خارق لطبيعة البشر، ويُسلّم العقل حينئذٍ أنها أخبارٌ متلقاة من ربه الذي يوحي بها إليه سبحانه.

ولا يمكن أن يقال إن ما أخبر به عليه الصلاة والسلام داخل في الحدس والفِراسة، لأن الحدس والفراسة وإن أصاب صاحبهما تارة فإنه يخطئ تارات، وقد أصاب النبي ﷺ في كل ما أخبر به مما وقع مع كثرته، فعُلم أن هذا من وحي علام الغيوب.

أمثلة لإخباره ﷺ بالغيبيات المستقبلة

تأمل ـ أيها الموفَّق ـ فيما أسوق لك:

كيف علمَ النبي ﷺ أن الروم سيغلِبون الفرس بعد أن غُلبوا؟ قال

جل وعلا: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣)﴾ [الرُّوم: ١ ـ ٣] والبِضع في اللغة: من الثلاث إلى التسع؛ فكان أن غَلَبت الرومُ الفرس بعد سبع سنين!

فهذا غيب وقع مصداقه، واستبان للجاحدين نوره وإشراقه.

كيف علم النبي ﷺ هذا لو لم يكن يُوحى إليه من الله؟

ولاحظ أن البرهان هنا من جهتين: الأولى من جهة الوقوع، والثانية من جهة الإخبار به ابتداء.

أما الوقوع: فقد وقع ما أخبر به، وهو ثلاثة أمور: فغَلبت الرومُ الفرسَ، في المدة المحددة، وفرح المؤمنون.

أما الجهة الثانية: فكونه يخبر بهذا أصلًا! فهذا ـ بحدِّ ذاته ـ عَلَمٌ من أعلام نبوته؛ لأنه لا يمكن لمُفترٍ عنده شيء من عقل أن يغامر هذه المغامرة: أن يُحدّد ما سيقع مستقبلًا بتحديد زمني دقيق!

بمعنى: هل عاقلٌ يغامر بهدم كل ما بناهُ فيخبر بأمر مستقبلي ـ من عند نفسه، يفتريه افتراءً ـ لا يدري أيقع أم لا؟!

أليس هذا دليلًا باهرًا على أنه رسول من عند من يدبر الأمر وهو بكل شيء عليم؟!

وهذا كثيرٌ في القرآن والسنة؛ فتأمل دلالتي الوقوع والإخبار فيما يأتي:

ـ قوله جل وعلا: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفَتْح: ٢٧] فكان ما أخبر به كما أخبر!

ـ قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ﴾ [الفَتْح: ١٥]؛ فوقع ما أخبر به!

ـ إخباره ﷺ أن عمر وعثمان رضي الله عنهما سيموتان شهيدين، حيث قال ـ [كما عند البخاري (٣٦٧٥)] ـ: «**اثبُتْ أُحُد، فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان**» فوقع ما أخبر به؛ فماتا رضي الله عنهما شهيدين؛ فكيف علم هذا لولا أنه وحي من الله؟

ـ كيف علم ﷺ أنه سيموت في مرضه الذي مات فيه، وأن ابنته فاطمة رضي الله عنها أول من سيلحق به من أهل بيته؟!

ففي الصحيحين [خ: ٣٦٢٥، م: ٢٤٥٠] عن عائشة رضي الله عنها قالت: دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه الذي قبض فيه، فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فسألنا عن ذلك فقالت: «سارَّني النبي ﷺ أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه، فضحكت».

ـ أخبر ﷺ ـ [كما في صحيح البخاري (٢٧٠٤)] ـ أن ابنه الحسن بن علي رضي الله عنهما سيُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين؛ فكان ما أخبر به من الاقتتال ثم اجتماع كلمة الصحابة بعد ذلك بسبب الحسن رضي الله عنه عام الجماعة؛ كيف علم هذا لولا أنه يوحى إليه من الله؟!

ـ أخبر ﷺ ـ فيما بلّغه من القرآن ـ أن اليهود لن تتمنى الموت، قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٩٤ ـ ٩٥]. وكان ما أخبر به؛ فما تمنّاه أحدٌ منهم!

ـ أخبر ﷺ بما أوحاه الله إليه أن أبا لهب والوليدَ بن المغيرة من

أهل النار، ولازمُ هذا أن يموتا كافرين، فقال سبحانه عن الأول: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المَسَد: ٣]، وقال عن الثاني: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدَّثر: ٢٦]، مع أن احتمال أن يسلما ـ ولو كذبًا ونفاقًا ـ وارد! فكان ما أخبر به عليه الصلاة والسلام؛ فلم يُسلم أبو لهب ولا الوليد بن المغيرة؛ فثبت أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، إنما هو مبلغ وحي علَّام الغيوب سبحانه.

ـ أخبر ﷺ عن ظهور الخوارج فظهروا، قال ﷺ: «**تمرق مارقة عند فُرقة من المسلمين، يقتلها أولى الطائفتين بالحق**» [أخرجه مسلم (١٠٦٤)]، فخرجت كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

ـ أخبر ﷺ عن نارٍ تخرج من الحجاز، فقال ـ كما في الصحيحين [(خ: ٧١١٨، م: ٢٩٠٢)] ـ: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصرى**» وبُصرى بلدة في الشام، فكان ما أخبر به عليه الصلاة والسلام؛ حيث ظهرت هذه النار سنة أربع وخمسين وستمائة، قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٦٦٠): «أمر هذه النار متواتر... وقد حكى غير واحد ممن كان ببصرى في الليل ورأى أعناق الإبل في ضوئها».

ـ أخبر عليه الصلاة والسلام أم حرام بنت مِلحان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها تغزو البحر مع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كما أخرج هذا البخاري [(٢٩٢٤)]، وهذا فيه ضروب من الغيبيات التي وقعت؛ منها: إعلامه ببقاء أمته بعده.

وأن فيهم أصحابَ شوكة ونكاية في العدو.

وأنهم يتمكَّنون من البلاد حتى يغزوا البحر.

وأن أم حرام رضي الله عنها تعيش إلى ذلك الزمان.

وأنها تكون مع من يغزو البحر.

وأنها لا تدرك زمان الغزوة الثانية.

ستة أمور غيبية، أخبر بها الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ في حديث واحد! فوقعت كما أخبر.

ـ ومن ذلك: قوله ﷺ: «**على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال**» [متفق عليه (خ:١٨٨٠، م: ١٣٧٩)]، والطاعون مرض معروف من قديم؛ عبارة عن غدد وأورام تظهر غالبًا في مغابن البدن، ولا يكاد يسلم من يصاب به من الموت.

قال العلماء: هذا من المعجزات المحمدية؛ لأن الطاعون قد أصاب آلاف المدن والقرى، وقد امتنع عن المدينة هذه الدهور الطويلة؛ إذ لم يدخلها ـ إلى اليوم ـ قط!

قال المُناوي ـ المتوفى سنة **١٠٣١**هـ ـ في كتابه «فيضُ القدير» (**٣٢١/٤**): «وقد أظهر الله صدق رسوله ﷺ؛ فلم يُنقل أنه دخلها طاعون».

ـ إخباره ﷺ بأن جماعة من أصحابه من أهل الجنة ـ كالعشرة المبشرين بها ـ؛ فهذا فيه دلالة على صدق نبوته من وجهين:

أولًا: من جهة إخباره بهذا ابتداءً؛ لأن من كان كاذبًا لن يغامر هذه المغامرة؛ حيث يُعرّض كل ما بناه للهدم في حال ردةِ أحد منهم، وهذا ـ عقلًا ـ ممكن! أما الصادق المصدوق ﷺ فقد أخبر بأنهم من أهل الجنة؛ لأنه يوحى إليه ممن يعلم ما سيكون، وقلوب العباد بيده.

ثانيًا: من جهة ثباتهم على الإسلام إلى مماتهم؛ فلم يرتدَّ أحد

منهم أو يظهر منه خلاف مقتضى التقوى والصلاح، ولم يزالوا على عمل أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا! فظهر بهذا صدقه ﷺ.

فهذا غيض من فيض من أخبار كثيرة أخبر بها النبي ﷺ من أمور مستقبلة وقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

إخباره ﷺ بالغيبيات الماضية

الشأن في الغيبيات الماضية كالشأن في الغيبيات المستقبلة؛ فإن إخباره ﷺ بها دليل على نبوته أيضًا؛ فقد أخبر عن غيوب وقعت أو لا تزال واقعة من أخبار الجن والملائكة وخلقِ الإنسان والسماواتِ والأرضِ وقصصِ الأنبياء قبله إلى غيرها؛ فهذا دليل قاطع على أنه تلقَّى هذا عن ربه سبحانه وتعالى، ويستحيل أن تكون افتراء من عنده ـ وحاشاه ـ؛ فإنها أخبارٌ كثيرة دقيقة وتفصيلية، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولم يعارضه فيها معارِض في وقته أو بعده، ولو كان قد تلقاها عن غيره ـ كأهل الكتاب ـ لاحتاج في جمع قليل منها أن يرحل سنين عددًا شرقًا وغربًا، وأن يمتلك مكتبة ضخمة يستقي منها، وكل هذا لم يكن! فمُكثه كان في مكة عامة حياته قبل البعثة، ولم تكن دار علم ولا مكتبات.

وأمرٌ ثانٍ: وهو كونه ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب!

وأمرٌ ثالث: وهو أن العقل يقضي باستبعاد أن يكون ما أخبر به تقوّلًا من عند نفسه؛ لأنه سيغامر حينها مغامرة كبيرة بنجاح دعوته! إذ لا يأمن أن يطّلع علماء أهل الكتاب أو غيرهم على ما يذكره فيكذبونه فتسقط دعوته.

أوَليس هذا دليلًا على أنه رسول الله حقًّا؟! بلى، فاللهم صلِّ وسلم عليه تسليمًا كثيرًا.

البرهان الرابع: المعجزات التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ.

الآيات الحسية التي أجراها الله تعالى على يدي نبيه محمد ﷺ، وهي المشتهرة باسم: المعجزات، وقد سُميت في الكتاب والسنة بالآيات والبراهين والبيّنات، والمقصود بها: **الآيات الخارقة للعادة التي يظهرها الله تعالى على يد رُسله شهادةً بصدقهم**. وهي موجبة لتمام الإذعان، فَإِن اقتران المعجزة بِدَعْوَى النُّبُوَّة يُوجب علمًا ضَرُورِيًّا أَن الله أظهرها لصدقه؛ كَمَا أَن من قَالَ لمن أرسله: إِن كنتَ أرسلتني إِلَى هَؤُلَاءِ فقم واقعد، فَفعل ذَلِك؛ علمنَا بِالضَّرُورَةِ أَنه فعل ذَلِك لأجل تَصْدِيقه.

والمقصود أنها معجزات باهرة وخوارق دامغة، وأَمرٌ كَبِيرٌ وبرهانٌ مُنِير، مَا طرق الْعَالم لَهُ معَارض البَتَّة.

وما من شك أن حظَّ نبينا محمد ﷺ من المعجزات أعظم من غيره من الأنبياء، وفي كلام بعض أهل العلم أنه ﷺ أُعطي ثلاثَة آلافِ معجزة.

ومعجزات خاتم الأنبياء كثيرةٌ، تجِلُّ عن إحصاء

ولا غرو؛ فإنه خاتم النبيين ﷺ، ورسالته هي الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أمثلة للآيات (المعجزات):

- **من تلكم الآيات**: انشقاق القمر، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]. وهو من الآيات العظيمة التي أُعطيها النبي ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية؛ فأراهم القمر شِقّتين، حتى رأوا حراء بينهما» [أخرجه البخاري (٣٨٦٨)].

وأحاديث انشقاق القمر متواترة تواترًا معنويًّا، رواها جمعٌ من الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

وهو آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، ولذا اختصَّ بها سيدهم ﷺ.

ـ **ومن معجزاته** ﷺ: تسبيح الطعام بين يديه، فقد أخرج البخاري [(٣٥٧٩)] عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو يحكي شيئًا مما رآه مع النبي ﷺ فقال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».

ـ **ومن معجزاته** ﷺ: إخبار الشاة المشوية التي كانت على مائدته عليه الصلاة والسلام وأصحابه أنها مسمومة، فقد أخرج أبو داود [(٤٥١٢)]: أن يهودية أهدت له بخيبر شاة مسمومة فقال ﷺ لأصحابه: «**ارفعوا أيديكم، فإنها ـ أي الشاة ـ أخبرتني أنها مسمومة**».

ـ **ومن معجزاته** ﷺ: نبع الماء بين أصابعه ﷺ، فقد أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه: «أن صلاة العصر قد حانت، فلم يجد الناس ماءً فأُتيَ رسولُ الله ﷺ بإناء فوضع يده فيه، قال أنس رضي الله عنه: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، فقيل له: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة أو زُهاء ثلاثمائة». [خ: ٣٥٧٢، م: ٢٢٧٩].

ـ **ومن معجزاته** ﷺ: تكثير الطعام بين يديه، ومن ذلك: ما أخرج الشيخان: «أن جابرًا رضي الله عنه دعا النبي ﷺ إلى بيته يوم الخندق على عنز صغيرة وشيء من الشعير، فدعا عليه الصلاة والسلام أهل الخندق من المهاجرين والأنصار، ثم إنه دعا في الطعام ونفث فيه، ثم أكلوا جميعًا، ثم انصرفوا والطعام على حاله». [خ: ٤١٠١، م: ٢٠٣٩].

ومن ذلك أنه لما دعاه أبو طلحة رضي الله عنه إلى أقراص من شعير: «دعا جماعة من أصحابه بلغوا سبعين أو ثمانين فأكلوا جميعًا» [متفق عليه (خ: ٣٥٧٨، م: ٢٠٤٠)].

ولما صنعت أم سُليم رضي الله عنها شيئًا من الحيس: وضع يده فيه ودعا؛ فكفى الطعام زهاء ثلاثمائة من الصحابة. [متفق عليه. (خ: ٥١٦٣، م: ١٤٢٨)].

ـ **ومن معجزاته** ﷺ: انقياد الشجر له، فقد أخرج مسلم في صحيحه [(٣٠١٢)] عن أنس رضي الله عنه: «أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ حتى نزلوا واديًا أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، قال: فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم يرَ شيئًا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «**انقادي عليَّ بإذن الله**» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يُصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**» فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما، لَأَمَ بينهما ـ أي جمعهما ـ، فقال: «**التئما عليَّ بإذن الله**» فالتأمتا، ثم ذكر رضي الله عنه أن الشجرتين افترقتا، فقامت كلُّ واحدة منهما على ساق».

ولما اشتكى عليّ رضي الله عنه عينيه في غزوة خيبر، بصق فيهما ﷺ؛ فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجع. [متفق عليه (خ:٣٧٠١، م: ٢٤٠٦)].

ولما كُسرت ساق عبد الله بن عَتيك رضي الله عنه: مسحها ﷺ فكأنه لم يشتكها قط. [أخرجه البخاري (٤٠٣٩)].

هذا غيض من فيض من الآيات البينات، وغير خافٍ أن المعجزات تدلُّ دلالة قاطعة على صدق من جَرَت على يده من الرسل؛ لأنه إذا خرق الله تعالى السنن الكونية في مخلوقاته تصديقًا لنبيِّه؛ دلَّ ذلك قطعًا على

صدق ذلك النبي، وإقرار الله له في دعوى النبوة، وتأييده فيها، وهي دلالة ضرورية لا تحتاج إلى نظر، وتورث يقينًا بمدلولها فور العلم بها.

وقد تواترت بالمعجزات النبوية الأخبار واستفاضت، ونقلتها الأمة جيلًا بعد جيل وخلفًا عن سلف؛ فلا يمكن لعاقل أن يُكذِّب بها.

كيف يمكن التحقق من صحة ما سبق من الأخبار؟

أولًا: من يشكِّك أو ينفي هذه الأخبار يقال له: هل تؤمن بوجود الربِّ الخالق القادر سبحانه أم لا؟ فإن كان لا يؤمن بوجوده فلا معنى للنقاش معه في معجزات الرسل وهو لا يؤمن بمن أرسلهم؛ فالمناظرة مع هذا في وجود الله أولًا؛ فإذا آمن بوجوده سبحانه سهل عليه التصديق بالمعجزات؛ وسيسهل عليه أن يؤمن بأن من خلق القمر من العدم لن يعجزه أن يجعله شطرين مثلًا.

أما إن كان يؤمن بوجوده سبحانه كيهودي أو نصراني: فنقول له: أنت تؤمن بالمعجزات التي جرت على يد موسى أو عيسى عليهما السلام، وما جرى على يد محمد ﷺ من هذا الجنس؛ بل ثبوت ما جاء في شرعنا أقوى مما في كتبكم بلا ريب.

خلاصة هذا الوجه: أي تشكيك في آياته عليه الصلاة والسلام يستلزم التشكيك في آيات غيره من الأنبياء من باب أولى.

ثانيًا: يقال للمكذب أو المتشكك: هل تصدق بالأخبار الصادقة؟ فإن قال: لا؛ سقطت مكالمته لأنه مُباهت، وإن قال: نعم؛ قلنا له: المعجزات النبوية أخبار صادقة؛ فيلزمك التصديق بها. فإن قال: وما يدريني أنها صادقة؟ قلنا: كيف تُثبت أي خبر صادق؟ ولا يملك إلا أن

يقول: صدق الخبر ينبني على صدق من أخبر به، فنقول: قد تحققنا من صدق رواة أخبار المعجزات النبوية، وعندنا الدليل على صدقهم، ومستعدون لإثبات هذا؛ فما بقي إلَّا أن تتجرد للوصول للحقِّ وتنظر نظرًا منصفًا.

وخلاصة هذا الوجه: لا يمكن إثبات صحة أي خبرٍ بطريقٍ إلا ويمكن إثبات أخبار المعجزات النبوية بطريق مثلها أو نظيرتها أو أقوى منها.

ثالثًا: لا يناقش في صدق المعجزات النبوية إلَّا من يرمي الكلام جزافًا، وهو جاهل بمقاييس نقد الأسانيد والمتون عند علماء المسلمين.

نحن لا نتحدث عن أخبار تاريخية مرسلة لا زمام لها ولا خطام؛ تتأثر بأهواء أو مطامع أو ميول سياسية؛ الأمر عندنا مختلف تمامًا؛ ههنا منهج علمي دقيق تميز به المسلمون عن سائر الأمم بتمحيص النقلة وتوثيق المصادر والمقارنة بين الروايات والترجيح بينها، وقد كُتب في هذا آلاف المجلدات على مرِّ العصور، ورائدهم في هذا: الوصول إلى الحقِّ بلا مداهنة؛ فتجد أنه ضُعِّفَ مئات الرواة ورُدَّت مروياتهم؛ مع أن فيما رووا أشياء فيها مناقب ومعجزات نبوية؛ لكنها عندنا مردودة غير مقبولة؛ لأنها لم تنجح في الامتحان الصارم لقبول المرويات.

خلاصة هذا الوجه: ادرس أولًا المنهج النقدي للروايات في الإسلام؛ ثم ناقش بعد هذا!

رابعًا: المعجزات النبوية بأنواعها أخبارها متواترة تواترًا معنويًّا، قد رواها رواة كثيرون يستحيل تواطؤهم على الكذب؛ فتفيد العلم الضروري، والتشكيك في المتواترات نوع من السفسطة وإفسادٌ للعلوم والمعارف.

ولي أن أقول لمن يشكك في المعجزات النبوية ـ على سبيل المعارضة الجدلية ـ: ما تقول إن قيل لك: أنا أنكر وجود من تُعظِّمهم وتثني عليهم فضلًا عن ثبوت آرائهم؛ فأُنكر وجود أفلاطون وأرسطو، بل ووجود نيوتن! وأقول: نسبة قوانين الحركة الثلاثة له نسج خيال! وأنكر وجود داروين، ونظرية التطور افتراء عليه! وأشكُّ في وجود آينشتاين، وإضافة نظرية النسبية العامة إليه كذب في كذب! ولا تقل لي توجد صور لهم؛ لأني سأقول: ولِمَ لا تكون مكذوبة مفبركة، والتاريخ يكتبه المنتصرون ـ كما يذكر بعضهم ـ!

فإن قلتَ: هذا عبث وسفسطة، قيل: نعم هذا صحيح؛ وكذلك إنكار معجزات نبينا محمد ﷺ!

فإن قلتَ: لكن وجود من ذكرتَ ونظرياتُهم مقطوع بها؛ قيل: نعم، وكذا المعجزاتُ النبوية!

فإن قلت: نحن نملك الأدلة على ثبوت ما تشكّك فيه؛ قيل: نعم، وكذلك نحن نملك الأدلة على ثبوت ما أنكرت.

وخلاصة هذا الوجه: أي دليل يُثبت به مُنكِر المعجزات صحة خبر؛ فيمكن الاستدلال بنظيره في إثبات المعجزات النبوية، وأي إشكالٍ يورده سيقابَل بمثله!

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة كتاب:

«البداية والنهاية» لابن كثير من (٨/ ٥٣٩) إلى (٩/ ٣١٠)، طبعة هجر.

الفصل السابع:
براهين نبوَّة نبيِّنا محمد ﷺ
(٣)

البرهان الخامس: أحوال النبي ﷺ في دعوته

أحوال النبي ﷺ في دعوته تشهد بأنه رسول من عند الله حقًّا، ويمتنع معها امتناعًا تامًّا أن يكون مُدَّعيًا ـ وحاشاه ـ لهذا الشرف كذبًا.

وهذه الأحوال والمواقف كثيرة جدًّا، وسأجتزئ منها ـ بعون الله ـ ما يتيسر، وحسبُنا من الماء ما يبلُّ شفاهنا.

أمثلة لأحواله ﷺ في دعوته:

أولًا: كونه عليه الصلاة والسلام عاش متواضعًا زاهدًا في الدنيا متقلِّلًا منها.

كان يخصف نعله، ويحلب شاته ويُرقِّع ثوبه، ولم يترفّع لكونه مُشرّفًا بالنبوة مكرَّمًا بالرسالة.

كان يأكل ما وجد، وربما بات طاويًا من الجوع لا يجد شيئًا يأكله، ولربما ربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان يمرُّ عليه ثلاثةُ أشهر لا يوقد في بيته نارٌ لطعام، ولم يشبع من خبز الشعير حتى مات.

وإذا جاءه مال فرَّقه من ساعته ولم يسْتبْقِ منه شيئًا، قال جابر رضي الله عنه: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا» [متفق عليه (خ: ٦٠٣٤، م: ٢٣١١)].

ولما مات ﷺ لم يُخلِّف من الدنيا شيئًا يُذكر، بل كانت درعه مرهونةً عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير.

أفهذه حال مدَّعٍ للنبوة؟! المعقول من حال الناس امتناع هذا؛ فما الذي يمنعه من أن يجمع الكنوز وينمي الأموال ويبني القصور؟!

وما الذي يطمع فيه مدَّعي النبوة سوى المجد الدنيوي والتنعُّم بالملذَّات!

لقد كان ﷺ أبعد شيء عن هذا؛ لأنه رسولٌ من عند الله حقًّا.

ثانيًا: أنه ﷺ لم يدَع لأهل بيته إرثًا؛ درهمًا فما فوقه! قال ﷺ: «**لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال** ـ يعني مال الله ـ **ليس لهم أن يزيدوا على المأكل**» [متفق عليه (خ: ٣٧١١، م: ١٧٥٩)].

ولم يوصِ لأهل بيته بخلافة ولا حكم، هذا وعمُّه موجود، وأبناء عمِّه موجودون.

أترى مدعيًا كاذبًا يرضى بأن يعيش أهله على الكفاف وهو قادر على أن يجعلهم في أعلى المراتب الدنيوية؟!

أليس هذا دليلًا على أنه رسول من عند الله حقًّا؟!

ثالثًا: أنه عليه الصلاة والسلام كان يُنكر كلَّ ما يُعارض أصل دعوته من توحيد الله وعبادته وحده، حتى ولو كان ذلك رافعًا من منزلته في الميزان الدنيوي، ولذا: لما قال له رجل: يا محمد، يا خيرنا وابن خيرنا، ويا سيدنا وابنَ سيدنا، قال عليه الصلاة والسلام: «**قولوا بقولكم، ولا يستجرّكُم الشيطان، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله**» [أخرجه أحمد (١٣٥٩٦)].

ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال ﷺ: «**جعلتني لله عِدلاً؟! بل ما شاء الله وحده**» [أخرجه أحمد (٣٢٤٧)].

وكسفت الشمس في عهده ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ**

آيَاتِ اللَّهِ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا، فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ» [متفق عليه (خ: ١٠٦٠، م: ٩١٥)].

إنه لو كان عليه الصلاة والسلام مدعيًا للنبوة ـ وحاشاه ـ، لفرح بهذه الحادثة وأحسن استغلالها بما يزيده رفعةً في أعين الجهال، لكنه رسول الله! المبلغُ لأمره.

رابعًا: أنه عليه الصلاة والسلام كان يُحرَس من أصحابه، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المَائدة: ٦٧] فقال لحراسه: «**يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله**» [أخرجه الترمذي (٣٠٤٦)].

هذا وهو الذي اتفق المشركون واليهود والنصارى والمجوس على عداوته وبغضه والتربص به؛ فلم يبالِ بأحدٍ ثقةً بالله، بل أخبر الجميع أنه لا يصل إليه أعداؤه، فهل لو لم يكن نبيًّا حقًّا يفعل هذا؟!

إن العقل ليدلُّ دلالة صريحة على أنه لا يفعل هذا إلَّا صادق في دعواه النبوة.

خامسًا: أن القرآن العظيم الذي بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة والبيان قد جاء به النبي ﷺ وهو يقول: هذا كلام الله ليس لي فيه إلَّا البلاغ ثم البيان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يُونس: ١٥]، ولو كان مدعيًا ـ وحاشاه ﷺ ـ لنسب القرآن إلى نفسه، فهو أبلغ في الفخر وعلوِّ الرتبةِ في أعين الناس، وهل يطلب المدّعي الكذاب إلَّا الفخرَ وعلوَّ المنزلة عند الناس؟!

أو على الأقل ادّعى أنه يتلقى القرآن مباشرة من الله لا بواسطة جبريل.

إن هذا لكافٍ لمن أنصف في الدلالة على أنه الصادق المصدوق ﷺ.

سادسًا: أنه تكرر في القرآن الكريم وصف النبي ﷺ بأنه عبدٌ خاضع لربِّه، وبشرٌ لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فلو كان مدعيًا للنبوة ﷺ ـ وحاشاه ـ لِمَ لَمْ يدّعِ لنفسه درجة أرفع ورتبة أكبر؟!

سابعا: لقد ذُكر النبي ﷺ في القرآن أربع مرات فحسب!

بينما ذُكر غيره من الأنبياء أضعاف هذا العدد بكثير؛ فموسى عليه السلام ذُكر اسمه (١٣٦) مرة! وذُكر اسم إبراهيم عليه السلام (٦٩) مرة! وذُكر اسم نوح (٤٣) مرة! وغيرهم من الأنبياء ذُكرت أسماؤهم أكثر من اسمه بكثير.

والسؤال المتبادر إلى الأذهان: لو كان هذا القرآن مفترًى من لدن النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ: أكان يفعل هذا؟! أيذكر متنبئٌ كذاب أسماء أنبياءٍ غيره مرات كثيرة ـ والمقام مقام ثناءٍ ومدح وتشريف ـ ولا يورد اسمه إلا أربع مرات!

أليس المتوقع من حال المتنبئ الكذاب أن يُكثر من ذكر نفسه والثناء عليها على حساب الأنبياء الآخرين؛ لأن هذا يرفعه في نظر أتباعه أكثر؟! وهل يطلب المتنبئ سوى هذا؟!

أليس يكفي العقلاء هذا ليشهدوا أن من جاءنا بهذا القرآن رسولٌ صادق؟!

ثامنًا: أن الوحي كان يتأخر عنه في وقت شدة حاجته إليه، ففي حادثة الإفك مثلًا: تلك الحادثةُ التي اشتدَّ فيها الكرب برسول الله ﷺ والمسلمين، وبلغت القلوب الحناجر؛ فشهرٌ أو أكثر والمنافقون يُرجفون ويخوضون في عِرضه عليه الصلاة والسلام؛ فما الذي كان يمنعه ـ لو كان مدعيًا للنبوة، مُتَقوِّلًا للوحي من عند نفسه ـ أن يقول في ابتداء الأمرِ كلمةً حاسمة يذبُّ بها عن عرضه، وتنقطع بها ألسنة المتخرصين؟ أليس من السهل ـ لو كان كاذبًا، وحاشاه ـ أن يخرج على الناس بكلمة ينسبها إلى رب السماء يعلن بها براءة زوجه من أول يوم، لكنّ هذا لم يحدث، لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، وما كان ليذرَ الكذب على الناس ويكذب على الله. فاللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وصحبه.

🕮 الدرس المستفاد من كل ما سبق:

أن المواقف والأحداثَ الكثيرة في دعوته عليه الصلاة والسلام يقطع معها النظر المنصف بنتيجة مفادها: يستحيل أن تصدر هذه المواقف من مدعٍّ للنبوة.

أجِل نظرك ـ أيها الموفَّق ـ في سيرته وسنته ومواقف حياته؛ في الجوانب الأسرية والدعوية والسياسية وغيرها، تأمَّلها بوعي؛ وستنادي بك كل صحيفة منها: لا يمكن أن يكون محمد بن عبد الله إلا نبيًّا مصطفى، ورسولًا مجتبى، ﷺ تسليمًا.

البرهان السادس: كمال الشريعة ومحاسنها.

لا أخفي أنني في حيرة.. فمن أين أبدأ؟ أمامي بحر مترامي الأطراف!

لو لم يكن للنبي ﷺ برهان على صدق نبوته إلَّا هذه الشريعةُ السمحةُ البيضاء التي استنارت بها الدنيا وابتهجت، وسعِد من عاش في ظلالها - لكفى به برهانًا.

دين الإسلام أكمل الأديان وأفضلها وأعلاها وأجلُّها، حوى من المحاسن والجلال، والجمال والكمال، ما يقتضي إذعان المنصف بالشهادة لله سبحانه بالحكمة المطلقة، ولنبيه محمد ﷺ أنه رسوله حقًّا، وأنه الصادق المصدوق.

وهذه المحاسن شاملة لأصوله وفروعه، ومسائله ودلائله؛ فأضحى كفيلًا بسعادة الدارين، وصدق الله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤].

دين الإسلام أمر بكلِّ حق، واعترف بكل صدق، وندب إلى محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق ومصالح العباد.

عقائده تزكو بها القلوب، وأخلاقه تتهذَّب بها الأرواح، وأعماله تصلح بها الأحوال.

جاء بإصلاح الدين والدنيا، والجمع بين مصلحة الروح والجسد، والفرد والجماعة، وأعطى كلَّ ذي حق حقَّه.

أصله الإيمان بالله، وثمرته السعي في كلِّ ما يحبه ويرضاه، حث على العدل والخير والرحمة، وزجر عن البغي وسيئ الأخلاق، ونبذ الوثنيات والخرافات والتعلُّق بالمخلوقات.

عقيدته سهلة واضحة، موافقة للعقل والفطرة، لا تناقض فيها ولا غموض.

لم يأتِ بما تُحيله العقول أو يناقض العلم الصحيح، فصار صالحًا لكلِّ زمان ومكان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤].

أخباره صادقة لا تناقض فيها، وأحكامه موافقة للحكمة، وكل علمٍ دينيٍّ أو دنيويٍّ نافع فقد أرشد إليه.

إنه دين الحكمة والفطرة، والرحمة والإحسان، اشتمل على كل المصالح في الضروريات والحاجيات والكماليات، ولم يأمر إلَّا بخير خالص أو راجح، ولم ينهَ إلا عن شرٍّ خالص أو ما تزيد مفسدته على مصلحته، فأروى الغليل وشفى العليل وأنار السبيل، واستقام به المعاش.

توافق فيه المعقول والمنقول؛ في عقائده وعباداته ومعاملاته، ما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم ينهَ عنه.

لقد دعت شريعةُ الإسلام المسلمَ أن يجدَّ ويجتهد في هذه الحياة، ويضربَ في الأرض يبتغي من فضل الله، لم تصنع حاجزًا بين الدين والدنيا، بل مزجت بينهما فصارا متوافقين.

لقد وسّعت حدود المباح؛ فالأصل في الأشياء والمعاملات: الإباحة، خذ ما شئت، والبس ما شئت، كل واشرب كيف يحلو لك؛ تاجر، سافر، تعلَّم، اصنع، ازرع.. افعل ما تريد، ولكن: تجنَّب ما حرَّم الله عليك فقط، وهو قليل إذا ما قارنته بالمباحات.

الإسلام دين الرحمة والإحسان، حثَّ على الرأفة والرفق وقضاء الحاجات وتفريج الكربات، والرقي لأنواع الكمالات، جعل العلم والدين، والوِلاية والحكم متآزرات متعاضدات.

أباح كلَّ طيب نافع، وحرّم كل خبيث ضارّ

كَفّ المظالم، وردَّ الحقوق إلى أصحابها، ووضع للجرائم حدودًا تردع عن مواقعتها، وتخفف من وطئتها.

بل لم يغفل هذا الدين القويم الرحمةَ بالحيوان والإحسانَ والرفقَ به، بل ومراعاةَ مشاعره! حتى إنه نهى عن اتخاذ شيء منه غرضًا ـ أي هدفًا لمجرد القتل ـ أي أنك إذا أردت أن تصيد طيرًا لمجرد التسلية والهواية: فالإسلام يقول لك: لا؛ فحياة الطير أولى من عبثك!

نهى الإسلام أن تُتخذ الدوابُّ كراسي للجلوس ـ لأن هذا يؤذيها ـ، أو أن تُلعن، أو أن تُفجع الطير في أفراخها!

لم يُغفل فقه الشريعة حقَّ الشاة في عدم تعذيبها نفسيًّا؛ فمنع أن تُذبح شاة والأخرى تنظر إليها، أو أن تُحدَّ السكين أمامها، أو أن يُقطع منها عضو بعد ذبحها قبل أن تبرد، بل لم يُنسَ حقُّ دود القز! فأوجب الفقهاء على مالكه تحصيل ورق التوت الذي يقتات به ولو بشرائه، أو أن يُخلّى سبيله لئلا يهلك؛ حشرةٌ صغيرة حياتها في الإسلام محترمة!

لم يغفل فقهُنا حقَّ النحل! فحكم الفقهاء بوجوب أن يُبقيَ صاحبُها شيئًا من العسل لتقتات به إن تَعَيّن غذاءً لها.

لم يغفل حقَّ الدابة الحلوب؛ فنصَّ فقهاء هذه الشريعة على وجوب أن يقصَّ حالبُها أظفاره حتى لا يؤذي ضرعها!

إنها الشريعة الرحيمة التي تنادي بك: لِمَ تؤذي دابةً بريئة؟!

ومن امتنع عن الإنفاق على دابته التي لا تؤكل: أجبره السلطان على ذلك أو على بيعها؛ دفعًا للظلم عنها، فإن لم يقدر: أُنفق عليها من بيت المال، إنها رحمة الإسلام!

أتعرف ـ أيها الموفَّق ـ دينًا أو نظامًا راعى هذه الدقة في الرفق بالحيوان؟!

وإذا كان هذا إحسانَها بالحيوان؛ فكيف بالإنسان؟!

لقد جعلت شريعة الإسلام الناس سواسية، لا يفضل أحد أحدًا بلون أو عرق أو حسب؛ فمعيار التفاضل: التقوى لا غير، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

إنها شريعة العدل؛ العدلِ في كبار الأمور وصغارها، حتى إنها عدلت بين قدميك؛ فنهتك أن تنتعل في قدم دون الأخرى! قال نبي الرحمة ﷺ: «**لا يمش أحدكم في نعلٍ واحدة؛ لينعلهما جميعًا، أو ليخلعهما جميعًا**» [متفق عليه (خ: ٥٨٥٦، م: ٢٠٩٧)]، وقال ﷺ: «**إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمش في الأخرى حتى يصلحها**». [أخرجه مسلم (٢٠٩٨)].

حرصت الشريعة على أن يأخذ كلُّ أحد حقه في الاقتصاد، وأن تكون أسواق المسلمين ذاتَ شفافية واستقرار، فمنعت الاحتكار والغش والنجْش وتلقيَ الركبان.

وضعت هذه الشريعة الحقة نظامًا اقتصاديًّا أخلاقيًّا بديعًا، لم تعرف له البشرية نظيرًا؛ ودونك محركات البحث الشبكية: ابحث واقرأ عن تنامي صناعة المصرفية الإسلامية اليوم في أوروبا، وعن الاهتمام بأبحاثها في المراكز العلمية والجامعات الغربية، وكيف أن اعتقادًا قويًّا بدأ يتشكل بأن المصرفية الإسلامية استثمار أخلاقي، وملاذ آمن لرؤوس الأموال.

شريعة الإسلام: شريعة العدل والعفو بعزة، لم تقل: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر! إنما كان توجيهها: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [الشّورىٰ].

إنها شريعة الجماعة وجمع الكلمة وقطع أسباب النزاع؛ فمنعت أسباب الشحناء وتقطع الصلات، حتى إنها منعت خطبة المسلم على خطبة أخيه أو البيع على بيعه.

إنها شريعة النظافة والنظام والتعامل الراقي، والذوق الرفيع، ومراعاة المشاعر؛ حتى إنها لم تُغفل النهي عن أن يتناجى اثنان دون ثالث، وحتى إن تنظيف الأسنان فيها عبادة من العبادات! والسواك أول ما يُستحبُّ أن يفعله المسلم إذا دخل بيته! فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ «كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك». [أخرجه مسلم (٢٥٣)].

إن شريعة الإسلام ـ حقًّا ـ جامعةُ الأخلاق السامية والآداب الرائعة؛ منعت الغيبة والنميمة والكذب والسخرية والكبر والحسد، وحثَّت على أضدادها.

إنها شريعة التكافل الاجتماعي، فعلاوة على الزكاة والصدقات: قالت الشريعة: إن صلة الرحم لا تقتصر على السلام والهدية والزيارة فحسب، بل يجب على من عنده مقدرة مالية أن ينفق على قريبه الفقير، وهو حقٌّ له لا منّة فيه! ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

لقد جعلت الشريعة للجار حقًّا عظيمًا، حتى كاد أن يكون له حظٌّ من الميراث، ناهيك عن حقوق الوالدين والأولاد والزوجين والأرملة واليتيم والمسكين والخادم والضيف والمعلم والمتعلم.. إلى آخر ما هنالك.

إنها الشريعة الكاملة التي لم تُغفل شيئًا من أمور الدين أو الدنيا؛

بدقة متناهية وتنظيم بديع؛ من علاقة المرء بربِّه، إلى علاقته بنفسه، إلى علاقته بغيره؛ من إنسان أو حيوان أو جماد.

لقد أوضحت للعبد كيف يعبدُ ربه، وأوضحت له أيضًا كيف يتزوج وكيف يطلِّق، وكيف يبيع ويشتري ويؤاجر ويزارع، كيف يقاضي ويطلب حقَّه أو يشهد في نزاع، وعلَّمته كيف يأكل ويشرب، وينام ويستيقظ، بل وكيف يلبس حذاءه!

لقد نظَّمت له كيف يخالط الناس ويحيِّيهم ويجالسُهم، لم تدع شاذَّة ولا فاذَّة إلَّا ولها فيها توجيه ونظام بديع، بلا نقص ولا خلل ولا اضطراب، إنما هو الإتقان والإسعاد والتيسير.

لقد نظَّمت لك هذه الشريعة كلَّ شيء في حياتك، بل نظَّمت لك كلَّ شيء بعد وفاتك؛ في الإرث والحقوق وغيرها، وصدق الله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وبعد، فهذا غيض من فيض وإلَّا فالحديث في هذا المقام طويلٌ جميلٌ لا يُملُّ(١).

ويبقى السؤال بعد هذا: من أين أتى النبي ﷺ بكلِّ هذه التشريعات الباهرة البديعة، الكاملة الدقيقة، من العلاقات بين الدول في السلم والحرب، وإلى لبس الحذاء ودخول الخلاء وطريقة الجلوس، وإلى تعليم الأطفالِ الذوقَ الرفيعَ بالاستئذان في ثلاثة أوقات مفصلة؟!

(١) وفي فصلٍ قادم (الفصلِ العشرين - حاجتنا إلى الدين) تكميلٌ وزيادة بيان لما ذُكر هنا.

من أين أتى بهذا كله، وكيف؟!

الناس اليوم إذا أرادوا وضع نظام محدود في جزئية صغيرة: استقطبوا جماعة من أهل الخبرة؛ ليجتمعوا اجتماعات متتالية في أوقات مديدة، لوضع اللائحة الأولية وصياغتها، ثم يتبع هذا لجانٌ للمراجعة، ثم تُكتشف بعد حينٍ ثغراتٌ وأخطاء فيُحتاج إلى تعديلات تلوَ تعديلات!

وبين يديك ههنا شريعةٌ محكمة شاملة لكلِّ مناحي الحياة، مفصلة دقيقة، شافية كافية، لا خلل فيها ولا عِوج، ولا يمكن الاستدراك عليها!

أرَجُلٌ أميٌّ واحد ـ مهما بلغ من الذكاء والدهاء ـ قادرٌ على أن يُنظم كلَّ مجال، وأن يضع حلًّا لكلِّ مشكلة، وأن يُرسي كلَّ دعائم السعادة في الدين والدنيا؟!

أم أن العقل والإنصاف يقتضي أن يُقال إنه كان صادقًا مصدوقًا ورسولًا نبيًّا، ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى؟ فاللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

🕮 أهمية بيان محاسن الإسلام

يحسن التنبيه على أن توجيه الخطاب لغير المسلمين ببيان محاسن الإسلام وتميز الشريعة: من أهم وسائل الدعوة، بل لعله أقصر طريق لدعوتهم، وأنجع سبب لاستمالة قلوبهم وإقناعهم بصحة الإسلام وصدقِ النبي ﷺ[(١)]؛ فهو دليل واضح سهل الفهم يلمسه الناظر فيه لمس اليد، لا يحتاج إلى بحث في أسانيد أو التحقق من صحة.

---

(١) والشواهد على هذا أكثر من أن تُحصر، وأذكر على سبيل التمثيل قصة واقعية =

شاهد القول: إن محاسن هذا الدين العظيم تفعل في نفوس كثير من الكفار فعل السحر؛ فما أحسن استثماره!

وكما أننا نحتاج أن نبيِّن محاسن الشريعة لغير المسلمين؛ فإن المسلمين لا يقلُّون حاجةً عن هذا البيان.

نعم هم مسلمون ونشأوا على هذا الدين، غير أن التحدث بمحاسن الشريعة تحدثٌ بنعمة الله، والله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، وأجلُّ نعمة أنعم الله علينا بها ـ معشر المسلمين ـ هي هذا الدين القويم.

كما أن هذه المعرفة سبب لزيادة الإيمان وقوة اليقين، وكذا هي سبب للفرح بالهداية إلى هذ الدين القويم، وهذا الفرح عبادة يحبُّها الله؛ ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

وبعض الناس قد يفوته هذا الأمر؛ لأنه يغفل عن الوقوف أمام محاسن الإسلام، واستشعار جماله؛ لذا لا بد من بثِّ هذا الموضوع والدندنة حوله، لا سيما في خطاب الشباب، وحبذا أن يُقرن هذا مع بيان حال الجاهلية قديمًا وحديثًا؛ هذا إذا أردنا الارتقاء بهم إلى التديُّن بهذا الدين عن قناعة، وحينها سيعتزون بدينهم، وسيستعلون بإسلامهم؛ ويَسلمون بتوفيق الله من رياح التشكيك.

= حصلت في بلد غربي؛ وهي أن خادمة كانت تعمل لدى أسرة مسلمة؛ فلفت انتباهها وإعجابها نظافةُ المسلمين؛ فهي إذا غسلت ملابسهم الداخلية وجدتها غير ملطخة بالنجاسة كحال بني جنسها؛ فوقر في نفسها أن دينهم راقٍ جميل؛ فدعاها هذا إلى أن تسأل الأسرةَ وتبحث؛ لتُسلِم بعد ذلك.

لزيادة الفائدة

۞ أُوصِي بقراءة كتاب:

«الدُّرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي» للشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

الفصل الثامن

براهين نبوَّة نبيِّنا محمد ﷺ

٤

البرهان السابع: القرآن الكريم

القرآن الكريم العظيم، والكتاب العزيز الحكيم: أعظم آيات رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العَنكبوت: ٥١]؛ فهو كافٍ في الدعوة والبيان، وكافٍ في الحجة والبرهان؛ وكيف لا يكون كذلك وهو الحجة الباقية على الآباد؛ لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردِّ، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلَّه الله.

بل إن القرآن أعظم براهين الأنبياء جميعًا، وأبقاها على الأعصار، وأنشرُها في الأقطار، قال ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيًا أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**» [متفق عليه (خ: ٤٩٨١، م: ١٥٢)].

وهذا الموضوع من السعة بحيث لا يمكن لأحد أن يحاط به؛ فالقرآن كلُّه مُعجز؛ إنه معجزات متضافرة؛ ألفاظه وقراءاته ونَظْمه، معانيه وأخباره وأحكامه؛ كلّ سورة فيه، بل كل آية؛ فهو بحرٌ لا يُدرك قعره، ولا يُسبر غوره؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وفواصله آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية.

ولعلِّي أكتفي بشذرات يسيرة، وحسبنا من الرياض زهرات، ومن النسائم نفحات.

أوجه إعجاز القرآن:

أولًا: بلاغة ألفاظه، واستيفاء معانيه، وحسن نظمه؛ فله كمال البلاغة ونهاية الفصاحة ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فُصّلَت: ٣]، وهذا باب واسع لا سبيل إلى استيفائه.

وصدق من وصفه بقوله: «إن له حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مُغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته».

القرآنُ الكريم من فاتحته إلى خاتمته لا تخلو آية من آياته عن نكتة لطيفة أو حكمة نافعة، أو بيان مفحم، أو عبارة تأخذ بالألباب وتحيِّر العقول بجمالها وبلاغتها.

نظمُ القرآن وأسلوبُه حقًّا عجيب بديع؛ فهو ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأتِ أحد بنظير هذا الأسلوب؛ فإنه ليس من جنس الشعر أو الرَّجَز، ولا الخطابة ولا الرسائل، ولا نظمُه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم.

إنه كلام الله، ولا يمكن أن يكون إلَّا من عند الله، والله لا يشبه المخلوقين، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين.

ثانيًا: استيفاء معانيه في قليل الكلام، مع جمال المقال وكمال اللفظ.

تأمَّل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزّخرُف: ٧١]، قال بعضهم: جمع بهذين اللفظين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما في الجنة على التفصيل لم يخرجوا عنه!

تأمَّل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القَصَص: ٧]، حيث جمع في آية واحدة بين: أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين!

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩] وما فيه من معنى كثير مع لفظ قليل.

حُكي أن أعرابيًّا سمع رجلًا يقرأ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحِجر: ٩٤] فلم يتمالك أن وقع على الأرض وسجد! فسُئل عن سبب سجدته فقال: سجدتُ في هذا المقام لفصاحة هذا الكلام.

وسمع رجلٌ قارئًا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾ [يُوسُف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام. والشواهد على هذا كثيرة.

ثالثًا: ما تضمنه من الحجج والبراهين؛ ففيه الدلائل اليقينية القطعية، والأقيسة العقلية السَّنِيَّة، فقطع بحِجاجه كلَّ محتج، وخصم بجدله كل خصم ألد.

وصدق ربُّنا إذ قال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٢٧ ـ ٢٨].

رابعًا: ما تضمنه من أخبار القرون الخالية، وقَصص الأمم السالفة.

وتأمَّل في هذا مثلًا: ما تحدّاه به أهل الكتاب من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر، وحديث ذي القرنين، فكان على ما ذكره أنبياؤهم وتضمنته كتبهم.

خامسًا: ما تضمنه من أمور الغيب؛ فقد تضمن أخبارًا أفاد أنها ستكون فكانت، كقوله تعالى لليهود: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجُمُعَة: ٦] ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ﴾ [البَقَرَة: ٩٥] فما تمنَّاه أحد منهم.

وكحكمه على أبي لهب وزوجه بالنار قبل موتهما؛ فماتا كافرين.

وكقوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القَمَر] وكان ذلك في يوم بدر.

وكقوله جل وعلا عن الروم: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ﴾ [الرُّوم: ٣ ـ ٤] فكان ما أخبر به، في آيات كثيرة، ومضى شيء من هذا.

وهذا برهان لا يجد العقل أمامه إلا أن ينصاع إلى أن الذي تكلم بالقرآن هو العليم الخبير سبحانه، ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: ٣٧].

سادسًا: ما فيه من الإخبار بضمائر القلوب التي لا يصل إليها إلَّا علَّام الغيوب، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفَال: ٧]، أو قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢] فهذا ما حصل، من غير أن يظهر منهم قول، أو يوجد منهم فشل.

سابعًا: أن ألفاظه جمعت بين الجزل والسهل؛ بين الأسلوب الرفيع، والسهولة والوضوح؛ بين الفخامة والعذوبة؛ فلا يتوعّر جزله ولا يُسترذل سهله، ويكونان إذا اجتمعا مطبوعَينِ غيرَ متنافرين، ولا نجد ذلك في غيره من الكلام.

إنه لن تقع عينك قطّ على كلام أفصحَ ولا أجزلَ ولا أعذبَ من ألفاظه، ولن ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشدَّ تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه.

وأما معانيه: فكل ذي لُبٍّ يشهد له بالتقدم في أبوابه، والرقي في أعلى درجاته؛ فجاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظم، مضمّنًا أصحَّ المعاني، ولم توجد هذه الثلاثة مجموعةً سوى في كلام العليم الحكيم سبحانه.

ثامنًا: أنَّ تلاوته تختصُّ بما لا يوجد في غيره؛ حيث هشاشةُ مخرجه، وبهجةُ رونقه، وسلاسةُ نظمه، وحسنُ قبوله، وأن قارئه لا يكِلُّ، وسامعَه لا يمَلُّ، وهذا في غيره من الكلام معدوم.

كم يسمع المسلم القرآن؟ كلَّ يوم، وربما كرر سماع مقطع معين مراتٍ كثيرة؛ فلا يدخله مللٌ منه البتة، ولو أعطى ما يسمعه حظَّه من التدبُّر؛ لوجد في كلِّ مرة فائدة أو حكمة لم يتنبه لها إلَّا حينها؛ حتى كأنه يسمع هذا الكلام أول مرة.

وصدق من قال:

جميعُ الكُتْبِ يُدرِكُ مَن قَراها — مِلالٌ، أو فُتورٌ، أو سَآمهْ
سِوى هذا الكتابِ، فإنَّ فيهِ — بدائعَ، ما تُمَلُّ إلى القِيامهْ

تاسعًا: أنه منقول بألفاظ محفوظة، ومعانٍ مستودعة، حفظه المسلمون في صدورهم، ودوَّنوه في صحفهم، فلم ينخرم منه لفظ، ولا اختلَّ فيه معنى، ولا تغيَّر له ترتيب، حتى صار من الزلل مضبوطًا، ومن التبديل محفوظًا، تستمر به الأعصار على شاكلته، وتتداوله الألسن مع اختلاف اللغات على نظمه وصفته، لا يختلُّ بتعاقب الأزمنة، ولا يختلف بتباعد الأمكنة، ولا يتغير باختلاف الألسنة، وصدق الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩].

عاشرًا: تيسيره على جميع الألسنة، حتى حفظه غير العرب، ودار به لسانهم، ولا يُحفظ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري به ألسنةٌ كجريها به، حتى إنه سهُل على الأميين من العجائز أو الشيوخ قراءَتُه مع عجزهم عن قراءة غيره من الكتب، وما ذاك إلَّا بخصائص إلهية فضّله بها(١).

حادي عشر: اقتران معانيه المتغايرة وانسجامُها؛ فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد، ومن ترغيب إلى ترهيب، ومن ماضٍ إلى مستقبل، ومن قَصص إلى مَثَل، ومن حُكم إلى جدل، فلا ينبو ذلك ولا يتنافر.

ثاني عشر: أنه قد تتكرر بعض أخباره وقصصه بأَلفاظ مختلفة وعبارات متنوِّعة، ولو تدبّرها المتدبر لتبين له أَنَّ تحت المُعادات ـ ولا بُد ـ أَسرارًا ولطائفَ تُدهش الألباب.

ثالث عشر: عجز الأمم عن معارضته.

وقد تحدَّاهم ربنا سبحانه أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو حتى بسورة من مثله، فنكصوا عن معارضته، وأحجموا عن مماثلته، وتجرّعوا غُصص العجز مع شدة حميّتهم وقوة أنفتهم وبلاغة ألسنتهم؛

---

(١) أعرف امرأة كبيرة في السن، كانت رحمها الله أُمِّية، دخلت مدرسة التحفيظ على كِبَر؛ فيسَّر الله لها تعلُّمَ قراءة القرآن وحفظَ ما تيسر منه؛ فتفتح المصحف وتقرأ منه ما شاءت، ولو قربت لها أي كتاب آخر لم تستطع أن تقرأ منه حرفًا!
والتقيتُ بأخ في إحدى البلاد يحفظ القرآن كاملًا، وتلاوته له من أعذب التلاوات، ويصلِّي بالناس إمامًا، ومع ذا لم أستطع محادثته إلَّا بمترجم؛ لأنه لا يعرف من العربية شيئًا! وصدق الله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القَمَر: ١٧].

فاللغة لغتهم والكلام كلامهم، ومع ذلك أُخرسوا! ولم يزيدوا على أن يُخادعوا أنفسهم بالتشغيب والتكذيب: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان: ٥]، مع علمهم أنَّ صاحبهم أميٌّ، وليس بحضرته من يملي أو يكتبُ عنه شيئًا، لكنه العناد والجهل والعجز، ولو وجدوا إلى المعارضة بما يماثله بلاغة وفصاحة سبيلًا لفعلوا، لكن هيهات؛ فقد توثقت علائقه، وترادفت حقائقه، وأُحكم دقيقه وجليله، وامتنع كثيره وقليله، ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ [الطُّور: ٣٣ ـ ٣٤].

إنَّ من المحالِ أن يأتيَ أحدٌ بكلامٍ يفتعلُه من تلقاء نفسِه، ثمَّ يطالب أهل الأرض بأجمعِهم أن يعارضوه في أيسرِ جزءٍ منه ـ مقدارُه ثلاثُ آيات من عِدة ألوف ـ، ثم يعجزُ الخلائِقُ كلُّهم عن ذلك! لا يمكن أن يكون هذا إلا وهو وحي من عند الله.

وقد يقول قائل: إنه قد نُقل عن بعض الناس محاولة معارضة القرآن!

والجواب: نعم، حفظ التاريخ أسماءً يمكن أن تُعدَّ بأصابع اليد ممن رام أن يعارض القرآن؛ فباء بالخيبة!

وليس يغيب عن البال أن الحقَّ البيّن يُجمع عليه الناس كافة، ثم يكابر فيه الواحد والاثنان والثلاثة من بين ملايين البشر، فتكون مكابرتهم فيه وجهًا من الوجوه التي يثبت بها ويغلب.

بمعنى: التحدِّي الذي وقع: هو أن يأتي أحد بكتاب مثله؛ أي يضارعه بلاغةً وفصاحةً؛ فهذا لم يقع البتة، ولن يقع.

والذين راموا معارَضتهُ كان ما عارضوه به من أقوى الأدِلَّةِ على صِدْقِهِ، فإنهم أتَوْا بشيء يَسْتَحيِي العقلاءُ من سَمَاعِهِ، ويحكمونَ بسَماجَتِهِ وقُبحِ ركاكَتِه، فهو كمن أظهرَ طِيبًا لم يَشَمَّ أحدٌ مِثْلَ ريحِهِ قطُّ، وتحدَّى الخلائقَ بأن يأتوا بذَرَّة طيب مثله، فاستَحى العقلاءُ وعَرَفوا عَجْزَهم، وجاء الحُمقَان بعَذِرَة منتنة خبيثةٍ، وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئتَ به، فهل يزيدُ هذا ما جاء به إلا قوَّة وبرهانًا، وعَظَمَة وجلالة؟!

وهذا كما حكي عن مسيلمة الكذاب أنه قال في معارضة القرآن: يا ضفدع نُقِّي، كم تنُقِّين! لا الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين!

وحُكي أنه قال أيضًا: والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، واللاقمات لقمًا، إهالةً وسمنًا!

وحكي عنه ـ وحكي عن غيره أيضًا ـ قوله: الفيل ما الفيل، له ذنَب وثيل، ومشفر طويل، فإن ذلك من خلق ربنا لقليل!

فسبحان ربي العظيم! أهذا الذي هو أغثُّ كلام وأسخفُه يُعارَض به أشرف الكلام وأبلغه وأرفعه؟! أين الدُّر من المدر، وأين الصفو من الكدر! وصدق ربنا جلّ في علاه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وعلاوة على ما سبق: فإنَّ النبي ﷺ أعلن للخلائق أجمعين في ابتداء التحدي بالإتيان بمثله: أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البَقَرَة: ٢٤]، إن الكاذب أضعف من أن يُقدم على جرأة كهذه!

إنَّ هذا شيءٌ لا يُقْدَمُ عليه إلَّا عن عِلم لا يخالجُه شكٌّ، مستندٍ إلى وحي من الله تعالى، وإلَّا فعلمُ البَشَر وقدرتُه يضعفان عن ذلك.

رابع عشر: أنه كتاب متشابه؛ يشبه بعضه بعضًا، ويصدّق بعضه بعضًا، مع سلامته من وقوع خطأ أو نقص، أو تناقض أو اختلاف، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فُصّلَت: ٤٢].

وما استطاع أحد مع كثرة أعداء المسلمين المتربصين أن يُثبت على القرآن خطأً واحدًا، ولا معلومة ناقصة، ولا شيئًا من التعارض أو التناقض، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّساء: ٨٢].

خامس عشر: هذه الآية السابقة بحد ذاتها معجزة؛ فهذه الطريقة في التحدي ليست من طبيعة البشر، وهي كما يقول بعضهم: هذا الأسلوب مَثله كمَثل طالب يدخل اختبارًا، ويكتب في آخر الورقة للممتحن: أتحداك أن تجد خطأً واحدًا في إجابتي! لا أحد يفعل هذا؛ لأنه سيجعل الممتحِن يسهر ليلته في البحث عن خطأ ليجده؛ لكن هكذا تحدَّى القرآن المعاندين!

سادس عشر: أنه اشتمل على جملة من الآيات العلمية الكونية الصحيحة، التي لم يُكشف عن نقابها إلَّا حديثًا، وهذا ما يسمى في اللسان المعاصر: بالإعجاز العلمي.

وأنبه أولًا: إلى أن القرآن ما نزل ليكون كتاب كيمياء أو فيزياء أو فلك، إنما هو كتاب هداية وإصلاح، ومع ذلك فإنه قد اشتمل على جملة صالحة من البراهين والآيات التي ترشد العقول والقلوب إلى أنه كلام الله ﷻ حقًّا، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فُصّلَت: ٥٣]، ولعلَّ من الحكمة في تضمين القرآن شيئًا من هذه الآيات: إقامةَ الحجة على فئة من الناس لا تهتم إلا بالبحث العلمي التجريبي؛ فدونها ما ترى من عجائب.

فهذا القرآن العظيم اشتمل على جملة من الحقائق التي ما عرفها

الناس إلَّا منذ سنوات قليلة؛ فكيف كان ذلك لولا أنه تنزيل من العليم القدير سبحانه وتعالى؟

إن ورود هذه الحقائق الضخمةِ والدقيقة على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم، وفي وقت لم تتقدم فيه هذه العلوم: دليلٌ على أنه تلقّاها من العليم الخبير سبحانه، ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفُرقان: ٦].

وإلَّا فحدثني:

ـ كيف علم النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا بأن هناك أمواجًا عاتية في البحر العميق؟ وأن الظلام في أعماقه دامس تمامًا، وهو الذي ما ركب البحر قط، قال سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النُّور: ٤٠]. أمواج بحرية في أعماق البحر تبدأ من بعد سبعين مترًا: هذا شيء لم تعرفه البشرية إلَّا قبل نحو مائة عام، وبعد نحو ستمائة متر في داخل البحر يصبح الظلام دامسًا؛ إذا أخرج يده لم يكد يراها؛ فمن الذي نزل إلى هذه الأعماق قبل ١٤٠٠ سنة؟! إذ الإنسان يستحيل أن يغوص في البحر أكثر من ثلاثين مترًا؛ فجسمه لا يحتمل!

ومن اللطيف هنا أن أشير إلى قصة ذكرها (جاري ميلر) ـ القِس الذي أسلم ـ في كتابه «القرآن المعجز» عن البحّار الذي قرأ القرآن وتأثر بما فيه من وصف دقيق للعواصف في البحر؛ ثم لما علم أن الذي جاء بهذا القرآن رجل عاش في الصحراء ولم يركب البحر قط: أسلم!

ـ من أين للنبي ﷺ أن يعلم الأطوار التي يُخلق فيها الإنسان في ظلمات ثلاث؟ وهو الذي لم يدرس الطبَّ ولا علم التشريح، قال

سبحانه: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزُّمَر: ٦].

من الطريف أيضًا ما ذكره (الدكتور ميلر) عن (الدكتور كيث مور) ـ عالمِ الأجنة في جامعة تورنتو ـ الذي دُعي قبل عدة عقود إلى الرياض، وأطلعه بعض المسلمين على الآيات المتعلقة بخلق الأجنة؛ فاعترف للدكتور ميلر بعد ذلك بأن بعض هذه المعلومات المذكورة في القرآن عن هذا الموضوع لم تكتشف إلَّا منذ ثلاثين سنة! بل وعدّل في طبعة جديدة من كتابه «قبل أن نولد» بناء على هذه المعلومات.

ـ من أين علم النبي ﷺ وهو الأميُّ الذي لم يقرأ ولم يكتب بأن هناك برزخًا دقيقًا بين البحرين؟ قال جل وعلا: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ [الفرقان]، إنها تلك الحواجز المائية بين المياه المالحة والعذبة التي عُرفت في هذا العصر الحديث.

هذا غيض من فيض القرآن في هذا الموضوع، يدلُّ العقول المنصفة على أنه كلام الله حقًّا، وأن المبعوث به رسوله ﷺ صدقًا.

سابع عشر: سموُّ تشريعاته، وكمال أحكامه، وشمولها لكلِّ مناحي الحياة، وجلبها للمصالح ودرؤها للمفاسد، مع دستورٍ أخلاقيٍّ فريد، ومنهج تربويٍّ بديع، وهذا ما سبق تفصيل القول فيه فيما مضى.

ولا ريب أن الإعجاز في معاني القرآن أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه.

ثامن عشر: أنه يجد فيه كلُّ أحدٍ بُغيته، ويقف فيه على ما يبهره.

إنَّ كل أحد يمكنه أن يغرف من معين هذا القرآن علومًا نافعة؛ حيث يجد فيه الطبيبُ أو الفيزيائي شيئًا مبهرًا، كما يجد فيه اللغوي شيئًا عجيبًا، وهكذا الأديب والمتخصص في علوم النفس والاجتماع والتربية والفلك... إلخ.

علوم نافعة جامعة، وأحكام شاملة سامية، كافية شافية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعَام: ١١٥].

تاسع عشر: أنه موافق للعقول والفطر، ولذا؛ ما سمع آياته منصف وعقلها، إلَّا وسلّم بأنها معقولة مقبولة، إذ ليس في القرآن شيء معقّد تنبو عنه الأفهام، أو تنفر منه الفطر.

الوجه العشرون: أنه جمع جميع الأحكام جمعًا كليًّا في الغالب، وجزئيًّا في المهم، فصدق فيه قوله سبحانه: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النّحل: ٨٩].

الوجه الحادي والعشرون: تأثيره العجيب في النفوس، قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحَشر: ٢١]، وقال جل في علاه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

فلا يُنصت إليه أحدٌ ويفرغ له فؤاده، إلَّا وجد أثرًا عظيمًا في نفسه، ومهما قرأه العبد يجده لا يَخلق مع كثرة الرد، فآثاره تتجدد في النفوس، فسبحان الله العظيم! إنه الغيث الذي تحيا به القلوب، وتُنبت به ثمرات الأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسرَاء: ٩]، ناهيك عن كونه شفاء من الأمراض الحسيَّة والمعنوية.

هذه بعض البراهين التي تدلُّ على أن هذا القرآن كلام الله ﷻ حقًّا، وصدق الله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: ٣٧]، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشُّعَراء]، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسرَاء: ١٠٥].

فهو إذن أعظم دليل على صدق نبينا محمد ﷺ.

من الذي ينتفع بهدايات القرآن ونفحاته؟

إن أبواب ما في القرآن من العلم والإيمان لا تُفتَّح إلا لمن يقرأه مريدًا للخير.

فخذها قاعدة: كلما أعطيت نفسك حظَّها من تدبُّر القرآن بتجرُّدٍ ورغبة في الخير: غمرتك نفحاته!

وهذا أيضًا من أوجه إعجازه، فهو كلام واحد، ومع ذلك فإنه سبب لهداية قوم، وسبب تعاسة لآخرين، قال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فُصّلَت: ٤٤].

وصدق ربنا إذ قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فُصّلَت: ٤١]، فمن عزته: أنه لا ينال ما فيه من الخير إلَّا من يُقبل عليه متواضعًا مريدًا للحق، فهناك تتفجر له ينابيع العلم والهدى والإيمان، أما الذي شمخ بأنفه، واستكبر وأعرض، فإنه لا يزداد به إلا عمى ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النَّبَإ: ٢٦].

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا من أهل القرآن، وأن يجعله ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا، وأن يكون حجة لنا لا علينا، إن ربنا لسميع الدعاء.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

ـ كتاب: «النَّبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز، فهو نافع في بابه؛ في إثبات مصدرية القرآن، وأنه كلام الله حقًّا.

ـ وكتاب: «القرآن المعجِز» للدكتور جاري ميلر.

الفصل التاسع

مشكلة الشر

إنَّ من أركان الإيمان اعتقادَ أن كلَّ شيءٍ بقدر الله، وداخلٌ في علمه وكتابته ومشيئته وخلقه، سواءٌ أكان خيرًا أو شرًّا، فلا يخرج شيءٌ عن قدر الله.

فكما أن الخير بقدر الله فإن الشرَّ بقدر الله أيضًا، وعليه فكل ما يقع من أنواع الشرور والابتلاءات، والمصائب والسيئات، فهو بتقدير الله؛ قد علم سبحانه أنه سيكون، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وشاءه، وخلقه ﷻ.

ووجود الشرِّ في المخلوقات مما يستشكله بعض الناس؛ فتجدهم يسألون: كيف يخلق الله شيئًا فيه شرٌّ، مع أنه لا يحبه؟

وسأسعى في توضيح هذا الموضوع والإجابة عن هذا الاستشكال ـ بعون الله ـ بسوقِ ست قواعد، من فهمها سهُل عليه فَهم هذا الموضوع إن شاء الله.

أول تلك القواعد: أن الشرَّ لا يُضاف إلى الله سبحانه فِعلًا أو صفةً، إنما الشرُّ في مخلوقه لا في خلقه، وفي مفعوله المنفصل عنه لا في فعله القائم به.

وأنّى يضاف الشر إلى ذاته أو صفاته وأفعاله وهو القدُّوس السلام، المُنزَّه عن كل نقص سبحانه!

وكيف يكون ذلك والله سبحانه على صراطٍ مستقيم: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٦]! فأفعاله كلها عدْلٌ، وأحكامه القدرية والشرعية كلها حكمة.

وكيف يُضاف الشرُّ إلى الله، وقد قال أعلم الخلق به ﷺ: «**والشر ليس إليك**». [أخرجه مسلم (٧٧١)]، أي لا يكون منه ولا يفعله، بل كل أفعاله تعالى خيرٌ وحكمةٌ ومصلحة.

القاعدة الثانية: ليس في مخلوقات الله شرٌّ محضٌ، بل ولا شرٌّ غالب.

إنما الموجود في المخلوقات خيرٌ محضٌ، أو خيرٌ غالب.

فكلُّ مخلوقٍ في هذا الكون، فإما أن يكون خيرًا محضًا كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة، وإما أن يكون في وجوده خيرٌ غالب؛ فإن الله ﷻ أوجد هذه الأشياء التي فيها شر، ورتب على وجودها وجهًا من الخير هو أغلب الوجهين، ولأجل هذا كان إيجاد هذه المخلوقات حكمة.

القاعدة الثالثة: الشرُّ في مخلوقات الله شرٌّ نسبيٌّ إضافي، أي هو شرٌّ بالنسبة إلى محله، أو لمن أصابه، وإن كان مع وجود هذا الشر خيرٌ من وجهٍ أو وجوه، له أو لغيره، حالًا أو مآلًا، في الدنيا أو في الآخرة.

ومن فَهِم هذا فإنه يتبين له شيء من حكمة الله سبحانه العظيمة في تقدير وجود أنواع الشرور والمصائب والمعائب في هذا الكون، إذ لا شكَّ أنه يترتب على ذلك خيراتٌ عظيمة، ولأجل هذا: كان وجود هذه الأشياء أحب إلى الله سبحانه من عدمها.

القاعدة الرابعة: الخيرُ في مخلوقات الله أضعافُ أضعافِ الشرِّ، وهذا يُدرك بأدنى تأمُّل.

فمِن رحمة الله تعالى بعباده - ورحمته وسعت كل شيء - أن الخيرَ والنعيمَ في هذا الكون أكثر بكثيرٍ من الشرور والمصائب والابتلاءات؛ فكل أحد يعلم أن الأصحاء أكثر من المرضى، وأن السلامة من البراكين والزلازل والحرائق، ومن سقوط الطائرات وحوادث السيارات ونحوها: أكثر بكثير من وقوعها.

إذن: الخيرات في هذا الكون أضعافُ أضعافِ الشرور، وهذا شيءٌ لا يُمكن جحده عند من أنصف.

القاعدة الخامسة: أوجه الخير ـ فيما فيه شرٌّ ـ قد تظهر وقد لا تظهر.

أي أنه ربما يظهرُ لنا شيءٌ من الخير المترتب على وجود الشرور والمصائب، وربما يخفى علينا، فالمقام ههنا مقامُ بحثٍ في حكمة الله تبارك وتعالى، وحكمةُ الله أوسعُ من أن يُحيط بها عقلُ المخلوق.

فالحكمة إذن قد تظهر وقد لا تظهر، وعدم ظهورها لا يعني انتفاءها؛ فإن عدمَ العلم بالموجودِ لا ينفي وجوده، وعدم العلم ليس علمًا بالعدم، وهذا مما يتفق عليه العُقلاء.

فالحكمةُ من إيجاد الشرِّ موجودة، ولكن لقصور عقولنا وأفهامنا: فإنَّ الذي يظهر لنا منها شيء، وتغيب عنا أشياء، **ونحنُ نستدلُّ على ما جهلنا بما علمنا.**

القاعدة السادسة: الشرُّ في مخلوقات الله مُرادٌ لغيره لا لذاته.

أي أن الله سبحانه شاء وجودَ ما يَكرهُ من الشرور لأجل ما يترتب على وجودها مما يُحب؛ فقدَّر ما يكره لحصول ما يُحب، وحصول ما يُحب أحبُّ إليه سبحانه من فواته.

والقاعدةُ في هذا: أن «تفويت الخير الغالب: شرٌّ غالب».

والعُقلاء يُدركون حُسن تحصيل ما فيه مصلحةٌ غالبة وإن كانت فيه مفسدةٌ قليلة؛ فالدواء المُر الكريه: يتقزز منه شاربه من وجه، وهو نافع له بإذن الله من وجه آخر.

الجواب عن مشكلة الشر

ثمة شبهة يُوردها أعداء الله الملاحدة للتلبيس على المؤمنين، تُسمى: مشكلة الشر ـ أو معضلة الشر ـ.

وقد أوقعت هذه الشبهة بعض الناس في حَيْرَةٍ، وربما في شكٍّ وارتياب، وربما فيما هو أعظم.

وأعداء الله مجتهدون في بثِّها؛ لما توقعه في نفوس الجُهال ضِعاف العلم والإيمان، حتى قيل: إنَّ مُشكلةَ الشرِّ هي الحجة المركزية للملاحدة! وعليه فإحاطة المسلم بكيفية دفع هذه الشبهة عن نفسه وعن غيره أمرٌ من الأهمية بمكان.

وخلاصتها: أنهم يقدحون في وجود الله بسبب وجود الشر؛ فيقولون: لو كان الربُّ الخالق القدير الرحيم موجودًا لما وُجد الشر في هذا الكون ـ من الكوارث والجوائح والمصائب والأمراض والظلم وغير ذلك ـ إذن: وجود الشر دليلٌ على عدم وجود الخالق، وإلا لماذا ما أزاله؟!

هذه هي الشبهة العليلة التي يجتهدون في التلبيس على الجهال بها، وسأذكر بعون الله أجوبة ثمانية مختصرة تُعين في فَهم هذا الموضوع، وإزالة الشبهة بتوفيق الله.

الجواب الأول أن يقال: نُسلم بوجود الشرِّ في هذه الدنيا، لكننا لا نُسلم بأنه شرٌّ محضٌ ـ أو شرٌّ مجّاني كما يعبر بعضهم ـ، بل أنواع المصائب والشرور والظلم وما إليها: يترتب على وجودها خيرٌ ومصلحة ولا بد، والرب الخالق الحكيم ﷻ قدر وجودها لما يترتب على وجودها من خيرٍ ومصلحة، وهذا شيء مقبول عقلًا.

إذن: الشرُّ الموجود في هذا الكون، وإن كان شرًّا من وجه؛ فهو خيرٌ من وجهٍ آخر.

وكل ما يُذكر أن فيه شرًّا: قد ترتب على وجوده خيراتٌ أعظمُ، فالحكمة إذن تقتضي وجودها لا عدمها.

فهذا الماء الذي يقولون: إنه يغمر في فيضانات عظيمة قُرًى فيُهلك ويفسد؛ هو نفسه الماء الذي تحصل بسببه مصالحُ عظيمة، وهو نفسه الماء الذي يحتاجه الناس في شُربهم ونظافتهم ومتعتهم، وفي أشياءَ كثيرة.

وعليه، فوجود الماء ترتب عليه خيرٌ كثير وشرٌّ قليل، والشر الذي وقع: في أعطافه حِكمٌ ومصالح يدرك بعضها من نظر بعين الإنصاف.

والنار التي قيل إنه قد حصل بسببها فساد؛ هي نفسها النار التي انتفع بها الناس انتفاعًا عظيمًا في حياتهم، أكثرَ بكثير من المفسدة التي تقع نادرًا.

إذن: كلُّ شيءٍ من هذه الأشياء التي يُشار إلى أن فيها شرًّا فإننا نقول: إنه ترتب على وجودها خيراتٌ أعظمُ وأعظم.

إذن: الحكمة تقتضي وجودَ شرٍّ، ووجوده لا يستلزم ـ كما يزعمون ـ نفيَ وجود الخالق ﷻ.

الجواب الثاني: الشرُّ في هذا العالم داخلٌ في حُسن مجموع العالم، والنظر ينبغي أن يكون نظرًا كليًّا للأشياء، لا نظرًا جزئيًّا.

إننا نُخطئ خطأً عظيمًا إن جعلنا النظر مُقيدًا جزئيًّا، دون أن يكون نظرًا عامًّا كُليًّا.

إنك لو وقفت أمام لوحة جميلة، فسلَّطت نظرك على خطٍّ صغير من خطوطها فحسب: فلن ترى حُسنًا ولا جمالًا، لكن إذا نظرت لها بصورة عامة فستجد الحُسن والجمال.

كذلك وجود هذه الشرور في هذا الكون هو من الحُسن الذي سيظهر لك إذا نظرتَ إلى مجموع العالم؛ فأيُّ قيمةٍ للصحة إذا كنا لم نعرف المرض؟ وأيُّ قيمةٍ للغنى إذا لم نعرف الفقر؟ وأيُّ قيمةٍ للنجاح إذا لم يكن ثمة تعبٌ ومشقة؟

لنتخيل هذه الحياة بدون شيء من المصائب والعقبات والمصاعب؛ كيف ستكون حياةً باهتة لا لون لها ولا طعم!

إننا نعرف حُسن الأشياء بضدِّها، «والضِّدُّ يُظهر حسنَه الضِّدُّ».

ولن نعرف الخط المستقيم إن كنا لا نعرف الخط المعوج! «وبضدها تتبين الأشياءُ».

باختصار: إنَّ وجود المصائب والابتلاءِ وأنواعِ الشرور ضروريٌّ لحُسنِ العالم، فالقَصْرُ الحسن الجميل: من حُسنه: وجود المرحاض الذي هو موضع البول والغائط والروائح الكريهة، ومع عدمه: يكون هذا القصر ناقصًا فاقدًا كمالَ حُسنه.

هكذا ينبغي أن يُنظر إلى الموضوع.

الجواب الثالث: إن دعوى أن الشرَّ الموجودَ في هذا الكون شرٌّ مجانيٌّ ولا مصلحة فيه ـ كما يدَّعي الملاحدة ـ: دعوى غير مُمكنة، لأن المقام يحتاج إلى علمٍ مُحيط، والبشر فاقدون له.

فحتى تجزم أن الشرَّ الموجود لا يترتب عليه أيُّ مصلحة لا في الحال ولا في المآل: ينبغي أن يكون علمُك علمًا واسعًا مُحيطًا، والواقع خلاف ذلك؛ فعلمُنا قليل قاصر!

فمن رأى من بعيدٍ ـ مثلًا ـ رجلينِ يُمسكان طفلًا، ومعهما منشار يَهمَّانِ أن يقطعا رجله؛ فليس من العقل والإنصاف الحكمُ على هذا الموقف بخير أو شر بمجرد هذا النظر؛ بل لا بد من الإحاطة بالواقع؛ فربما يكونان مجرمين، وربما هما طبيب وأبٌ للطفل، وهو مُصاب بمرض لو سرى إلى جسده لمات، فالحكمة بل والرحمة تقتضي قطع رجله لتسلم نفسه، وهذا خير!

إذن، إذا قائل قائلٌ: إن الشرَّ الموجود في العالم لا مصلحة من ورائه؛ فإننا نقول له: لا بد أن يكون علمُك عِلمًا مُحيطًا بالواقع من كل وجه، وهذا ما لا سبيل إليه، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

الجواب الرابع: إذا قال الملاحدة إن وجودَ الشرِّ دليلٌ على نفي وجود الله، فإننا نجيب بقولنا: فماذا عن وجود الخير! ألا ينبغي أن يكون دليلًا على وجود الله؟!

فالخير هو الأصل، وهو الأكثر، والشر طارئ قليل؛ فالصحة أكثر من المرض، ومَن هم في المستشفيات أقل بكثير ممن هم خارجها، والسلامة من الحوادث والزلازل والبراكين أكثرُ بكثير من وقوعها، وهذا ما لا يختلف عليه العقلاء.

أعود فأقول: القوم يستدلون بوجود المرض على عدم وجود الله؛ فماذا عن وجود الصحة؟ لماذا لم يكن وجود الصحة دليلًا على وجود الله؟

لماذا كان هذا دليلًا ولم يكن هذا دليلًا؟!

هذا أمر، وأمرٌ آخر: هذا المريض المُصاب في رِجله ـ مثلًا ـ: ماذا عن بقية أعضائه؟ وهي كثيرة جدًّا؛ فجسمه يحوي مليارات الخلايا، وهي تعمل عملًا حسنًا باتساق مع بعضها، وأعضاء كثيرة في جسده سليمة تؤدي وظائفها؛ وعليه فهو إن كان مُصابًا في رِجله: فقلبه وكبده وأمعاؤه ودماغه ويده وأوعيته الدموية... إلخ؛ كلها سليمة؛ فواحد يُقابل مائة أو أكثر: فما الذي ينبغي أن يكون عليه المعوَّل؟! لا شك أن كِفة الأكثر ينبغي أن تكون هي الراجحة!

لذا فكلُّ الملاحدة عاجزون عن الإجابة عما يُسمى ـ تنزلًا ـ: (مُشكلة الخير)!

أي: إذا كانوا يستدلون بمشكلة الشر؛ فإننا نطرح عليهم ما يُشكل على مذهبهم أكثر؛ وهو: مشكلة الخير! فالخير أكثر بكثير؛ فلِم لا يستدل هؤلاء بوجود الخير الكثير على وجود الخالق الرحيم الكريم الحكيم سبحانه؟! وهل إنكارهم ـ بعد هذا ـ إلا دليل الهوى والعمى!

الجواب الخامس: لا تلازم بين كمال الصانع وكمال المصنوع.

فوجود مصنوعٍ ناقص لا يستلزم أن يكون صانعه ناقصًا؛ لاحتمال أنه صنعه ناقصًا قصدًا؛ وعليه فنقص المصنوع لا يستلزم نقص الصانع؛ فضلًا عن أن يكون نقصُ المصنوع دليلًا على عدم الصانع! وهذا ما وقع فيه الملاحدة: استدلُّوا بنقص المصنوع على عدم صانعه؛ فأين العقل وأين الفهم!

دعني أضرب لك مثلًا: من دخل إلى قصرٍ غايةٍ في الجودة

والجمال، فيه عشرات الغُرف المفروشةِ بأحسن فراش، المصبوغةِ بأحسن الألوان، المرتبةِ أبدع ترتيب، ثم رأى من بين غرفه غُرفةً مبعثرة الأغراض، قبيحة الألوان، ليست في جمال بقية القصر؛ فمن رآها لن يدَّعي أن باني القصر غبيٌّ قاصر العقل، فضلًا عن أن يقول: إن وجود هذه الغرفة المبعثرة دليل على أن القصر لا باني له!

إنما سيستدل بما رأى من إتقان القصر على دقة بانيه وجمال ذوقه، وسيحيل وجود الغرفة المبعثرة بهذه الصورة إلى سبب وجيه، أي إلى حكمة لأجلها جعلها الباني كذلك؛ فربما أرادها مكانًا لعقاب، أو مستودعًا، أو أي شيء آخر.

خلاصة هذا المثال: إن أغبى الأغبياء لن يقول حين رؤية القصر الجميل والغرفة القبيحة: هذا القصر لا باني له!

لكن الملحد قال ـ بعد أن رأى كونًا فسيحًا متقنًا، حسنًا جميلًا بديعًا، ورأى فيه شيئًا من المصائب والابتلاءات ـ: هذا الكون لا خالق له!

مثال آخر: لو كان عندنا جهاز هاتف (جوّال)، صنعتهما شركةٌ واحدة، أحدهما ذو جودة وإتقان، ويملك مميزات كثيرة، وكل من رآه أُعجب به، والآخَر: مستواه دون ذاك، ولا يملك تلك المميزات، والشركة صنعته هكذا لهدفٍ تجاري عندها.

فصاح رجلٌ لما رآهما: لا يوجد صانع لا لهذا ولا لهذا؛ إذ لمّا كان أحدهما ناقصًا: فالنتيجة أن كليهما وُجدا من العدم!

فهل يتفوَّه عاقلٌ ـ أو حتى مجنون ـ بهذا؟!

هذا هو حال الملاحدة تمامًا!

أتوا بمثال من هذا العالَم أو مثالين أو عشرة أو مائة؛ فيها نقص أو مصائب، في مُقابل ملايين الملايين من أوجه إتقان الصنع، والرحمة بالخلق؛ ثم لأجل ذاك النقص ادّعوا أن هذا الكون لا خالق له؛ أهذا منطق عقلاء؟!

المنطق الصحيح يقول: وجود النقص لا يستلزم انتفاء الحكمة، ونقص المصنوع لا يستلزم نقص الصانع، فضلًا عن عدمه!

والخلاصة: الله تعالى قد شاء أن تكون هذه الحياة الدنيا هكذا، فيها خيرات كثيرة، وفيها شرورٌ بالنسبة للخيرات قليلة، وله في هذا وهذا حكمٌ بالغة.

كما شاء سبحانه أن يجعل في الحياة الآخرة دارًا ليس فيها إلَّا نعيم خالص، ولذاتٌ مستمرة، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ودارًا أخرى ليس فيها إلَّا البؤس والنكال والعذاب الأليم ـ عياذًا بالله منها ـ، ومن ذاق في الدنيا شيئًا من اللذة، ومسَّه شيء من الألم فهم بيُسرٍ طرفًا من معنى ما في الدار الآخرة من نعيم أو عذاب، مع البون الشاسع بين ما في الأولى والآخرة.

الجواب السادس أن يقال: لا يستقيم استدلال الملاحدة بما زعموه «مشكلة الشر»؛ بل هذا شيء لا ينقضي منه العجب! لأن الأشياء عندهم كلَها مادية، فما ثَمَّ إلا ذراتٌ اصطدمت صدفةً فكان هذا الكون بلا خالق!

وعليه: فلا غايةَ ولا حكمة ولا أحاسيس ولا خير ولا شر، ولا وجود لمعيار ثابت للأخلاق ومعرفةِ الصواب والخطأ.

فكيف يستدلون بالشر؟! وما هو معيار الشر أصلًا؟!

كيف لهم أن يحكموا أنَّ هذا شرٌّ، أو أن هذا صحيح، وهذا غير صحيح؟

ما هو المعيار؟! فهم قائلون بنسبية الأخلاق، بل بالعدمية الأخلاقية!

إن التمييز بين الحق والباطل والخير والشر لا يتأتى إلَّا ممن يعتقد بوجود خالق حكيم وضع في القلوب فطرةً تُميز بين هذه الأشياء، وتدرك حسن الخير وقبح الشر.

بمعنى: إذا أردنا أن نقول: هناك خير وهناك شر، وهناك صواب وهناك خطأ: يجب أن نرتفع عن الأشياء المادية؛ فهذا الحكم ليس نتاج نظرية التطوُّر والارتقاء التي يؤمنون بها، إن هذا لا يُمكن أن يكون إلَّا إذا ثبت أنَّ ثَمة ربًّا خالقًا هو الذي وضع في القلوب هذه الفطرة التي تُميز بين الصواب والخطأ، أمَّا على أصولهم فإن الأشياء كلها سواءٌ ولا فرق؛ فسيان أن تُطعم يتيمًا وتُحسن إليه، أو تقتله وتُقطّع أطرافه! ولا فرق بين زواج شرعي وبين اغتصاب؛ فالكل في حكم القانون الإلحادي سواء.

إن الحياة كلها عندهم مادية.. الماديةُ ولا شيء غيرُها، فلا هدف ولا غاية ولا حكمة، ولا مشاعر ولا أحاسيس ولا أخلاق.

إذن، كيف للملاحدة بعد ذلك أن يستدلوا بمشكلة الشر؟ إذ لا شر ولا خير عندهم أصلًا! فهذا ما يجعل شبهتهم ميتة قبل أن تولد!

الجواب السابع: حُجة الملاحدة هذه تدلُّ على أنَّ مفهومهم للرب مفهومٌ مغلوط.

أن يكون الربُّ خالقًا واسعَ العلم والحكمة، له قُدرةٌ وعزة وملك، يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ ما يريد، والكلُّ عبدٌ ذليلٌ له: هذا غير وارد عندهم!

تدري ما مفهوم الربِّ عندهم؟ باختصار شديد: هم يريدون ـ أو يتصورون ـ ربًّا عبارةً عن خادم أو آلة (تعالى ربنا وعز)، آلة تفعل الأشياء التي يُبرمجونها عليها، أو خادم يأمرونه فيُطيع، ولذا كان وجود المصائب والمصاعب مستشكلًا عندهم!

لأنهم يريدون ربًّا لا يفعلُ شيئًا سوى أن يُلبي لهم رغباتهم، ويُغدق عليهم من شهواتهم، وإذا تمنوا في دنياهم الملذات فحسب؛ فعليه أن يُعطيهم مطلوبهم دون أن يخالطه شيء من المكدرات! ومتى ما مسَّهم أدنى مشقة ـ ولو كانت شوكة شاكتهم ـ بادروا إلى نفي وجوده!

فهل هذا هو الربُّ حقًّا؟! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الربُّ يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، وله العزة والكبرياء، والعبد عبدٌ؛ فهم الحكمة من أفعاله سبحانه وتقديره أو لم يفهمها، فلا انفكاك له عن كونه عبدًا لربه البتة.

الجواب الثامن والأخير: الدنيا مخلوقةٌ للابتلاء، لا للنعيم والإسعاد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢].

فإذا كانت الدنيا ليست دار إسعاد، ولا نهايةَ المطاف؛ فلا وجه لأن يُطلب حصولُ كلِّ أنواع اللذات فيها، وزوالُ كل أنواع الغموم منها؛ فثمة دارٌ أخرى هي دار الإسعاد المحض لمن استجاب لربه.

ومشكلة القوم أن نظرهم مقصور على هذه الحياة الدنيا، قد رضوا بها واطمأنوا، وما طمحت أبصارهم إلى ما هو أبعدُ منها.

إن كلَّ من يؤمن بحياة بعد هذه الحياة ـ هي الحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العَنكبوت: ٦٤] ـ فسيزول عنه كلُّ إشكال يتعلق بهذا الموضوع؛ لأنه سيدرك أن في الحياة الدنيا مصائبَ وابتلاءات لحكمةٍ أرادها مُقدِّرها، وثمة جزاءٌ وتعويض جزيل في الآخرة لمن صبر على ابتلائه ومصائبه.

إن هذه الحياةَ الدنيا مجرد لحظات وثوانٍ إذا ما قورنت بالحياة الأخروية الأبدية التي لا انقضاء لها، ولذا إذا مرض الإنسان أو احترق أو ابتلي أو افتقر؛ فصبر واحتسب وأذعن لربه: فسيكون له في الآخرة عوض عظيمٌ جدًّا، فما موضع الإشكال إذن؟! إذا وزنّا الموضوع بميزان العقل فستكون المسألة معقولة جدًّا.

لو قال ثريٌّ: مَن صبر على أَلَمِ قَرْصَةٍ أعطيته بيتًا واسعًا وسيارةً فارهةً ومالًا كثيرًا؛ فهل هناك من يرفض هذا العرض «المغري»؟!

كل أنواع البلايا في الدنيا إذا ما قورنت بجزاء صبرها في الآخرة فإنها أهون من هذه القرصة، وأنواعُ النعيمِ الموعودُ به لهذا الصابر أبد الآباد أعظمُ بكثير من هذا الوعد الدنيوي، بل لا مقارنة أصلًا، وفي الحديث: «**ولموضع سوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها**» [أحمد: (١٥٥٦٣)].

فتبين أنه ستزول كلُّ الإشكالاتِ المتعلقة بهذا الموضوع ـ بتوفيق الله ـ عند من فهم هذه الحقيقة فهمًا صحيحًا: هل الدنيا دارُ إسعاد، وهل هي نهايةُ المطاف، أم أن هناك دارًا أخرى هي دار الجزاء والعِوض وإسعاد المؤمنين؟

الدنيا دار ممر، وكل من فيها ـ من أهل الترف والنِّعم أو أهل

الابتلاءات والمصائب ـ سيموت، ثم تكون حياة أخرى يبعثون لها، فيجازى المؤمنون الصابرون، ويجازى المعرضون الساخطون؛ فأي عدل فوق هذا العدل؟

بل للمؤمنين الصابرين: أيُّ فضل فوق هذا الفضل!

الخلاصة: إن اعتقادنا ـ معشر المسلمين ـ في موضوع الشرِّ ووقوعه في هذا الكون قائم على ركيزتين، هما:

أولهما: كمال الربِّ سبحانه؛ في علمه وحكمته ورحمته، وعزته وعدله وملكه.

وثانيهما: نقص العبد في عقله وعلمه، وقدرته وإدراكه.

فمن آمن بكمال الله المطلق وتنزهه عن النقص والعيب والظلم، وأدرك نقصه وضعفه: فإنه سوف يزول عنه كل إشكال يتعلق بهذا الموضوع، والتوفيق بيد الله. فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سَبَإ: ١].

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

فصل إيماني علْمي نافع لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨١٢ - ٨٤٧) طبعة دار عالم الفوائد.

الفصل العاشر

لله حكمةٌ بالغة

الحكمة: وضع الشيء في موضعه المناسب له والموصل للغايات المحمودة منه.

والحكمة من صفات الله الثابتة له سبحانه على الوجه اللائق به، ولا تماثل حكمة المخلوقين.

ومن أسمائه سبحانه: الحكيم، وقد ورد في القرآن في نحو تسعين موضعًا، وأجلى معانيه: أنه ذو الحكمة.

وأدلة ثبوت الحكمة له تعالى كثيرة جدًّا، وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شفاء العليل» اثنين وعشرين نوعًا من الأدلة، يدخل تحت كلِّ نوع جملةٌ من الأدلة الشرعية، بل ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من تأمل في مواضع حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق والأمر وجدها ـ مع قصور النظر ـ تزيد على عشرة آلاف موضع، كلها دليل على ثبوت حكمته تبارك وتعالى في كل ما يُقدّر ويحكم ويخلق.

فهو سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالِمين كما هو أرحم الراحمين، له الحكمة الباهرة والعزة القاهرة، ملأت حكمته الوجود وبهرت العقول، حتى صارت للبصائر أظهر من نور الشمس للأبصار.

وخلقُه وأمره كلُّه يشهد لَهُ بالحكمة الْبَالِغَة وَالنعْمَة السابغة وَالْحجّة الدامغة، والنزاهة من الظُّلم واللعب والعبث، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هُود: ٥٦].

فله في كلِّ ما يفعل أو يأمر أو يُقدّر غاياتٌ مطلوبة وعواقبُ محمودة يُحمد عليها، ولأجلها أنزَل كتبَه، وأرسل رسلَه، وشرع شرائعَه، وخلَق الجنةَ والنَّار، ووضعَ الثَّوابَ والعقاب.

ومن فُتِحَ له بفهمٍ في القرآن: رآه من أوَّله إلى آخره يرشدُ العقول إلى أنَّ مصدَر ذاك جميعِه عن عزَّته وحكمته، ولهذا يَقْرِنُ تعالى ـ في مواضع كثيرة من كتابه ـ بين هذين الاسمين (العزيزِ والحكيم) في آيات التَّشريع والخلق والجزاء؛ ليَدُلَّ عبادَه على أنَّ مصدَر ذلك كلِّه عن حكمةٍ بالغة، وعزَّةٍ قاهرة.

ومن له نظر صحيح وفكر مستقيم: شهد بذلك فيما رآه وعلمه، واستدل بما شاهده على ما خفي عنه؛ فإن الكل صنعُ الحكيم العليم.

ويكفي في هذا ما يعلمه المرء من الحكمة في خلقه هو، وأعضائه وصفاتها وهيئاتها ومنافعها، واشتمالها على الحكمة المطلوبة أتمَّ اشتمال.

تأمل في إصبَع واحد فقط من أصابعك، وكيف اجتمع فيه الجلد واللحم والدم والظُّفُر والأعصاب والمفاصل والبصمات وأشياء كثيرة وعجيبة؛ اجتمعت بتناسق بديع في هذا الشيء الصغير؛ فكيف بهذا الكون العظيم عالِيه وسافلِه!

تأمل مخلوقاته صحيح التأمل وستجدها مؤسسةً على غاية الحكمة، مغشاةً بالحكمة، تقرأ سطور الحكمة على صفحاتها، وتنادي بك: هذا صنع العزيز الحكيم، وتقديرُ الخلاق العليم، الذي أتقن كل شيء، وما ترى في خلقه من تفاوت.

وإني لأستغفر الله من الخوض في هذا الموضوع العظيم، الذي لا أقدر ـ ولا أهلُ الأرض جميعًا ـ على الوفاء بحقه؛ فإن ما يصفُه الواصفون من حكمته وتنتهي إليه علومُهم منها هو كما يُدْخِلُ إنسانٌ إصبَعَه في البحر ثمَّ ينزعها، فهو يصفُ البحرَ بما يَعْلَق على إصبَعِه من البلل،

وأين ذاك من البحر؟! فيظنُّ السَّامعُ أنَّ تلك الصِّفة أحاطت بالبحر، وإنما هي صفةُ ما عَلِق بالأصبَعِ منه، فالأمرُ أجلُّ وأعظمُ من أن تحيط عقولُ البشر بأدنى جزءٍ منه.

الحكمة قد تظهر وقد تخفى

ثبوت الحكمة لا يستلزم ظهورها في كلِّ موضع ولكل أحد؛ فحِكْمَة الله تَعَالَى أعظم من أَن يُحِيط بهَا خلقُه.

أي: الله مَا خَلَقَ شَيْئًا ولا شرع حُكمًا إِلَّا وله فِيهِ حِكْمَةٌ مَقْصُودةٌ مَحْبُوبةٌ له، لكن الْحِكْمَةُ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى جَلِيَّةٍ وَخَفِيَّةٍ؛ فقد تظهر وقد تخفى، يعلمها من يعلمها، ويجهلها من يجهلها، وقد يجهلها جميع الخلق.

فهو سبحانه يعلم ما لا نعلم ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠]، فلا يستطع أحدٌ من الخلق الاطلاعَ على جميع مكنون حكمته، ومن لم يُسَلِّمْ بهذا يلزمه مساواة المخلوق بالخالق في معرفة المصالح وجميع دقائق الحكمة، وكيف يستوي ربُّ الأرباب والمخلوقَ من التراب! وهل يُسوّى بين الظلوم الجهول وعلامِ الغيوب!

وقد فهم الموفَّقون هذا، وانتهَوا إلى ما وَقَفوا عليه ووصلت إليه أفهامُهم، وردُّوا علمَ ما غاب عنهم من ذلك إلى الذي هو بكلِّ شيءٍ عليم، وتحقَّقوا أنَّ له في كلِّ ما خلق وأمرَ وأثابَ وعاقبَ من الحِكَم البوالغ ما تقصُر عقولهم عن إدراكه، وأنه تعالى هو الغنيُّ الحميد، العليمُ الحكيم، وأنه لا يُسْأَلُ عمَّا يفعل؛ لكمال حكمته وعلمه، والعباد يُسْألون؛ إذ ليسوا كذلك.

البحث عن الحكمة في كل شيء.. هل هو مسلك رشيد؟

لا ريب أنه مسلك غير رشيد؛ فمن الخطأ العظيم أن يروم الإنسان الإحاطة بحكمة الله ﷻ في كل شيء، بل هذا من أوسع أودية الضلال، وكم سلكه من لم يوفق فضلّ وانحرف، وربما وقع في الكفر والعياذ بالله.

وصدق ابن تيمية حين قال:

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة
هو الخوض في فعل الإله بعلةِ
فإنهمُ لم يفهموا حكمةً له
فصاروا على نوعٍ من الجاهلية

إن من يسلك هذا المسلك يطلب شيئًا فوق طاقته، ولو قيل لإنسان: عُدَّ كل حبات الرمال وأسماك البحر وجميع نجوم السماء؛ لكان طلبًا يستحيل القيام به؛ لأن قدرته أضعفُ من ذلك؛ فالعجز هنا راجعٌ إلى ضعفِ المسئول، لا لأن الرمل أو الأسماك أو النجوم معدومة.

فحكمةُ الله إذن ثابتة لا ريب فيها، ولكن العقولَ أضعفُ من أن تُحيط عِلمًا بها جميعًا.

بل أقول: إن الإنسان لا يتمكن من الإحاطة بالحكمة من كل أفعال مخلوقٍ مثله، والْقَاعِدَة المألوفة وَالْعَادَة الْمَعْرُوفَة: أَن الأعلم إِذا تميّز شَيْئًا قَلِيلًا عَن أجناسه وأشباهه: لم يكن بُدٌّ من أَن يَأْتِي بِمَا لَا يعْرفُونَ، واعتبر في هذا بما جرى بين موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام؛ كيف أن موسى ـ وهو الأعلم والأرفع منزلة ـ قد خفي عليه شيءٌ من الحكمة في بعض ما فعل الخضر مما قصّ الله علينا في سورة الكهف.
وفي الصحيحين [(خ:١٢٢، م: ٢٣٨٠)] أن الخضر قال لموسى عليه السلام: «**يا**

مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْم مِنْ عِلْم اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ»؛ فالاختلافَ في العلم سببٌ في خفاء الحكمة.

فإذا كان هذا في حقِّ مخلوقٍ مع مخلوق، بل مخلوقٍ فاضل مع مخلوق مفضول؛ فكيف في حق مخلوقٍ جهول مع خالقٍ عليمٍ حكيمٍ سبحانه.

وقد أحسن من قال:

وَمَا سَبَبُ الْخلاف سوى اخْتِلاَفِ
الْعُلُوم هُنَاكَ بَعْضًا أَو تَماما
فَكَانَ من اللوازم أَن يكون الـ
إِلٰه مُخَالفا فِيهَا الأناما
فَلَو لم نجهل الأسرار عَنْهَا
بلغنَا مثله فِيهَا المراما

واعتبر في هذا أيضًا بالْحَيَوَان البهيم فإنه يفهم فهمًا لائقًا به، لكن لَا يبلغ فهمه إِلَى أن يعرف حِكْمَة الْحُكَمَاء وتصانيف الأذكياء ومعارف الفطناء؛ فَكَذَلِك الْحُكَمَاء لَا يعْرفُونَ جَمِيع حِكْمَة الله، وَللَّه المثل الأعلى.

وإنني أقول على سبيل تقريب المراد: لو أن العبد علم نصف ما يعلمه الله ـ جل ربنا وعز ـ لجاز أن تكون حكمة الله فيما جهلنا في النصف الآخر؛ فكيف والله يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؟! وفي الصحيحين [خ: ٤٧٢٥، م: ٢٣٨٠] عن النبي ﷺ لما ذكر قصة موسى والخضر، قَالَ: «**وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ**

فِي البَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلاَّ مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ».

وما أحسن ما قال بعضهم: إن نسبة عِلمنا إلى علم الله: كنسبة لا شيءَ إلى ما لا نهاية له.

إذن، ليتنبه المسلم لهذه القضية؛ فهي في غاية الأهمية، ويجب استيعابها جيدًا؛ فقد يزِلُّ المرءُ بظنٍّ سيىءٍ يظنه في ربه سبحانه، وقد يزل لسانه بكلمة يعترض بها على ربه توررده الموارد.

وقد يتأثر بشبهات أهل الضلال في هذا العصر، لا سيما من دعاة الإلحاد واللادينية؛ فكثيرًا ما ينفذون في دعوتهم الضالة من باب الحكمة والتعليل أو من فروعه، لا سيما ما يدْعُونه مشكلة الشر التي طُرحت في الفصل السابق.

فاقطع من نفسك الطمعَ في إدراك الحكمة في كلِّ أحكام الله عز وجل القدرية والشرعية، وأيقِنْ بأن لله سبحانه حكمةً بالغة.

وأنت إذا كنت تثق بعقل إنسان وبمحبته لك وبصفاء قلبه؛ فإنك ستُسلِّم لأفعاله وإن لم تفهم السبب في كلِّ فعل له على وجه الخصوص.

أي: إذا كنت تثق بعقل أبيك ـ مثلًا ـ وبمحبته وبرجاحة تفكيره: فإنك إذا رأيت بعض الأفعال المستغربة منه فستقول لِمَ فعل أبي كذا؟ لكنك ترجع إلى الأصل المتقرر عندك وهو أنه رجل عاقل؛ فلا بد أن له سببًا وجيهًا لفعله، وإذا اتخذ موقفًا مني فإني أوقن بأنه يحبني، وأنه لا يريد بي شرًّا، وإن كنتُ أجهل سبب موقفه.

الخلاصة: لله حكمة بالغة، هذا شيءٌ قطعي، وكونها تظهر أو لا تظهر: هذا ليس شيئًا ضروريًّا؛ فقد تظهر وقد لا تظهر.

وهذه قاعدة مهمة جديرة بالحفظ: (كلمتان ممنوعتان في بابين: «كيف» في باب الغيب، و«لِـمَ» في باب القدر).

«لِمَ»، «لماذا».. استفهامٌ إن حام حول أفعال الله وأحكامه القدرية لم يؤمَن الوقوع في الهلكة.. لِمَ يفعل الله كذا؟.. لِمَ أعطى الله فلانًا دون فلان؟.. لِماذا هدى الله فلانًا وأضلَّ فلانًا؟.. حذارِ من مثل هذه الأسئلة التي قد تجرُّ إلى ما لا تُحمد عقباه.

ثِق وأيقن وآمن واعتقد أن لربك تعالى حكمة بالغة، **وله في إخفاء الحكمةِ حكمةٌ!**

الاعتراض على الحكم الشرعي أو القدري بسبب عدم معرفة الحكمة:

في هذا الباب خطآن متلازمان يقعان من بعض الناس:

أولهما: التنقير عن الحكمة في كلِّ صغير وكبير، كما سبق.

وثانيهما: ربط الانقياد بمعرفة الحكمة؛ فيقول القائل: سأطيع أمره إن ظهرت لي الحكمة منه!

ولربما لم يتجرأ هذه الجرأة القبيحة؛ لكنه يقوم إلى طاعة الأمر متثاقلًا متشككًا؛ لأنه يزعم أنه لم يعلم حكمة الأمر، وهذا خطر عظيم!

مبنى العبودية والإيمان على التسليم، ومن التسليم: عدم الاسترسال في التنقير عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والمقادير.

إن ورد الشرع بذكر حكمة وفهِمها العقلُ كان هذا زيادةً في البصيرة.

وإن لم تظهر: فينبغي أن لا يوهن خفاء الحكمة في انقياد المعظِّم لربه، ولا يقدح في امتثاله.

فإذا علمتَ حكمة تحريم شرب الخمر، ولم تعلم حكمة كون صلاة المغرب ثلاث ركعات: فالواجب أن تسلم بالحُكمين، وتستجيب لربك فيهما، ولا فرق.

قال أهل العلم: ما سَلِمَ في دينه إلا من سلّم لله تعالى ولرسوله ﷺ، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، **ولا تثبت قدم الإسلام إلاَّ على ظهر التسليم والاستسلام**؛ فمن رام علم ما حُظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه: حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان؛ فيتذبذب بين الكفر والإيمان.

ولذا لم يحكِ الله سبحانه عن أُمةٍ صدّقت نبيَّها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلّغها عن ربها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفته من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وإيمانها واستسلامها على معرفته، ولا جعلت طلبه من شأنها، وكان رسولها أعظمَ في صدورها من سؤاله عن ذلك، **فلم يقولوا: «لِم أمر ربنا؟»، ولكن قالوا: «بِم أمر ربنا؟»**؛ فشأنهم البحث عن أوامره ومراضيه لامتثالها.

أما المعترضُ على حكمة ربه: فما أضعف إيمانه، وما أضعف عقله!

حدِّثني برأيك في رجل هو أحذق الناس بصناعة من الصناعات؛ قد أحكم آلاتِها وأسبابَها على أكمل الوجوه، فجاء رجل جاهل لا مناسبة بينه وبين ذلك الحاذق بوجه ما؛ فأخذ يعترض عليه في أجزاء تلك

الصناعة وآلاتها ومقاديرها، ويقول: هلّا كان هذا أكبر وهذا أصغر! أو كان كذا في موضع كذا![1]

---

(١) أضرب مثالاً يُقرِّب المراد: لو دخل جاهلٌ بعلوم الطيران قُمرة الطائرة [المقصورة المخصصة لقيادتها]، ثم أجال نظره في أزرارها ومفاتيحها وأجهزتها، ثم دار بينه وبين قائد الطائرة الحوار الآتي:

الجاهل: هذا الزر، وذاك المفتاح وذاك المؤشر: وجوده هنا عبثٌ، وأرى عدم استعمالها!

القائد: هل أنت متخصص في علوم الطيران؟

الجاهل: لا..

القائد: إذن اعتراضك مرفوض؛ لأنك جاهل، والجاهل لا يعترض!

الجاهل: رأيي مبني على حُجة؛ وهي: أني لا أعرف حكمة وجودها، ولا هدف وضعها هنا!

القائد: هذه حجة داحضة؛ فعدم علمك بالحكمة لا يستلزم عدم وجودها، وجهلك لا يُخوّل لك أن تحكم!

الجاهل: إن كان لها حكمة فينبغي أن أعلمها؛ فبيّن لي عمل تلك المفاتيح وسبب وضعها في هذا المكان، وغاية استعمالك لها!

القائد: بيان الغاية مما تعترض على وجوده شيءٌ فوق مستواك، واستيعابك له يحتاج إلى مقدمات وخبرة، وأنت لست مؤهلًا له، ولربما أوضّح لك ـ على سبيل التفضل ـ شيئًا إجماليًّا عنها يتناسب مع فهمك المحدود؛ لكن عليك ـ فعلتُ أو لم أفعل ـ أن تلتزم بثلاثة أشياء: أن لا تعترض على شيء لم تُحط علمًا به، وأن تثق بي وبتصرفاتي؛ لأنني عالمٌ بهذه الأجهزة، مؤهلٌ لقيادة الطائرة، ولا أريد لك وللركاب إلّا الخير، وأن تلتزم بما هو مطلوب منك باعتبارك راكبًا؛ وليس هو التنقير عن الحكمة في شيء ليس من شأنك؛ وإنما طاعة أوامري فحسب؛ لتصل بأمان إن شاء الله.

فأي الرجلين أقوى حُجة وأسدُّ رأيًا؟

والعبرة فيما أوردت: أنه إذا قبُح في العقل اعتراض مخلوق جاهل على =

كأن يأتي عاميٌّ أُميٌّ جاهل لم يتعلم قط؛ فيناقشَ سيبويه في النحو، أو الخليل في العَروض، أو الخوارزمي في الجبر، أو نيوتن في «قوانين الحركة»، أو رذرفورد في آرائه في الفيزياء النووية، أو ما تقدمه «وكالة ناسا» من أبحاث في صناعة المركبات الفضائية!

أليس هذا مما يسخر منه العقلاء ويعدّون صاحبه في زمرة السفهاء؟!

مع ملاحظة أنه يمكن للمعترِض ـ إن اجتهد وتعلم ـ أن يشارك ذاك الأستاذَ الحاذق في صناعته، بل ربما يتقدم عليه فيها!

فإذا كان اعتراض الجاهل على الحاذق مرفوضًا عند كلِّ عاقل؛ فما الظنُّ بالاعتراض على من لا شريك له في حكمته، ولا شبيه له في علمه؟! بل علوم الخلائق ـ من أولهم إلى آخرهم ـ بالنسبة إلى علمه: لا تساوي نقطةً أمام بحار العالم!

أفلا يستحي من يرى قبحَ اعتراضِ مخلوقٍ مفضولٍ على مخلوق فاضل؛ ثم يعترض على حكمة أعلم العالِمين وأحكم الحاكمين سبحانه!

والعجيب ههنا أن المعترض يعترض بعقله الذي هو هبة ممن يعترض عليه! فسبحان الله؛ إذا لم يكن تعظيمٌ؛ ألا حياء؟!

وصدق جل في علاه في وصف الإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزَاب: ٧٢].

ضوابط جامعة للمنهج الصحيح في باب الحكمة

يحسن إيراد ضوابط جامعة توضح خلاصة المنهج الصحيح في التعامل مع موضوع حكمة الله تعالى في خلقه وأمره.

= مخلوق أعلم منه؛ فكيف باعتراض المخلوق الظلوم الجهول على خالقه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين؟!

وبين أيدينا خمسة عشر ضابطًا، وبعضها قد سبقت الإشارة إليه:

١ ـ ثبوت الحكمة إجمالًا يغني عن تتبّع تفاصيلها، والجواب الجُمْلي يغني المؤمن عن الجواب التفصيلي:

الملائكة عليهم السلام ما عرفوا حكمة الله تعالى على التّعيين في استخلافه لآدم عليه السلام في الأرض، وسألوا ربهم تعالى عن ذلك فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠]، فلم يبين تعالى وجه الحكمة على التّعيين، بل أعلمهم بالجواب الجُمْلي، فقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠].

فإذا كفى الملائكةَ هذا الجوابُ؛ فإنه سيكفي المؤمنين.

فيجب القطع بأنَّ جميع ما يشتبه على العقول من شأن أفعاله وأقداره تعالى غيرُ خالٍ عن الحِكَمِ والمصالح والغايات الحميدة، وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠]؛ فلو لم تكن الحِكم مرادة في أفعاله ما سألت عن ذلك الملائكة، ولولا أن الجواب الإجمالي كافٍ للموقنين: ما أجيبوا بسعة العلم.

إذن: **اعتصم بالجواب الجُمْلي**، وهو: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

٢ ـ قصور العلم لا ينتهض معارضًا:

إنْ لم يُحِطِ البشر بجميع وجوه حكمة الله في بعض أفعاله، بل ولا شيء منها في بعضها؛ فله سبحانه الحجة الدامغة، والحكمة البالغة، والكمال المطلق.

وقصورُ العبد الظلوم الجهول عن معرفة أعيان الحِكم على التفصيل

لا ينتهض معارضًا للبراهين القاطعة الدالة على ثبوت حكمة أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

ومن أُشْرِبَ قلبُه صفوَ الإيمان: أغناه هذا الإجمال.

وكلُّ من يعترض على الله في حُكمه وقدره فإنه لا يبني اعتراضه على علم، وإنما هو يعلن جهله وقصور عقله!

٣ ـ الله تعالى عدلٌ لا يظلم:

والأدلة النقلية والعقلية على هذا كثيرة جدًّا، ودونك هذا الدليل العقلي:

الملك العزيز جل جلاله لا يخاف من أحدٍ ولا يَتَّقيه، ولو شاء لخلق الخلق في النار ابتداءً، ولم يحتج إلى تمكينٍ وتكليفٍ وكتبٍ ورسلٍ، وبَعْثٍ وصحف وموازين! فحين عَدَل عن ذاك إلى هذا: علمنا أن مراده أن يوصَف بالعدل، وأن لا يُنْسَبَ إليه الظلم، والعلمُ بهذا ضروريٌّ لمن هو سليم العقل.

فتيقن أن ربك عَدْلٌ لا يَظلِم، واطمئن.

٤ ـ اتهم ظنونك:

قول بعض من قصر عقله عن معرفة الحكمة في بعض أفعاله تعالى: إنه لا حكمة فيها، بل هي شرٌّ محض: مَثَلُه مَثل أم الصَّبِي الَّتِي ترى الْحجامَة شرًّا مَحْضًا فتُحجم عن تحجيم ينفعه، وَمَثل الغبي الَّذِي يرى الْقَتْل قصاصًا شرًّا مَحْضًا؛ لأنه ينظر إِلَى خُصُوص شخص الْمَقْتُول، وَيذْهل عَن الْخَيْر الْعَام الْحَاصِل للنَّاس كَافَّة، ويجهل أن التَّوَصُّل بِالشَّرِّ الْخَاص إِلَى الْخَيْر الْعَام خيرٌ مَحْض، ولَا يَنْبَغِي لحكيم أن يهمله؛ **فاتهم خاطرك**.

٥ ـ فرِّق بين ما يَقصُر العقل عن درْكه، وما يعلم العقل استحالته

أي: بين ما لا يعلم العقل ثبوته وما يعلم العقل انتفاءه.

بين مَحارات العقول ومُحالات العقول.

فإن الرسل صلوات الله عليهم وسلامه قد يخبرون بمحارات العقول وهي ما تعجز العقول عن إدراكها، ولا يخبرون بمُحالات العقول وهي ما يعلم العقل استحالتها، فهذا لا يأتي في الشرع البتة.

٦ ـ تأمَّلْ تأمُّلَ استرشاد، لا انتقاد

لا يعرِف طرفًا من الحكمة في الشريعة إلَّا من فتح الله عليه وأقبل بصدق على تأملها بتجردٍ لا انتقاد؛ فلنتأمل آيات ربنا تأمل استرشاد لا تأمل انتقاد؛ فإن من نظر إلى الشريعة بانتقاد لن يُفتح له باب المعرفة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النّحل: ١٠٤].

أما الذي ينظر إليها طالبًا الرشد: فهذا الذي يفتح الله عليه، ويَبين له من الأسرار ما يخفى على كثير من الناس؛ **فآمن: تهتدِ.**

٧ ـ تذكَّر كمال الرب ونقص العبد

ليتَذَكَّرِ الإنسان مَا يُعلمهُ من نَفسه؛ من جهْله وَقلة علمه وتردده فِي الأمور وحيرتِه فِي أَشْيَاءَ سهلة، ورجوعِه عَمَّا كان عليه مرَارًا، ووُجدانه للشيء بعد اليأس منه؛ فإن عِلم الانسان بأحوال نَفسه ضَرُورِي وهو حجَّة عليه، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القِيَامَة: ١٤]، وَقد وَصفه الْعَلِيم الْخَبِير بِأَنَّهُ ظلوم جهول.

كما عليه أن يتذكر التَّفَاوُت العَظِيم بين الخَلق في البلادة والذكاء، وَمَعْرِفَة الدقائق وحدس العواقب؛ فَكيف التَّفَاوُت بَين الْخلق وخالقهم العليم العظيم سبحانه!

٨ ـ استدل بما عرفت على ما غاب عنك

فحَسْبُ العقول الراشدة أن تستدلَّ بما عرفَت من حكمته سبحانه على ما غاب عنها، وتعلمَ أنَّ له سبحانه حكمةً في كلِّ ما خلق وشرع.

والقائد الحكيمُ من البشر إذا ثبتت حكمتُه وابتغاؤه الصَّلاحَ لمن تحت تدبيره؛ كفته هذه المعرفة عن تتبُّعِ مقاصده في تفاصيل كلِّ فعلٍ من أفعاله؛ فما بالك بربِّ العالمين؛ أحكم الحاكمين وأعلم العالمين!

فثبوت الحكمة الإلهية إجمالًا يكفي عن تتبع تفاصيلها.

٩ ـ معرفة الحكمة على التفصيل ليس في قوى البشر

وعليه؛ فإذا قال قائل: لِمَ لَم يخبر الله تعالى كلَّ عبد من عباده بكلِّ ما يفعلُه، ويَقفهم على وجه تدبيره في كلِّ ما يريدُه، وعلى حكمته في صغير ما ذَرَأ وبَرَأ وكبيره؟!

قيل: وهل يفعل هذا مخلوق مع مخلوق؛ أبٌ مع ابنه، صديقٌ مع صديقه؟! فكيف بربٍّ مع عبيده؟!

ثم: هل في قُوى المخلوق تحمل ذلك؟! لا قطعًا؛ وهذا من عزته سبحانه، ومن رحمته أيضًا بعباده.

الخلاصة: القوى البشرية ليست مستعدة للعلم بتفاصيل حكمة الله في خلقه وأمره، وعليه فبيان تفاصيل الحِكم عبث منافٍ للحكمة.

١٠ ـ الحكمة قد تكون جليَّة وقد تكون خفية، فثبوتها لا يستلزم ظهورها في كلِّ موضع، لكل أحد.

وعليه؛ فالمؤمنون يكفيهم الإجمال، ولا يستشرفون إلى تفاصيل ما غاب عنهم.

١١ ـ الدنيا دار ابتلاء، ومن الابتلاء خفاء الحكمة أحيانًا.

من الابتلاء والامتحان الذي يتميز به المؤمن من غيره: خفاءُ الحكمة في بعض أحكام الله الشرعية والقدرية.

فلا تستنكر هذا الخفاء!

١٢ ـ في عقولنا قوة التسليم، وليس فيها قوة الاعتراض

فمن المتيسِّر لعقول البشر أن يُسلِّموا لحكمة مولاهم، وأن ينقادوا لحُكمه، وليس في قوتهم الاعتراض على أحكامه؛ لأن هذا يستلزم أن يكون للمخلوق علمٌ كعلم خالقه، وأنَّى له هذا!

فشأن العبد إذن أن يطيع ربَّه، لا أن يصادر حِكمته، أو يحاكم حُكمه.

ويا خيبة عبدٍ اعترض على أحكام ربه وأقدارِه لخفاء الحكمة عليه!

١٣ ـ التنقير عن الحكمة في كلِّ صغير وكبير طريقٌ إلى الهاوية، وربطُ الإيمان بمعرفة الحكمة خطر عظيم

فإنَّ من كلّف نفسه شيئًا فوق طاقتها أضرّ بها؛ وصار كالذي يُحدِّق في الشمس؛ يُتلف عينه، ولا يستفيد شيئًا!

فما هو فوق طاقة العقول: تَتِيهُ فيه، وتضطرب الألبابُ في حواشيه!

وفي أخبار من أبَى وتكلّف ذاك المرام البعيد عبرةٌ!

١٤ ـ معرفة الحكمة التفصيلية نعمة، وجهلها نعمة!

تقدم أن لكلِّ حُكم شرعي أو قدري حكمةً مقصودة، عَلِمها من علمها وجهلها من جهلها.

فإن ظهرت للعبد: حمِد الله وازداد يقينه بحكمة ربه وعظمةِ دينه وقدرِه.

وإن لم تظهر: ازداد إيمانًا بتسليمه لربه، وقبولِ ما عجز عقله عن إدراكه؛ لأنه جاء من عند الله.

فههنا: **العجز عن دركِ الإدراكِ: إدراكُ!**

إذ باتَ التسليمُ بما جُهلت حكمته نعمةً عظيمة؛ فكم يفتح على العبد من أبواب الإيمان وكنوز اليقين وغيث الهداية، ومن جرّبَ علِم!

١٥ ـ من عجز عن معرفة حكمة مخلوق مثله؛ فهو عن معرفة حكمة ربه أعجز.

فليتواضع العبد، وليدعِ المكابرة!

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

فصْل نافع، وهو الباب الثاني والعشرون من «شِفاء العليل» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ١١٥ ـ ١٥٦) طبعة دار عالم الفوائد، في حِكمة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا سيما في إثبات الأدلة على حكمة الله.

الفصل الحادي عشر
الهداية والإضلال

مسألة الهداية والإضلال من مسائل القدر، وهي من المسائل المهمة والدقيقة والعميقة والتي قد تُستشكل عند بعض الناس.

ولذا لا بد من التنبُّه إلى التأصيل الصحيح لها؛ وإلا وقع خلل كبير.

وقبل الخوض في هذا الموضوع لا بد من قواعد مُمهِّدات تُعين ـ بتوفيق الله ـ على ضبطه، وهي من الأهمية بمكان، ولا بد من حسن فهمها واستحضارها:

القاعدة الأولى: القَدَر منه شيءٌ معلوم، ومنه شيءٌ مستور.

وعلى العبد أن يقف عند حدِّ المعلوم ـ وهو ما ورد في الأدلة الشرعية ـ ولا يتجاوزَه إلى المستور.

يجب الإيمان بالقدر، والاعتصامُ بأصل التسليم لله، ويجب الحذر من الخوض فيما لا سبيل إلى معرفته من أسرار القدر.

أعود فأقول: القدر سرٌّ من الأسرار، أُسدلت دونه الأستار، فلا ينبغي للإنسان أن ينقِّب عنه، لأنه لن يستطيع أن يصل إلى شيء، بل سيضلُّ، ولذا كان السلف يقولون: «القدر سرُّ الله، فلا نكشفه». أي أن العقول تعجز عن إدراك كُنْه الغاية المقصودة بأفعاله سبحانه، كما تعجز عن إدراك كنه حقيقته هو جل وعلا.

قال أهل العلم: أصل القدر سرُّ الله تعالى في خلقه لم يَطّلع على ذلك ملكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل، والتعمُّق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلّم الحرمان، ودرجة الطغيان؛ فالحذرَ كل الحذرِ من ذلك؛

نظرًا وفكرًا ووسوسة؛ فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه.

أخرج الآجري عن ابن عمر ﵄ أنه قال عن القدر: «شيءٌ أراد الله سبحانه ألا يُطلعكم عليه، فلا تُريدوا من الله ما يأبى عليكم» [«الشريعة» (٩٣٦/٢)].

وهذا القدر المستور هو الذي يرد عليه نهيه ﷺ عن الخوض في القدر حينما قال: «**وإذا ذُكر القدر فأمسكوا**» [أخرجه الطبراني (١٤٢٧)].

الخلاصة: هذا موضعٌ لا بد من التنبه إليه: **من القدر ما خُزن عنا علمه.**

🕮 القاعدة الثانية: الله سبحانه عدلٌ لا يظلم.

وواجبٌ عليك أن تعتقد ذلك، فالله سبحانه متصفٌ بالعدل، قال ﷺ: «**فمَن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟!**» [متفق عليه (خ: ٣١٥٠، م: ١٠٦٢)].

والله منزهٌ عن الظلم، بل حرَّمه على نفسه، فهذه حقيقة يجب أن تستيقنها.

فالله سبحانه ـ كما ذُكر سابقًا ـ لا يخاف من أحدٍ ولا يَتَّقيه، ولو شاء لخلق الخلق في النار ابتداءً، ولم يحتج إلى تمكينٍ بالعقل وتكليفٍ بالشرع، وإنزال كتبٍ وإرسال رسلٍ، وبَعْثٍ وحساب وصحف وموازين.. لكن حين عدل عن ذاك إلى هذا: أدركنا يقينًا أنه موصوف بالعدل، منزَّه عن الظلم، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

إذن؛ كلما وسوس في نفسك إبليس: فارجع إلى هذا الأصل

المُحكم: «الله عدلٌ لا يظلم»، فهذه حقيقةٌ يجب أن تكون راسخة كالجبال!

وإن التبس عليك شيء في موضوع القدر فلا ينبغي أن يشوّش على عقيدتك بعدل الله وانتفاء الظلم عنه.

القاعدة الثالثة: لله حكمةٌ بالغة.

فإذا هدى فلحكمة، وإذا أضلَّ فلحكمة، **ولا يلزم في ثبوت الحكمة العلمُ بها**، وإنما يكفي أن نستدلَّ فيها بما علمنا على ما جهلنا، كما مضى في الفصل السابق.

الله تبارك تعالى أثبت لنفسه الحكمة في نصوصٍ كثيرة، وأبان لنا عن بعض تفاصيلها، فهذا القدر كافٍ في أن نعتقد ثبوت الحكمة له سبحانه، وأن نستدلَّ في شأن ما جهلنا منها بالذي علمناه.

إذن: الله له الحكمةُ البالغة، فهدايته وإضلاله راجعان إلى الحكمة التي يُحمد عليها.

القاعدة الرابعة: العقول ضعيفة!

وعليه؛ فهي أقلُّ من أن تُحيط علمًا بهذا الأمر العظيم (القَدَر).

فالله تبارك وتعالى خلق العبد ضعيفًا: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٢٨].

وهذا ما يُسلِّم به كلُّ عاقل، فكما أن الله جل وعلا جعل لك بَصرًا محدودًا لا بَصرًا مُحيطًا، وكما جعل لك سمعًا محدودًا لا سمعًا مُحيطًا، وكما جعل لك قُدرة محدودة لا قدرة مُطلقة؛ فكذلك جعل عقلك عقلًا محدودًا لا عقلًا واسعًا.

والأمر كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «فكما جعل الله لإبصار العيون حدًّا محدودًا من دونها حجابًا مستورًا؛ فكذلك جعل لإبصار القلوب غاية لا يجاوزها، وحدودًا لا يتعداها» [الإبانة لابن بطة (١/ ٤٢٢)].

ولذا؛ الموضع الذي خُزن عنا علمه في باب القدر: هو شيءٌ فوق طاقة العقل، والعقل عاجزٌ عن إدراكه، وإذا خاض فيه تحيَّر، ولذا قال السلف: «مثل القدرِ والخائضِ فيه مثلُ الشمس والناظرِ إليها، كلما نظر إليها ازداد تحيُّرًا».

فبصرُك أضعف من أن يُحدّق في الشمس، وإذا حدّق عاد عليه هذا بالضرر؛ فكذلك القدر؛ إذا أمعنت فيه وتعمقت وتجاوزت ما ورد في أدلة الشرع: عاد عليك بضرر وبيل!

وأنت تُدرك من نفسك عجزها عن الإحاطة بأشياء كثيرة مما يقع من الناس، بل ربما تكون عاجزًا عن أن تعقل مقالات بشرٍ مثلك ـ كأن يتكلموا في تخصصات لا تحسنها ـ؛ فكيف يروم الإنسان أن يطلب بعقله الإحاطة بعلم العليم الحكيم، وحكمة الكبير الواسع سبحانه.

إذن؛ اعرف قدرك ولا تتجاوزه، لا لأن القدر فيه ما هو ظُلمٌ، أو ما هو خارجٌ عن حدود الحكمة؛ حاشا وكلا، ولكن لأن عقلك أضعفُ من أن يُحيط علمًا بتفاصيل كلِّ قدر الله جل وعلا.

القاعدة الخامسة: لله الحُجةُ البالغة، وليس للعباد حجةٌ على الله.

فاستحضر هذا واستيقن به، ورُد المشتبهات إليه؛ فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، أي التي بلغت صميم القلب وخالطت العقل، ومن أنصف: فإنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه قَبول هذه الحجة.

أعود فأقول: لله حجةٌ بالغة، وليس للعباد حجة على الله؛ فالله هدى العباد إلى طريق الحق، فأرشد وبيَّن: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، ومكَّن من الهداية؛ فأعطى العقول والأسماع والأبصار، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وصرّف الآيات، وأبان الدلائل والأمارات.

فهذا الحق الذي لا خفاء فيه: الحجة لله على عباده، لا لهم عليه.

القاعدة السادسة: مَن مَنع فَضْله لم يكن ظالمًا.

فالهداية تفضُّل من الله تعالى، ومن منع فضله لم يكن ظالمًا، ومن منع ما وجب عليه كان ظالمًا، والله لا يوجب العباد عليه شيئًا، هو الغني عن ذلك، والعباد أحقرُ من أن يوجبوا على الله شيئًا.

القاعدة السابعة: الله تعالى لا يُسأل عما يفعل.

قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وعليه؛ فليس لأحد أن يتعقب حكمه ولا يعارضه إذا شاء شيئًا، بل هو القادر على فعل ما يشاء، بل هو على كلِّ شيء قدير، وأنه لكمال حكمته لا معقِّب لحكمه؛ لأنه لا يفعلُ شيئًا سُدًى، ولا خَلَق شيئًا عبثًا.

وإنما يُسألُ عن فعله مَنْ خرجَ عن الصَّواب، ولم يكن فيه منفعةٌ ولا فائدة.

ومن الناس من يظن أن كونه لا يُسأل عما يفعل: لأن الأمر راجعٌ إلى مشيئةٍ لا تقترن بحكمة، والأمر ليس كذلك؛ فالله تعالى لا يُسأل عما يفعل لكماله؛ فلكمال عزته وعلمه وحكمته ورحمته: لا يُسأل عما يفعل، ولو كان ثمة شكٌّ في علمه أو في حكمته ربما كان السؤال متوجهًا: لِم

يا رب فعلتَ كذا؟ لكن الله منزهٌ عن ذلك؛ فله العزة الكاملة، والعلم الواسع، والحكمة البالغة؛ فكيف يُسأل سبحانه ـ مع هذا ـ عما يفعل؟!

فإذا استيقنتَ بهذا: سلَّمت لربك، ولم تسأل، ولم تتكلف.

القاعدة الثامنة والأخيرة: استحضر مَقام الأدب مع الله

إذا ولجت إلى هذا الموضوع فتذكر أنك تتكلم في شأن ربٍّ وعبد، وفي شأن السيد العظيم الملك الذي له كلُّ شيء، وعبدٍ مخلوق مربوب مُدبَّر، فقيرٍ إلى ربه في كل شيء؛ فإياك أن تدعوك رعونةُ نفسك إلى أن تتجاوز حدَّك، فتُسيء الأدب مع ربك، وما أكثر ما يقع هذا الأمر.

وسوء الأدب مع الله قد يورد العبدَ الموارد، فتفطن!

هذه قواعد مُمهدات، وأصول محكمات؛ فاعتصم بها، ورُدَّ إليها المشكلات.

الفهم الصحيح لموضوع الهداية والإضلال

الاعتقاد الحقُّ في هذا الباب: أن الهداية والإضلال بيد الله؛ فهو يهدي من يشاء نعمةً منه وفضلًا، ويُضلُّ من يشاء حكمةً منه وعدلًا.

فهنا مقامان: الأول: الهداية، والثاني: الإضلال.

ولكلٍّ منهما ضوابط عند أهل السنة.

أولًا: مسألة الهداية (هداية التوفيق)

وضوابطها أربعة:

الضابط الأول: الهداية من الله، فهو الذي شاءها سبحانه.

ولو لم يهدِ الله عبده ما اهتدى، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وفي الصحيحين [(خ: ٤١٠٤، م: ١٨٠٢)]: كان النبي ﷺ يوم الخندق يقول: «**والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا**».

فلا هداية للعبد إلَّا منه سبحانه، ولو لم يشأها تعالى له فلن تكون البتة.

وعلم الإنسان بهذا يدعوه إلى أن يسأل ربه الهداية بصدق، ويُلحَّ في طلبها منه.

الضابط الثاني: الهداية محضُ فضلٍ من الله تعالى.

فليس للعبد عليه حقٌّ استحق به أن يهديه، والمقام ليس مقام معاوضة؛ بأن قدَّم العبد شيئًا؛ فوجب على الله أن يَهديه مُقابل ذلك؛ الأمر ليس كذلك؛ إنما الهداية محض تفضّل من الله، والعباد لا يستحقون عليه سبحانه شيئًا، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقال جل جلاله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البَقَرَة: ١٠٥]. وفي الحديث القدسي، قال تعالى: «**يا عبادي كلكم ضالٌ إلا من هديته**» [صحيح مسلم (٢٥٧٧)].

إذن: الهداية محضُ تفضُّل من الله، والعباد لا يوجبون على ربهم ولا يستحقون عليه شيئًا، إلا ما أحقَّ على نفسه.

الضابط الثالث: التفضل بالهداية راجعٌ إلى علم الله وحكمته.

أي أنَّ الله سبحانه إنما يهدي عن علمٍ؛ فهو أعلم بالموضع المُناسب لفضله، ولذلك قال سبحانه في شأن الكفار الذين قالوا عن

الصحابة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣] فقال الله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

إذن: الله سبحانه هدى عن علمٍ وحكمة، حيثُ علم من يصلح للهداية، فاقتضت حكمته أن يضع الفضل في محلِّه اللائق به، وهذه هي الحكمة: وضع الشيء في المحلِّ اللائق به، فالمكان المُعد للبول والنجاسة ليس من المناسب أن توضع فيه الأطياب من المسك والعود ودُهن الورد، والعِقد الغالي ليس من الحكمة أن يوضع في عُنق خنزير!

وعليه؛ فمن هداه الله فلعلمه سبحانه أنه أهلٌ للهداية، وأن الهداية تليق به فاقتضت الحكمةُ وضعها فيه.

وقد جمع هذه الضوابط الثلاثة قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحُجرات: ٧ ـ ٨].

الضابط الرابع: تفضُّل الله تبارك وتعالى بالهداية له وجهان:

الأول: الهدايةُ الأولى؛ فالله تعالى ابتدأ بالهداية من شاء: قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته**» [مسلم: (٢٥٧٧)]، وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالإنسان خُلق ظلومًا جهولًا؛ فلو تُرك ونفسه، ولم يمدَّه الله سبحانه بمددٍ من عنده ويفتحَ على قلبه ـ فإنه سيضل.

إذن: هناك لطيفةٌ ابتدأ الله بها من شاء، وأوقعها في قلب من أحبَّ، حيث كان القلب غافلًا فيتذكر، وكان منحرفًا فيهتدي، ولولا تفضل الله عليه بذلك فإنه ضالٌّ.

الوجه الثاني: الهدايةُ اللاحقة: أي أن مَنْ مَنَّ الله عليه فقذف في قلبه الهداية؛ فإنه إذا عمل الخير هداه سبحانه إلى خير ثانٍ، فإن عمل الثاني هداه إلى ثالث، وهلم جرًّا.

وعليه؛ فليست الهداية هي ما كان في أول الأمر فحسب، بل كل عملٍ صالحٍ لن يقوم به المسلم إلا بهدايةٍ خاصة من الله؛ ولو كان تسبيحة أو تلاوة آيةٍ أو صلاة ركعتين؛ فلو لم يهدِ الله العبد لها ما قام بها.

وهذا يرشد العبد إلى عظيم فضل ربِّه وجزيل إحسانه؛ فإنه يُجازي على الحسنة بحسنة، ويثيب على الهُدى بهُدى بعده، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محَمَّد: ١٧]. وقال جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، والأدلة في هذا كثيرة.

إذن: لا بد من ملاحظة هذا الأمر، فما أكثر الغفلة عنه، حيث كثيرٌ من الناس إذا تلا قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفَاتِحَة: ٦]، فإنما يتذكر الهداية الأولى، ويغفل عن أن هناك هداياتٍ أخرى هي الهدايات اللاحقة.

إنك بحاجةٍ إلى أن تُهدى **إلى الصراط**، وبحاجةٍ إلى أن تُهدى **في الصراط**، وكل ذلك من الله سبحانه؛ فهو المُعِدُّ وهو المُمِدُّ جل في علاه.

ثانيًا: مسألة الإضلال

وهذا الموضوع مهمٌّ ودقيق؛ وينبغي أن يكون الإيغال فيه برفق، وأن تُستحضَر أولًا المقدمات الثمان السابقة.

والإضلال له ـ أيضًا ـ ضوابط أربعة:

الضابط الأول: الله سبحانه هو الذي قدَّر الضلال وشاءه.

ولو شاء الله ألا يضلَّ العبدُ لم يضلَّ، والعباد أضعف من أن يعصوا الله قسرًا، والله أعزُّ من ذلك؛ فسبحان مَن إذا عُصي فإنما بمشيئته؛ لعزته وحكمته.

وعليه؛ فما يقع مما يكره من العصيان: مرادٌ له سبحانه كونًا لا شرعًا؛ لحكمةٍ يعلمها.

من أدلة هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [فَاطِر: ٨]. وقوله: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وعلمُ الإنسان بهذا يورثه خوفًا منه تعالى عظيمًا، ولَجأً إليه سبحانه أن يُعيذه من الضلال، لأن الأمر كله له.

الضابط الثاني: الإضلال محضُ عدلٍ من الله.

فالإضلال عدْلٌ؛ لأنه عقوبة، وإيقاع العقوبةِ المُستحقة ووضعُها في محلها: عدل، والعدل ممدوحٌ، وصاحبه محمود.

ووجه هذا: أن الله ﷻ قد أقام الحُجة، وأزال المعاذير، حيث مكّن من الهداية؛ فأعطى العقول والأسماع والأبصار، ولم يحُل بين العبد وبين الوصول إلى الحق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وصرّف الآيات، وضرب الأمثال؛ فلم يكن للعبد حجة: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّسَاء: ١٦٥]. قال ﷺ: «**لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين**». [متفق

عليه (خ: ٧٤١٦، م: ١٤٩٩)]، وقال ﷺ: «**ليس أحدٌ أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل**» [أخرجه مسلم (٢٧٦٠)].

وإذا كان ذلك كذلك، ثم صدف العبدُ عن الحق، وانصرف عن الاستجابة لربه ألا يكون ظالمًا مستحقًّا العقوبة؟ الجواب: بلى.

وإذا كان الله سبحانه قد مكّن من الهداية، وأمر عباده وأرسل رُسلًا مُبشرين ومُنذرين، وأعطى من الآيات ما تُذعن معه العقول، ثم إنَّ العبد بعد ذلك أبى الإقبال؛ أليس مسيئًا ظالمًا؟ الجواب: بلى.

وعليه؛ فمن كان ظالمًا استحق أن يعاقبه الله بإضلاله، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فُصّلَت: ١٧] أي هداية الإرشاد والدَّلالة، فماذا كان؟ ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصّلَت: ١٧]؛ فأضلَّهم الله، وكانوا جديرين بهذا.

إذن؛ الله سبحانه لا يعاقب أحدًا ـ بأن يُضلّه ـ إلَّا بعد وصول الحجة الرسالية إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التّوبَة: ١١٥]، فهذا الإضلال عقوبةٌ منه لهم، حين بيّن لهم الحق فلم يَقبلوه، فعاقبهم بأن أضلَّهم عنه؛ إذن لم يُضلَّ سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا زالت عنك شكوك كثيرة، وعلمت حكمة الله في إضلال من يضله من عباده.

والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النِّسَاء: ١٥٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النِّسَاء: ٨٨].

وهذا بخلاف من كان ضلالُه لعدم بلوغ الرسالة وعجزِه عن الوصول إليها، فذاك له حكمٌ آخر، والوعيدُ في القرآن إنما يتناولُ الأول.

وأما الثاني: فإنَّ الله لا يعذِّبُ أحدًا إلَّا بعد إقامة الحجَّة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٦٥].

والخلاصة: الإضلالُ عقوبة، وإيقاع العقوبة في محلِّها عدلٌ، والله ﷻ يُحمد على هذا العدل.

الضابط الثالث: العقوبة بالإضلال راجعةٌ إلى علم الله وحكمته.

فإنه قد علِم ـ سبحانه ـ أن هؤلاء الضالين لا يستحقون الهداية، ولا تليق بهم، وليسوا أهلًا لها، وهو سبحانه إنما يتفضل حيثُ تقتضي الحكمةُ التفضل، ويمنع فضله حيثُ تقتضي الحكمة منع ذلك.

وأُقرّب لك المقام بمثال: أرأيت إلى شخصٍ بلغ الغاية في الإجرام، فأُقيم بين يدي الحاكم، وبإمكانه أن يعاقبه أو أن يُخلي سبيله، ونحن نعلم من قرائن الأحوال عن هذا الشخص أنه لو خرج من باب المحكمة بعفوٍ فأقرب إنسان يراه سيسرقه وربما يقتله، فيشيع الرعب بين الناس؛ فهل من الحكمة التفضُّل عليه بالعفو؟ أم أن التفضل على مثله سَفهٌ بعيد عن الحكمة، وأن الحكمة تقتضي معاقبته؟ أعتقد أن الجواب واضح.

إذن: الفضل لا بد أن يُوقع في محله اللائق به، وإلَّا كان سفهًا، والله منزهٌ عن السَّفَه.

فتبيّن أنه إذا أضلَّ الله مَن أضل؛ فإن هذا عن علمٍ منه سبحانه بأن هؤلاء لا تناسبهم الهداية، ولا تليق بهم، فـ «الخنازير» لا يليق بها وضع الجواهر الثمينة في أعناقها، والهدايةُ أشرف وأغلى، فإذا فهمتَ هذا زال الإشكال.

ولأُسَهِّل عليك فهم هذا الأمر أقول: انظر إلى حال الكفار الضالين في الآخرة: أخبر الله عنهم أنهم إذا رأوا النار عَيانًا: سألوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا غير الذي كانوا يعملون، فماذا قال الذي يعلم كل شيء سبحانه؟ ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فأي نفوسٍ خبيثةٍ هذه! إذا بلغ الخُبث بها هذه الدرجة أيليق أن يتفضل الله عليهم؟! عاينوا العذاب، ولم يعد هناك أدنى شكٍّ في صدق الله ورسوله ﷺ، ومع ذلك: لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه من الكفر والعصيان؛ إذن: الحكمة كلُّ الحكمة في أن يُضل هؤلاء.

الضابط الرابع: عقوبة الله بالإضلال نوعان: عقوبةٌ على ترك ما أمر الله به، وعقوبةٌ على فِعل ما نهى الله عنه.

النوع الأول: كونهم ما فعلوا. بيانه: أنهم لما قامت عليهم الحجة، وبلغتهم الرسالة، كان الواجب أن يُذعنوا ويقبلوا هدى الله، لكنهم ما فعلوا، فاستحقوا أن يُضلهم الله، قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وأول مرة: أراد حين بلغتهم الحجة، حيث كان الواجب عليهم أن يُقبلوا فما أقبلوا؛ فأضلَّ الله قلوبهم.

ومن هذا الباب قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التّوبَة: ١٢٧].

النوع الثاني: عقوبةٌ على فِعلٍ؛ وهو ما صدر منهم من كفرٍ ومعصيةٍ وصدوفٍ عن الحقِّ وجحدٍ لأمر الله، فالله سبحانه يعاقبهم على هذا بأن يزيدهم ضلالًا.

إذن: كلُّ معصية فإنها عقوبةٌ على معصية قبلها، وكلُّ انحرافٍ فإنه عقوبة على انحرافٍ قبله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النّساء: ٨٨]، وقال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البَقَرَة: ١٠]، والأدلة في هذا كثيرة.

الخلاصة: المعصية التي وقعت هي عقوبة على ذنبٍ سابق، والذنب السابق عقوبة على ذنب قبله، وهلم جرًّا، إلى أن نصل إلى الذنب الأول، وهو الانصراف عن الحقِّ عند بلوغ الحجة وحصول النذارة.

وبعد كل ما سبق يقال: إلى هنا انتهى علم العباد بالقدر، وما بعده فمخزونٌ عنا علمه!

أي أن هذا غاية ما يعلمه العباد في موضوع الهداية والإضلال، وليس بعده إلَّا السكوت وتفويض العلم إلى الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا.

فثمة (خطٌّ أحمر) ـ كما يقال ـ ليس لنا أن نتجاوزه؛ فإيَّاك أن تخوض ـ في هذا الموضوع ـ أكثر من هذا القدْر؛ فإن الشيطان قد يوسوس باستفسارات واستشكالات وأسئلة وإيرادات، وهذا شيءٌ لا وجه له ولا محلَّ، فكُفَّ جِماح نفسك، فلا سبيل إلى علم على ما مضى.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة كتاب:

ـ «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل»، فالكتاب كله عظيم في باب القدر.

ومن أراد الاختصار أوصيه بالرجوع إلى (١/ ٢٦٧ ـ ٢٧١) منه، طبعة دار عالم الفوائد.

الفصل الثاني عشر

الاحتجاج بالقدر على المعاصي

المؤمن هو الذي يتَّقي الله فيفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر على ما يصيبه من المقدور، ويستعين بالله على كلِّ ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وإذا أذنب استغفر وتاب؛ فلا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى للمخلوق حجةً على ربِّ الكائنات؛ بل يؤمن بالقدر، ولا يحتج به في هذا الموضع، كما في حديث سيد الاستغفار: «**أعوذ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفِرْ لي؛ فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت**» [أخرجه البخاري (٦٣٠٦)].

فالعبد الصادق يُقِرُّ بنعمة الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو الذي هداه ويسَّره لليسرى، ويُقِرُّ بذنوبه ويتوب منها، ولسان حاله ومقاله: (أطعتك بفضلك، والمنَّة لك، وعصيتك بعلمك، والحجة لك، فأسألك عفوك ومغفرتك).

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمَن وجد خيرًا فليحمدِ الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**». [أخرجه مسلم (٢٥٧٧)].

🕮 متى يسوغ الاحتجاج بالقدر ومتى لا يسوغ؟

القدر يُؤمَنُ به، ويُحتجُّ به في البلايا والمصائب، وليس في المعاصي والمعائب؛ فالواجب على العبد أن **يتوب من المعائب، ويصبر على المصائب.**

فليس للعبد أن يُذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب.

وأمّا ما قُدِّر من المصائب فيجب الاستسلام له؛ فإنه من تمام الرضا بالله ربًّا.

توضيح ذلك: أن المؤمن يطمئن إلى القدر في المصائبِ؛ فإذا نزلت به مصيبة من المصائب التي لا يمكنه منازعتها: اطمأنَّ إلى تقدير الله واستروح إليه؛ فتهون عليه مصيبته، ويكتسب الطمأنينة والسكينة والتسليم، لأنه يعلم أن تقدير الله خير له، فيقول: قدرُ الله وما شاء فَعل، ويتذكر قوله ﷺ: «**عدلٌ فيَّ قضاؤك**» [أخرجه أحمد (٣٧١٢)]، فهو يعترف بأن تقدير الله سبحانه خيرٌ له، فيطمئن إلى ذلك، ويرجو أن يكون سبب تكفيرٍ للسيئات، ورفعةٍ الدرجات، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التّغَابُن: ١١]، قال علقمة بن قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أحدُ التابعين ـ في هذه الآية: (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى). أي أن من رضي بذلك، وسلّم لأمره تعالى القدري: هدى الله قلبه، فاطمأنَّ ولم ينزعج، ورُزق الثبات والصبر والتوفيق، فنال ثوابًا عاجلًا، مع ما يدخر الله له من الثواب يوم القيامة.

والخلاصة: الاحتجاج بالقدر إنما يُسَوِّغُ عند المصائب لا المعائب؛ فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غَافِر: ٥٥].

والشقيُّ يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب.

📖 حكم الاحتجاج بالقدر على المعاصي

إنَّ من الخِذلان وقلة التوفيق وسوء الأدب مع الله أن يحتجَّ العبد بالقدر على المعاصي، فيزعم أن القدر عُذرٌ له في ألَّا يفعل ما أُمِر،

وينتهك ما حَرُم، ويتحجج قائلًا: الأمر كله مُقدَّر، وأنا مسلوب الإرادة، ولا قُدرة لي على تغيير قدر الله!

فهو يزعم أنه مَجبور، يفعل الشيء الذي لا قُدرة له على دفعه عنه.

وإذا قيل له: افعل ما أمر الله، قال: لن أفعل حتى يخلق الله فيَّ هذا الفعل، وإذا قيل: كُفَّ عما حرم الله، قال: لا أفعل حتى يخلق الله التوبة في قلبي!

ولو كان القدر حجةً على فعل المعاصي لما كان أحدٌ ملومًا على معصية أو كفر؛ فلا يُلام إبليس ولا فرعون ولا النمرود ولا قوم نوح أو قوم هود أو مشركو العرب، وهذا ظاهر البطلان.

وما أشبه فعل من يتعلَّل بالقدر في هذا المقام بفعل إبليس ـ أول من احتجَّ بالقدر على ربِّه، وعارض الأمر بالقدر ـ فإنَّ الله تعالى لما قال له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، كان من جوابه أن قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فبدل أن يقول: يا رب! أنا ظلمت نفسي وأخطأت فاغفر لي؛ إذا به يقول: يا رب! أنت الذي أغويتني، وأنت الذي أضللتني! وكم في هذا مِن سوء الأدب مع الله سبحانه.

إذن، هذه الحجة حجةٌ إبليسية، وهي حجة كثير من المبطلين، ومنهم المشركون في عهد النبي ﷺ، حيث قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فهاتان الآيتان من سورة «الأنعام» فيهما فوائد جمة:

الفائدة الأولى: أنَّ الاحتجاج بالقدر على المعائب مسلك المشركين، فهُم الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فمن احتجَّ بالقدر على المعاصي فإنه سالكٌ مسلكهم، لا مسلك المؤمنين المتقين.

الفائدة الثانية: أن الله سبحانه قد جمع في هذه الآية بين الحُجة الشرعية، والمشيئة القدرية، وكلاهما له، وهذا هو الحقُّ الذي يجب الإيمان به، لأنَّ الله سبحانه قال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام: ١٤٩] ثم قال: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والحُجةُ البالغة: هي الحُجة الشرعية، حيث بلغت صميم القلب وخالطت العقلَ؛ فلا عُذر معها؛ حيثُ أرسل الله سبحانه الرُّسل وأنزل الكتب وصرف الآيات وضرب الأمثال؛ فقامت الحجة على العباد وبانت المحجة وانقطع العذر، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٦٥].

وهو سبحانه أرحمُ وأحكمُ من أن يُعذِّب من له عُذرٌ.

ثم بيَّن سبحانه قدره فقال: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فهذا الذي يجب على العباد: أن يجمعوا بين الإيمان بالحجة الشرعية، والمشيئة القدرية.

إذن؛ ما كان من هؤلاء المشركين ـ من الشرك والعصيان ـ إنما هو بمشيئتهم وقدرتهم التي لم تخرج عن مشيئة الله وقَدره، وهذا كافٍ في

كونهم يتحملون مسئولية ما اجترحوا، ويُجزون يوم القيامة بما كانوا يعملون، والله ﷻ عدلٌ لا يظلم.

الفائدة الثالثة: أنَّ هذه الآية تدلُّ على أن حجة المُحتج بالقدر حجةٌ داحضة، حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فالفاء هنا تُسمى «الفصيحة»، وهي مؤذنةٌ بكلام محذوف، أي: إذا كان ما احتج به هؤلاء المشركون ما هو إلَّا اتباعٌ للظنِّ وتخرُّصٌ؛ فإن لله الحُجة البالغة!

ولاحظ تقديم الخبر على المُبتدأ، وهو ما يُفيد الاختصاص، فالحجة البالغة لله لا لكم، وعليه؛ فكلُّ من احتج بالقدر، فإن حجته داحضة، والحجة لله عليه، وليس له حجةٌ على الله.

الفائدة الرابعة: أن يُقال: هذا الذي قاله هؤلاء المشركون: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] أهو حقٌّ أم باطل؟ نقول: هو حق، لكن وجه الإنكار أنهم أرادوا به باطلًا، فما قال المشركون هذه المقالة لأنهم يُريدون إثبات القدر والتسليم له؛ إنما أرادوا مُعارضة أمر الله بالقدر وتسويغَ شركهم، وهذا هو الضلال المبين.

فهي كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل، فاستحقوا الإنكارٍ عليهم.

ومن المقطوع به أن المشركين يتبعون الظن والهوى، وليسوا مريدين للحق؛ بدليل أنهم لا يُسوغون الاحتجاج بالقدر على هذه الشاكلة في كلِّ موضع؛ إذ لو طعن أحد فيهم أو في آلهتهم لآذوه؛ فأين الاحتجاج بالقدر ههنا؟

واعتبِر في هذا بموقفهم من النبي ﷺ وأصحابه؛ كيف آذوهم وعادوهم وحاربوهم؛ فلِمَ لم يقولوا: لو شاء الله ما خرج النبي ﷺ علينا بدعوته؛ فعلينا أن لا نعاديه؛ لأننا حينها سنعارض مشيئة الله!

فتبين أنهم ـ وهكذا كلُّ محتج بالقدر ـ ليسوا إلَّا متَّبعين لأهوائهم لا غير.

🕮 الجواب عن شبهة المحتج بالقدر على المعاصي:

حجة المحتجِّ بالقدر على معاصيه ومخازيه حُجةٌ باطلة، وعُذرٌ قبيح، فلا يجوز بحال لأحدٍ أن يعتذر به أو يحتج به، ويدلُّ على هذا ثمانية أوجه:

الوجه الأول: أن هذه الحجة حجةٌ باطلة؛ لأنها لا تَطّرد.

بمعنى: إذا كان القدرُ علةَ العُذر، فشرطُ العلة أن تطرد، أي: كلما وُجدت العلة وُجد الحُكم: فكلما وجد القَدر وُجد العُذر، لكن هذا ليس مُطردًا، وأكبر دليلٌ عليه أن يُقال لهذا الذي يدَّعي أن القدر عُذرٌ له في أن يقعُد عن الطاعة: ولماذا كان القدر عُذرًا في مطالب الدين، ولم يكن عُذرًا في مطالب الدُّنيا؟!

ولِمَ تنهضُ إلى مصالح الدنيا وتبذلُ ما تستطيع لتحصيلها، ولا تفعل هذا في مصالح الدين؟!

لِمَ إذا أمرك هواكَ نشِطتَ، وإذا أمرك مولاك تعاجزتَ؟! وهل هذا إلَّا محض الهوى!

ويقال ـ أيضًا ـ لمن يحتجُّ بالقدر: إن كان الأمر كما تزعم: فلا تأكل، ولا تشرب، ولا تلبس، وإذا مَسَّك الضرر فعليك أن تسلم لقدر

الله! فلا تُبادر إلى الأكل إذا مسَّك الجوع، ولا إلى الشرب إذا مسَّك العطش، وإن ابتُليت بالأمراض: فهي من قدر الله؛ فعليك أن تنتظر قدر الله الذي يُزيلُ هذا المرض، وليس لك أن تتداوى! وإن أُصبتَ باحتراقٍ في جسدك: فعليك أن تنظر إلى النار تسري في جسدك ولا تُحركْ ساكنًا! لأن هذا قدر الله، وأنت قد التزمت بأن لا تفعل شيئًا وتستسلم للقدر!

ومتى اعتدى عليك إنسان فظلمك؛ فإن عليك أن تبتسم في وجهه وتقول: هذا قدر الله؛ فعليَّ أن أُسلّم!

وإن استدان أحد منك مالًا ولم يرجعه، أو اشترى سلعتك ولم ينقدك ثمنها، فحذارِ أن تطالبه بشيء، فهذا قدر الله، فسلّم له!

فهل تلتزم أيها المحتجُّ بما سبق؟!

أنت تعلم يقينًا أن واقعك خلافُ هذا تمامًا!

فنحن نراك إذا أصبت بمرض في جسدك طرقت باب كلِّ طبيب للعلاج، وصبرت على مرارة الدواء طلبًا للشفاء، فلِمَ لا تفعل مثل ذلك في مرض قلبك بالمعاصي؟

نراك وأنت مريض تؤمر بالدواء فتشربُه ونفسُك لا تشتهيه، وتُنهى عن الطعام الذي يضرك فتترُكُه ونفسك تشتهيه، كلُّ ذلك طلبًا للشفاء، لَم نرَك تمتنع عن شرب الدواء أو تأكلُ الطعام الذي يضرُّك وتحتجُّ بالقدر، فلِمَ تترك ما أمر به الشرع وتفعل ما نهى عنه وتحتج بالقدر؟!

نراك لو عُرض عليك وظيفتان: إحداهما ذات «راتبٍ» أكثر، فإنك تحرص عليها دون الأخرى؛ فكيف تختار لنفسك في عمل الآخرة ما هو الأدنى ثم تحتجُّ بالقدر؟

الخلاصة: الاحتجاج بالقدر في هذا المقام احتجاج باطل، ولو طردنا هذا الاحتجاج فلا يمكن للناس أن يعيشوا أصلًا؛ فهي إذن علة باطلة غير صحيحة.

الوجه الثاني: هذه الحجة حجةٌ باطلةٌ بُطلانًا ضروريًّا، لمنافاتها الفِطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي طلبُ ما ينفعهم، ودفعُ ما يضرُّهم، وهذا أوضحُ من أن يُستدل عليه.

ولذا لو أن إنسانًا وقف على جبلٍ وصاح بآخر يُنذره قائلًا: إن العدوَّ قادم، أو إن السبُع قادم، أو إن السيل قادم: فهل في فِطَر العباد ـ مسلمهم وكافرهم، مؤمنهم بالقدر أو مُنكرهم ـ أن يقول: أليس هذا بقدر الله، إذن: علي أن أستسلم، وإن شاء الله نجاتي فسأنجو!

هل هذا يفعله أحد؟.. لا يفعله أحد، إذ هو مخالفٌ للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ورسول الله ﷺ هو النذير والبشير، وقد أخبر الله عنه أنه نذيرٌ يُنذر عذابه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سَبَإ: ٤٦]؛ فإذا كان يُنذرك من عذاب الله، فإنَّ تصديقك له سيقتضي بالضرورة أن تستجيب له، وأن تفِرَّ مما يعود عليك بالمكاره، وعدم هذا دليلٌ على ضعف تصديقك أو إرادتك، وليس على أنه لا قُدرة لك على الاستجابة، فتبين بهذا أن هذه حجةٌ داحضة.

الوجه الثالث: هذه الحجة التي يُحتجُّ بها حجةُ تعليلٍ ولجج، وليست حجةَ علمٍ، فلا يحتجُّ بالقدر هنا إلَّا من يغالط حسَّه ويكابر نفسه.

بمعنى: كلُّ من يحتجُّ بهذه الحجة على تعطيل أوامر الله سبحانه هو أول من يعلم من نفسه أنه إنما يتعلل ويُخاصم بها، وليس أنه بعدَ اجتهادٍ ونظرٍ علميٍّ وصلَ إلى أن عليه عدم القيام بطاعة الله، وهذا بينٌ لا يُنازع فيه مُنصف.

دعني أقول: الاحتجاج بالقدر يندرج فيما يسمى في عصرنا: «فنَّ التهرب من المسؤولية»؛ فأسهل شيء على الإنسان أن يلقي باللائمة على غيره ليبرئ ساحته ويتخلص من تأنيب الضمير وحالة الشعور بالخطأ التي تقلقه!

الوجه الرابع: الإنسانُ إما أن يكون مُريدًا للطاعة، أو غير مُريدٍ لها، أما الذي يُريد طاعة الله فلن يتعلَّل بالقدر، بل سيُطيع، لأن الإرادة التامة مع القُدرة الكاملة ينتج عنها الفعل بإذن الله، والله تعالى يسَّر العبادة، وسهَّل أمرها على العباد ولم يحل بينهم وبينها.

أما من قعدَ عن الطاعة فقد علمنا يقينًا أنه غيرُ مُريد لها، إذ لا مانع يمنعه، ولو اعتلَّ بالقدر فإننا نعلم أنه كاذب في دعواه، ولا عُذر له.

إذن لا تغالط أيها المحتجُّ بالقدر نفسك؛ فأنت غير مريد للطاعة!

ضعِ الأمور في نصابها، وسَمِّها بأسمائها!

الوجه الخامس: يقال للمحتجِّ بالقدر على فعل المعصية: ما الذي أعلمك بأن الله قدَّر لك أن تعصيه قبل أن تعصيه؟ نحن جميعًا لا نعلم ما قدر الله إلَّا بعد أن يقع، أما قبل أن يقع؛ فلا ندري ماذا يراد بنا؛ فهل عندك علم قبل أن تمارس المعصية أن الله قدَّرها عليك؟ الجواب قطعًا: لا. فنقول: إذن؛ لماذا لم تقدر أن الله قدَّر لك الطاعة وتطيعه؟

أعني: إذا قلتُ لك: صلِّ أو تُب إلى الله، فقلتَ: اللهُ ما قدّر لي أن أصلِّي، فإذا قدّرها لي صليتُ!

فما يدريك أنه لم يكتب لك الصلاة؟ فأنت لا تدري ما سيكون بعد قليل؛ فلم لا تقدر في نفسك أن الله كتب لك أن تصلي فتبادر إليها؟!

فتبيّن أن احتجاج الإنسان بحجة على أمر يفعله قبل أن تتقدم حجته على فعله احتجاج باطل؛ لأن الدليل يتقدم المدلول.

أي: أنت ـ أيها المحتجُّ بالقدر ـ قدّرت أن الله لم يكتب لك أداء الطاعة ثم قعدت عن أدائها؛ فلماذا لم تقدّر أن الله كتب لك أداء الطاعة فتطيع؛ فالقدر سرٌّ مكتوم لا يعلمه إلَّا الله، ولا نعلم ما قضاه الله وقدره إلَّا بعد الوقوع، فإذا كنت تقاعست عن الطاعة بزعم أنك مستسلم للقدر؛ فلِم لم تعكس الأمر؛ فتقدم عليها وتقول: أنا أستسلم للقدر؟!

ألستَ لو ذُكر لك أن للمدينة التي تريد الوصول إليها طريقين، الأول: مُعبّد آمن، والثاني صعب مخوف؛ ألست تسلك الآمن؟ ستقول: بلى. فنقول: إذن؛ لماذا تسلك في معاملتك ربَّك الطريقَ المخوف المحفوف بالأخطار، وتدعَ الطريق الآمن الذي تكفل الله تعالى بالأمن لمن سلكه؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

الوجه السادس: هذا الاحتجاج قد نهى عنه الشرعُ، فإن كنتَ مؤمنًا بالله، فيلزمُك أن تستجيب لشرعه، سواء استوعبتَ هذا الموضوع جيدًا أم لم تستوعبه.

فالاحتجاج بالقدر على مخالفة الأمر قد نهى عنه الشرع؛ ففي «الصحيحين» [خ: ٦٦٠٥، م: ٢٦٤٧] من حديث علي رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة**»، فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ - وفي رواية مسلم [(٢٦٤٧)]: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ - [فهذا رجل يسأل رسول الله ﷺ: هل لهم أن يعتذروا بالقدر وبما هو مكتوبٌ عليهم، فيدعوا العمل ويتكلوا على القدر؟] فقال ﷺ: «**لا، اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة**» ثم تلا قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠]. إذن: هذا شيء منهيٌّ عنه في الشرع؛ لقوله في الحديث: «**لا**» أي لا تفعلوا، ومن كان مُسلمًا فواجبٌ عليه أن ينتهي.

الوجه السابع: هذا الاحتجاج بالقدر عَلاوةً على أنه منهيٌّ عنه في الشرع؛ فإنه لا فائدة منه، فالمُحتج به يحتج بما لا فائدةَ فيه، إنما هو يُضيع عُمره ويبخس حظه.

فمَثل المحتجِّ بالقدر مَثل إنسانٍ طارت شرارةٌ من نار فوقعت على بيته، فبدأ بيته يشتعل، فقيل له: أدرك البيت وأطفئ النار، فقال: انتظروا! هذه الشرارة أليست من قدر الله؟ إذن: لا بد أن أُسلّم، ثم أنتظر قدرًا من الله يُطفئها! فجلس يشاهد بيته حتى تفحّم!

فهل يفعل هذا عاقل؟!

بل هذا المُحتج بالقدر حاله أسوأ من ذاك؛ لأن الذي وصلت الشرارة إلى بيته لم يكن له فيها فِعل، لكن الذي يحتجُّ بالقدر على المعاصي هو الذي أوردَ نفسه مورد المعصية، فيستحق على ذلك العقوبة.

إذن: خيرٌ لك من ندب حظك، والتعلل بما لا حجة فيه: أن تبادر إلى طاعة ربك وامتثال أمره، وتكفَّ نفسك عن محارمه، فتدفع قدر الله بقدره، وتفرَّ من قدره إلى قدره.

ومن المفيد هنا ذكر القصة التي خرجها الشيخان في صحيحيهما [(خ: ٥٧٢٩، م: ٢٢١٩)] وهي أنه لما أقبل عمر رضي الله عنه إلى الشام فبلغه وقوع الوباء بها؛ أراد الرجوع، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ: (أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ؛ أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ؟!).

الوجه الثامن والأخير: يقال لمن يحتجُّ بالقدر على التفريط في حقِّ الله عليه: أنت علاوةً على وقوعك في الذنب الأول، وعلاوة على أنك تفعلُ شيئًا لا فائدة منه: فأنت قد وقعت في ذنبٍ ثانٍ؛ فإنك تُريد أن تُعارض أمر الله بقدره، وأن تضرب القدر بالشرع، وهذا مُخالفٌ للشرع، وفيه إساءةٌ للأدب مع الله سبحانه، وما هذه الحال ـ كما سبق ـ إلَّا حالُ إبليس الذي قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

وعليه، فمن أراد الله سعادة نفسه: إذا وقع في الذنب والتقصير قال

ما قال أبواه آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

أما المخذول: فيحتجُّ بما احتج به إبليس: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩].

فانظر لنفسك: بمن تقتدي، ومع من تريد أن تكون.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بالرجوع إلى رسالة قيّمة عنوانها:

«الاحتجاج بالقدر» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مطبوعة مفردة، وموجودة أيضًا في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٠٣ ـ ٣٠٧).

الفصل الثالث عشر

نسبيَّة الحقيقة

الحقُّ في أصل مادته اللغوية يدلُّ على إحكام الشيء وصحته، مِن حَقَّ الشيءُ يحِق إذا ثبت ووجب.

فالحقُّ والحقيقة: الشيء الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، والحُكم المطابق للواقع، وهو ضدُّ الباطل.

والله تعالى هو الحقُّ، وجوده حقٌّ، وربوبيته وألوهيته وكماله حقٌّ، وقوله وفعله حق، ووعده حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه الإسلامُ هو الحق، وكل ما ينسب إليه فهو حق، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحجّ: ٦٢].

ونبينا محمد ﷺ حقٌّ؛ نبوته حق، وشريعته حق، ولم يوحَ إليه إلا الحقُّ، ولم يخرج من فمه إلَّا الحق، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح]. وفي الصحيحين [خ: ١١٢٠، م: ٧٦٩] أن النبي ﷺ كان يقول في تهجُّده إذا قام من الليل: «**أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ**».

الحق المطلق

الحقُّ المطلق ثابت، وهو خارج عن أيِّ اعتبار نفسي؛ فكون الشمس الآن طالعة: هذه حقيقة، سواء اعتقدنا هذا أو لم نعتقده، و«واحد زائد واحد يساوي اثنين»: هذه حقيقة ثابتة ولا علاقة لها باعتقادنا، وقتل الأبرياء ظلمًا: منكر، وهذه حقيقة ثابتة، وهلم جرًّا.

إذن: ثمة حقائقُ مستقلةٌ في ثبوتها، لا تتأثر سلبًا أو إيجابًا بما يدور في أذهاننا من تصور لها وعدم تصور.

هل يمكننا الوصول إلى الحق؟

نعم؛ فالحقُّ يمكن طلبه والوصول إليه، وليس هو ـ في نفسه ـ شيئًا غامضًا أو ملتبسًا، ولولا هذا ما أمر الله باتباعه، وما نهى عن الزيغ عنه وعن كتمانه وعن لبسه بالباطل، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يُونس: ١٠٨].

ما مصدر الحق؟

الحقُّ مصدره من الله سبحانه؛ فهو الذي أحقَّه، وفطر العباد على معرفته والاهتداء إليه، وأعطى وسائل إدراكه، ويسَّر أسباب الوصول إليه، وأقام الأدلة عليه وأرسل الرسل به، قال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هُود: ١٧]، وقال: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [يُونس: ٨٢]، ولا يجادل في هذا إلَّا أعمى البصيرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ﴾ [الرّعد: ١٩].

وبعد البعثة المحمدية: أهل الإسلام هم الذين فازوا بالحق من بين أهل الأديان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمَّد: ٢ ـ ٣].

أصول مختصرة تضبط المنهج الصحيح في موضوع «الحق».

ينضبط الموضوع بتقرير أربعة أمور:

١ ـ الحق ثابت موجود، بغضِّ النظر عن التزامنا به أو عدم التزامنا.

٢ ـ الحق الذي أوجب الله اتباعه واضح وليس غامضًا أو ملتبسًا.

٣ ـ يجب البحث عن الحقِّ، والسعيُ في إصابته.

٤ ـ الحقُّ يمكن الوصول إليه، وقد يسَّره الله لمبتغيه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العَنكبوت: ٦٩].

معنى نسبية الحقيقة

يُراد بمصطلح «نسبية الحقيقة»: أن الحقيقة تختلف من شخص لآخر، ومن وقت لآخر؛ وعليه: فكلُّ الحقائق نسبية.

وهو ما يتبنّاه بعض أصحاب التوجهات المشبوهة.

يقول أنصار هذا التوجه: الحقيقة موزعة من حيث الاحتمال المفتوح بين الناس جميعًا، وليس للأشياء حقيقة واحدة في نفسها.

وكثيرًا ما تُسمع هذه العبارات في موضع جدال في قضايا شرعية، للتملُّص من الالتزام بما لا يوافق الهوى.

وربما تطور الأمر لدى آخرين؛ حيث يقصدون حصول الفوضى الفكرية؛ بزعم أن ما تراه أنت حقٌّ وما يراه مخالفك حق، ولو كان دينًا آخر، أو مذهبًا ضالًّا، أو فعلًا منكرًا؛ فلا مجال أن تجزم بصوابك أو بخطأ غيرك فضلًا عن أن تنكر عليه.

يقول هؤلاء: انظر إلى العسل: يجده الصحيح حلوًا، ويجده المريض مُرًّا، وهو شيء واحد؛ كذلك الحقيقة!

وهذه ـ بطبيعة الحال ـ مغالطةٌ تسمى: «مغالطة التفكير التشبيهي»، أي التشابهُ الزائف؛ فالعسل حلو في نفسه بلا شك، ذقناه أم لم نذقه، وإنما يجده المريض مُرًّا لِعلّةٍ ومانع من استطعامه، وليس لأنه في الواقع

مرٌّ؛ كما أن مَن وضَع حائلًا بينه وبين الشمس فلا يقبل قوله إنها غير طالعة!

فنسبية الحقيقة إذن قد تكون شعارًا يمرر تحته أنواع الشبهات والانحرافات بل والكفريات، ولربما حَلَّوا هذا التوجه بحُلى التقدم والتطور، والتسامح والانفتاح.

🕮 الأصل الفلسفي لدعوى نسبية الحقيقة

يمكن اعتبارُ أصلِ هذه الفكرة راجعًا إلى مذهب العِنْدِيّة السوفسطائي، وهو أحد المذاهب السُّوفِسْطائية الثلاثة المشهورة: العنادية والعندية واللاأدرية.

العِندية: مذهب فلسفي ـ وأقولها تجوّزًا، وإلَّا فإنه لا يمثل مذهبًا فكريًّا متكاملًا، وإنما هو نوع من العبثية التي تأخذ طابع الفكر والفلسفية ـ يرى أصحابه أن الحقائق تتبع الاعتقادات؛ فما اعتقدته قديمًا فهو في الواقع قديم، وما اعتقدته حديثًا فهو في الواقع حديث، وما اعتقدته موجودًا فهو موجود، وما اعتقدته معدومًا فهو معدوم، وحين أقول: هو معدوم ليس في الاعتقاد، وإنما يزعمون أنه في الواقع هكذا؛ فالإنسان مقياس كلِّ شيء، والمعتبر في مصادر المعرفة هو الثبوتُ الذهني، والمعرفة لا تتعلق بالموضوع المعروف، بل بالذات العارفة.

ويُعزى تأسيس هذا المذهب إلى أحد فلاسفة اليونان واسمه: بروتاجوراس، ذُكر أنه متوفى سنة (٤١٠) قبل الميلاد.

🕮 نسبية الحقيقة في العصر الحديث

تلقف هذا الفكر القديم تياراتٌ فكرية معاصرة مختلفة، إلحاديةٌ

وغيرُ إلحادية، وجدت فيه بغيتها وما يحقق هدفها، وإن كانوا ليسوا على درجة واحدة في تبنِّيه.

ويحسن تفصيل القول في هذا الموضوع بعض الشيء لأن من الشباب مَن قد يردد كلامًا وهو لا يتصور أبعادَه ومآلاتِه، ولا ما يتقاطع معه من مذاهبَ وأفكار.

أبرز المذاهب والفلسفات المعاصرة التي تبنَّت نسبية الحقيقة بقدر كبير من الغلوِّ والمبالغة، وألبست مذهب العنديةِ القديمِ لباسًا جديدًا: هو ما يسمى بفلسفة ما بعد الحداثة[١].

وهو تيار فكريٌّ يتشكك في الحقيقة والعقل والهوية والموضوعية، ويحمل في أعطافه فلسفة فوضوية عدمية لا معقولية؛ حيث يرى كلَّ شيء غير مستقر، وليس له أساس ثابت، وليس ثمة حقائقُ مطلقة.

الفكرة الأبرز عند هؤلاء: هي النسبيةُ العبثية؛ فلا حقائق ثابتةً يمكن للعقل أن يتوصل إليها، ولا أخطاءَ يقدر على كشفها وتصحيحها، ولا معيارَ يفصل بين الصواب والخطأ.

هو مذهب يتضمن نفي الأسس الأخلاقية أو الشرعية، والقاعدة الوحيدة الصالحة هي: كلُّ شيء مقبول!

هذه الفلسفة قائمة على الشكِّ والتعدديةِ المفرطة، المؤدية لفقدان الهوية، وإبطالِ كلِّ الحقائق التي جاءت بها الأديان، وتذويبِ كلِّ ما

---

(١) يراد بمرحلة «ما بعد الحداثة»: المرحلة اللاحقة للحداثة التي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية.

اتفقت عليه البشريةُ من الحقائق؛ فالحقيقة نسبية؛ يشكلها كل إنسان بنفسه، ولا تفرض عليه من الخارج، ولا مجال للحكم على شيء بصواب أو خطأ، فكل شيء في الحياة نسبي، ولا مركزية لشيء، فالأشياء متساوية.

هذا المذهب يسعى لنسف ما يسمى «الثنائيةَ الضدية»: الخير والشر، الصواب والخطأ، الجميل والقبيح.. لا بد من تجاوز هذا كله!

المنتجات الثقافية عند هؤلاء متكافئة؛ وعليه، فلا يمكن تأصيلُ أي فكر ولا الثباتُ على أي عقيدة؛ لأن الأصل لا وجود له!

فلا يوجد ـ عندهم ـ شيء يملك في ذاته مبدأ استقراره، ولا وجود لأصل يمكن تأصيله!

وهذا نسفٌ للعقل!

والغاية التي يسعى إليها هؤلاء ويصرِّحون بها ويقررونها في كتبهم: الوصول إلى مرحلة **نهاية اليقينيات**، **وانحلالِ الأصول**، وأن يكون العالم نسقًا سائلًا؛ بلا يقين أو معنى أو غاية، وأن يصبح الإنسان بلا هوية ولا عقيدة ولا حدود.

🕮 خطورة هذه الفلسفة

لولا وجودُ خطر لهذا التيار الفلسفي على تمسُّك المسلمين بدينهم وعقيدتهم لهان الخطب؛ لكن هيهات؛ فهذا التيار يسعى السعي الحثيث للطعن في الدين وتشويهه والعبث بأصوله وتشكيك أهله فيه، وألخصُ هذا في أمرين يجتهد هؤلاء في تقريرهما، وهما في غاية الخطورة:

الأول: جعلُ العقائد تصوراتٍ مرتهنةً بمستوى الوعي، متغيرةً بتغير

العصور، ومن ذلك الاعتقاد في الله العظيم سبحانه؛ فإنه ـ في منظور هؤلاء ـ يكون بحسب مستوى الإنسان العقلي ومدركاته الذهنية والنفسية؛ فإن اعتقدته ربًّا متصفًا بالكمال فلا بأس، وإن اعتقدت فيه النقص ـ تعالى الله عن ذلك ـ فلا بأس، بل إن اعتقدته مفهومًا بلا حقيقة ولا وجود فلا بأسَ أيضًا! فكل من اعتقد في الله عقيدة فهو مصيب فيها، سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وغنيٌّ عن البيان أن هذا من أعظم الكفر بالله.

الثاني: كسر معنى الخطاب الشرعي وتمييعُه، عن طريق فكرة الرمزية والتأويل، أي نفيُ وجودِ أيِّ مدلول صريح لأيِّ نصٍّ شرعي، أو أن يكون ثمة معنًى مراد للمتكلم به؛ فأدلة القرآن والسُّنة تحتمل معاني بعدد القارئين لها! وهي فضاء واسع للإسقاط والتأويل بحسب الأهواء؛ فافهم العبادة في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: ٣٦] كما تشاء، وفسر الصلاة والزكاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النِّسَاء: ٧٧] كما يحلو لك! وهلم جرًّا؛ بلا أي ضابط علمي أو رادع شرعي.

وهذا انسلاخ من هذه الشريعة بالكلية، وإلحاد في آيات الله، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ [فُصّلَت: ٤٠].

وما أشبه هؤلاء بمن قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصّلَت: ٢٦].

نقد مذهب نسبية الحقيقة

الكلام في نقد هذا المذهب يطول، وحسبي هنا الاقتصار على بعض الأوجه:

أولًا: هذا المذهب هادمٌ للدين والأخلاق، ولكلِّ نظام اجتماعي.

ففي ظلاله لا قيام لدين، ولا استقامة لمعاش، ولا انتظام لدولة.

وأدنى تأمل في حقيقته سيتضح به هذا جليًّا.

ثانيًا: هذا المذهب لا سبيل لعاقل أن يتمذهب به؛ إنما هو مسلكُ لججٍ وخصومة؛ يُلجأ إليه لأجل التشغيب لا غير؛ فأما أن يلتزم به إنسان في كل وقت وفي كل مسألة، فغير ممكن، ومن ادعى هذا فقد كذب، والتناقض ملازم له قطعًا؛ وواقعه أكبر شاهد على هذا، بدليل أنك تجد طرحَ هؤلاء المتكررَ الذي لا يقومون ولا يقعدون إلا بالدندنة عليه: «لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة!» وهذه الجملة ـ نفسها ـ: حقيقة مطلقة! تمسكوا بها بقوة، وكرسوا أنفسهم للدعوة إليها.

ودليل آخر: أنك تجد من هؤلاء طعنًا وغمزًا في المتمسكين بدينهم، ورميَهم بالتخلف والرجعية؛ فأين النسبية؟! نسبية الحقيقة تقتضي من أنصارها أن يكونوا دائمًا في موقف الحياد، وأن لا يتخذوا أي موقف سلبي أو إيجابي من أي قضية؛ فاتضح أن النسبية ليست قضية علمية، وإنما ستارٌ لتحقيق المآرب.

ثالثًا: من قال: لا توجد حقيقة مطلقة، نسأله: هل كلامك هذا حقيقةٌ مطلقة؟ إن قال: نعم، فقد سقطت قاعدته؛ لأنه أقرَّ بوجود حقيقة مطلقة، وإن قال: كلامي ليس حقيقة مطلقة؛ قيل: إذن لا يمكنك الإلزام به، وليس لك أن تدعو إليه.

فهي مقولة تُسقط نفسها بنفسها.

رابعًا: مذهبهم يقتضي تصويبَ أيِّ قول؛ ومما نعتقده: بطلانُ مذهبهم؛ فيلزمهم تصويبنا بناء على نسبية الحقيقة! فيكونون قد أقرونا على

أن مذهبهم باطل، وهذا كافٍ في ردِّ مذهبهم؛ لأن من شهد على قوله بالبطلان فقد كفى خصمه تبيينَ فسادِ مذهبه.

خامسًا: هذا المذهب ـ كما قال أهل العلم ـ: أوله سفسطة وآخره زندقة؛ لأنه في الابتداء يجعل الشيء ونقيضه حقًّا، ثم ينتهي بتخيير الناظرِ بين النقيضين ليختار من المذاهب ما يروق لهواه، ويسوي بين الاعتقادات والأفعال الصالحة والفاسدة، وهذا كفر وزندقة.

سادسًا: لا يمكن أن تستقيم حياة الناس بناء على هذا المذهب، وستفسد فسادًا لا صلاح معه؛ لأنه بناء على إلغاء الحقيقة المطلقة فيلزمهم أن يسوّغوا لكلِّ أحد أن يفعل أي شيء لأنه رغب فيه ورأى فيه مصلحته، ولو كان قتلَ الأبرياء وتقطيعَ الأطفال واغتصابَ النساء والسطوَ على حقوق الآخرين؛ ولو عورض بأن فعله جريمة، فله أن يُجيب ببرود: ما ترونه جريمة أراه متعة، والحقيقة نسبية!

وبالمناسبة؛ سيجد الغلاة من الخوارج ونحوهم في هذا المذهبِ الحجةَ لهم في قتل المسلمين والمستأمنين بغير حقّ؛ إذ يمكن حين الإنكار عليهم أن يقولوا: ما ترونه إفسادًا نراه نحن جهادًا، والحقيقة نسبية!

أرأيت أي فساد يؤول إليه هذا المذهب!

سابعًا: القول بنسبية الحقيقة لا دليل عليه، وهذا كافٍ في سقوطه.

وتوضيحه أن يقال لمن يتبناه: ما الدليل على أن الحقائق جميعًا نسبية؟ فإن زعم إقامة دليل فقد سقط قوله من أصله؛ لأنه مذهب قائم على رفض مبدأ الدليل الثابت الذي يجب التحاكمُ إليه والانصياعُ

لحكمه، وإن زعم أنه لا دليل عليه؛ فقد سقط قوله أيضًا؛ لأن القول الذي لا دليل عليه غير صحيح عند العقلاء؛ لأنه لا سبيل إلى التحقق من صدقه؛ فثبت سقوط قولهم.

ثامنًا: هذا القول يشهد الحسُّ والواقع والإجماع البشري على بطلانه؛ فالبشر ـ مسلمُهم وكافرهم ـ متفقون على حقائقَ مطلقة: نحوِ أن الظلمَ قبيح، والبرَّ بالوالدين حسن، والعطفَ على الفقير ممدوح، وأن الأجرةَ على العمل واجبةٌ، وأن لكلِّ حادِث محدِث، إلى آخر ما يعجز اللسان عن حصره.

فهذا الاتفاقُ البشريُّ القطعيُّ على ثبوت حقائقَ مطلقةٍ كافٍ في بطلان القول بنسبية الحقيقة.

تاسعًا: يقال لمن يتبنَّى القول بنسبية الحقيقة: لو قُدِّر أنه مرض ابنك، واختلف رأي طبيبين فيه: فأحدهما قال: إجراء العملية خطرٌ على حياته، والآخر يقول: عدم إجراء العملية خطر على حياته؛ فماذا ستصنع؟ هل ستلتزم بمذهبك، وحينها كيف ستتصرف؟ ولا أظن عاقلًا سينحو إلى هذا؛ لأنه سيغامر حينها بحياة ابنه، إذن لا بد أن يجتهد في البحث والسؤال حتى يصل إلى الترجيح بينهما؛ فيقتنع أن قول هذا صواب وقولَ هذا خطأ، وحينها سينقض مذهبه!

وحينها سنقول له: لِمَ أبيتَ المغامرة في شأن الأبدان، وارتضيتها في شأن الأديان؟!

عاشرًا وأخيرًا: مشكلة هؤلاء أنهم وقعوا في مغالطة «التعميم المتسرع».

فهم يقولون: الحقيقة نسبية؛ كاللوحة الفنية: تراها أنت جميلة وأراها أنا قبيحة!

ووجه وقوعهم في هذه المغالطة: أن يقال: وهل كلُّ الأشياء مثل اللوحة؟!

إن هذا مِثلُ مَن جرّب «قطرة عين» فانتفع؛ فصار يحثُّ كلَّ من أصيب في عينه بها! وهذا خطأ بيِّن؛ لأنه إذا نجحت القطرة في مرض فهل ستناسب كل مرض؟!

والصواب أنَّ من الحقائق ما هو مطلق ـ كما سبق ـ، وهي الحقائق المجردةُ القائمة على دليل صحيح ثابت، أو البديهياتُ العقلية ونحوها؛ فهذه حقائق مطلقة ثابتة غيرُ متأثرة باعتقادنا فيها.

ومن الحقائق ما هو نسبي، وهي الحقائق المتوقفة على المتغيرات أو الأذواق، فالعلم التجريبي الذي يرتبط ثبوته بمتغير فإنه يتغير بتغير معياره، كذلك القضايا الذوقية هي نسبية؛ فحكمي على لوحة بأنها جميلة وحكمك عليها بأنها قبيحة: هذا أمر نسبي، فهذه حقائق نسبية لذاتها.

فتبين أن موضع الخلاف مع «أنصار النسبية» هو في جعل الحقائق جميعًا نسبية، وإبطال الحقائق المطلقة مطلقًا.

وهنا يرد سؤال: قد يقال: مَن يطلق القول بنسبية الحقيقة من المسلمين لا يقصد ما سبق، وإنما يقصد أن هناك أمورًا اجتهادية في الشريعة، بدليل كثرة الخلاف بين الفقهاء؛ فلا أحد يقطع بصواب قوله وخطأ قول مخالفه؛ فما الجواب؟

الجواب يتلخص في خمسة أمور:

الأول: الإطلاق الذي أطلقوه أعمُّ من الموضوع؛ فكان ينبغي

التعبير بكلام يُفهِم المقصود ـ وهو المسائل الاجتهادية ـ دون هذا التعميم الذي يَلبِس الحقَّ بالباطل.

الثاني: حين نقول إن هناك حقائقَ ثابتةً في نفسها؛ فإن هذا لا يعني أنها معلومة لكل أحد؛ فقد يصيبها المرء وقد يخطئها؛ لجهله أو قصوره أو لأسباب أخرى.

الثالث: المسائل ليست على درجة واحدة؛ فثمة مسائل بديهية لا يختلف فيها العقلاء، وثمة مسائلُ ظاهرةٌ ظهورًا بينًا، وأدلتها قاهرة بحيث لا تخفى على من أراد الحق، كصحة الإسلام من بين الأديان؛ فهذه لا عذر لمن بلغه العلم في مخالفتها.

ومن المسائل ما هي دون هذه في القوة؛ وهي المسائل الاجتهادية التي لم تتبين فيها الأدلة ذاك التبيُّن؛ فمثل هذه لا إنكار فيها على المخالف، مع اعتقاد أن الحق فيها واحد ثابتٌ يعلمه الله؛ من أصابه فله أجران ومن أخطأه فله أجر واحد.

إذن نسبيةُ الحقيقة ولوازمُها شيء، والتعامل مع الخلاف والمخالف في المسائل الاجتهادية شيء آخر.

الرابع: حتى المسائل الاجتهادية ليس الاختيار فيها منوطًا بالتشهي، بل هناك قواعد يتعين الأخذ بها في الاجتهاد والتعامل مع الأقوال والأدلة والترجيح بينها.

الخامس: مشكلة بعض الناس أنهم يخوضون في مسائل شرعية أو غير شرعية هي أكبر من مستواهم، أو يبحثون في أشياء تخصصية لا يحسنون فهمها وضبطها والترجيحَ بين الأقوال المختلفة فيها، ولا يتوفرون على الأدوات المعرفية اللازمة لهذا؛ فيصابون بشيء من الحيرة

والاضطراب؛ فتجده يقول: المسألة نسبية ولا يمكن الجزم بشيء؛ لأنه ما فهم، مع أنه لو أحسن فهمها وأتى الشيء من بابه لما قال هذا.

ختامًا..

هذه وصية بثلاثة أمور:

الأول: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، فليس لمن عرف الحق أن يتزحزح عنه، مهما كثرت الشعارات البراقة.

الثاني: لنحذر من القواعد الملتبِسة والعبارات المجملة؛ فلربما كان في حشوها السم الزعاف!

الثالث: احترام المخالف المستحِقِّ للاحترام، وحسن الحوار، والتزام الأدب شيء، وتذويب الأصول والتخلي عن العقائد الراسخة والثوابت والقيم شيء آخر؛ والخلط بين المقامين خطأ كبير.

والله تعالى أعلم.

لزيادة الفائدة

۞ أُوصي من كان له اهتمام بهذا الموضوع أن يقرأ آيات الحق في القرآن، وقد وردت هذه الكلمة في أكثر من مائة موضع، تأمَّلها ستجد فيها بُغيتك بإذن الله.

الفصل الرابع عشر

بين الشك واليقين

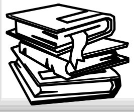

هذا الموضوع من أعظم الموضوعات؛ ففيه حديثٌ عن سبب النجاة وسبب الهلاك.

إنه حديثٌ عن نعيم وعذاب؛ فاليقين بالله ودينه ـ وهو العلم التام الذي لا يخالطه شك، الموجبُ للعمل ـ هذا هو النعيم، وضدُّه وهو الشك ـ الذي هو التردد بين طرفين مع عدم الميل إلى أحدهما ـ: فهذا ـ إن تعلق بأصول الدين ـ كان حيرةً وعذابًا، وطريقًا إلى العذاب.

والمطلوب منا والنافع لنا: هو اليقين بالمطالب الدينية، قال النبي ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما، إلا دخل الجنة**» [مسلم: ٢٧].

ولذا كان اليقين شرطًا من شروط الانتفاع بكلمة التوحيد.

إن اليقين غذاء القلب ودواؤه وشفاؤه، وحياته ونوره، وقوته ولذته.

اليقين: أساسُ الدين، وسِمة أهله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحُجرات: ١٥]

اليقين: سبيل الهداية والفلاح: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٤ ـ ٥].

وفَقْدُ اليقين: سِمة الهالكين، قال تعالى عن الكافرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجَاثِيَة: ٣٢].

إن الشك أَلَمٌ في القلب، وضيقٌ في الصدر، ولوعةٌ تستولي على النفس.

بخلاف اليقين؛ فهو برد وطمأنينة وسكينة وانشراح، وحلاوة وفرحة وســـرور، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّمَر: ٢٢].

لماذا الحديث عن هذا الموضوع؟

لأن الوعي به أهم من الوعي بأشياءَ أخرى كثيرةٍ!

فثمة اليومَ صراعٌ مرير تدور رحاه في نفوس بعض الشباب والفتيات؛ حتى صاروا يراوحون في دينهم بين شكٍّ ويقين!

هناك شكوك قوية تساور بعضهم، تتعلق بالحقائق الإيمانية الكبرى: الإيمانِ بالله، صدقِ النبوة المحمدية، صحة الإسلام، ثبوت اليوم الآخر.. إلخ.

إنهم يطمحون إلى الارتقاء إلى سماء اليقين، لكن الشكوك تجذبهم إلى الأسفل!

إنه حقًّا هَمٌّ مُقعِد، وحيرة قاتلة!

الأمر خطير جدًّا.. هناك فلسفاتٌ معاصرةٌ شكوكيةٌ منتشرة، عبثت بعقول كثير من الشباب اليوم فأدخلتهم في دوامة من الحيرة والتِّيه، فأضحوا لا يبصرون معها نورًا[1].

---

(١) حاورت مرةً شابًّا قد عصفت به بعض هذه الفلسفات، حتى صار شاكًّا في غالب الأشياء إن لم يكن جميعها؛ حتى إنني تحيرت في كونه متيقنًا من كوني جالسًا أمامه، أم هو في شك من هذا أيضًا!

وكلُّ من يعرف هذا الواقع فعليه مسئولية كبيرة تجاه هؤلاء الشباب: أن يساعدهم في الوصول إلى برِّ الأمان، وأن يبصروا النور، وأن يشعروا بالطمأنينة والاستقرار، وأن يُلقوا عن أنفسهم هذا الحمل الثقيل، وأن تستريح قلوبهم وتسكن نفوسهم.

لا بد أن نعي أننا نعيش في ظلِّ حملات تشكيك طاغية، وأمواجٍ منه عاتية، وأن أعداء الله يبثُّون الشكوك ليل نهار، ويقعدون للشباب بكلِّ صراطٍ ليصدُّوهم عن سبيل الله؛ فيشككونهم في وجود الله، وفي ربوبيته وإلهيته، وفي كتابه، وفي نبيّه، وفي سنته، وفي القدر، وفي الغيب، وفي الأحكام الشرعية، بل حتى في البديهيات العقلية.. ولا والله ما بالغتُ مثقال ذرة!

قبل عقود قريبة لم يكن بنا حاجة أن نطرح هذا الموضوع كما نطرحه اليوم، لكن الوضع الآن اختلف؛ فالعالم لم يعُد قرية صغيرة، بل هو أشبه بغرفة صغيرة؛ فما يُطرح في أقصى الغرب ـ في شيكاغو مثلًا ـ أو في أقصى الشرق ـ في طوكيو مثلًا ـ تطلعُ عليه في اللحظة نفسها، وتتفاعل معه وأنت في بيتك متكئٌ على أريكتك!

هذا الواقع قد استغلّه أهل الضلال أعظم استغلال؛ فجيّش الملاحدة واللادينيون وجميعُ الضُّلّال جيوشهم ـ من خلال الشبكة ووسائل التواصل والفضائيات ـ وريّشوا سهامهم لإصابة ضِعاف الإيمان في مقتل، فالله المستعان.

ما السبيل لتجنيب أبنائنا سهام تيارات التشكيك؟

الأمانة التي استرعاك الله إياها أيها الأب والأم، وأيها المعلم

والمربي والمسئول: سيسألك الله عنها؛ فأعدَّ للسؤال جوابًا، «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» هذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى، ﷺ.

[(خ: ٨٩٣، م: ١٨٢٩)].

باختصار: نحتاج مع أبنائنا أن نستعمل **ثلاث تاءات**: **التحصين، والترشيد، والتربية.**

أما **التحصين**: فالمسائل الفاشية التي تُطرح اليوم وهي مثار إشكال وشكوك، وتستوعبها عقولهم: لا بد من إعطائهم جرعةَ تحصينٍ (تطعيم) ضدها، فتقول لهم: هناك فكرة خاطئة هي كذا، والصواب: كذا، بأسلوب سهل واضح يفهمونه.

إنه إذا كانت المبادرة منك؛ فأنت تُحرز السبق، وتضمن أنه إذا وردت على ابنك الشبهة فلديه ـ بعون الله ـ خط دفاع أولي؛ إذ إنه سيقول: هذا ما حدثني عنه والدي، وبيّن لي خطأه؛ فتمر عليه العاصفة بهدوء.

إن «الفيروسات» ـ الحُمَات ـ الخطِرة المنتشرة لا مناص معها من التطعيم، و«الفيروس» المضر بالأبدان خطير، و«الفيروس» المضر بالأديان أخطر، والتطعيم الحسيُّ المأمون: مهم، والتطعيم المعنوي المأمون: أهم.

أما **الترشيد الثقافي**: فإننا في أمسِّ الحاجة إلى الترشيدِ في مصادر معرفة أبنائنا ومنصات ثقافتهم: من يتابعون، وإلى من يستمعون، وماذا يشاهدون.

لقد أضحت الرقابة الذكية اليوم متعينة؛ فالعقارب والحيات منتشرة، ولربما لبِست ثيابًا ناعمة مزخرفة، وتحت الثياب سمٌّ يقطر!

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطبُ

أما **التربية**: فإننا نحتاج إلى التربية **الإيمانية الإقناعية**.

لا بد من التفريق بين حالين: إيمان العادة أو دين المرْبَى والمنشأ، وبين إيمان القناعة ودين الاستيقان.

إنها حقيقة لا بد أن نتصارح بشأنها: شريحة كبيرة من شبابنا وفتياتنا إيمانهم من النوع الأول: حيث نشأ في بيئة مسلمة، ومن أبوين مسلمين، ويمارس شعائر الدين تقليدًا، دون أن يذوق غالبًا طعمَ الإيمان ويصلَ إلى حلاوته.

هذا الإيمان - إيمانُ الإلف والعادة - لا يجدي - غالبًا - على صاحبه شيئًا إذا ابتُلي بقصف الشبهات، أو زحفت إليه جحافل الشكوك، وأدنى ريح ستميله؛ إلَّا أن يلطف الله به.

أما صاحب إيمان القناعة واليقين: فهو يرفل في عافية من مضلات الفتن بتوفيق الله؛ لأنه على بصيرة، وعلى نورٍ من ربه، وعلى بينة من ربه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، غرس الإيمان في قلوبهم فلا يتزلزل، وأمدَّهم بمدده فلا تصيبهم أشواك الشكوك.

يصلي أحدهم لأنه مقتنع بالصلاة، ويفعل ما أُمر به وينتهي عما نُهي عنه لأنه متحقق من أن هذا هو الصواب؛ فيباشره وهو فرح مطمئن؛ فأنى لمن هو على نور من ربه أن تعبث الشبهات بيقينه!

🕮 وصايا للسلامة من الشكوك

من المقاصد الجليلة التي يعتني بها أولو الألباب: السعيُ في

تحصيل اليقين وزيادة الإيمان، ودفع الشكوك والآفات عن هذا الإيمان، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدَّثِّر: ٣١].

فيا من يطلب اليقين: اعرف قدر ما أنت طالب؛ فهو أعلى المراتب؛ وتسلَّح بالصبر والهمة العالية، واستعن بالله من قبلُ ومن بعد.

ولتكن هذه الوصايا الستّ منك على ذُكر:

أولًا: القرآن، ثم القرآن.. إنه الحبل المتين، الموصلُ إلى اليقين، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٠ ـ١٠١].

وانظر إلى حال مؤمني الجن؛ ما إن سمعوا القرآن حتى استوطن اليقين قلوبهم: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجنّ: ١ ـ ٢].

تلاوة القرآن بتدبر وَجبَةٌ إيمانية يومية، فاحرص على أن تتغذى بها روحك، وإلا فستخور قواك، وحذارِ من هجر القرآن!

ثانيًا: معرفة أسماء الله وصفاته وتدبرُ معانيها؛ فهو من أوسع أبواب اليقين؛ فلا بد أن تفرغ من وقتك واهتمامك له؛ فالسائر إلى الله من طريق أسمائه وصفاته: قد حيزت له السعادة بحذافيرها.

ثالثًا: دراسة السيرة ودلائل النبوة والشمائل المحمدية؛ فالرضا به ﷺ نبيًّا ركن ركين في بلوغ اليقين، وهذه الدراسة سبب موصل إليه.

رابعًا: دراسة محاسنِ الإسلام وجمالِه وكمالِه؛ فهذا السبب العظيم يرتقي بك في مراقي اليقين درجات عالية، ومن وقرت عظمة الإسلام في قلبه: لو تزحزحت الجبال عن أماكنها؛ فلن يتزحزح يقينه قدر شعرة، وإذا

أردت أن تعرف عظيم أثر هذا الموضوع فانظر إلى حال من أسلم من الكفار؛ تجد أن كثيرًا منهم قد أثّرت محاسن الإسلام في أنفسهم أثرًا عظيمًا(١).

ومع الأسف؛ فإن بعضنا لا يستشعر هذه النعمةَ التي نحن فيها.

فلا بدَّ من التركيز على هذا الموضوع والتذكير به.

خامسًا: الدراسةُ المتأنية لتوحيد الربوبية ودلائل وجود الله وعظمته، وتأملُ الآيات الكونية والشرعية الدالةِ على هذا، والتي تُكسب القلب يقينًا وثباتًا، والجوارحَ طاعة وعبادة.

سادسًا: الحذرُ من مضعفات اليقين وقوادحِه، وسدُّ كلِّ سبيل يوصل إلى هذا، وعدمُ إرخاء السمع إلى شياطين الإنس ومقاطعِهم ومواقعهم وكتبهم وحساباتهم.

فمهما غامرتَ فلا تغامرْ بدينك؛ فالسلامة لا يعدلها شيء، ولا تقل: أعرف الواقع، وأردُّ على المخالف!

لا تجازف؛ فأهل العلم الراسخون يكفونك المؤونة، والسباحة في لُجج البِحار ليست إلَّا لأهل التأهل التام!

---

(١) حضرت مرة مجلسًا، وكان أحد الدعاة يدعو فيه كافرًا إلى الإسلام؛ فذكر له بعض محاسنه؛ ثم قال له: ما رأيك أن تدخل في الإسلام؟ فقال ـ في معنى كلامه ـ: أنا لن أقول إنني أريد الدخول في الإسلام، أنا أتشرف بالدخول في هذا الإسلام!

وحضرت مجلسًا آخر كان الداعية يدعو فيه امرأة للدخول في الإسلام؛ فكان يفيض في بيان محاسنه، وهي تكتب باهتمام ما يقول في مذكرة معها، وفي أثناء كلامه أوقفته وقالت: عندكم هذا الخيرُ كله، وتحصرونه على أنفسكم؛ لماذا لم نسمع بهذا من قبل؟!

وحذارِ أيضًا أن تسمع شكوك صاحبك أو غيرِه، فلربما تسلَّلت إلى قلبك.

لا تحُم حول الحمى، واطلب السلامة.

إن السلامة من سلمى وجارتها
أن لا تمرَّ على حال بواديها

وصايا لمن وقع في حبائل الشكوك

هذه وصايا تنفع ـ بتوفيق الله ـ من كان مريدًا للخير راغبًا في التعافي من مرض الشكوك. وهي ست عشرة وصية:

أولًا: إن نزل بك شكٌّ في مسألة دينية فلا تيأس؛ وحذارِ أن تكون ممن يعبد الله على حرف؛ فتنقلبَ على عقبيك، والله مع الصابرين الصادقين، اصدق الله يصدقك، توكل عليه، وسله بقلب حاضر شفاءك من مرضك، وأبشر بفرج قريب؛ فإن **من أخلص تخلّص**، ومن نصر الله نصره، ومن ذكر الله ذكره.

ثانيًا: ربما ابتليتَ بالشك بسبب ذنب أذنبته؛ فأحدِث توبة.

إياك أن تكون ممن عوقب على سيئاته؛ فأُبدل من بعد اليقين شكًّا، ومن بعد الطمأنينة حيرة، فإن **مَن بعُد عن الإيمان: بعُد عن الأمان.**

واعلم حينها أنه لا مخرج لك من هذه الورطة إلَّا أن تفزع إلى ربك بالتوبة والاستغفار والتضرع.

ثالثًا: دواء الشكِّ في مبادئه: المرورُ عليه؛ فلا تُفخّمه في قلبك، ولا تكرر إثارته فيه أو تعيد التفكير فيه؛ فربما كان سانحًا يزول عن قريب، ومهما هجم عليك فتشاغل عنه بنافعٍ أو مباح.

رابعًا: لا بد من التفريق بين الشك العلمي، والوسوسة القهرية.

فالأول يعالج بالعلم.

والثاني يعالج بالطب: بالطبِّ الشرعي؛ بكثرة ذكر الله والاستعاذة به من الشيطان.

والطبِّ الحسي: فربما كان العلاج من طبيب أو أخصائي نفسي ثقة: سببًا للشفاء بإذن الله.

خامسًا: دوام الشكوك أضرُّ الأشياء على القلوب؛ فعجّل بالعلاج.

فالعاقل لا يرضى بالمكث تحت حكم الشكوك، بل يبادر بالعلاج بأسرَعَ ما يمكن؛ حتى يتمتع ببرد اليقين.

إذن، لا بد من حزم وعزم في قطع الشكوك، فجِدَّ واجتهد.

واعلم أن إهمال الشكوك قد ينقل إلى دركات من الضلال، ويورد صاحبه الموارد، وإدراكُ الخلل من قريب أنجع في العلاج.

وتذكّر أن الحقَّ عزيزٌ كريم، لا يناله المعرض عنه.

ومن ساء قصده فلن يفهم البراهين المزيلةَ لشكِّه، ولن ينتفع بها؛ فتواضع وتجرّد للحق.

سادسًا: ابتغ الحق والهداية حيث ابتغاهما الخليل إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصَّافات: ٩٩].

فأخلص لله والتجئ وتضرع، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التّغابُن: ١١].

سابعًا: الشكُّ مرض في القلب، وغالب الشكوك سببها الجهل؛

فتعلَّم ما تجهلُ ويُشكلُ عليك من مصدر موثوق؛ فهذا دواؤك، وما أقرب الشفاء بإذن الله.

واعلم أن أكثر الجهل بحقيقة الشريعة سببه عدم الهَمِّ لا عدم الفهم! وإلَّا فالشريعة واضحة لا لبس فيها بحمد الله؛ فالهمةَ الهمةَ في التعلم.

واعتمد ـ بعدَ الله ـ على أهل العلم الثقات، وانتفع بوصايا المخلصين لا المغرِضين.

والجهل داءٌ قاتل وشفاؤه أمرانِ في التركيب متفقان
نصٌّ من القرآن أو من سنَّةٍ وطبيبُ ذاك العالمُ الرباني

ثامنًا: اعتصم بمبدأ التوفيق بين المقرَّر والمبهم؛ فإذا شككت في قضية فرجِّح ما يتفقُ أو يقربُ مع يقينك، وابنِ المجهول على المعلوم، واتخذ ما تيقنته أساسًا لتعالج به ما تشك فيه.

تاسعًا: لا بد من معارضات نافعة عند الشكوك الغالبة!

ومن ذلك المعارضةُ بما يقتضيه الاحتياط؛ والاحتياطُ دائمًا هو الأخذ بما جاء في الإسلام؛ فلا أنجى من المخاوف منه؛ فالآخذ بما فيه: سالمٌ على كلِّ حال، ولن يخسر شيئًا؛ بخلاف من تنكب طريقه، كما قال بعضهم:

ورغبني في الدّين أنَ دَليله
قويٌّ، ويُخشى كلُّ شَرٍّ بجحدِهِ
وكرهني للكفر أن فَسَاده
جليٌّ، ويُخشى كلُّ شَرٍّ بِقَصْدِهِ

عاشرًا: تدرَّج لتصل.

إذا ابتليت بشكوك عديدة؛ فتدرج في حلها واحدًا بعد واحد، ولا تحاول البحث فيها جميعًا في وقت واحد، فهذا ما سيصعب معه حلها.

حادي عشر: حذارِ من أن ينقلب شكك جحدًا وإنكارًا، فما شككت في ثبوته أو تحيرت فيه فليس لك أن تنكره.

ليبقَ الشكُّ شكًّا، فهو مشكلةٌ وتزول عن قريب بإذن الله، أما الإنكار بلا برهان فجهالة وخطر.

تذكّر: عدم الإدراك ـ عند العقلاء ـ لا ينفي الحقيقة.

ولا تلازم بين عدم المعرفة والحكمِ بالبطلان.

والإنكارُ يحتاج إلى دليل، والشاكُّ ليس معه دليل.

ثاني عشر: الترجيح ينوب عن التأكيد.

فمتى تعذَّر عندك اليقين التام؛ فالترجيح ينوب عنه، وفيه فُسحةٌ لك، والعقلاء يَحكُمون بالمرجَّح ويُهملون شكوكهم.

أي أنَّ بعض الناس إذا ساورته الشكوك الدينية فإنه يقول: إما اليقين التام وإلا فلا! فهو يريد العلاج «مائة بالمائة» ـ كما يقولون ـ، ولا يتزحزح عن شكوكه إلَّا بهذا، مع أنه يمكن أن يتدرج من شك إلى يقين عن طريق الترجيح؛ فستون بالمائة مثلًا خطوة جيدة تقود من بعد إلى مائة بالمائة إن شاء الله، فسَكِّن نفسك بهذا واطمئن!

إذن، الترجيح للشاكِّ مسلك نافع، وبه ينال نسماتِ اليقين إن لم يذق حلاوته ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٥]، والثوب البالي ـ كما قالوا ـ خيرٌ من العُري!

ثالث عشر: ما لم تفهم تفاصيله فلا تجعله مشكوكًا فيه.

بعض الناس يُسوي بين المجهول والمشكوك، فيشكُّ في كل ما لم يفهمْ تفاصيله من الشريعة؛ فيغرق في أمواج الشك من هذا الباب؛ وهذا خطأ؛ فالشك شيء، والجهل أو عدم إدراك التفاصيل شيء آخر.

أُقرِّبُ فهْم هذا بمثال: في حياتنا أشياءُ كثيرةٌ نسلِّم بها مع عدم فهمنا لتفاصيلها، ولم يُشكّل هذا الجهل عائقًا في التعاطي معها؛ فأكثر الناس ـ مثلًا ـ لا يفهمون كيف ينتقل الصوت فيزيائيًّا عبر الجوال أو الهاتف، ومع ذلك فهم يستعملونه دون إشكال، ولم يكن هذا معضلة عندهم؛ وما سمعنا بمن يقول: إما أن أفهم طريقة عمله أو لن أستعمله!

إذن: يمكن التسليم بما لم تُفهم تفاصيله من حقائق الشرع والقدر والغيبيات وغيرها، ولن يمثل عدم الفهم ـ حينها ـ عائقًا أمام ثبوت الإيمان.

رابع عشر: فرّق بين المستحيل عادة والمستحيلِ عقلًا.

بين الـمَحارة والـمُحال.

بين الممكن البعيد والممتنع.

وبعض الناس يدبُّ الشكُّ إلى فؤاده بسبب عدم إدراكه هذا الفرق؛ فيجعل المستحيلَ عادة في حكم المستحيلِ عقلًا؛ وهذا غلط كبير؛ فتجد أنه يشك في بعض أمور الغيب لأن عقله يستبعدها لعدم إِلْفِهِ لها؛ مع أنها ممكنة عقلًا، ولا تُعارض مسلَّمًا عقليًّا.

ونحن قد رأينا في هذه الحياة أمورًا كانت معدودة في السابق من المستبعدِ تمام الاستبعاد؛ فصارت اليوم من المسلَّمات!

خذ مثلًا: أن تسمع صوت أحد في اللحظة التي يتكلم بها وهو بعيد عنك آلاف الأميال، بل وأن ترى صورته: من كان يصدِّق بهذا قبل مائةٍ وخمسين عامًا؟!

ومن ينكر هذا اليوم؟!

خامس عشر: الحميةُ قبل العلاج.

فتباعد عن مثيرات الشبهات، وأسباب الشكوك؛ فإن العلاج لا ينفع عادةً ما لم تصحبه حِميةٌ من أسباب المرض.

رأوا ألف بانٍ لا يقوم بهادمٍ فكيف ببانٍ خلفه ألفُ هادمِ!

وأنت طبيب نفسك، وتعرف من أين تأتيك الشكوك؛ فأغلق النوافذ!

سادس عشر: لا تحفل بالمخالفين للحق الجلي.

لا تقل: لو كان حقًّا لم يكن له مخالف.

بعض الناس يتزعزع إذا رأى مخالفًا لما هو عليه، قلَّ أو كثر؛ وهذا لا التفات إليه عند العقلاء؛ فالحق يُعرف بدليله وليس بالموافق أو المخالف.

فارفُق بنفسك إن رأيت مخالفًا لما تعتقد؛ فإن من الناس من أنكر المحسوسات! ومنهم من أنكر جميع العلوم! ومنهم من عبد الشيطان، ومنهم من عبد القرود والفئران!

هذه وصايا مختصرة، وعسى الله أن ينفع بها.

ختامًا..

اليقين أعظم مواهب الكريم سبحانه؛ فكن من الشاكرين، وكن للثبات عليه من السائلين.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

منزلة اليقين من كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ١٧٠) طبعة دار عالم الفوائد، فكلامه رَحِمَهُ اللَّهُ فيها في غاية الحُسْن.

الفصل الخامس عشر

دعوت فلم يُستجب لي!

الدعاء حبل ممدود بين السماء والأرض، وصلة بين الله وعباده، به صلاح دينهم ودنياهم، يفزعون إليه لتحقيق حاجاتهم وتنفيس كرباتهم، وليس شيء أكرم على الله منه.

بالدعاء الخالص لله تحقيقُ التوحيد بأنواعه، فهو العبادة حقًّا؛ ودليل تعظيمِ العبد للمعبود، وحسنِ ظنه به، ولذا حصر النبي ﷺ العبادة فيه؛ فقال: «**إن الدعاء هو العبادة**»، وقرأ هذه الآية ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]. [أخرجه أحمد (١٨٣٨٦)].

حثَّ سبحانه عباده عليه، وإنه ليغضب على من يتجافى عنه، قال ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**» [أخرجه أحمد (٩٧٠١)].

قال عطاء: جاءني طاووس رحمهما الله فقال لي: (يا عطاء إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجابًا، وعليك بطلب حوائجك إلى من بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة، طلب منك أن تدعوه ووعدك الإجابة). [أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١١)].

إن الدعاء خير سلاح يتسلح به المؤمن ويدفع عنه البلاء؛ هو عُدته وعَتاده، وأعجز الناس من عجز عنه؛ قال ﷺ: «**إن أبخل الناس من بخل بالسلام، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء**» [أخرجه ابن حبان (٦٠٩٧)].

الدعاء: هو الربح بلا تعب، والمغنم بلا عناء، والتجارة الرابحة التي يملكها الفقراء والأغنياء.

الدعاء: سبب من أعظم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة.

من آداب الدعاء:

آداب الدعاء التي على العبد أن يحافظ عليها كثيرة، وبعضها واجب

وبعضها مستحبٌّ، وهي من أعظم أسباب إجابة الدعاء، أجملُ أهمَّها فيما يأتي:

أولها وأهمها: أن يسأل العبدُ اللهَ وحده:

فـاجْـعَـل سُـؤَالَـكَ لـلإلـهِ فـإنَّـمَـا
فـي فـضـل نِـعـمـةِ ربـنـا نـتـقـلـبُ

وحذار من دعاء غيره؛ فهو الهلاك والخسارة، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

ودعـوةُ الأمـوات تـحـبـط الـعـمـل
وتـسـلـخ الإيـمـان، خـاب مـن فـعـل

ومن الآداب: أن يفتتح الداعي دعاءه بحمد الله والثناء عليه، ويظهر الافتقار إليه، وليصلِّ على النبي ﷺ، وليخفِضْ صوته في الدعاء، بين المخافتة والجهر: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، قال ابن جُريج: يكره رفعُ الصوت والنداءُ والصياحُ في الدعاء، ويؤمرُ بالتضرُّع والاستكانة.

وحبذا أن يتوسل الداعي إلى ربه بأنواع التوسل المشروعة، وليتحرَّ أوقات الإجابة ما أمكن، وليرفع يديه، وليعزم في دعائه ويجزم، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ، لاَ مُكْرِهَ لَهُ**» [متفق عليه (خ: ٦٣٣٩، م: ٢٦٧٩)].

وليكن حاضر القلب أثناء دعائه، مستيقنًا بإجابة ربه، قال النبي ﷺ:

«**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ**» [أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)].

ومن أراد أن تجاب دعوته فليجتنب أكل الحرام وشرب الحرام ولُبس الحرام.

ومن الآداب: الإكثارُ من الدعاء في الرخاء والشدة، فقد قال النبي ﷺ: «**منْ سَرَّهُ أنْ يستَجيبَ اللَّه لهُ عِندَ الشَّدائدِ والكُرَبِ: فلْيُكثِر الدُّعاءَ في الرَّخاءِ**» [أخرجه الترمذي (٣٣٨٢)].

ومن الآداب: أن يُلحَّ على ربه في دعائه، قال الإمام الأوزاعي: (كان يقال: أفضل الدعاء الإلحاح على الله تبارك وتعالى والتضرع إليه).

وليحذر استعجال الإجابة؛ فقد قال ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت فلم يُستجب لي**» [متفق عليه (خ: ٦٣٤٠، م: ٢٧٣٥)].

وأخيرًا: ليجتنب الاعتداء في الدعاء، وهو: تجاوز الحدِّ الشرعي فيه؛ معنًى أو لفظًا أو أداء وهيئة.

🕮 إجابة الدعاء من أدلة وجود الله وربوبيته

قال أهل العلم: من براهينِ وجود الله وربوبيته ووحدانيته، واتصافه بصفات الجلال والكمال: إجابتُه للدعوات في كلِّ الأوقات، فلا يحصي الخلقُ ما يعطيه ـ سبحانه ـ السائلين، وما يجيب به البر والفاجر، والمسلم والكافر.

فكم من إنسان عبر التاريخ رفع يديه إلى السماء ودعا الله فحصل له

مطلوبه، وهذا شيء أعرفه في نفسي، وتعرفه في نفسك، ويعرفه الناس في أنفسهم، ومن لا يتذكر شيئًا من هذا: فالأخبار المتواترة عن ملايين البشر الذين دعوا الله فاستجاب لهم كافية.

وفي التاريخ القديم والحديث أخبار مستفيضة عن أناس صالحين مشهورين بإجابة الدعاء، ناهيك عما جاء في الكتاب والسنة من استجابة الله لأدعية أنبيائه.

وهذه أخبارٌ متواترة، ولا يكذّب بالأخبار المتواترة إلا مشغّبٌ متلاعب.

الخلاصة: تحصلُ للناس المطالب الكثيرة، في قديم الدهر وحديثه، ولا يعرفون لها سببًا سوى الدعاء، والطمعِ في فضل الوهاب، وهذا برهان مشاهَدٌ في كلِّ الأوقات، لا ينكره إلَّا مباهت جاحد.

وعليه: فثمة ربٌّ قدير رحيم، سمع الدعاء وأجابه.

بل إن مجرد لجوء البشر إلى الخالق سبحانه بالدعاء وقت الشدة ـ وهذا شيء لا ينفكون عنه ـ: هذا وحده كافٍ في إثبات وجود المتوحد بربوبيته، الذي فطر العباد على هذه الفطرة.

🕮 مناقشة استدلال الملاحدة بعدم إجابة الدعاء على نفي وجوده سبحانه.

ثمة إشكال يرد على بعض الناس يتعلق بهذا الموضوع، ويكثر السؤال عنه؛ فيقول قائلهم: دعوت فلم يُستجب لي!

وقد يجعل أعداء الله هذا الإشكال شبهةً يسعون بها إلى زعزعة

إيمان الجهَّال بربهم؛ فيقولون: دعا فلانٌ اللهَ فلم يجد إجابة؛ ولو كان الله موجودًا لأجابه؛ إذن هو غير موجود! سبحان الله عما يصفون.

وقبل الإجابة أقدّم بست مقدمات ممهدات تسهّل فهم الموضوع الفهم الصحيح بإذن الله؛ فأحضِرها في ذهنك وأنت تقرأ ما يأتي بعدها من أجوبة:

أولا: الله تعالى حكيم، متصف يقينًا بالحكمة، والحكمة وضع الشيء في أعدل مواضعه وأتقنها.

واتصافه تعالى بالحكمة أمرٌ قطعي؛ عليه آلاف الأدلة؛ فتعجلُ إعطاء المدعو أو تأخيره أو إبداله بخير منه؛ كلُّ ذلك راجع إلى حكمة الحكيم الخبير سبحانه.

ثانيًا: الله أصدق القائلين، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٢٢]، وإذا وعد سبحانه فإنه لا يخلف الميعاد؛ فإياك أن يتزعزع إيمانك بهذا.

ثالثًا: إذا جاء في بعض الأدلة إطلاق، وجاء في بعضها تقييد؛ فالواجب حمل الأدلة المطلقة على المقيَّدة.

رابعًا: يجب الجمع بين الإيمان بأن الله غفور رحيم، والإيمان بأنه شديد العقاب، قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحِجر: ٤٩ ـ ٥٠].

خامسًا: عِلْمُنا قاصر، وعقولنا ضعيفة لا تحيط إدراكًا بكل شيء، والله تعالى علمه واسع شامل لكل شيء، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النُّور: ١٩].

سادسًا: الدنيا دار ابتلاء لا دار إسعاد.

الدنيا ليست الجنة، والآخرة: هي دار الجزاء الأوفى.

هذه المقدمات الست مهمة، ولعلها إذا ضُمّت إلى ما يأتي من أجوبة يتجلى المقام ويزول الإشكال بتوفيق الله.

أولًا: هذه الشبهة مردودة بأنه سبحانه قد أجاب دعوات كثيرة؛ وهذا معروف ـ كما تقدم ـ في القديم والحديث، في وقائع أكبر وأكثر من أن تكون متواترة.

إذن؛ من قال: دعوتُ فلم أجد إجابة؛ يقال له: أنا وغيري كثيرٌ كثيرٌ كثيرٌ: دعونا فوجدنا الإجابة! والمثبِت مقدَّم على النافي.

وصدق نبي الله زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]، أي: «ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردَّني قط فيما سألتك». [تفسير ابن كثير ٥/ ٢١٢].

ودعني أُذكّرك أيها المستشكل وأذكّر نفسي بأدعية كثيرة دعوناها واستجيبت لنا؛ فكم دخلنا امتحانات ودعونا الله بالنجاح ونجحنا، وكم سافرنا أو خرجنا من بيوتنا ودعونا بالسلامة ورجعنا سالمين، وكم سألنا التوفيق في معاملات وتيسرت لنا، وكم مرِضنا وسألنا الشفاء وشُفينا، وكم دعونا أن نبلغ رمضان وبلغناه..

مواقف كثيرة، نُسيت! وكان التذكر لتلك الأدعية التي لم تتحقق لنا بعينها، وصدق الله في وصف من لم يقدره حق قدره: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

ثانيًا: لا يقول هذا الكلام عبدٌ خاضع لربه؛ فالدعاء الذي يجاب هو الدعاء الذي يكون من عبدٍ لربه، وليس من المستكبر عنه، الذي يقول بلسان حاله أو مآله: إما أن تعطيني كل ما أريد أو أنكر وجودك! أو: إما أن تعطيني الآن دون تأخير؛ وإلَّا شككتُ في قدرتك ورحمتك! هذا لا يليق أن تُعامل به بشرًا مثلك كأب أو أم أو مسئول؛ فكيف بربك العظيم سبحانه؟!

البحث في هذا الموضوع ينبغي أن يبدأ أولًا بتحديد العلاقة بين العبد وربِّه؛ فما هي؟ هل هي علاقة عبودية وخضوع، من عبد لربه الذي يحبُّه ويخاف عذابه ويرجو رحمته، لربه الذي يعتقده كامل الأسماء والصفات، الذي له العلم الواسع والحكمة البالغة، والغنى التام والقدرة الكاملة، لربه الذي يرجو أن يتفضل عليه بالإجابة، ولا مُكره له ولا مغالب؟

أم هي علاقة معاوضة و«مصالح» ـ كما يقال ـ؟!

من فهم الصواب في هذا المقام سهُل عليه استيعاب الموضوع برمَّته، وإلا فليصلح اعتقاده أولًا قبل البحث في موضوع الدعاء.

بمعنى: حين يقول قائل: دعوت فلم يستجب لي؛ نحن نسأله: ما معنى إجابة الدعاء وما مفهومها عندك؟ هل هي معاوضة؛ «دعوتُ فأين الإجابة؛ لمَ تأخرت علي!» كأنك أعطيتَ فتريد أن تأخذ، وأن لك حقًّا على الله وتريد أن تستخلصه؟! الأمر ليس كذلك؛ فالمفهوم الصحيح للإجابة هو: أن الله تعالى يتفضل بإجابة دعاء المتضرع، بمشيئته المقترنة بحكمته.

عندنا هنا ثلاثة أشياء:

الله تعالى يجيب دعاء المتضرع المفتقر، لا المستكبرِ أو الشاكِّ، أو الذي يريد أن يختبر وجوده سبحانه أو قدرته أو غناه؛ فالله أعز من أن يجيب هذا؛ قال سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦].

والله يجيب بمشيئته، لا بإكراه أحد أو إلزامه، تعالى عن هذا علوًّا كبيرًا، قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وهو يجيب بحكمته لا عبثًا؛ وحكمته قد تقتضي التعجيل بإعطاء المطلوب أو تأخيره أو إعطاء بدل عنه، كما سيأتي.

ثالثًا: إجابة الدعاء دليل على وجود الله سبحانه، وليست امتحانًا لوجوده!

فالله هو من يبلو عبادَه ويمتحنُهم، وليس العكس! فهذه انتكاسة وقلب للحقيقة.

أعود فأقول: إجابة الدعاء دليل على وجوده سبحانه، وعدم الإجابة ليست دليلًا على انتفاء وجوده؛ **لأن الدليل لا ينعكس**؛ فلا يلزم من عدمه عدم المدلول عليه؛ لأنه قد يثبت بدليل آخر؛ وعندنا على وجوده سبحانه وربوبيته آلافُ الأدلة.

كما أن عدم الإجابة له تفسيرات عديدة معقولة؛ فجعل عدم الإجابة دليلًا على الإلحاد: مغالطة سخيفة، وحجة داحضة.

رابعًا: من ينكر وجود ربه بناء على أنه دعاه فلم يعطه سؤاله: هذا لا يريد ربًّا عزيزًا قديرًا، يتصف بالعزة والمشيئة والكبرياء؛ إنما يريد خادمًا له مأمورًا، وظيفته أن يلبيَ له طلباتِه وينفذَ له أمنياته، أو يريده «روبوت» مبرمجًا على تنفيذ كلِّ ما يطلب منه! ويتعالى ربنا ويتنزَّه عن هذا.

خامسًا: عدم إعطاء المرء سؤله قد يكون أثرًا من آثار اتصاف الله سبحانه بالرحمة؛ فمن رحمته سبحانه أنه قد يمنع عبده ما يطلبه؛ لعلمه أنه يضرُّه، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسرَاء: ١١] وهو الرجل يدعو على نفسه وأهله بالشرِّ في حال الغضب.

وكم الذين يدعون الله في أوقات ضعف أو غضب أو جهل بأشياءَ لو أجيبت لعاد عليهم هذا بالضرر؛ ومن هذا ما أخرج مسلم في صحيحه [(٢٦٨٨)] عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ لاَ تُطِيقُهُ ـ أَوْ لاَ تَسْتَطِيعُهُ ـ أَفَلَا قُلْتَ: اللهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؟!**» قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ، فَشَفَاهُ.

إذن، ليس كل إجابة لسؤال تكون رحمة، بل ربما كانت الإجابة وبالًا، ونحن لصغر عقولنا وغرورنا نظنُّ أننا أحطنا علمًا بكل شيء، وعرفنا ما هو الأصلح لنا تمامًا فنتنغص حين لا يلبَّى لنا!

أرأيت طفلًا مريضًا يطلب من أبيه طعامًا أو شرابًا تعلقت نفسه به، لكنه يضرُّه ويزيد مرضه، فالامتناع عن الإجابة هنا هو الرحمة، وغضب الطفل بعد الرفض من نقص عقله، وما أشبهنا في كثير من الأحيان به!

والعبرة هنا: كم هي عقولنا صغيرةٌ عن استيعاب عواقب الأمور، وكم كشفت لنا الحقائق اللاحقة عن جهلنا في التقدير، وعن سوء اختيارنا؛ فلنفوض أمورنا إلى العليم الرحيم..

فوّض الأمر إليه هو أولى بك منكَ

الخلاصة: من رحمته سبحانه أنه قد لا يجيب دعاءً يعلم أنه يعود على طالبه بالضرر، قال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

سادسًا: عدم إعطاء المرء سؤله قد يكون أثرًا من آثار اتصاف الله سبحانه بالعزة والغضب؛ فلربما كان منعك من شيء تحبه لأنك تبارز الله بالعصيان، وتتكبر عن الطاعة؛ فتُعاقب بحرمانك ما تحب.

فقبل أن تسيء الظن بربك: راجع نفسك؛ فلربما كان سبب منع الإجابة ما جنته يداك، ومَن مِنّا يزكي نفسه!

وهذا فيه رحمة بك من جهة أخرى؛ وهي أنَّ تأخر حصول ما دعوتَ به يدعوك أن تفتش نفسك وتراجعها، وتتوب إلى الله مما اقترفت.

سابعًا: عدم إعطاء المرء سؤله قد يكون أثرًا من آثار اتصاف الله سبحانه بالحكمة، فلربما كانت الإجابة منافية للحكمة، وأن الحكمةَ في المنع، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]، والله أعلم بمصالح العباد في هذا العالم؛ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النُّور: ١٩]؛ ولذا لم يُجب سبحانه دعوة نبيِّه نوح ـ وهو الحبيب إليه ـ حين دعاه فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هُود]، ولم يُجب خليله إبراهيم عَلَيهِ السَّلَامُ

حين قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٢٤]، ولم يُجب خليله محمدًا ﷺ حين قال: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**» [أخرجه مسلم (٢٨٩٠)].

إذن، قد تقتضي الحكمة منع المطلوب أو تأخير الإجابة.

ثامنًا: عدم إجابة الدعاء لا يمكن أن يكون دليلًا على عدم المدعو، فضلًا عن أن يعارِض أدلة وجوده القطعية؛ فالله تعالى قد ثبت وجوده وعظمته سبحانه بأدلة قطعية كثيرة جدًّا، وأما كونه لم يجب من دعاه فهذا مردُّه عند العقلاء لعدم إرادته لا لعدم وجوده.

وأقرّب هذا بمثال: إذا تحققت أن أحدًا جالسٌ خلف جدارٍ بأن سمعتَ صوته، ثم ناديته فلم يُجبك: فليس لعاقل أن يقول: هو غير موجود، وإنما سيقول: هو لا يريد أن يجيب، ولماذا لم يجب؟ هذا بحث آخر يتعلق بالحكمة لا بالوجود.

كذلك الأمر هنا: الله موجود، لكنه لم يعطك سؤلك لأن هذه إرادتُه المقترنة بحكمته، وقد ندرك الحكمة وقد لا ندركها.

تاسعًا: اطمئن: فإجابة الدعاء المستجمع شروطَه حاصلةٌ ولا بد؛ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، ولكن لا يلزم من الإجابة إعطاءُ المطلوب؛ **فالإجابة أعمُّ من إعطاء المطلوب**؛ فقد تكون الإجابة به وقد تكون بغيره.

أي: كل داعٍ استجمع شروط قبول الدعاء واجتنب موانعه فإنه يستجاب له قطعًا؛ لكن تتنوع الإجابة:

- فتارة تكون بحصول ما دعا به.

- وتارة بحصول عِوضه الذي هو أنفع للداعي مما دعا به؛ بأن يُدخر له أجرٌ في الآخرة.

- وتارة بأن يُدفع عنه بسبب دعائه بلاءٌ دنيوي.

ومرجع هذا: حكمةُ أحكم الحاكمين سبحانه.

وهذا ما جاء في قوله ﷺ: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلاَّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، قالوا: إذن نُكثر، قال: «**الله أكثر**» [أخرجه أحمد (١١١٣٣)].

وبذا انتفى الإشكال من أصله؛ فالدعاء عبادة نافعة ولا بد، **والإجابة حاصلة لا محالة**، والداعي منتفعٌ بدعائه قطعًا.

عاشرًا: تحقق إجابة الدعاء له شروط وله موانع، فمتى توفرت الشروط وانتفت الموانع فليبشر العبد بالإجابة.

وعليه: فمن دعا وتأخر تحقُّق ما يطلب فعليه أن يسأل نفسه: هل استجمعت شروط الإجابة، وتباعدت عن موانعها؟

وأنصحه عند إجابة نفسه أن يدع الغرور جانبًا، ويجيبَ بتجرد وصدق.

كم ندعو ونستبطئُ الإجابة؛ وعندما ننظر بعين ثاقبة في أحوالنا ينكشف لنا أن العلة فينا! والله المستعان.

حادي عشر: قد يقول قائل: ما قلتَه صحيح؛ ربما ندعو وفي أنفسنا ما فيها؛ لكن ماذا عن دعواتٍ خرجت من أفواه صالحين مظلومين برفع

الظلم عنهم، وتفريج كربتهم، ومع ذلك تتأخر الإجابة؛ أليس رفع الظلم عن المظلومين خيرًا قطعًا؟ إذن لِم لَم تأتِ الإجابة؟

والجواب: نعم، هذا خير ولا شك، ولكن: ليس بالضرورة أن يكون خير الخيرين! وهذه مسألة مهمة فانتبه لها!

قد يتراوح الأمر بين خير وخير؛ فالحكمة هنا: تحصيل أكثرهما خيرًا، وهذا ما لا يختلف فيه العقلاء؛ وعليه فقد يُعوّض المظلوم على دعائه وعلى صبرِه على بلائه بتكفير السيئات وجزاء عظيم بالجنة ودرجات رفيعة فيها، وهذا أكثر خيرًا له من رفع الظلم عنه؛ واعتبر في هذا بهذه القصة في العهد النبوي؛ ففي الصحيحين [(خ: ٥٦٥٢، م: ٢٥٧٦)] أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: (إني أُصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي [أي أن يعافيني من هذا البلاء]، فقال النبي ﷺ: «**إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيَك**» فقالت: أصبر، ثم قالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها). فلاحظ هنا أن دخول الجنة كان هو الأفضل في حقِّها.

ثاني عشر، وأخيرًا: إذا طرح ملحد هذه الشبهة فاعلم أنه مغالط متلاعب قطعًا، وليس باحثًا عن الحقيقة؛ لأنه إن تأخرت الإجابة أنكر وجوده سبحانه، وإن تحقق ما دُعي به فسيقول فورًا: حصل هذا صدفة! فهو منكرٌ بكلِّ حال، فليحذر المسلم من تلبيسه.

🕮 وصايا للمسلم إذا دعا وتأخر حصول مطلوبه

هذه وصايا خمسٌ مختصرة:

أولًا: على المسلم أن يُعظِّم الله في قلبه؛ فهذا أساس كلِّ شيء،

وعليه المعول، ومنه البداية، فالله على كلِّ شيء قدير، لا يعجزه شيء، ولو شاء أن يعطيك سؤلك، بل أن يبلغك أقصى أمانيك في لمح البصر: فعل، وذلك على الله يسير؛ لكن له الحكمة البالغة.

ثانيًا: ثق بربك وحكمته، وتوكل عليه، وفوِّض الأمر إليه، وأحسن الظنَّ به، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المَائدة: ٥٠].

ثالثًا: لا تيأس ولا تقنط، وكرر الدعاءَ ولا تكسل، وأبشر بفرج قريب.

يا راقد الليل محزونًا بأوّلهِ إنّ البشائر قد يَطرقن أسحارا

رابعًا: تذكر: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضّحىٰ: ٤]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القَصَص: ٦٠].

ضع هاتين الآيتين نصب عينيك دائمًا.

خامسًا: فتّش في نفسك، وأصلح ما فسد، وأحدث توبة، وأكثر من الاستغفار.

والله تعالى أعلم.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بتتبُّع دعوات الأنبياء في القرآن الكريم، قِفْ عندها متأمِّلًا؛ في معناها ومبناها وأدبها، وستجد أنه سيُفتح لك باب من العلم والإيمان كبير، وعوِّد لسانك أن ينسُج على مِنوالها.

الفصل السادس عشر

الحرية بين الإطلاق والتقييد

موضوع الحرية بمفهومها المعاصر مثارُ جدلٍ كبير؛ نظرًا لاختلاف الناس في فهمها وتطبيقها.

ولا يُنكَر أن هذه الكلمة كانت تهواها النفوس، وتَهِشُّ لسماعها، وفي التراث الأدبيِّ العربي شواهدُ كثيرةٌ على هذا.

لكن الأمر في هذا العصر قد تغير، إذ أضحت الحرية من أكثر الكلمات إشكالًا؛ فلها تعريفاتٌ شتّى، وتُستعمل في حق ويُتذرع بها إلى باطل، ويتكلم بها الصِّدِّيق والزنديق، فما أحراها أن توضع تحت مجهر التأمل لضبطها ومعرفة حدودها، وصوابها من خطئها، وذلك أن كلًّا يحمل الحرية على هواه، فحتى الوقح يعُد وقاحته حرية، والمسرفُ يُدرج إسرافه في الحرية، والشاذُّ يصف شذوذه بالحرية، وهكذا.

فكم لقي هذا اللقب من تعسُّف وتشويه وعبث، حتى إنه أضحى مركبًا ذَلولًا للتمرُّد، وقنطرةً لتجاوز القِيَم، ووسيلة إلى هدم أركان الفضيلة.

ولا يعني هذا أن الحرية مرفوضة جملة وتفصيلًا؛ إنما المرفوض منها: الحرية الزائفة، أو: التوظيف السيئ للحرية، وهو شيء منتشر مع الأسف.

توضيح هذا: ثمة منهجان في تحديد ماهية الحرية وضوابطِها:

فحريةٌ معتدلة نافعة، يقررها الإسلام بعدله ورحمته وحكمته.

وحرية زائفة متمردة، ينتهجها المتمردون على شرع الله ـ على اختلاف نحلهم ـ ومن سار في ركابهم.

وسيأتي بيان هذه وهذه بعون الله.

🕮 المنهج الصحيح في التعامل مع المصطلحات البراقة

على المسلم العاقل أن لا يكون سريع الاستجابة للمصطلحات التي لم ترد في الكتاب والسنة قبولًا أو ردًّا؛ لا سيما تلك التي لها معانٍ فضفاضةٌ ضبابية، أو هي متحركةٌ متغيرة من عصر إلى عصر، بل عليه أن يتريَّث، وأن يضعها في ميزان الشرع؛ ليقبلها في ضوئه أو يردَّها.

والشرع ميزان الأمور كلها ... وشاهد لفرعها وأصلها

هناك اليوم صراعٌ في العالم مشتعل، هو صراع المصطلحات والشعارات، فما أكثر ما تُروج المفاهيم الفاسدة تحت ستار مصطلحات جميلة وشعارات براقة!

ألفاظٌ مزخرفةٌ حلوة، لكن تحتها السمُّ الزُّعاف!

وليس عبثًا أن كان مما خافه النبي ﷺ على أمته: أولئك الذين يُطوّعون الكلمات لترويج الباطل؛ ففي المسند [(١٤٣)] مرفوعًا ـ وروي موقوفًا ـ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ**».

والواقع يشهد أنه لا يحتاج بعض المنافقين ودعاةِ الشرِّ إلا أن يُحْسِنوا اختيار الكلمات والتلاعبَ بالمصطلحات ليجعلوا الأغمار يتقبلون أبشع أنواع الأفكار؛ غلوًّا أو انحلالًا!

والعجيب أن الكلمات التي يصعب تحديد معانيها بشكل دقيق ـ ومنها كلمة الحرية ـ هي التي تمتلك أحيانًا أكبر قدر من التأثير على أولئك، ولربما احتاجت المحاجَّة بالبراهين إلى وقت وجهد كبير لمقاومتها وتخفيف أثرها في النفوس!

تعريف الحرية

ليس للحرية مدلول واحد مطلقٌ يتفق عليه الناس؛ بل مفهومها يختلف باختلاف الثقافات والأهواء والدوافع، وكثير من الصراع الذي بين الخير والشر، والعدل والبغي: راجعٌ في حقيقته إلى الاختلاف على ضابط الحرية.

الحرية مصطلح مستعمل في مجالات عدة؛ وطَرَقَه متخصصون في مجالات متنوعة، كالفقهاء والفلاسفة والحقوقيين، والقانونيين والسياسيين، وعلماءِ النفس والاجتماع وغيرهم.

وقد تضمنت المعاجم الفلسفية الحديثة كلامًا عامًّا في معنى الحرية؛ كقولهم: «إنها القدرةُ على تحقيق فعل أو امتناعٌ عن تحقيق فعل دون خضوع لأيِّ ضغط خارجي».

أو قولِهم: «هي استقلال الفرد في تصرفاته، وعدمُ انقياده لأي سلطة».

باختصار، وبعيدًا عن تعقيدات المصطلحات: يمكن تلخيص المعنى المعاصر للحرية في جملة قصيرة، وهي: **إطلاق الإرادة في الاختيار!**

ولاحظ أن هذه الجملة القصيرة ربما تحتاج في شرحها وتوضيحها ـ في مختلف المجالات ـ إلى مجلدات عدة.

الحاصل: ربما نجد للحرية تعريفاتٍ نظريةً متقاربةً، لكنْ ضبطُها، أو تحديدُ ما يندرج تحتها عمليًّا: هذا ما يختلف فيه الناس اختلافًا كبيرًا.

هل لهذا المصطلح (الحرية) ذكرٌ في الكتاب والسنة؟

ليس لهذا اللفظ ورود في القرآن، ولا في السُّنة ـ فيما أعلم ـ

بحسَب المعنى الاصطلاحي المتقدم؛ إنما توجد الحرية المقابلة للرقِّ؛ وهذا موضوع آخر ليس المقصودَ في إطلاقات المعاصرين.

وعليه، فيتعين النظر فيما يندرج تحت هذا المصطلح من المعاني؛ فيُقبل ما كان صوابًا، ويُرد ما كان باطلًا؛ كما سيأتي إن شاء الله.

🕮 واقع الحرية الزائفة ومعالمها

الحرية الزائفة هي الحرية المطلقة عن أي قيد.. أن تفعل أيَّ شيء، دون أن يقيدك شيء!

وهي الحرية التي تروَّج اليوم في الغرب.

هذه الحرية الزائفة المتطرفةُ تتميز بسمات، أهمها ثلاث:

أولاً: أنها تدعو إلى الأثرة ـ ما يسمى اليوم (الأنانية)! ـ فالأولوية المطلقة فيها للفرد؛ لهَواهُ ومصلحتِه، وليس لمصلحة المجتمع.

ثانيًا: لا يُقبل فيها على المرء رقيب ولا حسيب، ولا أمر ولا نهي.

ثالثًا: ليس فيها معيار ثابت للحق والباطل، أو ميزان للخير والشر، أو ضابط للقيم السامية والسافلة.

وعليه، فهي حرية منفلتة ألغت كلَّ قيد، بل ألغت كلَّ قيمة! وأعظمُ قيمة ألغتها: الدينُ الحق، فتحْتَ ظلال هذه الحرية لا فرق بين أن يُعبد الله الرحيم الرحمن، وأن يعبد الحجر والبقر والشيطان!

أما الأخلاق عند هؤلاء المتحررين: فليس لها معيار إلَّا اللذة والمنفعة والهوى.

لقد أرخت هذه الحرية العِنان للشهوات، فباسمها يمكن للإنسان أن

يمارس كافة أصناف الشذوذ وجميع أنواع الفجور، وأن يجهر بأي رأي ولو عارض شرعًا أو خالف خُلُقًا أو صادم عرفًا.

إنها حريةٌ زائفة! أولها بهرجةٌ وقد يكون فيها إمتاع، لكنَّ آخرَها فسادٌ وضياع!

إنه ـ حقًّا ـ ضياع.. فما الذي أورثته هذه الحرية عند أولئك سواه؟!

هل أورثتهم سعادة حقيقية؟ الجواب: لا! بل بؤسًا وضيقًا يهربون منه بكلِّ وسيلة، بل أصبحت الحياة ذات قيمة رخيصة عندهم، حتى إن أحدهم قد ينتحر لفقد عشيق! بل لهزيمة فريقِ كرة!

فما قيمة هذه الحرية التي ما أغنت عنهم فتيلًا ولا قطميرًا؟

أي قيمةٍ لحرية لا يملك فيها الإنسان تحكمًا في غريزة أو كبحًا لانفعال؟

أي رِقٍّ أذلُّ من هذا الرق؟!

غير أن المؤسف حقًّا أن مفاهيم هذه الحرية قد غزتنا في دورنا، لتجعل ناشئ المسلمين ينشأ في عزلة عن دينه وتاريخه؛ فهم يريدون من الفتاة المسلمة والفتى المسلم أن يكون حرًّا، ولو نقب السفينة ليُغرِق ويَغرقَ!

حريةٌ تُغرِقه أولًا في أمواج الشهوات تحت مظلة (الحرية الشخصية)!

ثم تُغرقه في لُجَج الشكِّ تحت مظلة (حرية التفكير)!

ثم تطرحه على ساحل التمرد على دينه ومجتمعه تحت مظلة (حرية الرأي)!

وأخيرًا: تهوي به في وادٍ سحيق من الإلحاد والردة تحت مظلة (حرية الاعتقاد)!

هذه هي الحرية بوجهها القبيح: ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب، شعارها الانفتاح، وحقيقتها أغلالٌ ثقيلة؛ فالإنسان تحت رايتها أسيرُ لذة يطيعها، وشهوةٍ تقوده، وهوًى يتحكم فيه، حاله كغصنٍ ضعيف؛ أيُّ نسيمٍ مرَّ به أماله؛ فتارةً يُمِيله عِشق، وتارة يجذبه منصب، وتارة يستعبده الدينار والدرهم؛ إلى أن يتخذ إلٰهه هواه، ويتبعه بغير هدًى من الله، إلا أن يلطف ـ سبحانه ـ به.

لقد عمي هؤلاء وصمّوا عن أن الإنسان عبدٌ شاء أم أبى! فلا ينفك من العبودية البتة؛ فإما أن يكون عبدًا لله؛ فيتحررَ من عبودية ما سواه، وإما أن يكون عبدًا للشهوة أو الشهرة أو المال، حتى لربما كان عبدًا لثَوبِه! ففي البخاري [(٢٨٨٧)]: قال ﷺ: «**تعِس عبدُ الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة**»[(١)].

الخلاصة: الوجه القبيح للحرية يتجلى حين يكون معناها ـ نظريًّا أو عمليًّا ـ: الاستقلالَ عن دين الله الحق؛ فههنا ستكون أسوأ الأشياء.

🕮 الحرية في ظلال الإسلام

سبق أن ذكرت أن هذا المصطلح بمعناهُ المعاصر ليس له ورود في الكتاب والسنة.

---

(١) القطيفة والخميصة: نوعان من الثياب.

لكن ثمة معانٍ يمكن اعتبارها من مفهوم الحرية في جانبها الصحيح، قد جاء بها الإسلام، وتتلخص في خمسة أشياء:

أولًا: الحرية في مقابل الرقِّ ـ كما تقدم ـ، وهذه الحرية هي الأصل في الناس، والرقُّ طارئ، وله أحكامه الفقهية الخاصة.

ثانيًا: الحرية بمعنى: شرفِ النفس وكرمِ الخلق وشهامةِ الخاطر؛ بحيث يشقُّ المرء بها عصا الطاعة للباطل والانقيادِ للضيم والسفاسف، وهذا ما تغنَّت به العرب في جاهليتها، ورأت أنه يجتمع فيها جميعُ مكارم الأخلاق، فالحرُّ عندهم هو الكريم الذي لا نقيصة فيه، كما في لامية العرب:

ولكن نفسًا حُرةً لا تُقيم بي
على الذم إلا ريثما أتحول

والحرية بهذا المعنى شيء أكَّده الإسلام وشدّ وثاقه.

ثالثًا: ثبوت الإرادة والاختيار للعبد، فهو يفعل بمشيئته، ويتحمل مسئوليةَ اختياره.

رابعًا: إباحة الانتفاع والاستمتاع بالمباحات في ضوء الشريعة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

خامسًا: الخلوص من العقائد الباطلة، ومن التعلق بالمخلوقين.

إذن: جاء الإسلام بالحرية المشرقة، الصادقة المسعِدة، **فليست سعادة الإنسان في حرية البهائم**، بل في الحرية التي انضبطت بضوابط الإسلام، وتظلَّلت بظلاله.

ويمكن إبراز شيء من معالمها في الأوجه العشرة الآتية:

أولًا: أهمُّ وأول حرية نادى بها الإسلامُ: حريةُ القلب من التعلق بالخلق، وتحررُ الاعتقاد من الخرافة والهوى والتقليد الأعمى؛ بحيث يكون القلب والجوارح لله وبالله.

ثانيًا: الحرية التي أقرَّها الإسلام حقٌّ للإنسان بل ضرورة؛ فهو يفعل الخير باختياره فيُثاب، ويفعل الشرَّ باختياره فيتعرض للعقوبة، فهي إذن مناط التكليف، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

ثالثًا: قوام الحرية في الإسلام: أن يعرف المرء ما له وما عليه، وأن يذعن لقواعد الإنصاف، وأن ينصاع لسلطان الحق؛ «فالحقُّ أحق أن يُتبّع، أين حلَّ وحيث صَقَع».

رابعًا: الحرية في شرعنا: هي قدرة الإنسان على الاختيار حيث لا ضرر ولا ضرار.

ولاحظ أنهما طرفان لا بد من مراعاتهما لا طرفٌ واحد، لا ضرر بالنفس، ولا ضِرار بالغير.

تلك الحرية الجامحة ـ آنفةُ الذِّكر ـ جاءت في أحسن أحوالها بطرفٍ واحد، فقالوا: «لا إضرار بالآخرين، أما نفسك فافعل بها ما شئت»!؛ فأي المنهجين أعقل وأرحم؟

خامسًا: جاءت شريعتنا بالموازنة بين الحرية والمسؤولية، فكما أن الحرية حقٌّ لك، فالمسؤولية ـ تجاه نفسك ودينك والآخرين ـ: شيءٌ واجبٌ عليك، فإذا أردت ممارسة حقٍّ؛ فعليك أن تؤدي واجبًا.

إن التعريف الدقيق للحرية الصادقة كان جليًّا، تلمسه في كلِّ تعاليم الإسلام، وهو: **أن يأخذ المرء حقوقه، ويفي بحقوق غيره.**

سادسًا: جاء الإسلام لتوضيح الفرق بين حرية المرء «أن يفعل ما يريد» و «أن يفعل ما ينبغي»، والثاني هو الصواب دون الأول.

سابعًا: بيّن الإسلام أن مسافةً شاسعةً تفصل بين الحرية والفوضى، وإذا كان العقلاء متفقين على أنه لا يمكن أن تنفصل الحرية عن النظام؛ فقد جاء الإسلام ليقيدها بقيود توطد العدل وتمنع الظلم؛ ظلمَ النفس وظلم الغير.

إذن، الحرية في ضوء الإسلام: مقيدة لا مطلقة، منضبطة لا منفلتة.

ثامنًا: جاء الإسلام ليقول:

- إن الحرية ما لم يصحبها عدل فستسقط إلى الحضيض!
- وإن الحرية والأخلاقَ الزاكية ملزوزان في قَرَن، لا انفكاك لهما عن بعضهما.
- وإن الوقاحة والحرية: متضادتان وليستا مترادفتين.
- وإن التعدي على حرمات الله، وأذية المسلمين في دينهم وكتابهم ونبيهم ﷺ ليس من الحرية في شيء؛ بل هو إعلان عداوة للمسلمين، وتعدٍّ على كلِّ معايير العدل والأخلاق عند جميع العقلاء.

وعليه:

- فمنعُ مَن يظلم غيره ليس انتهاكًا للحرية.

- ومنع من ينتهك حرمة المسلمين وأمنهم ليس انتهاكًا للحرية.
- وردع من ينتهك حرمة الإسلام ليس انتهاكًا للحرية.
- والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمنهج الشرعي: ليس انتهاكًا للحرية.

تاسعًا: أحكام الإسلام تنادي بالمسلم: أنت حرٌّ في قولك وتفكيرك وكسبك ما لم تؤدِّ حريتك إلى معارضة الدين، أو تهديدِ سلامة المجتمع وتقويض أركانه، أو تفويتِ حقٍّ أهم، وما لم تؤدِّ إلى إضرارٍ بالنفس أو بالآخرين.

وأنت حرٌّ ما لم تتعدَّ حدود الله، وما لم تتّبع هواك، وما لم تظلم الآخرين أو تعتدي على حقوقهم.

عاشرًا: المستفاد من أحكام الإسلام وأدلته: أن **الحرية واقعٌ لا غاية**؛ فمن امتثل تعاليم الإسلام فسيكون حرًّا؛ وسيتمتع بالحرية الحقة، وسيستروح شذاها.

أما الغاية: فهي العبودية لله! إنها الغاية من وجودك، وهي التي ينبغي أن يكون تحصيلُها شغلَك الشاغلَ في هذا الحياة، وبقدر تحقيقك لها سيكون نصيبك من الحرية.

كم هو مؤسف أن مسلمة أو مسلمًا يقال له على سبيل النصيحة: افعل الواجب واترك المحرَّم؛ فيردُّ ببرود: «أنا حُر»! ما أسخف هذه الكلمةَ في هذا المقام!

مَن قال لك: إنك حرٌّ حرية الانفلات؟!

ومَن قال لك: إن الحرية تعني تعدِّي حدود الله؟!

ومَن أعطاك الحق أن تجعل الحرية سلاحًا تُشهره في وجه الناصحين؟

أنت عبدٌ لله؛ مُلزَمٌ بطاعته، ولا يسعك الخروج عن هذا.

ويا لله العجب: كيف يسمح مسلمٌ لنفسه أن يقول هذا وهو يعتقد أنه ينتظرُه غدًا حسابٌ وجزاء، والله المستعان.

الخلاصة: الحريّة في العبوديّة، لا غير.

المعنى الصحيح لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافِرون: ٦].

من الناس مَن يزعم أن حرية الإنسان مكفولة له بحيث إنه مخيَّر في اعتقاده؛ فله أن يعتقد ما يشاء ويتدين بما يحلو له، وأن يدخل في الدين الذي يريد، وأن يترك الدين الذي يريد، لا فرق في هذا بين دين الإسلام وغيره من الأديان الباطلة!

وهؤلاء نسبوا حرية الاعتقاد الباطلة هذه إلى الإسلام، وتشبثوا في هذا ببعض ما لم يفهموا وجهه من أدلة الشرع.

وإذا تأملت في كلام هؤلاء وجدت أن مشكلة كثير منهم أنهم منهزمون نفسيًّا، لذا فهم يحاكمون الإسلام إلى الفكر الغربي، ويطالبونه أن يذوب فيه، وأن لا تكون للمسلمين هُوية، وأن تختفي معالمه ومميزاته.

يريدونه مرآة عاكسة لغيره فحسب، ووظيفة المسلمين أن يزيّنوا

الإسلام في أعين أهل الغرب والشرق، ولو على حساب تعدي حدوده وتحريف مفاهيمه!

لقد أخطأ هؤلاء خطأً كبيرًا، فالإسلام هو الدين الحق المنزل من عند الله، المستعلي على غيره، له مقاصده وحِكَمُه وأحكامه، وليس مطالبًا بموافقة غيره من الأديان أو أوضاع المجتمعات.

فمن آمن بأحكامها كلها، فإنه سيسعد في الدنيا والآخرة، ومن كفر به فلن يضرَّ إلا نفسه ولن يضر الإسلام شيئًا ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٦].

ولا ريب أن من عرف دين الإسلام حقَّ معرفته لَيجزم أن هذه الحرية المزعومة من أوضح الإفك وأعظم الضلال؛ فإن أدلة الشرع كلها وإجماع المسلمين قاطبة قد قام على أن الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد سواه ـ بعد البعثة المحمدية ـ: هو دين الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]. وليس للمرء الخيار في الدخول فيه أو الإعراض عنه أو الخروج منه، بل هو ملزمٌ بالتزامه، ومتوعَّد بالخلود في النار إن أعرض عنه، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفَتْح: ١٣].

أما عن استدلالهم بقوله جل وعلا: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩] فهو استدلال خاطئ؛ فالآية ليست للتخيير بين الإيمان والكفر، إنما هي للتهديد والتخويف، وهذا أسلوب عربي معلوم، والدليل على أنها للتهديد قوله سبحانه عقيبها: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ

سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، إذن هي تهديد ووعيدٌ لمن اختار الكفر بعد أن جاءه النذير، كما أن فيها إظهارًا لغنى الله جل وعلا؛ أي: هذا الحقُّ من ربكم فإن آمنتم فإنكم لا تنفعون الله بإيمانكم، وإن كفرتم فلا تضرونه بكفركم، وعليه فالآية لا تدلُّ على ما يقولون.

أما عن قوله جل وعلا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] فما أكثر ما يحرف معنى هذه الآية مع الأسف الشديد!

إن (لا) في هذه الآية: إما أن تكون للنفي أو تكون للنهي.

فإن كانت للنفي: فالآية فيها إخبار من الله تعالى أنه لا قدرة لكم على أن تُكرهوا أحدًا على الدخول في الدين؛ لأن الدين النافع أساسه ما في القلب من الاعتقاد، وما في القلب لا سبيل إلى الإكراه عليه.

أما إن كانت (لا) للنهي: فالمعنى لا يُرغم أحدٌ على الدخول في الإسلام ممن تؤخذ منه الجزية إذا بذلها، مع ملاحظة أن هذا لا ينفعه عند الله؛ فإنه إن مات على غير الإسلام فهو من أصحاب النار وعليه لعنة الجبار.

وعلى كلٍّ فالإكراه في هذه الآية راجع إلى الدخول في الدين، لا الخروج منه.

وأما قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافِرون: ٦]: فهذه الآية آية براءة لا إقرار: براءةٌ من الكفار ومن دينهم، والسورة كلها في هذا المعنى، وليست في إقرارهم على دينهم، فقد سمَّاهم كافرين ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافِرون: ١]، ثم أعلن البراءة منهم ومن دينهم؛ كأنه قال: لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ؛ لِأَنَّهَا عِبَادَةٌ بَاطِلَةٌ، وَبَعْدَ ذَلِكَ إِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا هِيَ: فَلَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ.

فهي في معنى أمره تعالى لنبيِّه أن يقول: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يُونس: ٤١]، وفي معنى قول هُودٍ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ﴾ [هُود: ٥٤ ـ ٥٥]. والله تعالى أعلم.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

كتاب «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه في غاية النفاسة، ولو صحَّ لي أن أسميه بغير اسمه لسمَّيته كتاب «الحرية».

الفصل السابع عشر

فوضى القراءة والتلقّي

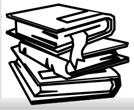

ثمة أمرٌ مستشكل نعيشه في هذا العصر، وليس يخفى على بصير بالواقع.

وهو أن هناك فوضى معرفية كبيرة نعيشها اليوم، سببها تحولات كبرى في العالم، ومنها هذا الانفتاح ـ بل الانفجار ـ المعرفي، وهو ما أوقع شبابًا وفتيات في مشكلات كبرى تتعلق باعتقادهم ودينهم، وقاد إلى انحرافات من طرف الغلو ومن طرف الانحلال.

وأزعم أن أهمَّ سبب للانحراف الفكري لدى الشباب في هذا العصر: هو هذه الفوضى المعرفية التي نعيشها، مع ما صاحبها من ضعفٍ في الترشيد الثقافي.

فاليوم: الكلُّ يكتب، والكلُّ يتكلم، والكلُّ يستمع ويتلقى، فاختلط الحابل بالنابل!

لقد انقلب الواقع ـ في نظري ـ إلى ما يُشبهُ بحرًا كبيرًا هائجًا، والشباب والفتيات فيه يسبحون ويموجون مع أمواجه، وهناك حبال كثيرة تتدلى، قليل منها ينتهي بطوق نجاة ينتشل المتعلق به، وكثير منها فيه طُعم لو التقطه أحدهم لأمكن اصطياده وجرُّه إلى ما لا تحمد عقباه!

ولا نجاة من هذا إلَّا بتوفيق الله سبحانه، ثم باكتساب مهارة اختيار حبل النجاة وتمييزه عن حبل الهلكة.

وأنبِّه ابتداءً إلى أنني حين أتكلم عن هذا الواقع المعرفي والثقافي المعاصر لا أخصُّ مكانًا دون آخر، وإنما هو الواقع المعاصر عالميًّا.

وأُثنّي بالتنبيه على أنني لست بحاجة إلى أن أطنب في بيان أن هذا الواقع المعرفي المعاصر له إيجابياته كما أن له سلبياته، ومن أهم

إيجابياته: سرعة الوصول إلى المعلومة، فقد اختُصرت اليوم كثير من الأوقات والجهود التي كانت تُنفق سابقًا في البحث والتنقيب.

والمقصود هنا التنبيه على السلبيات لتلافيها، ولتُمكن الاستفادة من الإيجابيات بأمثل طريق.

معالم الواقع المعرفي المعاصر

أولًا: كثرة المنتجات الثقافية:

فنحن كما قدمتُ نعيش في حالة انفجار معرفي حقيقي، بغضِّ النظر عن مستوى المحتوى، فأنا الآن أتكلم عن الكمِّ لا الكيف.

اسمع ماذا يحدث في الدقيقة الواحدة:

- في الدقيقة الواحدة تُنشر في «تويتر» ثلاثمائة وخمسون ألف تغريدة تقريبًا.
- في الدقيقة الواحدة تصنع ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف «سناب».
- في الدقيقة الواحدة يتم تحميل خمسمائة ساعة من المحتوى الفيديوي في «يوتيوب».
- في الدقيقة الواحدة يُشاهَد سبعة ملايين ونصف مليون فيديو في «يوتيوب».
- في الدقيقة الواحدة تُرسل مائتا مليون رسالة بريد إلكتروني.
- في الدقيقة الواحدة يُنشر واحد وأربعون ألف منشور ـ بوست ـ في «فيسبوك».
- في الدقيقة الواحدة يتم تحميل أكثر من ثلاثة وأربعين ألف صورة على موقع «انستقرام».

هذا كلُّه في وسائل التواصل، ناهيك عن أشياء أخرى تُعرض في الفضائيات وفي الكتب وفي المجلات وفي الصحف.

فالمطابع اليوم ـ مع وجود هذه الثورة المعلوماتية في وسائل التواصل ـ لا تزال تقذف بالكثير والكثير سنويًّا، ولك أن تعلم أنه في العالم اليوم يُطبع سنويًّا ما يقرب من مليونين ومائتي ألف كتاب، وينشأ ما بين ثمانية آلاف وإحدى عشرة ألف دار نشر جديدة سنويًّا!

إذن: أبرز سمة نعيشها اليوم هو هذا التوسع الكبير في المعرفة والمعلومات.

ثانيًا: تنوع المنصات المعرفية والأوعية الثقافية وكثرتها:

فعلاوة على الأوعية الثقافية التقليدية ـ من كتاب ومجلة وصحيفة ومحاضرة وندوة وبرامج تلفزيونية وأفلام ومسلسلات.. إلخ ـ؛ وُجدت اليوم منصات جديدة تسيل منها الأفكار والآراء، فتتغذى العقول بأسرع طريقة وأسهلها.

فوُجدت اليوم وسائل التواصل الاجتماعي وما تحويه من كلام مكتوب ومسموع، وما فيها من صور ثابتة ومتحركة.

ووُجدت مواقع لمشاركة مقاطع الفيديو، وللموشن جرافيك، وللإنفو جرافيك، وللسنابات، وللتغريدات، وللبوستات، وللغرف الصوتية الحوارية، وللبث المباشر.

ووُجد اليوم صالونات ثقافية، ومقاهٍ ثقافية، وبرامج وثائقية، وحوارات ومناظرات فضائية، وكتب مسموعة.

بل حتى الألعاب الإلكترونية؛ لم تعد أدوات لهو؛ بل صارت منصاتٍ ثقافية تُقدم الأفكار وتوجهها!

ثالثًا: صاحَب ما سبق: حراكٌ ثقافي غير منهجي ـ في بعض الأحيان ـ ودعوات للانفتاح الثقافي غير المنضبط.

رابعًا: كثرة المغرضين والمشبوهين الذين أحسنوا استغلال هذه المنصات المتنوعة في نشر شبهاتهم وبثِّ سمومهم.

ففي السابق كان الواحد من هؤلاء يحتاج إلى جهدٍ حتى يصل إلى سمع المتلقي وقلبه؛ أما اليوم فلا يحتاج إلى هذا الجهد أو إلى كثير منه؛ فما أسهل إلقاء «الصِّنَارة»، وما أسهل سحب المتعلِّقين بخطافها!

خامسًا: وجود خداع معرفي واسع.

فكم هي المفاهيم الساقطة التي تُلبَس لباسًا حسنًا مزخرفًا، وتُصاغ بأساليب مقبولة، وكم هي المغالطات المنطقية التي تُطرح في صورة حقائق علمية!

سادسًا: التهافت على المعلومات «المعلَّبة»!

فمع كثرة المعروضات المعرفية: طغى الحرص على المعلومة السريعة والسهلة، وصار كثير من الناس حريصين عليها حرصهم على الأكلات السريعة!

وهذا سيكون ـ بالتأكيد ـ على حساب التدقيق في الوصول إلى الصواب والمعلومة الصحيحة؛ إذ المعلومة الصحيحة تحتاج إلى جهد ووقت، لكن الناس اليوم مستعجلون غالبًا! تريد أن تعرف ما تريد معرفته

بلمح البصر، فتكفي الكتابة في «قوقل»، وقراءة أول أو ثاني نتيجة، والحمد لله!

لكن هل هي صواب أو خطأ؟ هذا لا يُدقق فيه كثيرًا مع الأسف الشديد.

سابعًا: غياب الموجه غالبًا:

ففي ظلِّ هذا البحر المعلوماتي المتلاطم، غالبًا ما يُبحر الشاب ـ وهو حديث في سنِّه وخبرته ـ وحده، بلا مساعد أو موجِّه يُعينه ويبصّره، وهذا ما أوقع بعض الشباب صيدًا سهلًا في أيدي شياطين الإنس.

ثامنًا: عدم التدرج:

فمن مشكلات اليوم: عدم التدرج؛ بمعنى: يمكن لأي أحد أن يطّلع على أي محتوى ثقافي سواء كان مناسبًا لسنِّه ومستواه أو لم يكن، وسواء اطّلع على ما ينبغي أن يسبقه من معلومات أم لم يطّلع.

وعدم التدرج يؤدي إلى خلل في البناء الثقافي للإنسان؛ فالعلم ـ كل علم ـ فيه صغير وكبير، وفيه مراحل: مرحلة أولية ومتوسطة ونهائية، فلا يَصلُح أن يطلع المبتدئ على ما يليق بالمنتهي، وهذا التدرج ـ مع الأسف ـ مفقودٌ، إلَّا قليلًا.

تاسعًا: وهو أخطر ما في هذه المعالم: الاطِّلاع المفتوح غير المنضبط «غير المفلتر».

فكلُّ شيء اليوم صار يمكن الاطلاع عليه والدخول في تفاصيله، ولو كان لا يجوز الاطلاع عليه شرعًا إلَّا في أضيق الحدود، لكن الأبواب اليوم مشرعة، فكتب الخوارج والملاحدة ومقاطعهم، وكتب السحر وتحضير الجن، وكتب الأبراج والكهانة والشعوذة، والمقاطع

المنحلة أخلاقيًّا.. كلُّ شيء صار الآن في متناول اليد، ويمكن أن يطلع عليه طالب في المرحلة الابتدائية!

🕮 ثمرات الفوضى المعرفية

في ظلال هذه الفوضى المعرفية ـ فوضى القراءة والتلقي ـ نتجت ثمرات سيئة كثيرة، أنبّه منها على ثلاث:

الأولى: هذا الضجيج المعرفي أوقع في تشتُّت ذهني، فكثرت التساؤلات والشكوك حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الشكِّ في أصول الدين ناهيك عن فروعه.

هناك حالةٌ من التخبط الثقافي والارتباك المعرفي لدى كثير من الشباب والفتيات، مع ضيق النفس أحيانًا، وسببه: التناقض في الطرح، وكثرة الكلام والردود.

هناك «تُخمة» في المنتجات الثقافية أدت إلى «ترهل»! حتى صرنا نسمع مَن يقول: «أين نذهب؟ والله لم نعد نعرف الحق مع من!» وهذا من أكبر الإشكالات التي أفرزها هذا الواقع الفوضوي المعرفي الذي نعيشه.

الثانية: مزاحمة مصادر التلقي المعتمدة والموثوقة والمؤتمنة.

فهناك اليوم دعوات كثيرة إلى الحثِّ على القراءة، لكن الدعوات إلى القراءة التي تنفع القارئ في دينه ثم في دنياه: قليلة مع الأسف، وصار الشاب أو المثقف ـ غالبًا ـ منصرفًا عن إرثنا العلمي الصافي، فعنده استعداد ليقرأ مئات التغريدات، وأن يجلس ساعات يطالع كلامًا

قليل الفائدة، بل ربما كان شرُّه أكثر من خيره، لكن يثقل عليه كثيرًا أن يقرأ في «تفسير ابن كثير» أو «صحيح البخاري» أو «كتاب التوحيد» أو كتب ابن القيم، أو أي كتاب موثوق في العقيدة أو في الفقه أو التفسير أو الحديث أو حتى في معرفة دنيوية نافعة.

الثالثة: نفوذ كثير من الضالين وأعداء الله إلى عقول بعض الشباب أو الفتيات من أبناء المسلمين.

فهذا الذي فجّر مسجدًا فيه مصلُّون مسلمون يعبدون الله؛ كيف وصل إلى هذه المرحلة من الانحراف؟!

وذاك الذي يتدين بذبح أمه أو أبيه أو قريبه، وذاك الذي يعلن على الملأ إلحاده، أو تلك التي تعلن تنصُّرها، أو ذاك الذي يطعن بوقاحة في القرآن والسنة.. من أين أُتي هؤلاء؟!

الجواب: من كتاب، أو من مقطع، أو من تغريدات، أو من مواقع دخلوا إليها فارغين، لكنهم خرجوا مثقلين بالأفكار والعقائد الضالة!

هذه الأمور الثلاثة أبرز ما أفرزته هذه الفوضى المعرفية، والله المستعان.

🕮 معالم التأصيل الشرعي في منهج التلقي المعرفي.

هذا الموضوع كبيرٌ مترامي الأطراف، لكني سأقتصر على خمسة معالم:

المعلم الأول: العلمُ دينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

لا يصحُّ ولا يُقبل أن يتلقى الإنسان دينه وثقافته وما يغذي به عقله وقلبه من كلِّ أحد، ولا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه المغرضون.

دينك أغلى ما تملك، فاعرف من أين تستقي المعلومة التي تجعلها دينًا واعتقادًا.

المعلم الثاني: لا يجوز التعرُّض للفتن ولا يجوز نشر الشبهات.

وقد استقرت الشريعة على هذا؛ فلا يجوز لك أن تُعرّض نفسك للفتنة، ولا يجوز لك أن تكون سببًا في نشر الشبهات.

وقد قال النبي ﷺ: «**من سمع بالدجال فلِيَنْأَ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات**» [أخرجه أبو داود (٤٣١٩)]، هذا وهو مكتوبٌ بين عينيه كافر!

وهذا الحديث أصلٌ عظيم في التحذير من مقاربة الفتن وقطع أسباب مقاربتها؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه!

إذن؛ متى عرّضت نفسك للفتنة؛ فقد غامرتَ ـ بأغلى ما تملك ـ مغامرةً غير محسوبة العواقب!

والنبي ﷺ غضب لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وهو أعلم هذه الأمة وأفضلها بعد أبي بكر رضي الله عنه ـ يقرأ شيئًا من كتب اليهود [كما في المسند (١٥١٥٦)]؛ فكيف بالجاهل الذي يقرأ في الفلسفات الإلحادية والعقائد التشكيكيّة والأفكار الضالة!

المعلم الثالث: الشرع هو المعيار.

والشرع ميزان الأمور كلها   وشاهدٌ لفرعها وأصلها

وقد قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٥٩]، فليس المرجع

عقلًا ولا عادات ولا آراء، إنما المرجع والمعيار الذي تُوزن به كلُّ الأشياء: شرع الله الحنيف.

المعلم الرابع: منهج السلف الصالح - الذين هم صفوة هذه الأمة وأفضلها وأقربها إلى الحقِّ والصواب - هو البعد عن المـُشوّشات على العقيدة، ولذا تواتَر عن السلف رحمهم الله الوصية بالبعد عن الاستماع إلى أولئك الذين فُتنوا في دينهم وصاروا من دعاة البدع والضلالة، وينشرون الشرَّ والفساد بين الناس، لم؟ لأن الدين غالٍ في نفوس هؤلاء وليس عندهم استعداد أن يجعلوه في مهب الريح.

فإذا كنت متبعًا للسلف الصالح؛ فعليك أن تبتعد عن كلِّ ما يلبس عليك دينك ويُشوّش عقيدتك.

المعلم الخامس: «احرص على ما ينفعك».

هذه وصية النبي ﷺ [(صحيح مسلم ٢٦٦٥)]؛ **فضعها نصب عينيك!**

احرص على ما ينفعك في دينك ودنياك، وأشغل نفسك بالمفيد، ودعك مما سوى ذلك.

نسمع اليوم من يقول: «نحن أمة اقرأ، وأمة اقرأ لا تقرأ»!

وأقول: الصواب: أننا أمة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فليس المهم أن نقرأ، المهم أن نقرأ النافع، وإلَّا فعدم القراءة أنفع للإنسان من قراءة تورده الموارد.

اقرأ النافع في الدنيا؛ لتقرأ ما تسعد به في الآخرة؛ حين تؤمر بالقراءة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

ليست القراءة - من حيث هي - هدفًا، إنما القراءة المثمرة وسيلة

لتنال الغاية: أن تكون من السعداء! فتنادي يوم القيامة: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ [الحَاقَّة: ١٩ - ٢٠].

وحذارِ أن تكون ممن يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحَاقَّة: ٢٥].

اقرأ ما يُقربك إلى الجنة ويباعدك عن النار.

اقرأ ما يثقل به ميزانك.

اقرأ ما ينفعك في دينك ودنياك.

اقرأ باسم ربك الذي خلق!

يقولون: الدين ليس ضعيفًا؛ فلنقرأ كلَّ شيء!

من التلبيسات المعاصرة: دعوة بعض الناس الشبابَ إلى الاطلاع المنفتح غير المنضبط، وهم يعتمدون في دعوتهم هذه على شبهة داحضة، تعتمد على مغالطة منطقية تسمى: «مغالطة استدرار العاطفة»؛ فهو يستدرُّ عاطفة من كان قليل العلم والتأصيل بقوله: هل أنت ضعيف؟ وهل الدين ضعيف الحجة؟ وسيكون الجواب بالتأكيد بالنفي؛ فيقول له حينها: إذن اقرأ كل شيء، والدين ليس ضعيفًا حتى تخاف عليه هذا الخوف!

وشبهة هذا القائل ليست قضية علمية عقلية صحيحة، إنما تلاعب في الألفاظ؛ لتهييج العواطف في سبيل الوصول إلى ما يريد.

والجواب عنها من خمسة أوجه مختصرة:

أولًا: دين الله قوي بحمد الله، والخوف ليس عليه، إنما الخوف على الإنسان الضعيف الذي وصفه مَن خلقه سبحانه بأنه ضعيف ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النِّساء: ٢٨].

ثانيًا: نسأل صاحب هذه الشبهة: هل تفترض العصمة في كلِّ قارئ؟

أي: هل الانحراف الفكري العقدي الأخلاقي يمكن وقوعه؟

ولا أظن عاقلًا إلَّا سيجيب: نعم، إذن وصلنا إلى المقصود؛ فنحن نعرف من أين تأتي أسباب الانحراف، والخطر ليس متوهمًا، بل نلمسه لمس اليد، ولذا نحن نسأل الله ﷻ الثبات كلَّ يوم، فإن مما يندرج في دعائنا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة] سؤال اللهِ الثباتَ على الحق، والنبي ﷺ وهو الرؤوف الرحيم بنا كان يحذرنا عن فتن آخر الزمان، حتى إنه حذّرنا بقوله: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» [صحيح مسلم (١١٨)]، أي أنه في زمن يسير لا يتجاوز عدة ساعات: يمكن أن ينقلب دين الإنسان رأسًا على عقب! نسأل الله العافية والسلامة.

ثالثًا: قاعدة الشريعة ـ ونحن مسلمون نحتكم إليها ـ أنه كلما كانت الفتن منتشرة فينبغي أن يكون الخوف منها أعظم، ومن أدلة هذا دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثم بيّن السبب فقال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ولاحظ أنه علّل دعاءه الذي يُنبِئ عن خوف ووجل: أن الفتنة بالأصنام قد عظُمت حتى ضلَّ بها كثير من الناس!

والسؤال: من يأمن البلاء بعد إبراهيم عليه السلام؟

ومن ينكر هذه الفتن التي عصفت بنا من كلِّ جانب؟

رابعًا: الخوف من الفتنة من علامات قوة الإيمان وليس من علامات ضعفه؛ فكلما قوي الإيمان: عظُم الخوف من زواله، وعظُم

البعد عن أسباب زواله، ولذا دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدم الوقوع في الشرك ـ كما تقدم ـ لأنه إمام الحنفاء، والله جل وعلا حكى عن الراسخين في العلم دعاءهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عِمرَان: ٨].

وقد سبق بيان أن السلف ـ لعظم إيمانهم ـ كانوا أشدَّ شيء خوفًا على أنفسهم، وأشد حذرًا من المضلين؛ لقوتهم في إيمانهم وعقولهم؛ فالإيمان في نفوسهم عظيم، ولا مزايدة عليه، فأي باب يَنفذُ منه الباطل إلى النفس فإنه يتعين سدُّه.

خامسًا: اجتناب مواطن الشبهات والرعي في مراعيها ليس ناتجًا عن ضعف في الدين وإنما عن قوة كما تقدم، كما أن فيه ـ أيضًا ـ توفيرًا للعمر، والعمر رأس مال الإنسان، وصرفه فيما ينفع من علوم نافعة صافية ومهارات مفيدة هو العقل كل العقل، فما حاجتنا إلى قراءة ما قد يضرُّ أو الاستماع إلى من قد يضر؟!

والأوقات لو أنفقناها ـ جميعها ـ في النافع المفيد لم نُحِط ببعضه!

فكيف نهدرها فيما قد يضرُّنا في ديننا؟!

🕮 وصايا في القراءة والاستماع

الوصية الأولى: احذر من الغرور المعرفي، وتحلَّ بالتواضع المعرفي.

لا تظنّن في نفسك أنك عالم بكلِّ شيء، وتستطيع أن تجيب عن كل شبهة؛ فهذا خطأ كبير، بل عيبٌ كبير!

إن لك حدودًا فاعرفها ولا تتعدها.

ليس عيبًا أن تجهل أشياء، إنما العيب أن تغترَّ فتُقحم نفسك فيما لا تُحسن، فمهما كان ذكاؤك فلن تستوعب كلَّ شيء، وإذا كانت قدرة عضلاتك على حمل الأثقال محدودة؛ فقدرة عقلك على حمل الأفكار محدودة.

الوصية الثانية: اعرف عقيدة من تقرأ له، واعرف منهجه؛ فمن يكتب: يخدم عقيدته.

الوصية الثالثة: احفظ زمانك فإنه ثمين؛ فلا تنفقه إلا فيما ينفعك.

الوصية الرابعة: اكتسب مهارة النقد، ولا تكن متلقيًا فقط.

وإذا مَرّ بك شيءٌ بعيد عما تعرفه في دينك من أصول اعتقادك؛ فعليك أن تقرأه بقدر كبير من الحذر، ولا تسلّم بكلِّ شيء.

الوصية الخامسة: تمسّك بالأصول؛ الأصول التي تعرفها: أركان الإيمان، أصول التلقي والاستدلال لهذه الشريعة.. عليك أن تكون دائمًا متمسكًا بها، فالقرآن والسنة هما الحق، وكل ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام حق، وكل ما خالف ذلك فهو باطل، سواء عرفته على وجه التفصيل أم لم تعرفه.

تمسك بهذا وأنت تقرأ أو تستمع، ولا تتزحزح عنه.

الوصية السادسة: اتخذ مستشارًا مأمونًا يرشدك في ما تقرأ، ومن تستمع إليه، وبماذا تبدأ وبماذا تُثني وبماذا تنتهي.

الوصية السابعة: تدرّج فيما تقرأ، واسلك المنهجية الصحيحة، ومن حُرم الأصول حُرم الوصول.

الوصية الثامنة: لا تستعجل!

تريد أن تكون المثقف الكبير في يوم وليلة! هذا لا يمكن أن يكون. إنما ينال العلم على مَرِّ الأيام والليالي.

الوصية التاسعة: أكثِر من دعاء الله بالهداية والثبات؛ فالمقصود من الثقافة والاطلاع: الوصول إلى الهداية؛ فاسألها من هي بيده.

الوصية العاشرة: الكيف لا الكم!

ليس المهم كم كتابًا قرأت، المهم: ماذا استفدت، وإلَّا فقد تزيدك كثرة الكتب حيرة إلى حيرتك، وجهلًا إلى جهلك.

الوصية الحادية عشرة: المعيار المعرفي هو الوحي؛ فهو المصدر المأمون، وهو الميزان الذي تُوزن به الآراء، وهو الحرز المعرفي الذي يحررك من الأغلاط والأوهام.

الوصية الثانية عشرة: القراءة وسيلة لا غاية؛ فحذارِ أن تنقلب الوسائل غايات.

الوصية الثالثة عشرة: حصّن نفسك بالاعتقاد الصحيح.

أولى الأولويات في هذا الزمان هو تحصين النفس بالاعتقاد الصحيح.

الوصية الرابعة عشرة: دينك أغلى ما تملك، فحذارِ من المغامرة!

لو كنت تمتلك درة ثمينة فلن تجعلها ملقاة على الطريق، ودينك أغلى من هذه الدرة، فاحذر ـ كل الحذر ـ أن تغامر بدينك.

الوصية الخامسة عشرة: لا تجعل قلبك إسفنجة!

أكثر القلوب ـ مع الأسف ـ صارت اليوم إسفنجية، أي أنها صارت

مقرًّا للشبهات؛ فإن استطعت أن لا تطالع إلَّا الحق المحض فافعل، وإن استطعت أن لا تقرأ إلا الصواب فافعل، فإن ابتليت فاجعل قلبك زجاجيًّا؛ يطّلع على الباطل ويعرفه لكن لا يتسرب إليه.

الوصية السادسة عشرة: السعيد من وُعظ بغيره!

كثيرٌ هم المتساقطون، والسبب: استماع غير صحيح أو قراءة غير صحيحة.

فحذارِ أن تكون الساقط الذي يليهم!

الوصية السابعة عشرة: السلامة لا يعدلها شيء؛ فاحذر المغامرات المعرفية.

والتريث والاحتياط ليس جُبنًا؛ بل هو الشجاعة العقلية الصحيحة.

الوصية الثامنة عشرة: حذارِ من أن تخدعك التلبيسات والشعارات، وعليك أن تقرأ ما بين السطور؛ فلربما كان وراء الأكمة ما وراءها.

الوصية التاسعة عشرة: القلوب ضعيفة، والشُّبَه خطّافة.

لا ينبغي أن تغيب هذه الحقيقة عن ذهنك.

الوصية العشرون: الشهرة ليست معيار الثقة.

المشهورون اليوم كثيرون، لكن هذه الشهرة قد تكون ناتجة عن أسباب ليس منها التميز العلمي والتوسع المعرفي، فتنبّه إلى أن بعض المشهورين - لا سيما في وسائل التواصل - خاوٍ من المعرفة والعلم الأصيل؛ فلا تجعل الشهرة معيارك في القبول والتلقي.

الوصية الحادية والعشرون: اتخذ بعض الكتب أصدقاء لك!

أي أن تخصّها بالقرب منك، وتدمن مطالعتها، وتعيد النظر فيها

مرة بعد أخرى، حتى إذا ختمتها أعدت قراءتها مرة ثانية لعظيم ما فيها من فائدة.

۞ **وأرشح لك ثلاثةً من «الكتب الصديقة»**، وقِس عليها ما شاكلها:

أولًا: «تفسير السعدي» (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

فأي شيء يُشكِل عليك في فهم آية، أو رغبت في معرفة معناها: فاجعل هذا الكتاب المصدرَ الموثوق عندك، وإن استطعت أن تقرأه من ألفه إلى يائه فأنا ضامن أنك ستستفيد فائدة كبيرة بعون الله.

وإن أردت أن ترتقي بعده إلى تفسير أوسع منه؛ فدونك «تفسير ابن كثير».

ثانيا: كتاب «الداء والدواء» لابن القيم، فهو كتابٌ عظيم، لو كُتب بماء العين ما كان كثيرًا.

ثالثًا: كتاب «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للشيخ صالح الفوزان حفظه الله، فهو كتابٌ في العقيدة نافع جدًّا.

الفصل الثامن عشر

المنهج الصحيح
في التعامل مع الشبهات

الشبهات: جمع شبهة، ولها استعمالات متعددة، وتُذكر في أبواب مختلفة؛ لكن مرادنا الآن: الشبهة التي تتعلق بالعلم.

وحقيقتها: استدلالٌ ممزوجٌ بين الحقِّ والباطل.

وإن شئت فقل: هي الباطل الذي يُشبه الحق.

وإن شئت فقل: هي الباطل في صورة الحق.

وإن شئت فقُل: هي إلباس جسدِ الباطل لباسَ الحق.

وإن شئت فقل: هي كلامٌ ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

كلُّ هذه التعريفات تدور على معنًى واحد، ألا وهو: استدلالٌ يشوبُ فيه المبطلون الباطل بالحق، فيزخرفون الباطل حتى يخرج في صورة الحق؛ فيلتبس الأمر على الجاهل.

خطر الشبهات

للشبهات خطرٌ وأي خطر! فهي دهليز الفتنة، ورائد الانحراف، والمرقاة إلى كلِّ ضلال.

إنها حقًّا أعظم ما يكون خطرًا، فإذا وردت إلى القلب واستحكمت فيه فعلت به الأفاعيل؛ فهل ألحد من ألحد أو ارتد من ارتد إلَّا بسبب الشبهة!

وهل تفرقت الفِرق إلَّا بسبب الشبهة!

وهل خرج من خرج على أمة محمد ﷺ بالسيف فقتل وفجَّر وأرهب إلَّا بسبب الشبهة!

وإذا كانت الشبهة ذات خطر قديمًا؛ فإنها اليوم أشدُّ خطرًا، فهي

تفتك بالشباب والفتيات فتكًا، وما ذاك إلا لسهولة وصولها إليهم عبر وسائل التواصل والاتصال، فهي تنفذ إلى كل بيت، وتلِج كلَّ حُجْرة، حتى إنها تصل إلى من هو ملتحف بلحافه!

ناهيك عن حسن زخرفتها، وجمال إخراجها، وتعدد قوالبها، فثمة مقروءٌ وثمة مسموع وثمة مشاهَد، هذه تغريدة وهذا منشور وذاك مقطع، وربما برزت الشبهة في برنامج حواري، وربما تخفَّت في مشهد تمثيلي أو فيلم وثائقي أو قصة أو رواية، فإذا جمعت مع زخم حضورها تضخيم من يلقيها، ثم ضممت إلى هذا ضعف الإيمان وضحالة التحصيل العلمي الشرعي عند كثير من الناس: أدركتَ حينها حجم خطر الشبهة، وأنها صدقًا **وباءُ العصر الفتاك!** الذي يبثُّ الحَيرة وينشر الاضطراب ويحُل عرى اليقين.

الشبهة هي المسوّق للضلالة، وإلَّا فلو برزَت الضلالة للناس بوجهها القبيح الذي لم يُزخرف بشيء من الحق؛ فإنه لن تُقبل عليها النفوس، وهذا مما يدلُّك على خطرها، فهذا اللبس الذي يقوم به أهل الضلال هو أعظم أسلحتهم التي تفتك بعقائد الناس وأديانهم، فإن كثيرًا من الناس إنما يقفون عند الألفاظ، وتبهرهم زخارفها، دون أن يكون منهم غوص إلى الحقائق والمعاني، والله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: ٤٢]، فلبْسُ الحق بالباطل هو حقيقة إيراد الشبهات.

المنهج الشرعي في تعامل المسلم مع الشبهات التي تتعلق بدينه

الكلام هنا يتعلق بحالتين: الحالة الأولى: حالةُ العافية. والحالة الثانية: حالةُ الابتلاء.

الحالة الأولى: حالة العافية من الشبهة؛ حيث لم تصل إلى النفس ولم تلج إلى القلب، فالواجب: أن يهجُرها المسلم ويُعرِض عنها تمام الإعراض، هذا واجبٌ شرعي مُتحتم، والله يقول: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدَّثِّر: ٥]، والنبي ﷺ يقول: «**وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**» [صحيح البخاري (١٠)]، وهذا الذي تحويه الشبهة مما نهى الله عنه، فإن شُبهات الضالين ما هي إلا قولٌ على الله بغير علم، ولبسٌ للحق بالباطل، فهي مما نهى الله عنه قطعًا، إذن واجبٌ هُجرانها، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]؛ فـ(أعرض): فعل أمر، والأمر يقتضي الوجوب، فواجبٌ على المسلم أن يعرض عن الشبهات، بل أن يبتعد عن حماها، ولا يقرب من مواطنها أصلًا.

إن السلامة من سلمى وجارتها
أن لا تمرَّ على حال بواديها

لا تدخل مواقع الضالين، ولا تتابع حسابات المشبوهين، ولا تقرأ كتب المنحرفين، ولا تشاهد مقاطع المخذولين، ولا تطالع قنوات المفسدين.

إذا كنت تفِرُّ من المجذوم فرارك من الأسد فكيف بمجذوم القلب والعقل والدين!

واعلم أن شرارة الشبهة إذا دخلت القلب ربما أحرقته.

ولا تغرنَّك دعوات التحرر والانفتاح، أو شهوة حبِّ الاستطلاع.

هذه مهارة لا بد من أن نعوِّد أنفسنا عليها؛ **مهارة طلب السلامة**.

فإذا وصلك مقطع علمتَ أنه لأحد المضلين: فبِكُلِّ هدوء: لا

تفتحه واحذفه، قد عافاك الله من البلاء؛ فلم تجلب الشرَّ إلى نفسك! افعل هذا استجابةً لله ولرسوله ﷺ، اسمع قول ربك وائتمر بأمره؛ يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٦٨)﴾ [الأنعام]، ونبينا ﷺ يقول كما في «الصحيحين»: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ**» [خ ٤٥٤٧، م ٢٦٦٥]، «فاحذروهم» فعل أمر يقتضي الوجوب، فهذا أمرُ نبينا ﷺ واجب الاتباع، وهذه هي الشجاعة.

مِن الناس مَن يظن أن هذا خوَر وجُبن وضعف، والحقُّ أن هذه هي الشجاعة العقلية المحمودة، وهي دليل قوة الإيمان، لأنَّ الإيمان عند المسلم غالٍ ثمين، فهو أحرص ما يكون حفاظًا عليه، ولذا ينأى بسمعه وقلبه عن أن يقرَّ فيه شيء من الباطل.

إنه لا يخاف من الشبهات ويتباعد عنها إلَّا عظيم اليقين قوي الإيمان شديد الخشية من الرحمن، ولا يتجرأ على تعريض يقينه للقدح إلا من هان عليه دينه.

إن من المتعيّن أن نستيقن أن الإيمان واليقين أعظم نعمة، والحفاظ على النعم واجب، ومِن حِفظ هذه النعمة عدم الإصغاء إلى الشبهة والنأي عنها؛ فإنها خطَّافة والقلوب ضعيفة، قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مهما تلاعبتَ به من شيءٍ فلا تلاعبنَّ بأمر دينك».

الشبهة وباء ولا ينبغي التعرض للأوبئة، والسلامة لا يعدلها شيء، ومنع المبادي أولى من قطع التمادي.

الشبهة نوع من الفتنة، وقد أخبر النبي ﷺ عن الفتن بقوله: «**مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فمن وجد منها ملجأ أو معاذًا فليعُذ به**» [متفق عليه (خ ٧٠٨١، م ٢٨٨٦)].

كم من إنسان اغترَّ بعلمه فولج إلى موقع أو استمع إلى ملبِّس فوقعت في صدره شبهة فلم تخرج منه، بل صرعته وفعلت به الأفاعيل.

الحالة الثانية: حالة الابتلاء بالشبهة: كأن تأتي الإنسان رسالة، أو يقع على مقطع، أو يقرأ تغريدة، دون أن يكون منه قصد إلى مطالعة الباطل، وإذا بالشبهة قد دخلت إلى قلبه وبدأت تؤثر فيه؛ فما الذي ينبغي عليه أن يفعل حينئذٍ؟

الذي ينبغي أمام ذلك سبعة أمور:

أولًا: على من ابتُلي بها أن يقوى ولا يضعف، وأن يثبت ولا يسقط، وأن يتماسك ولا يهتز؛ فأنت قد وفقك الله إلى الحقِّ والتوحيد واتباع السنة، فلا ينبغي أن تعصف بك كلُّ شاردة وواردة، هذه شبهة، ولِتبقَ شبهة، وستزول بتوفيق الله وإعانته؛ فلا تكن ضعيف القلب يؤثر فيك كلُّ شيء، كن قويًّا متماسكًا.

واعلم أن ورود الشبهة ليس دليلًا على صحتها، ولا حُسن سبكها أمارةَ صدقها، ولا عدمُ علمك بالجواب عنها دليلًا على انتفاء وجود الجواب، إذن عليك أن تكون قويًّا متماسكًا أمامها.

ثانيًا: اللجأ إلى الله بصدق وإخبات.

عجِّل بهذا، واطلب الهداية ممن أزِمَّة الأمور بيديه، والهداية والإضلال منه، الجأ إلى الله بصدق وأبشر بالخير، فإن الله يهدي من

أناب، ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرّعد: ٢٧].

إنك إن صدقت الله صدقك، وأزال عن قلبك ما اعتراه، وحذارِ من أن تتكاسل وتظنَّ أن الأمر سهلٌ، فكم من شخص وقعت في نفسه الشبهة، لكن ما دعا الله بصدق بإزالتها: فصرعته! وربما تعلق قلبه بالعلماء وطلبة العلم لكي يُزيلوا هذه الشبهة عن قلبه أكثر من تعلقه بالله، وهذا من ضعف الإيمان والتوحيد، فالأمر كله بيد الله، والخير كله منه، فاجعل فقرك واحتياجك إلى الله، والجأ إليه بصدق، واضطرار، وأبشر بالخير، لن يخذلك الله، فهو الكريم الرحيم سبحانه.

ثالثًا: عليك ألَّا تسترسل معها، وألا تُكثر تقليبها في قلبك.

بعض الناس إذا سمع شبهة وبدأ تأثيرها يدبّ في قلبه: تفاعل معها؛ بالنظر فيها، وتحليلها، وتطويرها، والتفريع عليها! فيجد الشيطان مدخلًا عليه من هذا الجانب، وإذا «بالحبة تُصبح قُبة»! وما هكذا المنهج الشرعي.

عليك أن تُخمدها بعدم الاسترسال معها، فلربما كانت عارضًا ووسوسةً من الشيطان، ويزول عن قريب بإذن الله.

رابعًا: إيّاك أن تحكيها لأحد؛ فلا تنشرها عند جلسائك، ولا تُذعها بين قرنائك، لا تكن سببًا في أن يتضرر غيرُك كما تضررت.

من الخطأ أنه إذا وردت شبهة: كتب مَن ابتلي بها في «مجموعة واتساب» ـ يدخلها الصغير والكبير ـ قائلًا: ما الجواب عن شبهة كذا وكذا..!

هذا لا ينبغي البتة، فهو بهذا زاد الباطل رواجًا.

خامسًا: عليك أن تذهب إلى الأطباء لتطلب العلاج.

إنك لو أُصبت في بدنك بقليل أو كثير بادرتَ إلى زيارة الأطباء، وهذا لا بأس به، لكن ما يُصيب قلبك أخطر، وضرره أعظم، وأطباؤه هم العلماء وطلبة العلم الراسخون، فعليك أن تذهب إليهم، وأن تطلب منهم الجواب الشافي، ونبيك ﷺ قد قال: «**ألم يكن شفاء العي السؤال؟**» [أبو داود ٣٣٧]، والله يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٨٣]، وأولو الأمر هنا: هم العلماء(١)، وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣]، فاذهب إلى عالم أو طالب علم مُتمكن تظنُّ أن عنده قُدرة على إفادتك، وإزالة الشبهة عنك.

وأنبِّه هنا إلى أن كثيرًا من الناس اليوم أول ما ترد عليه شبهات لا يعرف جوابها: فإنه يبحث عن الجواب في الشبكة (النت)؛ في جوجل أو يوتيوب أو غيرهما، وهذا أمر ينبغي التعامل معه بقدر من اليقظة والانتباه؛ فقد يقودك البحث إلى مواقع ضالة!

اعلم أنه ليس المهم أن تجد جوابًا، المهم أن تجد جوابًا صحيحًا من مصدر موثوق، يفيدك ولا يعمق الشبهة في نفسك.

فأوصيك بأن تتعامل بقدرٍ من الحذر مع من لا تعرف في فضاءات الشبكة.

سادسًا: مهما يكن من شيءٍ؛ فعليك أن تستمسك بالأصول، وأن

(١) كما قاله الحسن وقتادة وابن جريج، انظر: زاد المسير (١/ ٤٣٩).

ترجع إلى القواعد، وأن تردَّ المتشابه إلى المحكم؛ فهذا دواءٌ نافعٌ جدًّا.

سابعًا: تمسك بالجواب المجمل إذا ابتليت بشبهة لا تعرف جوابها، وهو: **معرفتُك بالحق كافيةٌ في معرفة بُطلان ما خالفه**، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يُونس: ٣٢].

إنه لا يلزمُ لمعرفةِ بُطلان الشبهة العلم بما ينقضها على وجه التفصيل، إنَّما يكفي معرفةُ أنها مُعارِضةٌ للحق؛ بمعنى: الباطل يُعرف من طريقين: معرفةِ القادح الناقض الذي يُبطل الباطل، وطريقٌ أخرى: وهي أن تعرف الحق؛ إذن كلُّ ما ناقضه فهو باطل.

فإذا أتاني مُلبّس بشبهة تتعلق بالربوبية أو النبوة أو القرآن أو السُّنة أو الأحكام وأنا لا أعرف جوابها؛ فسأقول له وأنا مطمئن: لقد أتيتني بشيء لا أعرف جوابه تفصيلًا، هو عندي مُشتبه، ولا مُشكلة في أن يبقى مُشتبهًا، لكنني أقطع أنه باطل، والدليل على هذا: أنه مُعارضٌ للحق، ولا يُمكن أن يكون شيءٌ يُعارض الحق إلَّا وهو باطل. هذا هو الجواب المجمل.

هذا في حق العامي أو المبتدئ؛ أما بالنسبة للعلماء وطلبة العلم الراسخين: فإن المتعين في حقهم أن ينهضوا إلى كشف الشبهات ونقضها، مع مراعاة الحكمة في ذلك، وهنيئًا لمن وفقه الله ليذبَّ عن دين الله، وعن كتابه، وعن سنة رسوله ﷺ.

🕮 هل الأولى في موضوع الشبهات: نشرها بين الناس أم كتمانها؟

الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الواجب ههنا التفصيل؛ فتارةً تكون

الحِكمة في إماتة الباطل بإخمال ذِكره وإخمال ذِكر قائله، قال العلماء: «الإِعْرَاضُ عَنِ الْقَوْلِ الْمُطَّرَحِ أَحْرَى لإِمَاتَتِهِ وَإِخْمَالِ ذِكْرِ قَائِلِهِ»؛ فهذا مسلكٌ صحيح بل متعيّن في محلِّه؛ وهو متى صار الباطل مغمورًا خاملًا لم ينتشر في الناس.

أمَّا إذا انتشر وكان له رواج؛ فينبغي الرد عليه وبيان عواره؛ ليحذره الناس.

ضوابط نقض الشبهة، سواء كان الرد عامًّا، أم كان حوارًا خاصًّا مع مستشكل.

ضوابط هذا سبعة، وهي:

أولًا: أن تكون الشبهة ـ كما قدَّمتُ ـ مُنتشرةً بالفعل، لها تأثير ورواج، فمثل هذه ينبغي التحذير منها.

ثانيًا: أن يسبق التحذيرَ منها: تأصيلُ الحقِّ وبيانُه؛ ليكون بيان الباطل في محله.

الأمر الثالث: أن يتصدَّى للردِّ على الشبهات المتأهل لهذا المقام؛ أي عالمٌ أو طالب علم مُتمكن.

أما الجاهل فليس له أن يخوض في هذا المضمار البتة، وليس المقام مقامه، فإن ردَّ الشبهة من الجاهل يزيد المستشكل استشكالًا ومرضًا إلى مرضه؛ فحذارِ.

إذن: يا أيها الأب أو المعلم أو الصديق أو إمام المسجد: إذا جاءك متأثر بشبهة قد أصابته الحيرة فاشمله بالرفق والهدوء، وعامله باللطف والأناة، فالمطلوب إقناعه لا إفحامه، وإقباله لا إدباره، فلتسعه

برحابة صدرك، وحذار من أن تقابله بالتهجم أو السبِّ أو النهر، فقد ينفر بسبب هذا نفورًا لا رجعة بعده، ثم إن كان عندك الجواب القاطع والبلسم الشافي فاستعن بالله ولا تستكثر جهدًا ولا وقتًا، فهذا بابٌ من أعظم أبواب البذل في سبيل الله ونصرة شريعته، أما إن لم تكن فارس هذا الميدان فاتق الله فيه، ولا تعمِّق ـ بضعف جوابك ـ الشبهة في نفسه، وإنما خذه إلى عالِم جوابه يروي الغليل.

رابعًا: لا بد أن يكون الردُّ على الشبهة قويًّا مُحكمًا، بحيث تزيل أنواره كلَّ ظلمةٍ في القلب كانت منها.

إنَّ الذي لا يقوم بهذا؛ وإنما يرد على هذه الشبهة من رأس القلم ـ كما يقال ـ بكلمات مقتضبة لا تشفي ولا تروي: لم يؤدِّ حقَّ الإسلام عليه، ولا حصل بكلامه الشفاء، إنما ينبغي أن يكون الرد في غاية الإحكام والقوة، أسلوبًا ومادةً علمية، فهذا من المهمات التي ينبغي عدم الغفلة عنها.

خامسًا: ملاحظة المصلحة في مسألة الإجمال أو التفصيل في ذِكر الشبهة، فإن هذا المقام يحتاج إلى فقه.

سادسًا: لا بد أن يكون الردُّ على الشبهةِ عقيب إيرادها مباشرة بلا تأخير.

لا ينبغي أن يكون ورود الشبهة نقدًا، والجواب نسيئةً! فهذا من الخطأ الكبير.

سابعًا: إن كان الحوار حوارًا خاصًّا مع من سأل عن شبهة: فينبغي التفريق بين الإنسان السليم وبين المصاب بمرض نفسي أو وسواس قهري؛ فإن الواقع قد كشف عن أن كثيرًا من الإشكالات يسأل عنها

أناسٌ عندهم مشكلة نفسية، ومن كان كذلك فلا يحتاج إلى علم يزيل الشبهة بقدر حاجته إلى علاج نفسي.

الوسائل التحصينية في تربية الناشئة للوقاية من تأثير الشبهات

هذا الموضوع مهمٌّ وواسع، وأُلخص ـ بتوفيق الله ـ مهمات تتعلق به، وقبل هذا لا بد من تنبيهات ثلاثة:

أولًا: المقصود بالإجراءات التحصينية: السعي في إكساب الناشئة والشباب حِراسةً لعقولهم وقلوبهم، تحميهم ـ بإذن الله ـ من عوادي الشبهات وآثارها الخطيرة.

والغاية هنا: وصولهم إلى ذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته، ومن خالطت بشاشة الإيمان قلبه واستضاء بأنواره فلن يتزحزح عنه قِيد شعرة.

ثانيًا: ما يدفعنا إلى التعاون في هذا الباب: الرغبة في هداية الشباب والرحمة بهم لا التسلط عليهم، وهذا مقام إيماني عظيم، فالحرص على هداية الخلق طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

إذا كان لدِيننا الصدارة في قلوبنا واهتماماتنا: بذلنا له جهودنا وأوقاتنا، ومحيانا ومماتنا.

ثالثًا: لا بد من فهم نفسيات شباب اليوم!

الشباب اليوم ليسوا هم الشباب قبل ثلاثين أو أربعين سنة؛ فنفسياتهم تغيرت، ولغتهم تغيرت، وأولوياتهم تغيرت، وطرائق تفكيرهم وتعاطيهم مع القضايا تغيرت، ومشاعرهم تجاه أنفسهم والآخرين تغيرت.. أشياء كثيرة فيهم قد تغيرت!

إذن، لا بد أن نواكب هذا التغير، فنحسن الحوار والتعامل معهم.

أما وسائل ـ أو إجراءات ـ التحصين؛ فهي ما يأتي:

أولاً: الحرص على البراهين، ولا سيما في أربعة موضوعات: براهين وجود وربوبية الباري سبحانه وعظمته، براهين نبوة نبينا محمد ﷺ، براهين صحة القرآن، براهين كمال الدين.

وقد ذُكر شيء من هذا سابقًا، ومن البرامج المرشَّحة في هذا المقام: قراءة كتيبات نافعة جدًّا ومكتوبة بأسلوب شيق سلس؛ تُقرأ بصورة فردية أو جماعية في المنزل أو تجمعات العائلة أو الأصدقاء، هذه الكتيبات للشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ صاحب التفسير المشهور ـ، وهي: «البراهين العقلية على وحدانية الربِّ ووجوه كماله»، و«أصول العقائد الدينية»، و«الوسائل المفيدة للحياة السعيدة»، و«الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي»، و«الدين الصحيح يحلُّ جميع المشاكل»، و«القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»، و«النصيحة الربانية».

إضافة إلى مطالعة مجموعة من المقاطع المفيدة في هذا الباب ـ بعضها بطريقة الموشن جرافيك وبعضها مقاطع عادية ـ التي أنتجتها اللجان والمراكز الموثوقة المتخصصة في تعزيز اليقين ونقد الإلحاد واللادينية.

ثانيًا: إحياء التفكر.

فالتفكر الصحيح عبادة عظيمة، ما أكثر الغفلة عنها!

فلا بد من تعويد الناشئة عليها، وأخصُّ التفكر في ثلاثة أمور:

ـ التفكر في معاني القرآن؛ لنتعود أن نفهم كلَّ يوم ولو معنى كلمة

واحدة من القرآن، وبين أيدينا التفسير الذي أوصيت به سابقًا (تفسير السعدي) أو غيره من التفاسير المأمونة عقديًّا.

ـ التفكر في معاني الأسماء الحسنى، وأرشح في هذا: كُتيب: «تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي.

ـ التفكر في الآيات الكونية، إما بالمشاهدة المباشرة أو عن طريق المقاطع، وما أكثرها في الشبكة.

ثالثًا: تحذيرهم من منافذ الشرِّ وأصول الأفكار التي ينفذ المبطلون من خلالها، وقد طُرح في هذا الكتاب بعض منها.

رابعًا: الاطلاع على أخبار المهتدين إلى الإسلام وقصصهم قديمًا وحديثًا، وفي الشبكة ما لا يحصى من هذه المقاطع، فقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**» [متفق عليه (خ ٢١، م ٤٣)].

فمعرفة أخبار من أسلم وكره الكفر تقربك من وجدان حلاوة الإيمان، وهذا مجرب.

خامسًا: تعظيم قدر الدين في نفوسهم منذ الصغر.

أن يُغرس في نفوسهم أن الدين: أول شيء، وأهم شيء، وأثمن شيء، بل هو كلُّ شيء، وهو المقدم، وكل شيء يأتي بعده.

سادسًا: التركيز على الجواب المجمل الذي سبق بيانه وتعميقه في نفوسهم.

سابعًا: تعويدهم على مهارة طلب السلامة الذي سبق الكلام عنه.

ثامنًا: محاولة تعريفهم بالحكمة في تشريع الأحكام قدر الإمكان، فهذا يزيدهم يقينًا، والحكمة قد سبق الكلام فيها؛ فمعرفتها تزيد الإيمان، والجهل بها لا يُنقص الإيمان.

ومما أرشحه في هذا: مصنفات الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ معتنيًا ببيان الحكمة في تشريع الأحكام، فلو التُمست من كلامه.

تاسعًا: حبذا أن نحرص على انتقاء صحبة صالحة لأبنائنا وإخواننا، ولعل هذا أصعب شيء مما ذكر هنا! ويا ليت أن الصحبة الصالحة ـ التي لا إفراط عندها ولا تفريط ـ تُشترى بالمال؛ لاستحقت حينها دفع الغالي والرخيص!

وعلى كلٍّ فلنسعَ، والتوفيق بالله.

عاشرًا وأخيرًا: مهما بذلنا من أسباب في هذا المضمار؛ فيبقى السبب الأهم والذي قد نغفل عنه: الدعاء.

فالدعاء ثم الدعاء ثم الدعاء. والله تعالى أعلم.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

مقدمة كتاب «كشْف الشبهات» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث بلغ فيها إلى الجواب المجمل، وهي جديرة بالعناية بها.

الفصل التاسع عشر

المنهج الصحيح
في التعامل مع اختلاف العلماء

«اختلاف علماء الشريعة» أضحى اليوم موضوع تساؤل، بل اتخذه المغرضون مصدرَ تشويش وتشكيك، خاصةً مع ظهور الخلافات في وسائل التواصل والإعلام المختلفة، فصار كثير من الناس يسألون: لِمَ يختلف العلماء؟ ومَن نتَّبع منهم؟

بل ربما تطور الأمر ببعض الجهال ضعافِ الإيمان إلى أن يسيء ظنه في الشريعة ويتهمها بالاضطراب؛ لأنه يظنُّ أن الخلاف راجع إلى الشريعة نفسها، وهذا ـ بلا شكٍّ ـ ظنٌّ خاطئ؛ فاختلاف العلماء راجع إليهم لا إلى الشريعة كما سيتبين إن شاء الله.

ناهيك عن أن بعض الناس أخذ به موضوع الخلاف إلى منحى بعيد بسبب خطأ في تصوره، وصار لا يفهم من كلمة الخلاف حيث وردت إلا التسهيل! وهذا قد يجرُّ إلى خلل في العبودية.

إذن، طرح هذا الموضوع دعت إليه الحاجة من أجل تجليته وفهمه الفهم الصحيح بلا إفراطٍ ولا تفريط.

إن الخلاف واقع، ووجوده لا يُجحد، لكن ينبغي أن يتقرر عندنا ابتداءً أن وجود الخلاف ليس مرجعه إلى الشرع وليس ناشئًا منه، بل مرجعه إلى العلماء وإلى اختلاف ما أعطاهم الله سبحانه من الفهم والإدراك.

وليس يخفى أن الشرع قد حثَّ على الاجتماع وترك التنازع والتفرق، لما يؤدي إليه من عواقب وخيمة، والله جل وعلا يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والنبيُّ ﷺ يقول: «**لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**» [البخاري (٢٤١٠)].

يُستخلص مما سبق أن الخلاف مقدّرٌ وقوعه بين المسلمين كونًا، إلّا أن المطلوب منهم السَّعي في إزالته قدر الإمكان، فالاتفاق خيرٌ منه.

وإذا وقع الخلاف واتقى الجميعُ الله تعالى وتحرَّوا بلوغ الحق، فإنه لن يكون الخلاف حينئذٍ مدعاةً للتفرق وشتات الأمر وتولد الأحقاد.

أسباب الخلاف بين العلماء:

الخلاف بين العلماء له أسباب، أهمها سببان:

السبب الأول: أن الله جل وعلا خلق الخلق وجعلهم ذوي قدرات عقلية مختلفة، فأفهامهم متفاوتة من جهة حسن الاستيعاب والاستنباط والترجيح، ولو كانوا قالبًا واحدًا متساويًا ما اختلفوا، وعليه فقد يظهر لزيدٍ من وجوه الاستنباط ما لا يظهر لعمرو.

السبب الثاني: وهو تابعٌ للأول، أن الله ﷻ لم يجعل الأدلة على درجة واحدة من الوضوح والقطعية، إنما فيها ما دلالته قطعية وفيها ما دلالته ظنية، كما أن الأدلة متفاوتة في ثبوتها، فمنها ما هو قطعي الثبوت ومنها ما هو دون ذلك، ولذا تتفاوت أنظار الفقهاء في فهم الأدلة وفي الاستنباط منها وفي قبولها وفي تطبيقها على الواقع أيضًا.

إذن، وقوع الخلاف يتفق مع الطبيعة البشرية التي تقتضي النقص والضعف ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٢٨] وهذا ليس مقصورًا على علماء الشريعة؛ فالأطباء يختلفون، والفلكيون يختلفون، واللغويون يختلفون.. وهلم جرًّا.

وربما كان في المسألة دليل لم يبلغ هذا العالم أو بلغه ثم نسيه، أو

بلغه وحفظه لكنه أخطأ في فهمه وفي الاستنباط منه، فلأجل كلِّ ذلك شاء الله سبحانه وقوع الخلاف بين أهل العلم.

بعض الحِكم من وقوع الخلاف بين علماء الإسلام سلفًا وخلفًا:

الأمر الأول: أن وقوع هذا الخلاف يجعلنا نستيقن أن من له العلم الكامل هو الله سبحانه وحده، فهو جل وعلا المتفرد بالكمال، المنزَّه عن كلِّ نقص.

الأمر الثاني: وقوع هذا الخلاف يحفز للاجتهاد والبحث والتنقيب عن الصواب، وهذا باب من أبواب اكتساب الأجر.

الأمر الثالث: وقوع هذا الخلاف يدعونا إلى عدم الغلوِّ في العلماء؛ فإنهم يصيبون ويخطئون، وهذا لا نعرفه إلا إذا وقع الخلاف، إذ إنه يقتضي إصابة بعضٍ وخطأ آخرين.

الأمر الرابع: حصول هذا الخلاف اقتضى حصول سعةٍ للعلماء المجتهدين من بعد، وذلك أن يجتهدوا في النوازل وأن يبحثوا عن الحلول المتوافقة مع الشريعة من بين أقوال العلماء المختلفة، ولو كانت المسائل كلها إجماعية لم يكن ثمة مجال للنظر والاجتهاد.

الأمر الخامس: وجود الخلاف بين العلماء كان نافعًا جدًّا في بناء الشخصية العلمية الاجتهادية، فالخلافات الفقهية والمطارحات الاستدلالية والجدل العلمي الرصين كان نافعًا جدًّا في تأهيل العلماء وصقل أفهامهم وشحذ أفهامهم؛ لذا كان الاطلاع على الخلاف الفقهي بين العلماء من مؤهلات العلماء التي يعتنون بها، حتى قال قتادة بن دعامة ـ أحد التابعين، رحمه الله ـ: (من لم يعرف الاختلاف لم يشمَّ أنفه الفقه).

🕮 ضوابط في التعامل مع خلاف العلماء:

بين أيدينا مجموعة من الضوابط، يحسن أن تكون نصب أعيننا حين النظر في كلام العلماء واختلافهم:

الضابط الأول: الخلاف بين العلماء ـ الذي نبحث فيه ـ هو الخلاف بين علماء أهل السُّنّة، فهو خلافٌ فقهيٌّ لا يقدح في وحدتهم الحقيقية.

إذن، نحن نتكلم عن خلاف فقهي، أمّا العقيدة ومسائل التوحيد فأهل السُّنّة متفقون فيها وليست محلًّا للخلاف.

الضابط الثاني: الخلاف مُقدّرٌ كونًا لحكمةٍ بالغة.

فالأصل أن اختلاف علماء المسلمين لم يكن دافعه اتباع الهوى أو الزيغ، إنما هي حكمةٌ إلهية، ولها أسبابٌ سبقت الإشارة إلى بعضها.

الضابط الثالث: مسائل الشريعة قسمان:

- متفقٌ عليه.
- مختلفٌ فيه.

ومعرفة هذا شيءٌ مهمٌّ، فبعض الناس من كثرة ما يسمع كلمة الخلاف؛ يظنُّ أن كلَّ شيءٍ مختلف فيه، وهذا ليس بصحيح، ثمة مسائل إجماعيةٌ كثيرة، ثم المسائل الخلافية فيها مسائل الخلاف فيها معتبر، وفيها مسائل الخلاف فيها شاذ.

الضابط الرابع: الحُكم فيما اختلف فيه الناس واحدٌ يعلمه الله سبحانه، يصيبه من يصيبه ويخطئه من يخطئه، أي: أنه إذا اختلف العلماء

في معاملة مالية ـ مثلًا ـ فبعضهم قال بالحلّ، وآخرون قالوا بالتحريم؛ فإن الصواب فيها واحدٌ في علم الله؛ من أصابه فهو المصيب وله أجران، ومن أخطأه فهو مخطئٌ وله أجرٌ واحد.

فالقاعدة في هذا المقام هي: ليس كلُّ مجتهد مصيبًا ـ أي: مصيبًا للحق ـ، ولكل مجتهدٍ نصيب ـ أي: له نصيبٌ من الأجر ـ.

الضابط الخامس: الواجب على كل مسلمٍ أن يسعى في معرفة الحق والعمل به في مسائل الاتفاق أو الخلاف.

يجب أن يكون القصد معرفة مراد الله ورسوله ﷺ والعمل به، هذا قدرٌ لا مسامحة فيه ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

الضابط السادس: اختلاف العلماء يدلُّ على اتفاقهم!

لأن أساس اختلافهم راجعٌ إلى أن كُلَّ واحدٍ منهم يريد الوصول إلى معرفة مُراد الله ورسوله ﷺ، واتباع ما يحبه الله، وعليه فهم متفقون على هذه الغاية، فلم يجاملوا غيرهم ويوافقوهم على ما هم عليه على حساب اتباع الحق.

إذن، صار اختلافهم في المسائل العلمية دليلًا على اتفاقهم على ما هو أعظم؛ ألا وهو اتباع الحق وتحكيم الشريعة، وتقديم التقوى على الهوى.

الضابط السابع: الظنُّ في علماء المسلمين الذين لهم قدم صدقٍ في هذه الأمة أنه لا يتعمد أحد منهم مخالفة الحقِّ ومعاندة أدلة الكتابِ

والسُّنّة، وهذا ما عُرف باستقراء أحوالهم، وعُرف من خلال الاطِّلاع على حُسن ديانتهم وعدالتهم.

وهذا ما يقتضيه إحسان الظن بهم.

الضابط الثامن: لا أحد من الناس يجب قبول قوله قبولًا عامًّا في كلِّ زمانٍ ومكان إلّا رسول الله ﷺ، أمّا من سواه: فكل أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك، وما أحسن ما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس أحدٌ إلّا يؤخذ من قوله ويُدع غير النبي ﷺ) [كما عند الطبراني في معجمه الكبير (١١٩٤١)]، وقال مالكٌ رحمه الله: (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا صاحب هذا القبر) وأشار إلى قبر النبي ﷺ. [سير أعلام النبلاء ٨/ ٩٣].

وصدق من قال:

وكل إنسانٍ سوى ما استدركوا ... يـؤخـذُ مـن كـلامـه ويُـتـركُ

الضابط التاسع: الاختلاف العلمي المنضبط الذي غايته الوصول إلى الحق، ليس مدعاةً للتفرق، وليس مولِّدًا للأحقاد، وفي مثله تتنزل المقولة المشهورة: «اختلاف الرأي لا يُفسد للودِّ قضية»، فلم يزل علماء المسلمين منذ عهد الصحابة يختلفون ويتناظرون مع بقاء الألفة والإخوة الإيمانية.

ومن الصور الرائعة لتطبيق أئمة الإسلام لهذا الأمر: ما قال يونس الصدفي رحمه الله ـ وهو من أصحاب الشافعي ـ: (ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة!) علَّق الذهبي رحمه الله على هذا بقوله: (هذا يدلُّ على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون). [سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٧].

الضابط العاشر: كُل مسألة فيها دليل صحيح واضح الدلالة؛ فلا عبرة بخلافٍ يقع فيها، ولا التفات إليه، إذ الواجب على كلٍّ مسلم اتباع الدليل واطراح ما خالفه، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

🕮 موقف المسلم من المسائل الخلافية الفقهية:

موقف المسلم من المسائل الخلافية الفقهية ـ إجمالًا ـ له ثلاث حالات، وذلك راجعٌ إلى فقهه وإحاطته بالعلوم الشرعية، ولكل حالةٍ من الحالات حكمها، فالمسلم إما أن يكون:

- عاميًّا.
- أو عالمًا مجتهدًا.
- أو عنده علمٌ قد تسامى به عن مرتبة العوام، لكنه دون رتبة الاجتهاد.

أمّا العاميُّ: ففرضه سؤال أهل العلم والعمل بفتوى من استفتاه، ولم يختلف العلماء أن على العامة تقليد علمائها، قال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣].

وأمّا العالم: وهو الذي قد حاز رتبة الاجتهاد؛ ففرضه أن يجتهد في المسألة، وأن يستفرغ الوسع في سبيل الوصول إلى الصواب فيما بين يديه من اختلاف، وإذا نظر وترجح له حكمٌ فلا يجوز له العدول عما وصل إليه اجتهاده إجماعًا.

وأما من عنده علمٌ قد تسامى به عن مرتبة العوام لكنه دون رتبة

الاجتهاد: فهذا يختلف حكمه باختلاف الحال، فإن كان يستطيع النظر في المسألة ويرجح بين أقوال أهل العلم، وأن يصل إلى الراجح فيها؛ فعليه أن يفعل هذا الذي يستطيعه، وأمّا إن كان لا يستطيع ذلك: نزّل نفسه في هذه المسألة منزلة العامي فيسأل أهل العلم ويعمل بفتواهم.

فإن قال قائل: ماذا يفعل العامي إذا اختلفت فتاوى المفتين؟

فالجواب: ثمة عدة أمور:

أولًا: عليه أن يكون قصده الوصول إلى الحق وما يحبه الله ويرضاه.

فهذه قضيةٌ إيمانية يجب أن يحققها في نفسه.

ثانيًا: إذا اختلفت الفتاوى عليه دون أن يكون منه تتبع لهذا الخلاف، وعنده شيءٌ من القدرة على أن يدرك رجحان أحد القولين بوجهٍ من أوجه الترجيح، فعليه أن يتبع ما يعتقده صوابًا.

ثالثًا: إن لم يكن يستطيع أن يفهم الحجج ويرجح بينها ـ وهو الغالب على العامة ـ فعليه أن يرجح بين المجتهدين، فيتبع من يراه أرجح في نفسه.

بمعنى: يقال له: ماذا تفعل لو اختلف الأطباء أمامك في علاج ابنك؟ افعل في تلك المسألة ما تفعل في هذه سواءً بسواء!

قال بعض أهل العلم: من مرض له طفلٌ وهو ليس بطبيب، فسقاه دواءً برأيه كان متعديًا مقصرًا ضامنًا، ولو راجع طبيبًا لم يكن مقصرًا، فإن كان في البلد طبيبان فاختلفا في الدواء، فخالف الأفضلَ عُدَّ مُقصرًا، ويُعلم فضل الطبيبين بتواتر الأخبار، وبإذعان المفضول له، وبتقديمه بأمارات تفيد غلبة الظن، فكذلك في حق العلماء: يُعلم الأفضل بالتسامع

وبالقرائن دون البحث عن نفس العلم، فلا ينبغي أن يخالف الظن بالتشهي، فهذا هو الأصح عندنا والأليق بالمعنى الكُلي في ضبط الخلق بلجام التقوى والتكليف.

رابعًا: فإن قال العامي: أنا لا أستطيع الترجيح بين العلماء، فكلهم علماء أفاضل! قيل: اذهب إلى عالمٍ أو طالب علمٍ واطلب منه أن يرجح لك بين القولين، ثم قلِّده فيما يرجحه لك.

خامسًا: فإن قال: لا أستطيع! قيل: إذن عليك أن تسلك مسلك الاحتياط، عملًا بقول النبي ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» [الترمذي ٢٥١٨].

والخلاصة: المسألة مسألة دِيانة، يتبعها موقف حسابٍ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحِجر: ٩٢-٩٣]؛ فاعمل ونظرك متجهٌ إلى هُناك؛ حيث ذاك الموقف العظيم!

هل يصحُّ جعل الخلاف وسيلةً للتخفف من تكاليف الشرع؟

من الناس من حصل عنده خللٌ في التصور والفهم، فظنَّ أن الخلاف يلازم التسهيل! بحيث إذا قيل له: «في هذه المسألة خلاف» ظنّ كأنه قيل له: الأمر هيِّن! بل كأنه قيل له: لك أن تتشهى وأن تأخذ من الأقوال ما تشاء!

ولا شك أن هذا مفهومٌ خاطئ، وهذا الذي أراده العلماء بنهيهم عن تتبع الرُّخص، فالرخص هنا ليست الرخص الشرعية، كرخصة القصر أو الفطر في السفر ونحو ذلك، وإنما تتبع الرخص ههنا: هو أن يختار الـمُكلَّف من كلِّ مذهبٍ ما هو الأهون عليه؛ فيأتي إلى مسألة في البيوع

ـ مثلًا ـ قد اختلفوا فيها إلى قولين بالتحريم والإباحة، فيأخذ بالقول المبيح لأنه الأقرب إلى هواه، ثم يأتي إلى مسألة خلافية في الصيام أو الحج فيعمل بالقول الأسهل، وهكذا يتنقل بين الخلافات ينتقي فيها القول الهيِّن، والحُجّة عنده: المسألة خلافية فلا تحجروا واسعًا!

وهذا المسلك مسلك خاطئ لا يجوز، ويدلُّ على هذا أربعة أوجهٍ مختصرة:

الوجه الأول: هذا التصرف مُحرم بإجماع العلماء، يقول سليمان التيمي ـ أحد التابعين ـ : (لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشرُّ كله)، ثم عقّب ابن عبد البر عليه بقوله: (هذا إجماعٌ لا أعلم فيه خلافًا) [جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٢٧].

وفي هذا يقول ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعلم أن من يكتفي بأن يكون في فتياه أو عمله موافقًا لقولٍ أو وجهٍ في المسألة ويعمل بما يشاء من الأقوال أو الوجوه من غير نظرٍ في الترجيح ولا تقيدٍ به: فقد جهل وخرق الإجماع) [فتاوى ابن الصلاح ١/ ٦٢].

فالمتقرر عند أهل العلم أن تتبُّع الرخص لا يقع إلّا ممن هان عليه دينه.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه أمر بردِّ ما اختلفنا فيه وتنازعنا إلى الكتاب والسُّنّة، قال جل وعلا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]؛ وقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشورى: ١٠]؛ إذن الواجب علينا أن نردَّ التنازع إلى

الكتاب والسُّنّة، وأن نبحث عن الأقرب إلى الصواب، وليس لنا أن نردَّ الخلاف إلى أهواء نفوسنا ومشتهياتها.

فتتبع الرخص واقتناص التسهيلات إذن مضادٌّ لأمر الله سبحانه.

الوجه الثالث: أن الله سبحانه نهى عن اتباع الهوى، قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]، وتتبع الرخص والانتقاء من الأقوال المختلفة بالتشهي هو في حقيقته ميلٌ مع أهواء النفوس، وهذا عين ما نهى الله عنه.

إن الابتلاء بالتكليف يقتضي من العبد أن يكون ـ فيما يعرض له من مسائل ـ باحثًا عما يُبلِّغه تقواه، لا أن يكون تابعًا لشهوته وهواه.

والواجب علينا معشر العبيد للولي الحميد: أن تكون أهواؤنا تبعًا لديننا، لا أن يكون ديننا تبعًا لأهوائنا.

الوجه الرابع: يترتب على القول بتتبع الرخص والاحتجاج بالخلاف مفاسد جمة، منها:

- الاستهانة بالدين: إذ يصير سيالًا لا ينضبط.
- ذهاب هيبته من النفوس، إذ يصبح لعبةً بأيدي الناس.
- الجرأة على تعدِّي حدود الشرع.

وأعظم بها من مفاسد.

والخلاصة: الواجب علينا عند اختلاف العلماء أن يتجرد قصدنا للوصول إلى الحقِّ وإلى ما هو أقرب لمراد الله ورسوله ﷺ، بغضِّ النظر عن كون هذا القول هو القول الأخف أو هو القول الأشد.

فإن احتجَّ محتجٌّ على جواز تتبع الرخص بحديث: **(اختلاف أُمَّتي رحمة)**.

فإنه يقال: هذا الحديث منتشرٌ على الألسنة، ولكنه مختلقٌ لا أصل له، ولا تجوز نسبته إلى النبي ﷺ، وليس لأحد أن يُحدّث عن رسول الله ﷺ بحديثٍ إلا بعد أن يتحقَّق من صحته، وقد قال ﷺ: «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» [مسلم (٣)]. وكفى به وعيدًا، وتخويفًا أكيدًا.

🕮 مسألة الأخذ بالأيسر:

اليسر في الشريعة واقعٌ وليس غايةً، فالشريعة موضوعة أصلًا على أنها ميسرة، وليس اليسر غايةً نحن نسعى إليها ونتطلبها، والنبي ﷺ ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، **(ما خُيّر) إذا كان المقام مقام تخيير**، لكن الأصل في مسائل الشريعة أنه ليس المقام فيها مقام تخيير، إنما مقام اتباع.

فاليُسر إذن «واقع الشريعة» وليس «غاية الشريعة»، إنما الغاية هي العبودية والوصول إلى مرضاة الله ﷻ.

وههنا تنبيهٌ مهمٌّ؛ وهو أنه لا بد من الرجوع إلى العلماء الثقات، أي أنه ليس كل من تصدر للفتوى كان أهلًا للإفتاء، وكم نسمع في وسائل التواصل والفضائيات أناسًا ليسوا من أهل العلم والاجتهاد يتصدرون للفتوى، ويأخذ بفتاويهم من يأخذ.

وما يقوله بعض الجهال: «ضعها في رأس عالم واخرج منها

سالمًا»! فهو مما لا يُعوّل عليه؛ فأنت ـ كما سبق ـ لا تفعل هذا في شأن الأمراض؛ فلا تضعها في «رأس طبيب» وتقول: «أخرج منها سالـمًا»!

الحقيقة التي لا بد أن تُحفر في القلوب حفرًا: هي أن وظيفة العبد: السعي في الوصول إلى ما يحبه الله، وأما العلماء فمجرد وسائل للوصول إلى هذه الغاية.

فإن قال قائل: ما تقولون في قول رسول الله ﷺ: «استفتِ قلبك» [مسند أحمد ١٨٠٠٦]؟

فالجواب: أن هذا الحديث ـ إن صحّ ـ يتعلق بالقلوب المعمورة بالتقوى والإيمان، وليس كل أحدٍ كذلك؛ فالقلب المعمور بالتقوى والإيمان، إذا تساوت الأمور عنده فليستفتِ قلبه فلعله يدلُّه على الصواب، ولذا ليس الأمر مفتوحًا على مصراعيه(١).

وقفة مع مقولة: لا إنكار في مسائل الخلاف

هذه الجُملة ليست آيةً ولا حديثًا ولا أثرًا عن أحدٍ من السلف، إنما يذكرها بعض أهل العلم ومرادهم خلاف ما يُفهم من عمومها، وعليه: فلا بد من التفصيل فيها، وعدم حملها على محمل العموم، وهو أنه لا يُنكر في أي مسألةٍ وقع فيها خلاف؛ فالمسائل الخلافية متفاوتة، وهي في الجُملة قسمان:

القسم الاول: مسائل يسوغ فيها الخلاف، وهي التي تُسمى: المسائل الاجتهادية، وضابطها: أنها المسائل التي خفيت فيها الأدلة، أو تعارضت في الظاهر.

---

(١) انظر ما قرره القرطبي من هذا المعنى في كتابه المفهم (٤/ ٤٩٢).

القسم الثاني: المسائل التي لا يسوغ فيها الخلاف، وهي التي بخلاف ما سبق، فهي التي وقع فيها خلاف مع كونه قد ثبت فيها دليلٌ صحيحٌ صريحٌ سالمٌ عن المعارض.

فهذه المسائل: الخلاف فيها غير معتبر، والعالِم الذي أخطأ فيها معذورٌ إن شاء الله لأنه اجتهد ولم يتعمد الخطأ، لكن ليس لمن بَعده أن يتابعه على خطئه، وليس لنا أن نجعل خطأه حجةً على الشريعة، فهذه المسائل يُنكر فيها على المخالف بلا ريب، لأن ما خالف الدليل الشرعي باطل، والباطل يُنكر.

أمّا القسم الأول (المسائل الاجتهادية) فهذه لا إنكار فيها، ولم يزل الصحابة والتابعون وأئمة الهدى يختلفون فيها، ولم يعب فيها أحدٌ منهم على أحد، ولم يطعن عليه فيها، ومن أمثلة ذلك:

ما قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام أحمد: (كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا ما يُعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة، ومأخذهم في أقوالهم، فلا يوافقهم في قولهم ولا ينكر عليهم أقوالهم ولا استدلالهم، وإن لم يكن هو موافقًا على ذلك كله) [مجموع رسائله (٢/ ٤٠٥)].

وهذه المسائل سبب عدم الإنكار فيها: أنه لا يُقطع فيها بخطأ المخالف، والإنكار إنما يسوغ عند القطع بالخطأ.

مع ملاحظة أن الإنكار المنفي هُنا هو العيب، أو التوبيخ، أو التعنيف أو ما شابه ذلك، لكن يبقى باب المناصحة والمباحثة العلمية والمناظرة بالحجج الشرعية فيها مفتوحًا، والله تعالى أعلم.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي من كان عنده رغبة في الاستفادة أن يرجع إلى هذه الرسالة النافعة:

«رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسيجد ـ بتوفيق الله ـ فائدةً عظيمة.

الفصل العشرون

حاجتنا إلى الدين

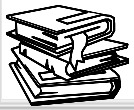

سؤالٌ في غاية الأهمية: هل الدين الصحيح لنا ـ أفرادًا ومجتمعات ـ له حاجةٌ ماسة؟

هل هو ضرورةٌ في وجودنا؟ أم هو شيءٌ ثانويٌّ تكميلي، ليس له كبير شأنٍ في هذه الحياة، وقبله أولويات هي أهم منه؟

أهمية الإجابة عن هذا السؤال تظهر من وجهين:

أولًا: أن ثمة شُبهًا تُطرح في أوساط الشباب الذين يرتادون وسائل التواصل وغيرها، فيقال لهم: الدين فضلةٌ في حياتنا! وليس شيئًا أصيلًا، بل ربما غُمز فيه من قناةٍ؛ فزعموا أنه عائقٌ أمام التقدم والتمتع بمباهج الحياة.

وليس يخفى أن التيارات اللادينية تعمل اليوم على قدمٍ وساق.

ثانيًا: أنه بمعرفة الجواب السديد نستشعر عظيم فضل الله علينا بنعمة الهداية إلى هذا الدين القويم، ونزداد تمسكًا به ودعوةً إليه.

فطرية التدين:

التدين فطرةٌ في الإنسان، وهو غريزة متجذرة فيه، شأنها كشأن بقية الغرائز، كحبِّ الطعام والشراب والبقاء، وأيُّ مخالفة لفطرة التدين هي شذوذ وانحراف عن الفطرة السوية.

ومن الطريف أن بعضهم ذكر أن التعريف الأدقَّ للإنسان ـ على طريقة المناطقة ـ ليس أنه «حيوانٌ ناطق»، بل أنه «حيوانٌ متدين»؛ فالتدين هو الصفة الذاتية التي تميزه عن غيره.

ومن الثابت تاريخيًّا أنه لم تخلُ مدينةٌ أو حاضرةٌ بشرية من معبد

يتعبد فيه أهل تلك الحاضرة، فالدين صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية، وصدق ربنا سبحانه إذ قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠].

إن التدين في الإنسان ليس شيئًا مصطنعًا، ولا مخترعًا، ولا طارئًا، إنما هو طبيعةٌ حقيقيةٌ ثابتة، ولعلّي أشير هنا إلى دراسة حديثة تزيدنا ـ معشر المسلمين ـ معرفةً بما هو معروف، وهي الدراسة التي أجراها البروفسور (جستون باريت) مع زميله البروفسور (روجر تريج) ـ كلاهما كانا يعملان في جامعة أكسفورد ـ حيث قادا مشروعًا علميًّا ضخمًا مع سبعةٍ وخمسين باحثًا من عشرين دولة، عن فطرية الإيمان، فكانت نتيجة بحثهم: أن التدين حقيقة مشتركة في طبيعة الإنسان في المجتمعات المختلفة، والدراسة مشهورة باللغة الإنجليزية، ويمكن الاطلاع على نبئها في الشبكة.

والبروفسور (بارت) المذكور آنفًا هو بالمناسبة متخصص في «علم نفس الأطفال»، وألّف كتابًا مشهورًا ـ وهو مطبوع مترجمًا باللغة العربية ـ عنوانه: «فطرية الإيمان، كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله»، وقد دوَّن في هذا الكتاب خلاصة تجاربه العلمية خلال عشرين سنة، وهي: أن الأطفال يولدون مفطورين على الإيمان بالخالق سبحانه.

وقد فند في كتابه هذا شبهة القائلين بأن إيمان الأطفال سببه تلقين الوالدين، والواقع أن الإيمان بالله سبحانه فطرة وليس نتاج تلقين، وذكر في هذا بعض الشواهد والقصص التي مرّت به.

الخلاصة: التديُّن في الإنسان شيءٌ أصيلٌ عالمي؛ أصيلٌ فيه: أي هو متجذر في أعماقه منذ ولادته، وعالميٌّ: يشترك فيه جميع البشر.

وقبل أن نسترسل لا بد أن نضع الأمور في نصابها، فالدين الذي سنتحدث عنه هو الإسلام؛ الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، هذا هو الدين الحق بعقيدته الصافية، وشريعته العادلة، ونظامه الشامل، وأخلاقه السامية، أمّا الأديان المحرفة والمنسوخة ـ كاليهودية والنصرانية ـ، أو الوثنية ـ كالبوذية والهندوسية ـ فليست من موضوعنا لا في قبيلٍ ولا في دبير.

منكرو فطرية التدين:

تموج الساحة اليوم بتيارات لادينية كثيرة تدَّعي الاستغناء عن الدين، وأبرزها وأكثرها حضورًا اليوم هو الاتجاه الإنساني، حيث يزعم هذا الاتجاه أن الإنسان قد بلغ درجةً عاليةً من العلم والرشد حتى أضحى سيد نفسه وحاكم ذاته، وأنه قادرٌ على تسيير شؤونه وحل مشاكله من غير احتياج إلى أي أحدٍ خارجٍ عن نطاق إنسانيته، فهو الذي يرسم مستقبله، وهو الذي يحدد مصيره، إذ قد وصل إلى قدرٍ من الرشد في كل الميادين! والعقل الإنسانيُّ ـ في زعمهم ـ هو مركز السيادة، ولا بد أن تكون له الأولوية المطلقة.

ويرى هذا التيار أن أيَّ خضوع من الإنسان لسلطةٍ أعلى منه هو في حقيقته تحقيرٌ لشأنه، وإنزالٌ له من عالي منزلته؛ وعليه: فارتقاؤه لا يكون إلا بالاستقلالية الذاتية، وهي في حقيقتها: نوعٌ من تأليه الإنسان.

هذا الاتجاه برز بقوةٍ في القرن الثامن عشر الميلادي، وازداد غلوًّا في القرن التاسع عشر، واستمر إلى يومنا هذا، خلاصة هذا المذهب:

استقلال الإنسان، واستغناؤه عن الوحي، وأن العقل البشري ـ في زعمهم ـ بديلٌ عن التشريع الإلهي.

والسؤال المفترض: هل حققت النزعة الإنسانية ما تزعم من الرقي بالإنسان والسمو به؟

الجواب: بالتأكيد لا؛ بل إنها أوقعت الإنسان في كمٍّ كبيرٍ من الأزمات، وانحرفت بحياته إلى حُفرٍ عميقةٍ من المشكلات، وأحاطت حياته بركامٍ كبير من الصعوبات، وهل كان يُنتظر سوى هذا؟!

إن العقل البشري أضعف من أن يستقلَّ بالمعرفة، وأن يحيط علمًا بكلِّ شيء، وهؤلاء قد جمعوا بين المبالغة في تعظيم الإنسان، وكونهم ما قدروا الله حق قدره، وما عظموه حق تعظيمه ﷻ.

أول خطيئة وقع فيها القوم: هي أنّ هذا الاتجاه للنزعة الإلحادية قد انتهك حرمة الإنسان وتميزه، مع زعمهم أنهم يرفعون من مكانته! والسبب: أنه إذا انتفى وجود الله تعالى انتفى وجود الإنسان! وأعني: انتفى وجوده الحقيقي الذي جعله الله عليه، وهو كونه مخلوقًا مكرمًا متميزًا عن جميع المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فبمقتضى هذا المذهب: الإنسان مجرد حيوان لا ميزة له ولا تقدير، شأنه شأن أي حيوان، بل شأنه شأن أي دودة أو حشرة أو بكتيريا سواءً بسواء! وله من الحقوق مثل ما لتلك الحشرات سواءً بسواء! لأن الكائنات الحية ـ جميعًا ـ متساويةٌ في القيمة، متساويةٌ في الحقوق.

وبمقتضى هذا المذهب: الإنسان جزءٌ من المادة كغيره من أجزائها، ليس له أي مضمونٍ قيمي أو أخلاقي، إذ أي قيمة لكتلة من الذرات المادية التي وجدت صدفة!

ليست حياة الإنسان ـ في لازم قولهم ـ بأغلى من حياة قردٍ أو نملة، ولا قيمته بأعظم قيمة من فيروس من الفيروسات! فالكل في اعتقادهم نتيجة صدفة عمياء لا أقل ولا أكثر.

الخطيئة الثانية: أين الرقي الإنساني؟ أين المشاعر النبيلة؟ أين السلوك المستقيم؟ أين العقيدة؟ أين الأخلاق؟ أين القيم؟ لا وجود لشيءٍ من هذا في ضوء هذا التيار الإنساني.

فالإنسان مجرد حيوان، وإن شئت فقل: مجرد آلةٍ؛ وُجدت بلا قصد، وتزول بلا هدف، ولا شيء وراء هذا!

لقد نحرت النزعة الإنسانية الأخلاقَ والقيم؛ لأنه لا وجود للأخلاق المطلقة بلا دين، فإنكار الدين: إنكارٌ للأخلاق المطلقة، وعلى هذا: فلا فرق بين الصدق والكذب، بين الأمانة والخيانة، ولا وجود لقيم مطلقة يمكن من خلالها أن نحكم بصوابٍ أو خطأ؛ فأين المعيار الذي يفرق بين أبشع جريمة وأفضل خلق؟!

الخطيئة الثالثة: أنها أدخلت البشرية في نفق العدمية المحضة، فإنه إذا انتفى الدين الحق انتفى معنى الحياة وانتفى هدفها، ولم يعد لأي شيءٍ أيُّ معنى!

في ضوء المذهب الإنساني: لا وجود لمعنًى عميق في الحياة الإنسانية، فنحن نعيش ونموت ونفنى، هكذا باختصار!

عدمٌ وعبث مغلفٌ بظلمةٍ وحيرة، بلا أملٍ ولا هدف، والإنسان ـ في أحسن أحواله ـ سيعيش حياةً يتساوى فيها مع البهيمة، يأكل ويشرب

ويبحث عن قضاء وطره ثم يموت، وينتهي كل شيء.. عدمية قاسية ومتاهة بائسة!

الخلاصة: إن أي تيارٍ يرفع شعار الاستغناء عن الدين، فإنه يؤصل لضياع الإنسانية، بل يحكم بموتها، لأنه يحطم كلَّ مبدأ، وينسف كل قيمة.

إنه في ضوء هذه التيارات اللادينية ستتحول البشرية إلى دمارٍ أخلاقي، وضياع قيمي، وجفاف روحي، وتفتت مجتمعي.

والحقيقة الناصعة بعد هذا كله: أن الإيمان بالله والتمسك بالدين الحق هو الأساس.. هو الأساس في تحقيق المعنى الوجودي للإنسان في هذه الحياة.

حاجة الإنسان إلى الدين الحق:

أولًا: حاجتنا للدين أعظم من حاجتنا إلى الشمس وضيائها، بل أعظم من حاجتنا إلى الطعام والشراب، بل أعظم من حاجتنا إلى الهواء.

حاجتنا إلى الدين أولًا وقبل كلّ شيء هي في كوننا نطلب الهداية والسعادة، هاتان أعظم الحاجات على الإطلاق، وهما ملتصقتان بالدين لا تنفكان عنه، وهذا المعنى لخّصه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]، ومثله قوله سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٨].

الدين الحق ـ دين الإسلام ـ: انتقالٌ من الظلام إلى النور، من التشتُّت إلى الطمأنينة، من الحيرة إلى اليقين، ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ

لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

هذا الدين العظيم كله صلاح وإصلاح؛ دفعٌ للشرور، وحلٌّ لجميع المشكلات، بدونه ليس ثمة غاية تُرجى، ولا نهاية تُطلب.

هذا الدين يهدي للتي هي أقوم.

هذا الدين صدقٌ في الأخبار، وعدلٌ في الأحكام.

إنه أحسن الشرائع وأعدل المناهج.

لن نستكمل إنسانيتنا، ولن تتحقق لنا السعادة، ولن ننعم بالاستقرار إلا بالتدين به.

الدين الحق يعني وجود الإنسان، بل إنه يعني كل شيء، وأُعيد: كل شيء.

ثانيًا: نحن بحاجةٍ إلى الدين في شعورنا ـ نحن البشر ـ بقَدْرنا ومعنى وجودنا.

النظرة الإسلامية للإنسان هي أنه مخلوق أرقى من غيره، اختاره الله وكرمه وميزه وجعله محلَّ التكليف، هو مخلوق مخصوص خُلق لغايةٍ مخصوصة، وسُخر له كلُّ شيء، ووجب الحفاظ على ضرورياته.

للإنسان في ظلال الإسلام قدْرٌ رفيع، ولوجوده معنى سامٍ، وحياته أهمُّ من حياة غيره.

ثالثًا: أعظم حاجةٍ لنا في هذا الدين الحقِّ هي كونه يجيب لنا عن

الأسئلة الوجودية الكبرى: من أوجدني؟ لماذا أوجدني؟ ماذا بعد هذا الوجود؟

هذه قضية مؤرقة لكلّ عاقل؛ تشغل ذهنه، وتُلح عليه بالإجابة، ومهما تشاغل عنها فلا بد أن تبرز أمامه في بعض الأوقات تستحثه على الجواب المقنع لتروي النفسُ ظمأها في معرفة حقيقة الوجود: **من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟**

لا أكتمك سرًّا ـ أيها القارئ الكريم ـ أنني طرحت هذه الأسئلة الوجودية الثلاثة على عددٍ من الكفار الذين قابلتهم في أقطارٍ مختلفة، ولا أحتاج أن أحدثك عن الحيرة والدهشة والسكوت المطبق الذي كان منهم جوابًا على سؤالي! أناسٌ كبار مثقفون يقفون حائرين أمام أهم قضية فكرية في حياتهم، بينما أصغر طفلٍ من المسلمين ينطلق في الجواب السديد ولا يتلعثم! فديننا أبان لنا كل شيء، وصارت الأمور في أعيننا وأمام قلوبنا واضحة:

السؤال الأول: مَن أوجدني؟ الدِّين الحق أبان عن معرفة الخالق سبحانه، وعن حقه علينا.

السؤال الثاني: لماذا أوجدني؟ أجاب الدين الحقُّ عن هذا السؤال، وأفصح عن الحكمة من وجودنا، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: ٥٦]، فأكسبنا: الأمنَ النفسي.

لقد صار بهذا الجواب للحياة هدف وقيمة.

لقد حرّر هذا الجواب العقل من الخرافات.

السؤال الثالث: ماذا بعد هذا الوجود؟ أبان الدين الحق عن المصير،

عن الدار الآخرة، عن دار الجزاء، فأكسبنا الصبر في هذه الحياة، وأعطانا الطمأنينة، وبثَّ في نفوسنا الأمل، وحثنا على التشمير.

لقد أقام في نفوسنا رقابةً ذاتية تدفع إلى الخير وتُحذّر من الشر.

رابعًا: نحن بحاجة إلى هذا الدين في إشباع نهمة العقل؛ فالعقل يتطلع إلى معرفة كلِّ ما يحيط به، إلى معرفة الغيب الماضي واللاحق؛ فيُلبّي هذا الدين هذا التطلع، ويشبع هذه الرغبة، ويقدم التفسير الصحيح لكل ذلك.

إنه يمنح الأجوبة الكاملة لكلِّ ما يتوق الإنسان إلى معرفته، ولكل ما تنفعه معرفته.

الدين الحق غذاءٌ ضروريٌّ لتنمية العقل وإرشاده إلى التفكير السديد، والعلمُ الحديث لا يسعفه في هذا؛ لأنها أمور لا تخضع للتجربة.

خامسًا: نحن بحاجة إلى الدين لتكريم العقل وإبعاده عن السخافات والخرافات والأساطير، فقد وجّههُ لعبادة الله العظيم المستحق للعبادة، وليس لعبادة الشجر والحجر والبقر والفئران!

لقد كرم الله ﷻ هذا الإنسان بهذا الدين، ففتح له آفاق التفكر والتأمل في الآيات المتلوة وفي الآيات المشاهدة.

سادسًا: حاجتنا إلى الدين حاجة ماسة لتغذيتنا بالعواطف السامية من المحبة والحياء والتواضع والعفو ونحوها.

إنك ـ مهما بحثت ـ فلن تجدها بصورتها المثالية إلَّا في هذا الدين الحق.

سابعًا: حاجتنا إلى الدين حاجة ماسة في تهذيب النفس، حيث عوّدها على مقاومة النزعات الزائفة والأهواء الفاسدة، كما كبح جماح ثورتها في حالتي الفرح والغضب، وأمدَّها بأنجع الوسائل لمقاومة التردد والقنوط.

ثامنًا: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين لمعالجة جميع الأمراض النفسية من القلق واليأس والخوف والوسوسة والشكّ وسوء الظن.

إن العالم يئنُّ تحت وطأة لهيبها، ويتخبط بحثًا عن العلاج، و«الوصفة العلاجية» الناجعة ـ لو أبصر الحائرون ـ موجودة في الإسلام!

تاسعًا: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين لمنح النفس هدوءها وطمأنينتها واستقرارها.

إن المتدين بالإسلام يوقن أن كل شيءٍ من عند الله، فهو راضٍ في حالتي السراء والضراء.

وإن نزل به بلاء وكانت له حيلة صالحة في دفعه لم يعجز، وإن لم تكن له حيلة لم يجزع.

عاشرًا: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين غذاءً روحيًّا لنا؛ فالدين هو غذاء الروح ودواؤها وأنسها وجنتها، وعبادته وأذكاره تقرب القلب من الرب فيأنس وينعم.

هذا الغذاء يمنحه القوة فيتحرر من قيود الذلّ والجبن، ويبعث فيه العزة والكرامة والأنفة من الخضوع لغير الله.

حادي عشر: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين لمواجهة مصاعب الحياة، وتخطّي العقبات، فالإيمان بالربوبية، والإيمان بالقدر، والإيمان بأسماء

الله وصفاته: سلاحٌ للمؤمن عظيم، لا يقف أمامه عقبة في هذه الحياة مهما بلغت مشقتها.

ثاني عشر: نحن بحاجة إلى هذا الدين القويم لإقامة التوازن العادل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، بين العمل في الدنيا والعمل للآخرة، ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القَصَص: ٧٧].

ثالث عشر: نحن بحاجة إلى هذا الدين لرعاية أجسامنا الرعاية الصحيحة؛ نظافةً وطهارةً وقوةً.

لقد منع هذا الدين الإنسان من كلِّ ما يضر، وحذَّر من أسباب الأمراض، ودعا إلى التداوي، وحثّ على الاعتدال في الطعام والشراب، وفتح باب الرُّخَص الشرعية، ونظّم الغرائز.

رابع عشر: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين لنعرف أنفسنا معرفة صحيحة، ولنعرف الكون من حولنا.

خامس عشر: نحن بحاجة إلى هذا الدين في توجيهنا، وقد وجدناه يوجهنا إلى كلِّ نافع ويحذرنا من كلِّ ضار، ويأمرنا بتقديم ما ترجحت مصلحته ودفع ما ترجحت مفسدته.

سادس عشر: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين لأننا في طبيعتنا ضعفاء نحتاج إلى ركن نأوي إليه، وسندٍ نعتمد عليه، والدين الصحيح: عقيدة في الله، وعبادة وخضوع له، وأنسٌ به.

إذن سنجد في الدِّين: القوة عند الضعف، والأمل عند اليأس، والرجاء عند الخوف، والصبر عند البأس.

وهذا والله لا يغني عنه مالٌ ولا ملذاتٌ ولا عقلٌ ولا فلسفة.

سابع عشر: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين الحق لأنه مصدر القيم والآداب والسلوك والأخلاق، منه يستمد الإنسان قيمه ومبادئه، وبدونه تنقلب الحياة إلى غابة موحشة.

ثامن عشر: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين لأننا بحاجةٍ إلى أن يكون لنا هدف أسمى في هذه الحياة، نسعى له ونحفد، ونصبح ونمسي وهو لا يغادر دائرة اهتمامنا، وبدونه سيغيب المعنى ويختفي الهدف، فتُظلم الحياة.

تاسع عشر: لو لم يكن في هذا الدين الصحيح إلّا أنه يغرس فينا الإيمان بالقدر الذي به تضيء الحياة، وتزول منها في أعيننا القتامة والظلمة، ويُغرس فينا الأمل والصبر، لو لم يكن إلا هذا لكفى، فما أجمل أن يعيش الإنسان في هذه الحياة وأمام ناظره وفي سويداء قلبه هذا الدستور العظيم: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد].

العشرون: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين لأن حاجة المجتمعات لا تقلُّ عن حاجة الأفراد، ونحن بحاجة إلى الاجتماع والألفة، والدين الحق هو مؤلف القلوب المشتتة والأهواء المتفرقة.

إننا بحاجة إلى هذا الدين القويم في إقامة الروابط القوية بين أفراده، لا سيما الروابط المعنوية والأخلاقية كالتراحم والتعاطف والتكافل والمحبة والتعاون والتناصح، ولا قيام لمجتمع فاضل إلا بهذا، ولا قيام لهذا إلَّا بالدين القويم.

أمّا عن إقامة الروابط القوية بين أفراد المجتمع الصغير ـ الأسرة ـ فحدِّث ولا حرج، فلا غنى لأي أسرة عن تشريع الدين الحق في شؤونها كلها، من حقوق الزوجين، وتربية الأبناء، والنفقة، والتكافل، والميراث، والوصية، وغيرها.

الواحد والعشرون: نحن بحاجة إلى هذا الدين لأننا بحاجة إلى ضوابط تحكم العلاقات بين جميع الأفراد من سائر الأطياف مع تحديد الواجبات والحقوق، ثم أن ينهض المجتمع بها بباعث داخلي ووازع ذاتي، وهذا شيءٌ لا تُسعف فيه كافة الأنظمة وجميع القوانين.

الثاني والعشرون: نحن بحاجةٍ إلى هذا الدين لأننا بحاجة إلى مجتمعٍ متوحدٍ متماسك قوي الروابط، يحافظ على مقوماته، ويصونه من الاضمحلال والذوبان.

الثالث والعشرون: نحن بحاجة إلى عدلٍ يضع الأمور في نصابها، ويزيل غياهب الظلم، وهذا ما تضمّنه الدين الحق.

الرابع والعشرون: نحن بحاجة إلى الدين في بسط الأمن، والدين الحق أعظم سلطان وأكبر وازع، ولا يغني عنه أي سلطة أو قوة.

الدين رقيبٌ ذاتي داخلي، والمتدين الصادق يستشعر مراقبة الله له في السرِّ والعلن، فيرتدع عن اتخاذ أي خطوة نحو غشٍّ أو أذيةٍ أو ظلمٍ أو اعتداء.

🕮 الثمرات التي ينعم بها من يتدين بدين الإسلام:

لن نصل إلى ذروة التنعم بهذه الهبة العظيمة التي منَّ الله ﷻ بها علينا وهي هذا الدين القويم إلَّا بستة شروط:

الشرط الأول: أن نتعلَّمه تعلمًا وافيًا مفصلًا، عقيدةً وعبادةً، أحكامًا وأخلاقًا، فمسلمون لا يعرفون دينهم معرفةً صحيحةً تفصيلية: مسلمون ناقصون.

الشرط الثاني: أن نؤمن بكلِّ ما جاء به هذا الدين القويم، فلا يؤخذ بعضه ويُترك بعضه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨].

الشرط الثالث: أن نجتهد في تطبيقه وأخذ أنفسنا بأحكامه قدر الاستطاعة.

الشرط الرابع: أن نحذر من كلِّ ما يضادُّه أو يضعف التمسك به من شرك وكفر وبدع ومنكرات، حينها سنكون في سعادةٍ بهذا الدين غامرة، بل في جنةٍ مُعجَّلة.

الشرط الخامس: أن نجعل له الأولوية والصدارة في حياتنا وأوقاتنا، وفي سلَّم اهتماماتنا، فالدين أولًا، وكلُّ شيءٍ يأتي بعده.

الشرط السادس: أن نستشعر قدْر هذه النعمة، وأن نشكرها حق شكرها بالقلب واللسان والجوارح.

ومما يعين على استشعار هذه النعمة: التأمل في حال من هو فاقدٌ لها أو من كان فاقدًا لها ثم وهبه الله ﷻ إياها ـ أي أسلم بعد كفر ـ تأمل في ماضيه وحاضره، وستدرك أنك في نعمة لا توازيها نعمة.

إن من الإشكالات الكبرى اليوم: أن من أبناء المسلمين وشبابهم من لا يستشعر هذه النعمة العظمى التي حبانا الله إياها:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

تدري ما يعني أن تكون مسلمًا؟ إنه يعني كلّ شيء، يعني أنك

الفائز، أنك السعيد، أنك المطمئن المتيقن العزيز، رؤيتك واضحة، قلبك سليم، روحك قوية، نفسك مطمئنة، حيزت لك السعادة بحذافيرها، الأمل والسرور والنجاة، كُل تلك قد وفقك الله ﷻ إليها.

ومع كل هذا فلم يفُتْكَ شيءٌ في هذه الحياة؛ بل حياتك أكثر تألقًا وتفاؤلًا وتنظيمًا، وإن ثبتَّ عليه إلى أن تغادر هذه الحياة: فزت بالسعادتين، ونجحت في الدارين، العاجلة والآجلة.

ختامًا: لنعلم أن من سنَّة الله ﷻ في خلقه، أن النعمة إذا لم تُشكر أُبدلت بضدِّها، فنعمة الأمن إذا لم تُشكر أُبدلت بالخوف، ونعمة الرزق إذا لم تُشكر أُبدلت بالجوع، وكذلك نعمة الدِّين إذا لم تُشكر أُبدلت بالكفر ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محَمَّد: ٣٨].

ولنعلم أن الإسلام أعز ممن ينتمي إليه، فإذا لم يجد أناسًا يعرفون قدر نعمة الله عليهم به، ويعضُّون عليه بالنواجذ، ويرونه غنيمة ادَّخرها الله لهم؛ فسوف يرتحل عنهم إلى غيرهم، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤].

لزيادة الفائدة

۞ أوصيك أيها الكريم بأمرين:

١ ـ قراءة كتيب صغير أوصيت به سابقًا، وأكرر الوصية به لأنه مهم، عنوانه: «الدين الصحيح يحل جميع المشاكل»، للشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢ ـ أتمنى أن يتفضل القارئ الكريم بمراجعة الفصل السابع من هذا الكتاب؛ ففيه ذكر البرهان السادس من براهين نبوة النبي ﷺ ألا وهو: «كمال الشريعة ومحاسنها»، وبالجمع بين ما جاء في هذا الفصل وذاك تزيد الفائدة وتتكامل إن شاء الله.

الفصل الحادي والعشرون

حقوق السُّنة على الأمة

يراد بالسُّنة في حديثنا هنا: كلُّ ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

فهي على هذا مرادفة للحديث.

وليس مرادُنا الإطلاقاتِ المستعملة في سياقات أخرى، كالسنة التي بمعنى المستحب، أو السُّنة بمعنى الاعتقاد كما يعبر علماء الاعتقاد.

🕮 ثمراتُ اتباع السنة

لقد بعث الله جل وعلا خليله محمدًا ﷺ إلى الناس رسولًا، وجعله إلى جِنانه دليلًا، فبلّغ عنه رسالاته، وبيّن المراد من آياته، فكان في لزوم سنته تمامُ السلامة وجِماع الكرامة.

فمن لزم السُّنة عُصم، ومن خالفها ندم؛ إذ هي الحصن الحصين والركن الركين، من تمسَّك بها ساد ومن رام خلافها باد، والمتعلقون بها أهل السعادة في الآجل، والمغبوطون بين الأنام في العاجل.

ثمرات متابعته ﷺ ثمراتٌ عظيمة، فكل من اتبعه فالله كافيه، وهاديه، وناصره، ورازقه.

من أراد أن يكون من الفائزين فعليه باتباع السُّنة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النُّور: ٥٢].

ومن أراد رحمة الله فعليه باتباع السُّنة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٢].

ومن أراد الهداية والتوفيق فليتَّبع السُّنة ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ﴾ [النُّور: ٥٤]، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٥٨].

ومن **أراد** بلوغ الصراط المستقيم فعليه باتباع السُّنة ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣].

ومن **أراد** النجاة والجنة فليلزم السُّنة، قال النبي ﷺ: «**كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلاَّ من أبى**» قالوا: ومَن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى**» [البخاري ٧٢٨٠].

قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السُّنَّةُ سَفِينَةُ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ». [ذم الكلام للهروي (٥/ ٨١)].

ومن أراد محبة الله فليبادر إلى طاعة رسوله ﷺ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ٣١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وصدَّقته خبرًا، وأطعته أمرًا، وأجبته دعوةً، وآثرته طوعًا، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعنَّ!» [المدارج (٣/ ٣٩)].

هذه بعض ثمرات متابعة السُّنة والالتزام بها، وإلا فالمقام يقتضي كلامًا أكثر من هذا بكثير.

وأنبِّه هنا إلى أننا إذا تكلمنا عن ثمرات الالتزام بالسُّنة فلا نعني الالتزام بالسُّنة مع إهمال القرآن، بل القرآن والسنة شقيقان، وكلاهما وحي من الله، فالمراد إذن: الالتزامُ بالسُّنة مع القرآن.

🕮 حقوق السُّنة على الأمة

أولًا: محبتها: من أعظم حقوق السُّنة علينا معشر الأمة المحمدية: محبةُ كلِّ ما يضاف إلى النبي ﷺ.

يجب ـ وجوبًا ـ أن تحبَّ كلَّ سنة سنَّها عليه الصلاة والسلام، وهذا فرع عن صادق حبك له، فإنه القائل ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» [البخاري ١٥، ومسلم ٤٤]. فعلامة محبة النبي ﷺ محبةُ سنته؛ فإذا أردت أن تعرف صدق محبتك للنبي ﷺ فامتحنها بهذا الامتحان الدقيق: فإذا رأيتها تحبُّ كلَّ شيء يمت إليه بصلة: فأبشر بالخير واطمئن، وإلَّا فأعد النظر في حالك.

ومن نظر في حال الصحابة رضي الله عنهم، أولئك المحبين الصادقين للنبي ﷺ وسنته رأى عجبًا؛ حتى إنهم أضحوا يحبون الأمور العادية التي كان يفعلها أو يحبها ﷺ؛ فعن أنس رضي الله عنه أن خياطًا دعا النبي ﷺ فقدم له طعامًا كان فيه دُبّاء، قال: (فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدُّبّاء من حوالَي الصحفة، فلم أزل أحب الدُبّاء من يومئذ) [البخاري ٢٠٩٢، ومسلم ٢٠٤١].

وإذا علمنا هذا؛ فحذار من بغض شيء مما جاءت به سنة النبي ﷺ كما يقع مِن بعض المخذولين؛ فلربما وجدتهم يكرهون أو يتقززون من شيءٍ سنّه رسول الله ﷺ، لأنه يخالف أهواءهم، وما علموا أنهم وقعوا في حُفرة هلكة؛ فقد قال أهل العلم: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ أو عمل به: كفر إجماعًا، والدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمَّد: ٩].

فوطّن نفسك على محبة السُّنة، حتى لو كنت مقصرًا!

حتى لو قصرت في اتباع السنة؛ فالواجب عليك أن تحبها وتجلّها، وهذه قضية عقدية لا تغفل عنها، فمثلًا: إعفاء اللحية جاءت به السُّنة فعلًا وأمرًا، ومن حلق لحيته فهو مقصّر واقع في معصية، ومع ذلك

فيجب عليه أن يحبَّ إعفاء اللحية، وإذا رأى إعفاء اللحية في الناس فرح بذلك، لأن هذه سنة النبي ﷺ، وهو يحبه ويحب سنته، هذا قدر لا تهاون فيه!

كما جاءت السُّنة بحجاب المرأة، فالمتبرجة مقصرة عاصية، ومع ذلك فواجب أن تحبَّ المتبرجة الحجاب وتعظمه، لأنه قد جاء في السنة، وهكذا.

المشكلة هنا: أنه مع إلف التقصير في اتباع السنن النبوية واعتيادِ ذلك لربما تنشأ في النفس ـ عياذًا بالله ـ كراهية لها، وعدم ارتياح لرؤيتها، وهنا مكمن الخطر!

فإذا قصّرت في اتباع السُّنة فحذارِ أن تجمع إلى هذا ذنبًا أعظمَ قد يعصف بإيمانك، وهو أن تكرهها.

ثانيًا: تعظيم السُّنة وإجلالها والنظر إليها بعين التكريم والتشريف.

هذا حقٌّ من حقوق السُّنة علينا معشر المسلمين.

السنة مُشرّفة لأنها وحي من عند الله، السُّنة معظمة لأنها هدي الرسول الأمين ﷺ.

وتعظيم السُّنة فرعٌ عن تعظيم صاحبها ﷺ، إذ يجب تعظيمه وتوقيره، وأن يُعامَل من التشريف والتكريم بما يليق به ﷺ، قال ربنا سبحانه: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وما ألطف ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا كانت البهائم

والجمادات تعظّم رسول الله ﷺ؛ فنحن أحقُّ بتعظيمه». [الرد على البكري (١/٢٨٥)].

إذن؛ متى بلغتك سُنة ثابتة عنه فعظّمها في نفسك، ومتى سمعت حديثه فأجلّه.

ومن لطيف ما يذكر هنا: قول الإمام حمادِ بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، قال: «أرى رفع الصوت عليه ﷺ بعد موته كرفع الصوت عليه في حياته، إذا قُرئ حديثه وجب عليك أن تنصت له كما تنصت للقرآن». [سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٦٠].

ويضادُّ هذا الحق: السخريةُ والاستهزاء بالسُّنة؛ وما أشنعها من وقاحة، وما أعظمه من إثم؛ فقد أجمع المسلمون على أن من استهزأ بشيء من سُنة النبي ﷺ أو حديثه فقد ارتدَّ عن دين الله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

إذن، ما يسمونها «النُّكت» إن تناولت شيئًا من السُّنة أو الأحاديث أو حامت حولها؛ فإنها تهوي بصاحبها إلى الهاوية.

نكتةٌ تَضحك أو تُضحكُ بها: ربما تبوء بسببها بسخط الله ولعنته وأنت لا تشعر، قال ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**» [متفق عليه (خ ٦٤٧٧، م ٢٩٨٨)].

فالنصيحة: إذا وصل المزاح إلى شيء يتعلق بالدين: فاحفظ لسانك، ولا تقعد مع الخائضين، واحذر خسارة دينك.

ثالثًا: اعتقاد أنها الهدايةُ كلُّ الهداية، والنورُ والصوابُ وغايةُ الكمال، ولا يمكن أن يخرج الحق عنها، وقد قال ﷺ: «**خَيْرُ الْهدي**

هدي مُحَمَّدٍ ﷺ» [صحيح مسلم (٨٦٧)]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (أَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ) [البخاري (٦٠٩٨)].

إنه لا هداية إلَّا باتباع القرآن والسنة؛ ومهما ابتغيتها في غيرهما ضللت قطعًا، وهويت إلى الهوى، وتُهت في العَماية، قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القَصَص: ٥٠]؛ فما ثَم إلَّا طريقان: الاستجابةُ للنبي ﷺ، أو اتباعُ الهوى.

وإنَّ الإنسان ليعجب من شابٍّ من أبناء المسلمين يقول: أنا حائر، لا أدري أين الحق والصواب! وربما ذهب يتطلبها في فلسفة قديمة أو حديثة، أو مناهجَ شرقيةٍ أو غربية، أو طرائقَ بدعية، والقرآن والسُّنة بين يديه!

ويصدق في هذا قول الشاعر:

ومن العجائب والعجائبُ جمةٌ قرب الدواء وما إليه وصولُ
كالعِيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

لا تتعب، ولا تتحيَّر، دونك الكتاب والسُّنة؛ ففيهما الدواء والشفاء والغَناء.

رابعًا: التسليم التامُّ لها، وتقديمها على ما عداها.

مِن حقِّ السُّنة النبوية على المسلم: التسليم التام لها؛ فمتى ما بلغته: سلّم وأذعن وأقبل، بلا تردُّد أو تشكك، واطّرح أمامها كلَّ ما عداها، هذا واجب لا خيار فيه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء: ٦٥]. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «لا رأيَ

لأحد مع سنة سَنَّها رسولُ اللَّه ﷺ». [جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٨١]، وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع المسلمون على أن مَنْ استبانت له سنةُ رسول اللَّه ﷺ؛ لم يكن له أن يَدَعَها لقول أحدٍ من الناس». [إعلام الموقعين ٢/ ١١].

ومن لطيف ما يُذكر هنا أن رجلًا سأل عبدَ الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الصلاة بمنى ـ أي: لِمَ كانت مقصورة؟ ـ فقال له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (هل سمعت بمحمد ﷺ؟!) فقال الرجل: نعم، وآمنتُ به! قال: (فإنه كان يصلي بمنى ركعتين) [مسند أحمد ٥٢٤٠]. هكذا يكون التسليم والاتباع! يكفيك أن تعلم أن النبي ﷺ كان يفعل كذا؛ ولا خيار لك حينها إلَّا أن تفعل كما فعل.

ويضادُّ هذا الحق: معاندتها، أو الاستكبار، أو الاعتراض، أو تقديم غيرها، وما أكثر هذا في هذه الأزمنة المتأخرة مع الأسف الشديد! فكم من الناس مَن إذا ذُكرت له السُّنة حكّم فيها عقله المشوّش، أو تمحَّل الأعذار الواهية لتركها!

أُفٍّ لكلِّ عقل يتعقب حكم رسول الله ﷺ، تُذكر للمخذول السُّنة فيقول: لكن العقل يخالف ذلك! أو يقول: ولكن هذا يخالف مذهبي! أو يقول: الزمان قد تغير! ولربما وجدت بعضهم في وسائل التواصل يضع تصويتًا في شيء ثبت في السنة: هل توافق على هذا أم لا توافق؛ فسبحان ربي العظيم! وهل لك خيار أن لا ترتضي السُّنة؟!

وقد سأل رجلٌ الإمام الشافعي عن مسألة، فقال له: روي عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا. فقال له السائل: يا أبا عبد الله، أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفرّ لَوْنُه وقال: «ويحك! أيُّ أرضٍ تُقلّني وأيُّ سماء تظلّني إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئًا فلم أقل به! نعم؛ على الرأس والعينين، على الرأس والعينين». [مناقب الشافعي للبيهقي ١/ ٤٧٥].

وسأله رجل عن مسألة فأفتاه، وقال: قال النبي ﷺ كذا، فقال الرجل: أتقول بهذا؟ فقال له: «أرأيت في وسطي زُنَّارًا؟ أتراني خرجت من الكنيسة؟ أقول: قال النبي ﷺ، وتقول لي: أتقول بهذا؟ أروي عن رسول الله ﷺ ولا أقول به؟!» [مناقب الشافعي للبيهقي ١/ ٤٧٤].

هذا هو موقف المسلم الصادق: الإذعان والتسليم، وربنا ﷻ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إن من أخطر الأشياء على دين المرء: أن يقابل الآية أو الحديث باعتراض أو ردّ، هذه مسألة عظيمة غير قابلة للتساهل، لأنها تتعلق بأصل الدين؛ فمن ردَّ حديثًا واستكبر عن قبوله فهو على شفا هلكة، ومن عاند السُّنة وأصرّ على تنكب طريقها قد أورد نفسه الموارد، وعرّض نفسه لأمر عظيم؛ ويكفيه أنه مُتوعّد بالعذاب الأليم، قال الله العظيم: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، وسيندب ذاك المأفون ـ إن لم يتُب ـ حظَّه يوم الدين ولا ينفعه؛ فيكون ممن بيَّن الله حاله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٧].

هذا عدا عقوبةٍ قد تحلُّ به في الدنيا قبل الآخرة، فقد قال ﷺ: «**وجُعِلَ الذِّلة والصَّغار على من خالف أمري**» [مسند أحمد ٥١١٥].

وليتأمَّل المؤمن هذه الواقعة العجيبة؛ ففي صحيح مسلم [(٢٠٢١)]: «أن رجلًا أكل بشماله؛ فقال له النبي ﷺ: «**كُل بيمينك**» فاستكبر عن

الأمر وقال: لا أستطيع؛ فقال ﷺ: «**لا استطعت، ما منعه إلا الكِبْر**» قال الراوي: فما رفعها إلى فيه» [فمه]؛ أي شُلّت يده! عياذًا بالله.

خامسًا: الاستجابةُ لها بلا تلكؤ، والمبادرةُ إلى تطبيقها بدقة.

من الواجب على المسلم تجاه السُّنة أن يبادر إلى الاستجابة لها؛ فإذا بلغه الأمر أطاع، وإذا بلغه النهي انتهى، وإذا بلغه الخبر صدّق، وهذا مقتضى الإيمان بالنبي ﷺ، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، وتأمل في هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ولاحظ قوله ﷻ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فهو إخبار صريح أن **الحياة الحقيقة هي التي تكون تحت ظلال السُّنة.**

الحياة الحقيقة حياةُ القلب، ولا وجود لها إلا في طاعة النبي ﷺ، وفي ضدها موت القلب.

وَلو تأمل المتأمل لوجد أن النصوص قد جاءت بتسمية الأوامر الإلهية والنبوية: عُهُودًا وَوَصَايَا، وَرَحْمَةً وَشِفَاءً، وَنُورًا وَهُدًى وَحَيَاةً.

وما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فله ﷺ حوضان عظيمان: حوضٌ في الدنيا وهو سنته وما جاء به، وحوضٌ في الآخرة، فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة؛ فشاربٌ، ومحرومٌ، ومستقلٌّ، ومستكثر... فمن ظمئ من سنته في هذه الدنيا ولم يكن له منها شِربٌ؛ فهو في الآخرة أشدُّ ظمأ وأحرُّ كبِدًا» [اجتماع الجيوش الإسلامية (٨٥)].

فليتنبه المقصر والمتكاسل في طاعة النبي الكريم ﷺ؛ فإن حياته ناقصة مظلمة!

إن من قلة التوفيق ـ بل من عدمه ـ أن يقول قائل: «الأوامر النبوية فيها ثقل ومشقة»! مع أنها ـ والله ـ قرة العيون وحياة القلوب، وكفى بالمرء جهلًا ولؤمًا أن يصفها بهذا، وَكَأَنَّه لَمْ يعْرِفْ أَنَّ الأوامر الشرعية لم تكن عبثًا، ولا لحاجة من ربه إليه، إنما المراد مَصْلَحَةُ العبد وَرَحْمَته وَسَعَادَته الْأَبَدِيَّة.

سادسًا: الاكتفاء بها، والحذرُ من الزيادة عليها.

وهذا يشمل كلَّ ابتداع وإحداث في الدين؛ فإن لسان حال المحدِث المبتدع: سنة النبي ﷺ غير كافية؛ فأنا أزيد عليها! وما يدري المسكين أنه لم يستفد إلَّا التعب والنصب، وإلا فعمله المبتدَع مردود عليه، فقد قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» [متفق عليه: خ ٢٦٩٧، م ١٧١٨]. ردٌّ: أي مردود.

وما يدري المسكين أن البدعة وإن ازدانت أمام ناظره فهي شرُّ الأمور وأقبحُها؛ ففي صحيح مسلم [(٨٦٧)] أن النبي ﷺ قال: «**شَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

فالبدعة إذن ضلالة لا هداية، وإن حسُنت في عينك، قال ابن عمر رضي الله عنهما: (كل بدعة ضلالة، وإن رآها الناس حسنة) [الإبانة لابن بطة ١/ ٣٣٩].

ويحسن ههنا إيراد أثرين عظيمين يبيّنان عظيم خطأ من لم يقنع بالسُّنة فرامَ غيرها:

الأول: عن سعيد بن المسيب ـ التابعي الجليل ـ رحمه الله؛ فإنه رأى رجلًا يكرر الصلاة بعد طلوع الفجر؛ فنهاهُ؛ فقال: يا أبا محمد: أيعذبني الله على الصلاة؟ قال: «لا، ولكن يعذبك على خلاف السُّنة!» [مصنف عبدالرزاق ٣/ ٥٢].

والمستفاد من هذه القصة أن النبي ﷺ لم يصلِّ بعد أذان الفجر إلَّا ركعتين؛ أفلا يكفي المسلم أن يتابعه ﷺ في ذلك؟! أم أنه يطمح ـ عياذًا بالله ـ إلى أن يكون أعلم أو أتقى أو أخشى لله من رسول الله ﷺ؟!

إن اتباع السُّنة الصادق يقتضي الوقوف عند حدِّها، دون زيادة عليها.

الثاني: عن الإمام مالك بن أنس ـ إمام دار الهجرة ـ رَحِمَهُ اللهُ؛ أنه أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد، فقال: لا تفعل، قال: فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر، قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة هذه؟! إنما هي أميال أزيدها، قال: «وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قَصَر عنها رسول الله ﷺ؟! ثم تلا قول الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]» [الاعتصام ١/ ١٧٤].

سابعًا: الحرص على تعلمها.

من حق السُّنة على المسلم أن يسعى في تعلمها.

إن كان للسنة في نفسك محلٌّ عليٌّ، تحبها وتجلها وتعتقد أنها طريقك إلى الجنة؛ فلأي شيء تقصّر في تعلمها، ولا تشمر في الاستزادة من معرفتها؟ ربما تقرأ في كلِّ شيء، إلَّا في كتب السنة! ما هذا العزوف القبيح؟! ينبغي أن تَجِدّ في تعلمها، وأن تتضلع منها.

احرص على أن تستزيد علمًا بها، أن تتعلَّم سنة جديدة كلَّ يوم، خذ كتابًا من الكتب التي جمعت الأحاديث الصحيحة واجتهد أن تقرأ وتتعلم، خذ «رياض الصالحين»، أو «مختصرَ صحيحِ البخاري»، أو

«مختصرَ صحيحِ مسلم» واقرأ، وعامة الأحاديث واضحة مفهومة بحمد الله، والذي يُشكل عليك اسأل عنه، وإني لك ضامن ـ بإذن الله ـ أن تجد لهذا العلم سعادة غامرة، وأثرًا حميدًا على قلبك وحياتك.

ثامنًا: حسن فهمها دون غلوٍّ أو تقصير.

من حقِّ السُّنة عليك أن تفهمها على وجهها بعد أن تتحقق من ثبوتها عن النبي ﷺ، وهذه مسألة مهمة؛ فكم من الناس من ينسب إليه ﷺ أحاديثَ وسننًا وهي غيرُ ثابتة، وهذا مما نُهي عنه؛ فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ**» [مسلم في مقدمة صحيحه ١/٨].

إذن، أول خطوة هنا هي أن تتحقق من صحة النسبة إلى النبي ﷺ، ثم أن تفهمها الفهم الصحيح الذي فهمه السلف الصالح وأئمةُ الإسلامِ الذين ساروا على نهجهم، وليس أن تفهمها كما يحلو لك، أو تطوعَها لتتناسب مع رغباتك، أو تؤولَها لتوافق هواك، كما يفعله من قلَّ حظُّه من الخير.

ومما يوصلك إلى التحقُّق من الثبوت ومن حُسن الفهم: أن تراجع أهل العلم الثقات، الذين جمعوا بين العلم بالسُّنة والفقه في الشريعة وضبط أصولها ومقاصدها.

تاسعًا: تبليغها للناس، وتعليمها من ذوي القدرة، والدعوةُ إليها.

إذا سمعت بسنَّة صحيحة فاحرص أن تبثَّها في الناس حتى يفشوَ العلم بها ويكثرَ العمل، ولك في هذا مثلُ أجر من عمِل، وقد قال ﷺ: «**نضّر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلَّغه كما سمع، فرُبّ مبلَّغ أوعى من سامع**»

[الترمذي ٢٦٥٧]. وما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتبليغ سنته ﷺ إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو» [جلاء الأفهام ٤١٥].

عاشرًا وأخيرًا: الدفاع عنها، والغضب لها والحمية.

وهذا فرعٌ عن صادق التعظيم والمحبة لها، فإن المسلم إن كان كذلك عظم عليه أن يرى أو يسمعَ من ينتهك حرمتها أو يتعدى حدودها أو يجترئ عليها، فيبذل ما يستطيع ـ بالحكمة ـ في دفع إفك المعتدين.

ونحن اليوم مع الأسف الشديد نعيش في زمن قد كثرت فيه الطعون في السنة، وتطاولت الأقزام عليها، وريشوا سهامهم القذرة تجاهها.

إن واجب المسلمين ـ حكامًا ومحكومين ـ تجاه هذا الواقع عظيمة، ومَن نصر السُّنة فليبشر؛ فإن له نصيبًا من معية الله الخاصة التي تقتضي عونه وتأييده، فقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، ونصر الرسول ﷺ اليوم هو نصر دينه وسنته.

ختامًا.. اعلم أن أعظم نصر للسُّنة وأبلغ ردٍّ على أعدائها: هو أن ننصر السُّنة في أنفسنا أولًا، أي أن نصحح علاقتنا معها، وأن نعيد ترتيب حياتنا في ضوئها، وأن نربي أبناءنا عليها، وأن نعلّمها من حولنا.

إننا إذا قلنا عن أنفسنا: «نحن من أهل السنة» فعلينا أن نكون أهلًا لهذا الوصف؛ أن نكون من أهلها واقعيًّا لا تسميةً فقط.

لنعلمْ أن كلَّ خطوة في حياتنا، وكلَّ حركة وسكنة: فيها توجيه نبوي كريم، فلنتعلم ولنطبق.

وهذا يحتاج إلى سؤال العون من الله، ثم مجاهدةِ النفس في تعلمها وتطبيقها ونشرها في الناس، ومن أُريد وُفّق!

لزيادة الفائدة

۞ أُوصيك بقراءة:

«شرح رياض الصالحين» للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، احرص على أن تقتني هذا الكتاب؛ فإنك إن فعلْت اقْتنيتَ كنزًا عظيمًا، وصيدًا ثمينًا، وستطّلع على جملة عظيمة من السُّنة النبوية مشروحة من عالِم ثقة، وبأسلوب سهل.

الفصل الثاني والعشرون

حجِّية السُّنة

الحديث عن هذا الموضوع في هذه الأيام ذو أهمية بالغة؛ فثمة حملات مركّزة ممنهجة منوّعة، تستهدف السُّنة النبوية وتشكك المسلمين فيها، فالخطب عظيم؛ لأن هذه الحملة الظالمة تمسُّ جوهر الإسلام وأساسه؛ إذ ما الإسلام إلَّا ما جاء في القرآن والسنة؟! فالمساس بالسنة طعن في صميم الإسلام.

وعِلاوة على هذا؛ فإن إنكار السُّنة أو التشكيك فيها قنطرة إلى الإلحاد والردة، لذا فإن جهود الملاحدة واللادينيين في تشويه السُّنة في أعين شباب المسلمين جهودٌ حثيثة؛ لأنه إذا سقطت حرمتها من نفوسهم سهل أزُّهم إلى هوة الإلحاد.

إذن؛ لا ينبغي بحال أن نتساهل في دفع هذا الصِّيال على أحاديث نبينا محمد ﷺ، بل يجب التصدي له بحزم؛ فإنه حراسة للدين وقيامٌ بحق الله ورسوله ﷺ، ودفعٌ لنزعة إلحادية عاتية.

وإنني في هذا المقام أدقُّ ناقوس الخطر؛ فأعداء السُّنة والطاعنون في الأحاديث النبوية يعملون اليوم على قدم وساق، ولهم وسائلهم وحساباتهم ومساحاتهم ومؤلفاتهم وفضائياتهم، وشبههم تتسرب بين أوساط عوام المسلمين، بل قد جرفت بعضهم ـ شبابًا وشيبًا ـ.

هذا واقع لا مبالغة فيه؛ فليحذر الصالحون، ولينتبه المصلحون بل وجميع المسلمين.

🕮 حجية السُّنة النبوية، وحكم من أنكرها

من المعلوم من الدين بالضرورة أن السُّنة النبوية ـ قولية كانت أم

فعلية أم تقريرية ـ: كانت ولا تزال ولن تزال حجةً قائمة بنفسها، يجب تحكيمها والرجوع إليها والتزامها والعمل بها، ولا يجوز التردُّد في الانصياع لحكمها، وأنها تثبت بها العقائد والأحكام كما تثبت بالقرآن، ويجب قبولها ولو لم ترد في القرآن، وقد قال ﷺ في حقها: «**أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**» [أخرجه أحمد (١٧١٧٣)].

كما أن السُّنة بيان للقرآن وتفسير له، ومفصِّلة لما أُجمل فيه.

وهذه الجملة محلُّ اتفاق بين الأمة جميعًا، ولا يشِذُّ عنها إلَّا زنادقة فارقوا جماعة المسلمين، واتبعوا غير سبيل المؤمنين.

وما حال هؤلاء المخذولين إلَّا كحال من يحوم حول جبل عظيم، يريد إزالته عن مكانه بحمل صغار أحجاره، أو كحال من يغترف من بحرٍ بيده؛ مريدًا تفريغه! وسيبقى الجبلُ جبلًا، والبحرُ بحرًا، وستبقى السُّنة عزيزة، وسيبقى المخذول خائبًا.

والخلاصة: أن القرآن والسُّنة شقيقان، وأصلان متلازمان، من جحد واحدًا منهما فقد جحد الآخر، وذاك كفر وضلال وخروج عن دائرة الإسلام بإجماع أهل العلم، وما أحسن ما قال السيوطي في رسالته اللطيفة «مفتاحُ الجنة في الاحتجاج بالسنة (٥)»: «فاعلموا رحمكم الله أَن من أنكر كَون حَدِيثِ النَّبِي ﷺ ـ قولًا كَانَ أَو فعلًا بِشَرْطِهِ الْمَعْرُوف فِي الْأُصُول ـ حجَّةً: كفر وَخرج عَن دَائِرَة الْإِسْلَام، وَحُشر مَعَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى، أَو مَعَ من شَاءَ الله من فرق الْكَفَرَة».

وقال ابن حزم: «لو أن امرءًا قال: لا نأخذ إلَّا ما وجدنا في القرآن: لكان كافرًا بإجماع الأمة» [الإحكام (٢/ ٨٠)].

🕮 أصناف القادحين في حجية السُّنة النبوية

إنكار السُّنة والقدح فيها مذهب قديم حديث، قد قال به ضالون من مشارب مختلفة.

فمنهم قديمًا: طوائف من الخوارج والمعتزلة والباطنية، أنكروا قدرًا كبيرًا من السُّنةِ لذرائعَ مختلفة.

ومنهم حديثًا: الملاحدة المنكرون لوجود الله تعالى، والربوبيون المنكرون للنبوة.

ومنهم: الكفار من أهل الملل، كاليهود والنصارى، تحت عباءة الاستشراق أو غيره.

ومنهم: القاديانيون والبهائيون، وأضرابُهم.

ومنهم: أعداء الصحابة الذين يردُّون السُّنة جملة بزعم أن رواتها من الصحابة كفار، وحاشاهم رضي الله عنهم.

ومنهم: أناسٌ تسمَّوا بالقرآنيين، يزعمون الاكتفاء بالقرآن والاستغناء عن السنة.

ومنهم: أصحاب مشاربَ فكريةٍ مختلفة؛ حداثيةٍ أو عقلانيةٍ أو علمانيةٍ أو ليبرالية، أو ما لفَّ لفها؛ اتخذوا السُّنة عِزِين؛ حيث ضيقوا حجيتها رضوخًا للهيمنة الفكرية الغربية ـ التي هم منهزمون تحت أقدامها ـ؛ فزعموا قبول طرف من الأحاديث ـ على كُره ـ وهو ما تعلق بالعبادات، وردُّوا طرفًا آخر وهو ما تعلق بالمعاملات والحدود وما إليها.

وكلُّ فرقة من هذه لها شُبهٌ تنفرد بها، أو تتقاطع مع غيرها، ولكلٍّ منها نقاش يخصه.

وصدق ربنا سبحانه إذ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وعلى كل حال: إن ظهور هؤلاء المنكرين يزيدنا ـ معشر المسلمين ـ إيمانًا بصدق نبينا محمد ﷺ، واستيقانًا بصحة سنَّته؛ فإن ظهورهم من أعلام سنته؛ إذ أخبر ﷺ عن بروز هذه النزعة في الأمة؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله**» [أخرجه الترمذي (٢٦٦٤)، وأبو داود (٤٦٠٤) وغيرهما].

🕮 فرقة القرآنيين:

هم طائفة ضالة تنتسب إلى الإسلام، تزعم الاكتفاء بالقرآن، وأنه المصدر الوحيد للتشريع، وتردُّ السُّنة النبوية، وتدَّعي الاستغناء عنها.

وقد أشرت آنفًا إلى أن إنكار السُّنة بدأ قديمًا على أيدي طوائفَ من الضُّلّال؛ وهم في هذا بين مُقلٍّ ومُكثر؛ فمنهم من ينكرها جملة وتفصيلًا، ومنهم من ينكر السُّنة القولية دون الفعلية، ومنهم من ينكر الآحاد دون المتواتر.

واستمرَّ هذا الاتجاه الشاذُّ في الأمة يتنقل في طوائفَ من أهل الضلال، إلى مطلع القرن العشرين الميلادي؛ حيث نشأت في القارة الهندية ـ بدعم من الاحتلال الإنجليزي ـ فرقةٌ ضالة تسمت بـ: «**القرآنيين**» ـ أو: (**أهل القرآن**) ـ ادّعت نبذ الأحاديث جملةً، والاعتمادَ على القرآن

وحده؛ بدعوى أن الكفاية حاصلةٌ به، بل إنها زعمت أن اتباع السُّنة شركٌ! ومانعٌ من تقدم الأمة.

ولهؤلاء نشاط كبير في نشر شبهاتهم عبر جمعياتٍ ومجلاتٍ، ومؤلفاتٍ ووسائلِ إعلام.

ثم تسربت نزعة الطعن في السُّنة والاستغناء عنها في اتجاهاتٍ أخرى، وفي بلاد أخرى، ولهم اليوم نشاطٌ في ترويج ضلالهم في مواقع الشبكة والفضائيات وغيرها.

أما عن أبرز آرائهم فما يأتي:

أولًا: ردُّ الأحاديثِ النبويةِ جملةً وتفصيلًا، وادِّعاءُ اتباع القرآن وحده.

ثانيًا: زعمُهم عدمَ عصمةِ النبي ﷺ في تبليغ الإسلام.

ثالثًا: إنكارُ كثير من الحقائق الشرعية ـ كالحياة البرزخية والشفاعة ـ أو تأويلُها ـ كحقيقة الجنة والنار ـ.

رابعًا: إنكارُ الحدودِ الشرعية وكثيرٍ من الأحكام، أو تأويلُها بتأويلات سخيفة.

خامسًا: إنكار العبادات التي لم ترد في القرآن كالأذان والمسح على الخفين، مع تلاعبهم في عبادات أخرى؛ كالصلاة والزكاة والصيام؛ حيث يؤديها كثيرٌ منهم بحسب أهوائهم، بهيئات غريبة لا يعرفها المسلمون.

سادسًا: تفسير القرآن بحسب أهوائهم، بمعزلٍ عن الأحاديث وآثار الصحابة.

أما عن حُكم هؤلاء القرآنيين: فإن من ردَّ السُّنة فقد تقدم أنه ارتدَّ وخرج عن الإسلام بالإجماع، وكفر بالقرآن في الوقت الذي كفر فيه بالسُّنة؛ إذ لا فرق بينهما؛ فهما من مشكاة واحدة هي الوحي الإلهي.

وقد أفتى العلماء بأن فرقة القرآنيين فرقة كافرة، وأصدر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فتوى مطولة في ردة أحد كبار القرآنيين (٢/ ٤٠٠) من «مجموع فتاويه».

وقال عنهم في إحدى فتاويه كما في موقعه: «ليسوا قرآنيين، ولكنَّهم ضد القرآن، وملاحدة، وضالُّون، بل كفَّار بإجماع أهل العلم». انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

على كلٍّ ينبغي أن يُعلم أن انتساب القرآنيين إلى القرآن ما هو إلا سِتارٌ يُخفون خلفه أهدافهم الهدامةَ التي تسعى إلى تقويض الإسلام، وإلا فإن من كان صادقًا في إسلامه فلا غنى له عن اتباع السنة.

وإذا كان القرآنيون ـ النُّكرانيون ـ يزعمون اتباع القرآن؛ فإنه أولُ من يبيِّن كذبهم وضلالهم، والآياتُ التي تردُّ مذهبهم وتبيِّن أنه لا إسلام إلا بطاعة النبي ﷺ واتباع سنَّته بالعشرات، كما سيأتي إن شاء الله.

🕮 الرد عُلى دعوى القرآنيين الاستغناء عن السُّنة بالقرآن:

إنَّ دعوى الاستغناء عن السُّنة بالقرآن ما هي إلَّا محاولة للاستغناء عن الإسلام برمته، لكن بأسلوب ملتوٍ غيرِ صريح، هذه هي الحقيقة بلا مراء؛ **إذ لا إسلام إلاَّ بسنة**، هذه مسلَّمة قطعية لا تقبل الجدل.

أما القرآنيون وأضرابُهم فإنهم يزعمون أن القرآن هو المصدرُ الوحيدُ، والحجة الفريدة، فيه البيان والتبيان والغنية عن كلِّ شيء، حتى

عن السنة! ويستدلُّون على هذا بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النّحل: ٨٩] ونحوه.

والجواب عن استدلالهم بما يأتي:

أولًا: معنى الآية التي استدلُّوا بها ونظائرِها خارجٌ عن محلِّ النزاع؛ فهم يتمسكون بغير مستمسك، بيان ذلك أن يقال: نعم؛ لَا شَكَّ أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ بَيَانُ وتبيان كُلِّ شَيْءٍ، لكن هذا لا يعني بحالٍ الاستغناء عن السنة؛ لأن السُّنَّةُ كُلها تَدْخُلُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وبين أيدينا أثرٌ حسن يبين المقصود، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أنه قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الوَاشِمَاتِ وَالمُوتَشِمَاتِ، وَالمُتَنَمِّصَاتِ وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَالَ: وَمَا لِي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ، قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ» [الْبُخَارِي (٤٨٨٦)].

وفي هذا يقول الإمام الشَّافِعِيُّ رحمه الله: «لَيْسَتْ تَنْزِلُ بِأَحَدٍ فِي الدِّينِ نَازِلَةٌ إِلَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ الدَّلِيلُ عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى فِيهَا، فَإِنْ قِيلَ: مِنَ الْأَحْكَامِ مَا ثَبَتَ ابْتِدَاءً بِالسُّنَّةِ؟ قُلْنَا: ذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَوْجَبَ عَلَيْنَا اتِّبَاعَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، وَفَرَضَ عَلَيْنَا الْأَخْذَ بِقَوْلِهِ». [قواطع الأدلة ١/ ٢٩، الإكليل في استنباط التنزيل ١٢].

إذن؛ اتباع السُّنة هو اتباعٌ للقرآن؛ لأن القرآن أرشد إلى طاعة النبي ﷺ ولزوم سنته، فمن قبل عن رسول الله ﷺ فعَنِ اللهِ قبل.

وعليه، فاتباع السُّنة لم يُخرج القرآن عن كونه تبيانًا لكلِّ شيء؛ فإن كونه تبيانًا هو باعتبار أن فيه النصَّ على بعض الأحكام، وإحالةً في البعض الآخر إلى السُّنة.

ثانيًا: من ينكر السُّنة يقال له: هل الإشكال عندك في كون كلامِ رسولِ الله ﷺ حجةً أصلًا؛ بحيث لو قُدّر أنك وقفت أمامه وسمعت منه فلن تقبل قوله؟ أم أنك تلتزم حجية قولِه وفعله ﷺ ولكنك تشكُّ فيما نُقل إليك منها؟

إن كان الإشكال هو الثاني ـ وهو الشكُّ في طريقة نقلها ـ فهذا موضوعنا في الفصل القادم إن شاء الله، وسنناقشه بعون الله تفصيلًا هناك.

وخلاصة القول فيه: أن هذا شكٌّ لا وجه له؛ فإن نقل حديث النبي ﷺ بلغ من الاحتياط والتحفظ الغاية؛ بحيث إنك لن تستطيع أن تثبت صحة أي قول بمعايير أدقَّ من مقاييس قبول السُّنة، وهو شيء لم تعرف له البشرية نظيرًا.

أما إن كان الإشكال عندك هو الأول؛ فأنت لا ترى في كلامه ﷺ حجة، ولا تلتزم له بطاعةٍ لأوامره ولا تصديقٍ لنواهيه؛ إذن أنت لم تؤمن به نبيًّا رسولًا، وعليه فلا إسلام لك؛ إذ لا معنى للإيمان برسول مع الإعراض عنه ومعاندةِ أمره، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّسَاء: ٦٤]، وهذا معلوم ببداهة العقل، وبالضرورة من دين الإسلام.

الخلاصة: أنت يا من يزعم أنه قرآني بين أمرين: إما أن تلتزم طاعة النبي ﷺ جملة وتفصيلًا، أو تخلعَ ربقة الإسلام جملة وتفصيلًا.

ثالثًا: يقال لهذا القرآني: بأي حجة قبلتَ القرآن واعتبرته حجة ملزمة؟ إن قلتَ: صدَّقتُ الرسول ﷺ في إخباره أن هذا وحي الله، فأنا قبلته على هذا الأساس ـ وبالتأكيد لا جواب له إلا هذا ـ، فيقال له: ولمَ ما قبلت إخباره أن سنته من وحي الله؛ فإنه قد قال: «**أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»، ويقول: «**إنه أوحي إليَّ كذا وكذا**» ـ في أحاديث عدة ـ؛ فلمَ صدَّقته في الأول ولم تصدقه في الثاني؟!

رابعًا: يقال لمن يدَّعي أنه مسلم متمسك بالقرآن فحسب: أخبرني بتفاصيل أحكام الإسلام في: البيع والربا والتفليس والحجر والصلح والحوالة والضمان والشركات والوكالة والشفعة والقرض، وحدثني عن تفاصيل أحكام الإجارة والهبة والعارية والرضاع والعِدّة والخلع! ما تفاصيل أحكام هذه من خلال القرآن؟

بل حدِّثني من القرآن عن صفة الأذان الذي يعرفه المسلمون جميعًا!

ومن خلال القرآن فحسب: بيّن لي أنصبة الزكاة ومقدار ما يُدفع للفقير منها!

ولا تنسَ أن تبين لي الآيات التي تُفصّل لي أحكام صدقة الفطر ومواقيت الإحرام وعدد أشواط الطواف والسعي ورمي الجمار!

بل ضع يديَّ على الآيات التي وضحت الصلوات الخمس التي

يصليها المسلمون في أرجاء المعمورة بعدد ركعاتها وأذكارها وصفتها على التفصيل، مع بيان أحكام سجود السهو وصلاة العاجز!

سأخبرك ـ أيها القارئ الكريم ـ عن جوابه، فهو إما أن يقف حائرًا لا يدري ما يقول؛ أو ربما يتبين له أنه لا يمكن أن يطبق الإسلام ـ الإسلامَ الحق ـ بمعزل عن السُّنة، فيؤوبُ إلى الحق، وإما أن يتحذلق فيقول: الحجة في أحكام الصلاة والصوم والزكاة إنما هي التواتر العملي بين المسلمين وليس السُّنة! فنقول له حينها: حسنًا؛ هذه إحدى المغالطات؛ لأن التواتر لا بد أن يُبنى على شيء؛ فعلى أيِّ شيء انبنى هذا التواتر الذي تعتمد عليه؟ توضيح هذا: دعنا الآن من المسلمين المتأخرين، وحدثني عن أول جيل تلقى هذه الأحكام وعمل بها وهو جيل الصحابة، وهؤلاء كانوا قبل النقل المتواتر كما هو واضح: على أي شيء اعتمدوا في صلاتهم وأذانهم وجميع عباداتهم؟ لن تستطيع أن تقول: إنهم اعتمدوا على القرآن؛ لأنه لا وجود لما ذكرت لك في القرآن، فما بقي إلَّا أنهم اعتمدوا على السُّنة، وهنا يقال: من أين أتى النبي ﷺ بهذه الأحكام؟ من عند نفسه أم من وحي أوحاه الله إليه؟ إن قلتَ: من عند نفسه فلا حجة فيه، فالتواتر الذي تحكيه هنا إذن لا قيمة له لأنه مبني على غير أساس، وإن قلتَ: بل هو وحي من الله؛ فقد ثبت أن السُّنة وحي، وإذا كانت وحيًا فوجب التزامها، وهذا هو المطلوب.

وما أحسن أثرَ عمرانَ بنِ حُصين رضي الله عنه: أنهم كانوا يتذاكرون الحديث فقال رجل: دعونا من هذا وجيئونا بكتاب الله، فقال عمران: «إنك أحمق! أتجد في كتاب الله الصلاة مفسرة؟ أتجد في كتاب الله الصوم مفسرًا؟ إن هذا القرآن أحكم ذلك، والسُّنة تفسِّر ذلك». [ذم الكلام للهروي ٢/ ٨٢].

الأدلة من القرآن على حجية السنة:

من الحكمة أن يناقَش هؤلاء بالأدلة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها ويأخذون، وإن كانوا في الحقيقة لها جاحدين، وهي آيات الكتاب.

وقد تنوعت الآيات القرآنية الدالة على حجية السنة، وسأورد منها ما يتيسر.

أولًا: كلُّ آية تدلُّ على عصمته ﷺ في إبلاغ الرسالة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النّجم: ٣].

ثانيًا: كل آية تدلُّ على وجوب الأخذ بما أتى به ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ثالثًا: كلُّ آية تدلُّ على وجوب طاعته ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران: ١٣٢].

رابعًا: كلُّ آية تدلُّ على وجوب اتباعه ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. ولا فرق في طاعته واتباعه والأخذ بما جاء به بين من سمع منه مباشرة ومن بلغه كلامه بواسطة موثوقة؛ فالكلُّ مطالَب بطاعته ﷺ.

خامسًا: كلُّ آية تدلُّ على أنه ﷺ مبيّنٌ لما أنزل الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: ٤٤]. فحديثه ﷺ بيان للقرآن بنصِّ القرآن، ولا غنى للمبيَّن عن المبيِّن، وتعطيل السُّنة تعطيل للعمل بالقرآن.

ولذا، كثير من الأحكام لا يمكن امتثالها إلَّا بالسنة؛ بدءًا من أركان الإسلام العملية الأربعة، فهذه قد جاء بها الأمر مجملًا في القرآن، مع بعض التفصيل القليل، أما التفاصيل الكثيرة الواضحة فكانت من نصيب السُّنة.

وهذا يؤكِّد ما قدمته من أن إلغاء السُّنة يعني إلغاء الإسلام بالكلية؛ فلا إسلام إلَّا بسنة.

سادسًا: كلُّ آية تدلُّ على وجوب تحكيمه ﷺ عند النزاع؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء: ٦٥].

سابعًا: كلُّ آية تدلُّ على وجوب ردِّ النزاع إلى القرآن والسنة لا إلى القرآن وحده، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النِّساء: ٥٩]. والرد إليه ﷺ بعد وفاته هو الردُّ إلى سنته بإجماع المسلمين.

ثامنًا: كلُّ آية تدل على التحذير من مخالفته ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣].

تاسعًا: كلُّ آية تدلُّ على أنه ﷺ لا يتبع إلَّا ما يوحى إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩].

عاشرًا: كلُّ آية تدلُّ على أن السُّنة مُنزلة من عند الله كما أن القرآن منزل، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النِّساء: ١١٣]. والحكمة هي السُّنة كما بيَّن علماء الإسلام.

حادي عشر: كلُّ آية تدلُّ على أن السُّنة وحي من الله، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النّجم: ٣ ـ ٤]. وهذا يشمل كلَّ ما ينطق به عليه الصلاة والسلام، من قرآن وسُنة، ومن فرَّق بينهما فقد تحكّم وتكلَّم بلا دليل.

ولذا؛ تجد في القرآن إشارة إلى أحكام مقررة لم ترد في القرآن

وإنما وردت في السُّنة؛ خذ مثلًا: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] وهي بيت المقدس، مع أنه لم يرد ذكر لهذا في القرآن؛ وإنما دليل التوجه لبيت المقدس: السُّنة، ومع ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ [الإسرَاء: ٦٠].

خذ مثلًا آخر: قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧]. هذا نسخ للتحريم، فكان يحرم على المسلمين في ليل رمضان بعد النوم: الأكلُ والشرب والجماع؛ فأين هذا في القرآن؟ لا وجود له؛ إنما دليله السنة، وقد اعتدَّ القرآن به.

ثاني عشر: كلُّ آية تدلُّ على أن من أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ٨٠﴾ [النِّسَاء: ٨٠].

أصول جامعة في حجية السنة.

هذه عشرة أصول جامعة، تلخِّص هذا الموضوع:

١ ـ السنة شقيقة القرآن، ولا غنى لواحد منهما عن الآخر، ولا ينفع الإيمان بأحدهما دون الآخر.

٢ ـ لا تعارض بين السُّنة والقرآن، بل هما متفقان مؤتلفان، وكل دعوى بخلاف هذا فسببها الجهل أو سوءُ القصد.

٣ ـ لا يمكن الاستغناءُ عن السُّنة بالقرآن، وحقيقة هذه الدعوى: الاستغناءُ عن الإسلام والسعيُ في تقويضه؛ إذ لا ثبوت لإسلامٍ بلا سُنة، ولا يُفهم إِسلامٌ بِلا سُنَّة، ولا يُقبل إسلامٌ بلا سنة.

٤ ـ من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن أخذ بالسُّنة فقد أخذ بالقرآن، ومن أعرض عن السُّنة فقد أعرض عن القرآن.

٥ ـ يستحيل فهمُ القرآن والعملُ به بمعزل عن السُّنة؛ فهي بيانه وتفسيره.

٦ ـ السنة حجة مستقلة في التشريع؛ فما جاء منها مطابقًا للقرآن: حجة، وما جاء منها زائدًا على القرآن: حجة.

٧ ـ السُّنة كلها حجة وجميعها وحي؛ قوليةً أو فعليةً أو تقريرية، لا فرق في هذا بين ما يتعلق منها بالعبادات أم بالمعاملات، أم بالعقائد أم بالأخلاق.

٨ ـ السُّنة حجة دائمة لا مؤقتة، كانت كذلك، ولا تزال، ولن تزال.

٩ ـ ثبوت حجيةِ السُّنة واستقلالِها بالتشريع ضرورةٌ دينية إجماعيةٌ قطعية، ولا يخالف في هذا إلا من لا حظ له في الإسلام.

١٠ ـ عداء منكري السنة: عداءٌ مع الإسلام نفسه، وما إنكار السُّنة إلا ستار.

لزيادة الفائدة

۞ أُحيلك إلى ثلاث رسائل:

١ ـ «وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفْر من أنكرها» للشيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢ ـ «منزلة السُّنة في التشريع الإسلامي» للشيخ محمد أمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ ـ «القرآنيون وشُبهاتهم حول السُّنة» للدكتور خادم حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الفصل الثالث والعشرون

حِفظ السُّنة

موضوع «حِفظ السُّنة» لم يعد موضوعًا تخصصيًّا يُطرح لدى المتخصصين؛ إذ قد أضحى من الأحاديث العامة التي تُطرح في مجالس الناس، ويخوض فيها كلُّ أحد، حتى من غير المتخصصين، والسبب: أنه منذ سنوات هُيّئت منابر إعلامية مفتوحة لأعداء السُّنة يبثون من خلالها سمومهم، وتأثر بها عدد ليس بالقليل.

إذن، هناك مشكلة قائمة، وهي الجهود المبذولة من أعداء السُّنة في تشكيك الناس في سُنة نبيهم ﷺ من جهة حفظها، وإيهامُهم أنها أو جُلَّها قد ضاعت أو تلفت، وأن الذي يروج الآن في الكتب شيء مشكوك فيه!

وهؤلاء الطاعنون صنفان: أعداءٌ خارجيون من الملاحدة واللَّادينيين والمستشرقين ونحوهم.

وآخرون من دونهم ـ فرادى أو ضمنَ مراكزَ بحثية ـ يلبسون لباسنا ويتكلمون بألسنتنا، لكن قلوبَهم وعقولَهم أسيرةٌ لدى سابقيهم، والملاحظ أنك لو سبرت حالهم لوجدتهم أبعد الناس عن السُّنة، فلا تخصص لهم فيها ولا عناية، وإنما هم دخلاء، يخوضون فيما لا يحسنون.

ومن مكرهم: أنهم يستخدمون مصطلحات فضفاضة حتى لا يثيروا عاطفة المسلمين؛ فيقولون: نحن لا نطعن في السُّنة وإنما في «الموروث»، أو «دين الموتى»! وسهامهم لم تُريّش ـ والله ـ إلَّا إلى الأحاديث النبوية المدونة في كتب السُّنة.

المقصود أن غاية أعداء الإسلام إنما هي السعي في القضاء عليه، ولا أسرع سببًا في تحقيق هذا من الطعن في السُّنة، بدعوى أن الأحاديث مزورة، ولا يصحُّ منها شيء بيقين.

إذن، نحن أمام حرب ضروس ضد الإسلام، ولا بد من وقفة جادة، وتصدٍّ حازم.

لا بد من طرح هذا الموضوع.

لا بد أن يطمئن كلُّ مسلم إلى أن سنة نبيه ﷺ ـ التي هي منار الهدى ـ محفوظةٌ بحفظ الله، لا بد أن يثق بهذا ويجزم.

ولا بد أن يكون في حصانة ـ بتوفيق الله ـ من شبهات أعداء السنة.

لماذا طعنهم توجّه للسنة وليس للقرآن؟

لا يستطيع القوم أن يشككوا في حرف واحد من القرآن؛ لأنه محفوظ في صدور المسلمين ومصاحفهم، فالمساس به خطوة غبية لا تنفع؛ فلم يكن لهم بدٌّ من أن يتوجهوا إلى السنة؛ إذ ليس لها هذا القدر من الحفظ والاهتمام من جميع طبقات المسلمين خاصتهم وعامتهم.

مع علمهم أنهم إن أسقطوا السُّنة فقد أسقطوا القرآن! فلا قيام للقرآن ـ فهمًا وعملًا ـ إلا بإقامة السنة.

على أن القرآن لم يسلم من عدوانهم أيضًا، لكن على معانيه وليس على نقله.

والخلاصة: أعداء الإسلام يعلمون أن السُّنة هي الإسلام، فالإسلامُ الحقيقي بتفاصيله ليس إلا ما حوته السُّنةُ المبيِّنةُ للقرآن؛ وعليه فتشكيك المسلمين في نسبة الأحاديث إلى النبي ﷺ يعني نقض الإسلام برمته.

وليُعلم أن التشكيك في حفظ السُّنة خطوة لاحقة للشبهة السابقة التي طُرحت في الفصل الماضي، وهي الطعن في حجية السُّنة أصلًا،

ودعوى الاستغناءِ عنها بالقرآن، فيقولون لمن بقي لم يتأثر بتلك: سلمنا أن السُّنة حجة، ولا غنى عنها؛ لكن أين هي السُّنة؟! المدون في كتب السنة: مزورٌ منحول، أما السُّنة الحقيقية فقد ضاعت منذ قرون!

ومهما يكن من شيء؛ فالسنة ـ على رَغم جهود الحاقدين ـ محفوظة بحفظ الله، ولن يزيدها ما يمكرون إلا ثباتًا وانتشارًا.

التأصيل الشرعي لكون السُّنة النبوية محفوظة، والأدلة على هذا:

هذا التأصيل من الأهمية بمكان، لأنه ـ كما تقدم ـ لا بدَّ أن يستيقن كلُّ مسلم من كون السُّنة محفوظة، فلا يستخفّنه الضالون، ولا يُلبس عليه المضلون.

ويكفي المسلم أن يعلم ـ على سبيل الإجمال ـ أن السُّنة وحي، وأنه ﷺ لا يقول إلَّا حقًّا، قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النّجم: ٣ ـ ٤]، والوحي محفوظ بحفظ الله، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحِجر: ٩]؛ إذن السُّنة لا بد أن تكون محفوظة.

والسنة من حُجج الله على عباده؛ وحجج الله محفوظة.

هذا على سبيل الإجمال، أما على سبيل التفصيل: فعندنا عدة أدلة نقلية وعقلية، وهي أدلة يخاطَب بها المسلم، أما غيره فينبغي أن يخاطب أولًا بالاعتراف بصدق نبوة نبينا محمد ﷺ، ثم يخاطَبَ بعد ذلك بموضوع حفظ السنة.

الأدلة التي نحن بصددها كثيرة، وسأكتفي ببعضها:

أولًا: حفظ السُّنة من لوازم شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، وذلك لأن طاعته من مقتضيات هذه الشهادة، ومن البديهي أن طاعته لن تتحقق إلَّا إذا كانت سنتُه محفوظة.

بمعنى: لو أن سنته قد ضاعت؛ فضياعها سيمنعنا من طاعته، إذ كيف سنطيع شيئًا مجهولًا! إذن سيحفظ الله السُّنة بيقين؛ ليحقق المسلم الشهادة التي أمره الله بها.

ثانيًا: أن أركان الإسلام العمليةَ الأربعة، وبقيةَ أحكام الدين: لا تُمكن معرفتها ولا العمل بها إلا بمعرفة السنة؛ إذن لا بد من حفظها حتى يتبين لنا كيف نقيمها؛ فلو ضاعت لضاع الدين، ولصار أمرنا باتباع الدين عبثًا أو تكليفًا بما لا يطاق؛ إذ لا سبيل لنا إلى معرفته، وهذا محال.

ثالثًا: إذا كان القرآن هو الكتابَ المحفوظَ الباقيَ في هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فإن السُّنة لا بد أن تكون محفوظة، لأنه لا يمكن فهمه إلَّا بها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

رابعًا: أن الله تعالى قد وعد بحفظ الذكر الذي أنزله؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ويشمل هذا: حفظ القرآن وحفظ السُّنة أيضًا؛ لأن السُّنة وحي من الله كما سبق؛ فهي داخلة في الذكر، ولأن السُّنة بيان للقرآن؛ فمِن حفظ المبيَّن حفظُ المبيِّن.

خامسًا: أنَّ الله تعالى أمرنا ـ معشر المسلمين ـ بالتأسِّي بالنبي ﷺ

فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما أمرنا أن نتحاكم إلى حكمه فقال جلَّ مِن قائل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، وهذا حكم عامّ لجميع الأمة، ولا يمكن لها أن تتخذه أسوة أو تتحاكم إلى حكمه ما لم تبلغها سنتُه، ولو ضاعت السُّنة لصار هذا الأمر عبثًا أو تكليفًا بما لا يطاق؛ فكيف نكلَّفُ بشيء لا سبيل لنا إلى تحصيله! فالله أرحم وأحكم من أن يكلفنا بهذا.

سادسًا: من طعن في حفظ السُّنة وأقرَّ بحفظ القرآن فقد تناقض؛ لأن مَن قبِل أن يكون القرآن قد حُفظ بالإسناد المتصل إلى النبي ﷺ؛ فيلزمه أن يقبل أن السُّنة محفوظة بالإسناد المتصل إليه ﷺ؛ فالطريق التي وصلنا بها القرآن هي الطريق التي وصلتنا بها السنة، فما الذي يجعلنا نقبل هذا ولا نقبل هذه وهما وحيان متشابهان في كيفية التبليغ؟!

فإن قيل: القرآن متواتر، قيل: وفي السُّنة أحاديث متواترة أيضًا، والخصم يدَّعي عدم حفظ السُّنة جملة وتفصيلًا؛ فبطلت دعواه.

سابعًا وأخيرًا: يقال لمن يشكُّ في ثبوت الأحاديث النبوية: هل يمكن أن يثبت عندك أي قولٍ منقولٍ لأي أحد، أم أنك تردُّ كل نقل؟ إن كان جوابه الثاني فالنقاش معه منقطع؛ لأنه خارج عن حدود العقلاء، وإن كان جوابه الأول، أي لا مانع عنده من قبول النقل الثابت؛ فنقول: ما هي الطريقة التي تثبت بها عندك النقول؟ وأنا أتحداه أن يأتي بأي طريقة يرتضيها إلَّا وأثبت له أن السُّنة منقولة بطريقة أوثقَ وأثبت.

وعليه، فهو بين أمرين: إما أن يقبل الأحاديث الصحيحة، أو يردَّ كلَّ قول منقول؛ فيصبحَ ضُحكةً للعقلاء.

🕮 كيف حُفظت السُّنة بالفعل في عهد النبي ﷺ وعهد أصحابه؟

الجواب: السُّنة في العهد النبوي وعهد الصحابة كانت محفوظةً بحمد الله، لا ريب في هذا، وأسباب هذا الحفظ مرجعه إلى أمور كثيرة، أسوق منها نماذج:

أولًا: حثَّ النبي ﷺ على حفظ السُّنة ونقلها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**نضَّر الله امرأً سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربَّ حاملِ فقه ليس بفقيه**» [أخرجه أبو داود (٣٦٦٠) والترمذي (٢٦٥٦)].

كما أخبر ﷺ أن نقل الأحاديث بالإسناد شيءٌ باقٍ في الأمة؛ قال النبي ﷺ: «**تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يَسمع منكم**» [أخرجه أحمد (٢٩٤٥) وأبو داود (٣٦٥٩)].

كما دعا لبعض أصحابه بالحفظ، ومن ذلك دعاؤه لأبي هريرة رضي الله عنه.

ثانيًا: كان ﷺ يكرر كلامه ثلاثًا حتى يُحفظ عنه ويُعقل. وربما راجع محفوظاتِ بعضِ أصحابه.

ثالثًا: تحذيره ﷺ الأمةَ التحذيرَ الشديد من الكذب عليه؛ فقد قال ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» [أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٣)].

رابعًا: إذنه للصحابة بكتابة حديثه، ومن ذلك قوله لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاَّ حق**» وأشار إلى فيه. [أخرجه أبو داود (٣٦٤٧)]، وفي الصحيحين [خ ١١٢، م ١٣٥٥)] أنه سأله رجل عام الفتح أن يكتب له ما سمعه منه ﷺ، فأمر الصحابة أن يكتبوا له.

خامسًا: أن الصحابة ﷺ كانوا أحرص شيء على سماع حديثه ﷺ وحفظه، فسماع حديث واحد عندهم كان شيئًا ثمينًا جدًّا يُبذل فيه الغالي والرخيص؛ حتى إنهم قد يرحلون الأيام الطوال لسماع حديث واحد؛ فقد رحل جابر بن عبد الله ﷺ من المدينة إلى الشام ـ أي قطع مسيرة شهر ـ لا لتجارة ولا لنزهة، وإنما ليسمع حديثًا واحدًا من عبد الله بن أنيس ﷺ، فلما وصل إليه واعتنقه قال له: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه؛ فحدَّثه به. [مسند أحمد (١٦٠٤٢)]. ورحل أبو أيوب الأنصاري ﷺ من المدينة إلى مصر ليسمع حديثًا واحدًا من عقبة بن عامر ﷺ [مسند الحميد (٣٨٨)].

سادسًا: أنهم ﷺ كانوا أهل ورع واحتياط ودقة في التحديث عن النبي ﷺ وحرص شديد على أن يبلغوا بمثل ما سمعوا؛ يقول الأعمش وهو أحد التابعين: (كان هذا العلم عند أقوام كان أحدهم لأَن يَخِرَّ من السماء أحبُّ إليه من أن يزيد فيه واوًا أو ألفًا أو دالًا) [الكفاية للخطيب البغدادي (١٧٧)]. وكانوا أهل تثبُّت في الرواية، ولربما سمعوا من يحدث بحديث فطلبوا شاهدًا يشهد معه أنه سمعه من النبي ﷺ، هذه نبذة عن عوامل حفظ السُّنة في تلك الحقبة، وإلَّا فالمقام أوسع.

🕮 حفظ السُّنة في الأمة فيما بعد العهد الأول

لا إخالك تخالف ـ أيها القارئ الكريم ـ في أنه حين يأتي إنسان إلى مشروع عظيم ـ علميٍّ أو عملي ـ قد بُذلت فيه جهود مضنية، ومرت عليه مراحل من العمل المتضافر، جهودٌ وأوقات وتعب، ودراسةٌ وفحص وتحليل، وأشياءُ كثيرة، ثم تناول أحدٌ كلَّ ما سبق بأطراف أصابعه، أو

طعن في خاصرته قائلًا: هذا لا شيء، هذا لا قيمة له! مع أنه غير متخصص فيما ينكر، ولم يحط علمًا بالشيء الذي يتحدث عنه ـ فهذا لم يزد على أن أضحك العقلاء على عقله!

أعود فأقول: المشاريع الكبرى للبشرية ـ علمية أو عملية ـ والتي بُذلت فيها جهود عظيمة: نسفُها بجرّة قلم ـ كما يقولون ـ سخفٌ وجهلٌ وخللٌ في التفكير.

وصدق من قال:

أتانا أن سهلًا ذمَّ جهلًا ... علومًا ليس يعرفُهن سهلُ
علومًا لو دراها ما قلاها ... ولكنَّ الرضا بالجهل سهلُ!

وليس يخفى أن من الناس اليومَ من أرخى سمعه لأعداء السُّنة فتأثر بشبهاتهم، وصار يقول وهو متكئ على أريكته: ما الذي يضمن لي أن البخاري أو الترمذي لم يكذبوا ويدونوا أشياء من عند أنفسهم، ثم نسبوها إلى النبي ﷺ! أو يقولُ عن الأحاديث النبوية: هذه «سوالف للرواة» ـ كما قرأتُ لأحدهم في وسائل التواصل ـ!

يا هذا.. آلاف الأحاديث، رواها آلاف الرواة الثقات، ونَخَلها مئات المحدثين الجهابذة، ودوَّنها مئات العلماء الأثبات في مئات المدونات؛ هذا شيء عظيم بحق، فمن أنت وما مقدار علمك حتى تنسف هذه الجهود؟

ألم يكن الأولى بك أن تعرف الواقع قبل الحكم عليه؛ فالحكم على الشيء فرع عن تصوُّره.

هل تظنُّ أنه من السهولة أن يكذب أحد على النبي ﷺ ويروجَ هذا وينتشر ولا يتنبهُ أحد إلا أنت!

هل تظن أن السُّنة هيّنة عند المسلمين وعلمائهم ومحدثيهم بهذا القدر؟!

إن كان هذا ظنك فقد أخطأت خطأ عظيمًا!

فدعني أوضح لك شيئًا من هذه الجهود في أسطر معدودة، وبتسهيل في المعلومات ـ مع صعوبة هذا الاختصار ـ، وثِق أنك إن فهمت ما الذي جرى من جهود جبارة في عملية نقل الأحاديث في هذه الأمة جيلًا بعد جيل حتى وصلت إلينا، بل إنك إن فهمت طرفًا من هذه الجهود وكنت منصفًا، فستتلاشى آثار هذه الطعنة الجائرة عنك بتوفيق الله.

حفظُ السُّنة وجمعُها ونقلُها وتدوينُها: عمليةٌ مضنيةٌ عظيمةٌ كما قدمت، قادها ثلاثة أصناف من العلماء:

أولًا: رواةٌ حفاظ اجتهدوا في تتبع الروايات والسماع من الأشياخ؛ فحفظوا ودوَّنوا.

ثانيًا: أئمةٌ نقادٌ من علماء الجرح والتعديل غربلوا هذه الروايات وفحصوا أحوال رواتها.

وثالثًا: جهابذة محدِّثون دوّنوا هذه الأحاديث في مصنفات، ونقحوا ورتبوا وبوّبوا.

أما المرحلة الأولى: فإن الله تعالى قد اختار لحفظ سُنة نبيه محمد ﷺ أئمةً ثقاتٍ من أهل الدين والحفظ والأمانة، قد بلغ الواحد

منهم من الديانة والتقوى ما يجعله يأبى أن يكذب على النبي ﷺ ولو قُرّض لحمه بالمقاريض.

هؤلاء الرواةُ الثقاتُ وقفوا أعمارهم على تتبع الحديث وحفظه وتدوينه؛ فرحلوا وهجروا أوطانهم وأسهروا لياليهم وأضنَوا نهارهم وهم يدورون على من عنده شيء من الحديث النبوي ليسمعوه منه؛ فأبو حاتمٍ الرازي أحدُ أئمة الحديث قطع على قدميه في رحلته ـ التي تنقّل فيها بين أكثر من عشرين مصرًا في سماع الحديث ـ نحو ستةِ آلافِ كيلو متر، وابن منده: استغرقت رحلته خمسًا وأربعين سنة بعيدًا عن أهله، وهو يتجول في البلدان طلبًا للحديث، والنماذج في هذا كثيرة.

ولم يكن سماع الحديث شيئًا اعتباطيًّا، بل كان شيئًا دقيقًا، فلم يكونوا غالبًا يحدثون عن كلِّ أحد؛ بل عمن كان فطنًا حافظًا دينًا، وكان الراوي يحفظ ما يسمعه من الحديث من شيخه ثم يكتبه، أو يكتبه ثم يحفظه، كما كان يقابل ما كتبه بكتاب شيخه حتى يتأكدَ من أنه لم يخطئ فيما كتب، مع عنايتهم بالضبط والشكل لما يكتبون، وربما طلب التلميذ من شيخه أن يعيد عليه الحديث حتى يحفظه، وإذا شكَّ في حديث من مجموعة أحاديث مكتوبة في صحيفته ولم يميزه من بينها فإنه يترك الصحيفة ولا يحدِّث بما فيها احتياطًا!

المهم أن نتاج هذه الجهود الجبارة كان وجودَ أسانيدِ الأحاديث التي هي مفخرة من مفاخر هذه الأمة، والتي اعترف بها أعداء الإسلام وحسدونا عليها.

والأسانيد هي سلسلةُ الرواة الموصلةُ إلى كلام النبي ﷺ، أي نقل الراوي عن الراوي حتى يبلغ به النبي ﷺ، وهذه خصيصة تميزت بها

الأمة المحمدية وانفردت بها عن غيرها؛ فليس لأحد من الأمم كلها ـ قديمها وحديثها ـ عناية بالأسانيد، وإنما هي صحف في أيديهم اختلط فيها ما جاء عن الأنبياء بغيره؛ ولذا وقع التحريف في كتبهم، وأُدخل عليهم في دينهم ما ليس منه.

ودونك أهل الكتاب من اليهود والنصارى: لا يوجد عندهم سند متصل لا لكتب العهد القديم ولا لكتب العهد الجديد ـ ومنهما يتكون ما يسمونه الكتاب المقدس ـ.

والمقصود: أن أسانيد الأحاديث هي ضمانة الأحاديث والخاتم عليها، فلا يمكن أن تلتبس بغيرها، وهي عند العلماء معروفة محفوظة؛ فلا يمكن لأحد أن يُدخل فيها ما ليس منها. وما أحسن ما قال الإمام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الإسناد من الدّين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء) [مقدمة صحيح مسلم (١/ ١٥)].

أما المرحلة الثانية: فهي مرحلة النقد لرواة الحديث للحكم على الأحاديث في ضوئه قبولًا أو ردًّا.

وهي مرحلةُ نقدٍ دقيق، وامتحانٍ بالغ، وفحصٍ عميق، ولا يمرُّ من خلاله إلَّا الشيء الثابت لا غير.

وقد تولَّاه أئمةٌ محدِّثون، نقادٌ صيارفة، أفنَوا أعمارهم في تتبع أحوال الرواة والحكم عليهم، وكان من نتاج هذا: عِلمان عظيمان لا نظير لهما البتة عند غير المسلمين، هما: علم الرجال وعلم الجرح والتعديل.

والخلاصة: أن هؤلاء الأئمةَ اجتهدوا في التنقيب عن أحوال رواة

الحديث، وسألوا عنهم أهل العلم، ورحلوا إلى البلدان لمشافهتهم والتعرف عليهم، فصاروا يعرفون حالَ كلِّ راو: اسمَه ونسبه ومتى ولد وأين، وكيف هو في الدين والأمانة والحفظ، وربما امتحنوه ليعرفوا هل عليه ملحوظة قادحة فتردّ مروياته، كما أنهم يعرفون متى شرع في سماع الحديث وكيف سمع ومع من سمع، ثم يعرفون أحوال شيوخه الذين يحدِّث عنهم وبلدانِهم ووفياتِهم، وأوقاتِ تحديثهم وعاداتِهم في التحديث، ثم يعرفون مروياتِ الرواةِ الآخرين عن هؤلاء الشيوخ، ويقارنون مروياتِه بمروياتهم ليُعرف هل أصاب أم أخطأ، بل ويفتشون في صحفه التي يحدث منها إن كان له صحف، وهل هي مضبوطة ودقيقة، كما يدققون في صيغة روايته؛ هل قال: حدثنا فلان أو أخبرنا، أو قال سمعت فلانًا، أم قال: قال فلان فحسب، ووضعوا شروطًا شديدة للرواية من الكتب، وكيفيةِ نسخها، وطريقةِ قراءتها على مؤلفيها.

وصار لهم بصرٌ عظيم بالرواة، ومعرفةٌ بهم أكثرَ من معرفتهم بقرابتهم، حتى إنك لتجد في كتب الجرح والتعديل: فلان ممن روى آلاف الأحاديث يقولون: أخطأ في ثمانية عشر حديثًا فقط، هي كيت وكيت!

ثم دوّن هؤلاء الأئمةُ أحوالَ الرواةِ في كتب مصنفة، منها كتب دونوا فيها الرواة الضعفاء، وأخرى جعلوها للثقات، ومنها كتب عامة، ومنها كتب خاصة برواة بلدان معينة، بل صاروا يتفننون في هذه التصانيفِ أكثر، فكتبٌ خاصة بكُنى الرواة، وأخرى بأنسابهم، وكتب لطبقاتهم، وكتب وضعوها في ضبط أسمائهم أو بيانِ المتشابه منها، إلى آخر ما هنالك.

والمقصود أن الله تعالى قد قيَّض لسنة نبيه ﷺ الأجلاءَ النجباء الذين ميزوا ثِقاتَ الرواةِ من ضعفائهم، وصحيحَ الحديث من ضعيفه، كلُّ ذلك صيانةً للجناب النبوي والمقام المحمدي أن ينسب إليه كذب، أو يُحدَّث عنه بغير حديثه.

ومن لطيف ما يُذكر: قولُ الإمام المحدث الدارقطني رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا أهل بغداد، لا تظنوا أن أحدًا يقدر يكذب على رسول الله ﷺ وأنا حيّ»!

[فتح المغيث للسخاوي (١/ ٣٢٠)].

وهذا النهج النقدي الذي مضى عليه هؤلاء الأئمةُ النقاد كان نهجًا موضوعيًّا متجردًا، ليس فيه محاباة ولا إجحاف لا بحقّ قريب ولا بحق بعيد؛ حتى إنهم كانوا ينقدون من يستحقُّ النقد من الرواة ولو كان أقرب قريب لهم؛ فهذا الإمام أبو داود السجستاني يحكم على ولده أنه كذاب، وزيد بن أبي أنيسة يقول: لا تأخذوا عن أخي، والإمام علي بن المديني يقول: أبي ضعيف، وجرير بن عبد الحميد يضعّف أخاه.

وهذا التجرد والإنصاف، وهذه الدقة والتمحيص جعل كلَّ راوٍ يريد أن يروي حديثًا عن النبي ﷺ يتحفظ غاية التحفظ لأنه يعلم أن أعين النقاد وأسماعَهم مفتوحة! وأنهم يدققون عليه في كلِّ كلمة يقولها.

هذا كله شيءٌ يسير عن علم الرجال والجرح والتعديل؛ ولا يتسع المقام للحديث عن علوم الحديث الأخرى الكثيرة التي زادت على ستين علمًا، وكانت غايتها خدمة الحديث الشريف وصيانته وحمايته؛ كعلم مصطلح الحديث، والعلل، ومختلِف الحديث، ومشكل الحديث، وغريب الحديث، والتخريج.. إلى آخرها.

المرحلة الثالثة: مرحلةُ تدوين الأحاديث بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ، وقد ابتدأت بصورة واضحة في منتصف القرن الثاني الهجري ثم ما تلاه، على يد المحدثين الكبار الذين كان لهم من العناية بالحديث ورجاله القدحُ المعلى، فجمعوا الأحاديث التي سمعوها من أشياخهم في حلِّهم وترحالهم وضمّوها في الموسوعات الحديثية التي صنفوها، وتفننوا في ترتيبها، فتارة على الأبواب الفقهية، وتارة على أسماء الشيوخ، وتارة على مسانيد الصحابة، إلى غير ذلك، وهذه المدوناتُ الحديثية حفظت لنا بفضل الله ومنّه الأحاديث النبوية من الضياع والاندثار، كـ «موطأ مالك» و«صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» و«مسند أحمد»، وغيرِها من الكتب التي تبلغ المئات، وهذه الكتب يرويها العلماء في كلِّ عصر بالسماع والإجازة، إلى عصرنا هذا، بحيث يروي التلميذُ الكتاب عن شيخه، وشيخُه عن شيخه، وهكذا إلى مؤلف الكتاب، ومن كان جاهلًا بهذا فليراجع كتب الأثبات، وهي كثيرة مشهورة.

كما وصلتنا بفضل الله هذه الكتب مخطوطةً محفوظةً من التبديل والعبث، وبذل العلماء جهودًا عظيمة في طباعتها بعد جمع نسخها من أقطار الأرض، وانتقاء أفضلها، والمقابلةِ بينها للتحقق من صحة النصوص.

ومخطوطات كتب الحديث كثيرة جدًّا ومنتشرة في مكتبات العالم، ولك أن تعلم أن «صحيح البخاري» ـ مثلًا ـ له أكثرُ من ألفين وثلاثِمائة نسخةٍ مخطوطة!

ختامًا: قبل أن يتفوّه أحد بشيء يمسُّ جناب الأحاديث النبوية فعليه أولًا أن يعرف كيف وصلتنا غضةً، وما هي المشاقُّ والجهود التي قُدّمت،

ثم: ليعلم أنه يستحيل أن يكذب أحد على النبي ﷺ ويمرَّ كذبُه مرور الكرام! أكرر: هذا مما يستحيل، وكشف كذبه من أسهل الأشياء وأيسرها على علماء الحديث، بحمد الله.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

كتاب «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الفصل الرابع والعشرون

شبهات أعداء السنة

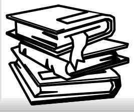

مضى الكلام عن حقوق السُّنة، وحجيتها، وحفظها، وموضوع هذا الفصل يتعلق بشبهات أعداء السنة.

وعندنا شبهتان رئيستان:

الشبهة الأولى: شبهة وجود إشكالات في الأحاديث، فيقولون: في بعض الأحاديث مخالفة للعقل، وهذا ما تسقط به حجيتها، أو تضعف معه الثقة بها!

ولعل هذه الشبهة أكثر الشبهات ورودًا على ألسنة أعداء السنة.

وقد سبق معنا توضيح العلاقة بين النقل والعقل في الفصل الثالث؛ فإن شاء القارئ الكريم رجع إليه.

ولا بد ههنا من مقدمات ممهدات، قد فُصلت في ذاك الفصل، وأجملها ـ مع زيادةٍ ـ ههنا:

أولًا: يستحيل أن تخالف آية أو حديث صحيح عقلًا صريحًا.

فلا معاندة بين شرعٍ منقول وحقٍّ معقول؛ وهذا أصل أصيل عندنا معشر المسلمين.

فافتعال الخصومة بين السُّنة والعقل لا حقيقة له.

ثانيًا: ظنُّ مركزية العقل وتقدمِه وتبعِية النقل ـ والنقل هو أدلة الوحي كتابًا وسنة ـ قضية خاطئة بيقين، والعكس هو الصحيح.

ثالثًا: الله تعالى جعل العقل آلة لفهم النقل، وليس حَكَمًا على النقل.

خَلَقه تعالى ليكون موصلًا إليه لا قاطعًا عنه.

أعطانا إياه لندرك به القريب لا البعيد.

رابعًا: أكمل الناس عقولًا ـ وهم الصحابة ﭬ ـ لم يقع لهم أي تعارض بين دليل نقلي وتقرير عقلي البتة.

خامسًا: كلُّ ما ادُّعي فيه التعارض بين الحديث والعقل فلا يخلو الأمر فيه من ثلاث أحوال:

الأولى: أن يكون الحديث غير ثابت عن النبي ﷺ.

الثانية: عدم صحة ما ادعي أنه معقول، أي أن ما ادعي أنه يعارض الحديث حقيقته: قضية نظرية خاطئة سمّاها صاحبها عقلًا، وكان العقل مخطئًا إما في التصور وإما في التصديق.

الثالثة: عدم فهم الحديث فهمًا صحيحًا.

سادسًا: لا بد من التفريق بين المستحيل عقلًا والبعيد وقوعًا؛ ومن فهم هذه النقطة زال عنه كثير من الاستشكالات.

توضيح هذا: أنهم يقولون: هذا مستحيل عقلًا، فنقول: المستحيل عقلًا هو ما يحكم العقل بامتناعه؛ مثل أن يكون الشيء موجودًا معدومًا في وقت واحد، أو أن يكون الجزء أكبر من الكل، أو أن يكون الولد أكبر سنًّا من والده؛ ونتحدى أن يأتوا بمثال واحد من السُّنة جاء على هذه الشاكلة، إنما كثير من إشكالاتهم ترجع إلى أشياء غير معتادة الوقوع كالمعجزات النبوية مثلًا ـ كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ ـ وهذا ليس مستحيلًا عقلًا، إنما هو بعيد الوقوع ـ أي لم نألفه ـ لكنه ممكن عقلًا ـ وإن كان شيئًا خارجًا عن قدرة الإنس والجن ـ ومن أجرى هذه المعجزات هو القادر على كلِّ شيء سبحانه، وإذا قدر ـ جل جلاله ـ على أن يُخرج دمًا من الأصابع فلن يعجزه أن يُخرج ماءً من بينها؟!

سادسًا: حقيقة الإسلام هي الاستسلام لله تعالى ولوحيه، ومن ذلك: اعتقادُ حاكمية القرآن والسُّنة وتقدمُهما على كلِّ ما عداهما، فالوحي هو المقدَّم وكل ما سواه فمؤخر.

فلا تثبت قدم الإسلام إلَّا على ظهر التسليم والاستسلام، ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

سابعًا: الإعراض عن الوحي وتقديم غيره عليه: أثر من آثار نفاقٍ مستقرٍّ في القلب؛ فليحذر اللبيب؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النِّسَاء: ٦١].

ثامنًا: حدود العقل ضيقه ومجالاته محدودة، وتكريمه في إعماله في مجاله، لا في تكليفه فوق طاقته.

تاسعًا: الغلوُّ في العقل أساس الضلال.

بعد هذه المقدمات يقال فيما يدَّعيه أعداء السنة: ينبغي أن يعي هؤلاء أن المسألة عندنا ـ معشر المسلمين ـ مسألة عقيدة قبل كلِّ شيء، وهذا ما يتغافل عنه أولئك، ولذا فمهما أجلبوا على السُّنة فلن تتزحزح ثقتنا بها أو تعظيمنا لها.

ما معنى: أن المسألة عقيدة؟ الجواب: حين يأخذ أحد المسلمين بآية فإنه يعتقد أنه يخضع لله ولحكمه، وإذا أخذ بحديث فإنه يعتقد أنه ينصاع لحكم نبيٍّ يوحى إليه؛ فهو خاضع لله أيضًا.

وماذا يعني أن تكون خاضعًا لله؟ إنه يعني كلَّ شيء!

تدري من الله؟! إنه ربُّ العالمين، مالك الملك، أعلم العالِمين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

هو العظيم؛ فحكمه في قلوبنا عظيمٌ عظيم؛ ثم تقول لي بعد هذا: هذا حديث مخالف للعقل! أقول لك: مستحيل! لأن هذا حكم من خلق العقل؛ فالمصدر واحد، فلا يمكن أن يقع تعارض بينهما، وعلم الله أكبر من عقلك، وحكمته أعظم؛ فاسترح وأرح!

العقل مخلوق لله، ولا يمكن بحال أن يستدرك مخلوق على خالقه.

يستحيل أن يُقدَّم معقولُ مربوبٍ على حكم ربه، هذا هو المنافي للعقل.

ثم إننا ـ معشر المسلمين ـ لم نعتقد هذا الاعتقاد عن جهل؛ بل عن علم وعقل؛ لذا؛ فكل الهذيانات التي تدعونها عقليات هي عندنا ساقطة بحكم العقل قطعًا.

وسأضرب لهذا مثلين:

المثل الأول: في الحديث الصحيح أن الشمس تسجد لله تحت العرش [صحيح البخاري ٣١٩٩، وصحيح مسلم ١٥٩]، وقال المتهوِّك: هذا شيء لا يقبله العقل!

فيقال له: هل تعتقد أن الله خلق الشمس أم لا؟ إن قلت: نعم، قيل: وما الإشكال في أن يسجد مخلوق لخالقه! وما المشكلة أن يجعل الخالق القدير مكانًا معينًا لمخلوق ليسجد فيه، وأخفى كيفية هذا عن مخلوق آخر؟

ثم: هل أحطت علمًا بكلِّ أحوال الشمس على وجه الدقة حتى صارت عندك كأنها كرة في صحن تحيط علمًا بكل تفاصيلها؟ الجواب بالتأكيد: لا! الشمس مخلوق كبير جدًّا يسع أكثر من مليونِ أرضٍ بحجم أرضنا توضع فيه؛ ولا تزال كثيرٌ من الحقائق المتعلقة بها مجهولة للناس جميعًا؛ فليكن سجودها منها!

ثم: هل وجه استبعادك لسجود الشمس: ظنك أنها تسجد سجودًا على هيئة سجودنا؛ ومن ثَمَّ حكمت بالاستحالة؟! هل تظن أنه إذا قلنا: «تسجد الشمس» أنها تسجد على سبعة أعضاء مثلنا؟! إنها تسجد سجودًا يليق بها ويتناسب مع خلقتها، وأنت ترى الإنسان إن كان صحيحًا فلسجوده هيئة، وإن كان مريضًا - يصلي على كرسي، أو كان مستلقيًا - فلسجوده هيئة، وهو الإنسان نفسه! فكيف بمخلوق يختلف عنه تمام الاختلاف!

المثل الثاني: يقول من يقول من أعداء السُّنة: في الحديث أن الشيطان يبول في أذن من نام حتى أصبح ولم يصلِّ. [صحيح البخاري ١١٤٤، وصحيح مسلم ٧٧٤]؛ وهذا يخالف العقل والحسَّ؛ فلا نرى أثرًا من بول على النائم!

وهذا الاعتراض عليل؛ لأن بول الشيطان ليس من جنس بولنا، كما أن خلقته ليست من جنس خلقتنا، ومن صدّق بوجود الشيطان وهو لا يراه؛ فعليه أن يصدّق بوجود بوله وهو لا يراه! فمن أخبرنا بوجود الشيطان هو من أخبرنا بأنه يبول في أذن النائم عن الصلاة!

ماذا يفعل من وقع في نفسه شيء من الإشكال بوجود تعارض بين الحديث والعقل؟

عليه أربعة أمور:

أولًا: أن يوطن نفسه على تقديم الوحي على كلِّ ما عداه.

ثانيًا: أن يوقن أنه لا يمكن أن يتعارض النقل والعقل البتة، وليطمئن.

ثالثًا: أن يقصد الوصول إلى الحق.

رابعًا: أن يبادر ـ بلا تسويف ـ إلى أحد أهل العلم الذين يظن أن عندهم الجواب الشافي لإشكاله، فإنما شفاء العيِّ السؤال.

📖 **الشبهة الثانية**: مما لبّس به أعداء السُّنة: زعمهم أن الأحاديث الموجودة بين أيدي الناس اليوم لا يوثق بها؛ لأن جُلّها أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد لا يوثق بها؛ لاحتمال خطأ الراوي ونسيانه وكذبه؛ فهو ليس بمعصوم.

وإذا كانت الأحاديث محلَّ شك وارتياب فلا غرو أن تكون مطّرحة، أو على الأقل لا نقبل منها إلَّا ما وجدنا القرآن يدلُّ عليه.

وهذا الذي ذكروا مغالطة من جملة مغالطاتهم؛ وقد سبق في الفصل الماضي ذكر طرف من الكلام عن حفظ السُّنة النبوية، وأن الأحاديث النبوية قد مرَّت بمراحل من الدراسة والفحص والتدقيق الشديد حتى تميز الصحيح منها من غير الصحيح، فليرجع إلى ذاك الفصل مَن شاء.

خلاصة شبهة القوم: قياسٌ فاسد وقعوا فيه؛ وهو أنهم زعموا أن الحديث الصحيح الذي لم يبلغ مرتبة التواتر مِثله مِثل أي خبر تسمعه من رجل يمرُّ بالشارع لا تعرفه! فأنت لا تثق به.

إذن، حديث النبي ﷺ عند القوم هذا قدره!

وهذا الذي قالوه قياس فاسد؛ والحق أن الخبر إذا صح عن رسول الله ﷺ فهو حجةٌ قاطعة، ويجب قبوله في كلّ أبواب الدين.

ولست ههنا بصدد الاستدلال على هذا الأمر؛ فالكلام فيه يطول؛ لكني أنبِّه إلى أن ما ذكروه فاسد؛ فنحن لا نتكلم عن أيّ أخبارِ آحاد؛ إنما نتكلم عن أحاديث النبي ﷺ، وشتان ما بين الأمرين.

أخبار الآحاد المروية عن رسول الله ﷺ التي حكم عليها أهل العلم الحديث بالقبول والثبوت هي التي نتكلم عنها، وقد استفادت العلم والقطعية من أربع جهات: من جهة المُخْبِر، ومن جهة المُخْبَر عنه، ومن جهة المُخبِر به، ومن جهة المُخبَر.

هذه أربع جهات استفادت أخبار الآحاد المروية عن النبي ﷺ القطعية منها، وثبتت عنه من خلالها:

من جهة المُخبِر: من الذي أخبر بها؟ إنهم أصحاب الرسول ﷺ، أفضل الخلق بعد الأنبياء دينًا وعلمًا، ثم التابعون، وأتباع التابعين، وتبع الأتباع، هؤلاء أفضل القرون، أهل التقوى والورع والإتقان، فكيف يقاس بهم آحاد الناس؟

من جهة المُخبَر عنه: أخبار الآحاد المروية عن رسول الله ﷺ تخبر عن الله وعن دينه وأحكامه، فهي من حججه تعالى على خلقه، فلا بُدَّ أن يحفظ الله ﷻ حججه ودينه، قال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

من جهة المخبر به: هذه الأخبار تُخْبر بكلام رسول الله ﷺ،

وكلامه عليه من الجلالة ونور النبوة ما يجعله لا يشتبه بغيره من كلام الناس وأحاديثهم عند من له خبرةٌ به.

من جهة المُخْبَر: فإن الذي تلقى الخبر وحكم عليه وقبِله: أئمة الحديث الكبار الفحول، الذين لهم عنايةٌ عظيمة بحديث رسول الله ﷺ، وتنقية صحيح كلامه من غيره. إذن القياس ههنا هو قياس مع الفارق، لوجود الفرق الكبير والبون الشاسع بين هذا وذاك.

والعجيب أن القوم إذا فتشت في أحوالهم وجدتهم جازمين بمقولات ونقولات وأشعار كثيرة، ولا يثيرون فيها ما أثاروه في الأحاديث من كونها أخبار آحاد، كما تجدهم في تعاملاتهم وكتاباتهم في وسائل التواصل وغيرها يقبلون أخبارًا كثيرة تتعلق بأحوال الناس والمجتمع، من أفراح أو أتراح أو قضايا سياسية أو غيرها؛ مع أن ما يقطعون بثبوته منها لم يفحص ويدقق فيه كما دُقق في الأحاديث الصحيحة، بل لا مقارنة أصلًا، وهذا تناقض معيب!

📖 وصايا عامة في التعامل مع الشُّبهات المتعلقة بالسُّنة لمن ابتلي بالاطلاع على شيء منها.

هذه أجوبة إجمالية عن كلِّ شبهة يثيرها أعداء السنة:

أولًا: إن كان من يورد شبهة عن السُّنة مِن القرآنيين؛ فإننا نقول له: قد قيل من أعداء الله مثل هذه الشبهة أو قريب منها في حقِّ القرآن! فأي جواب تجيب به عليهم فهو جوابنا على شبهتك!

ثانيًا: كل شبهة أثيرت عن السُّنة فقد أجيب عنها بفضل الله، ليس من وجهٍ واحد بل من أوجه عديدة، وأهل الإسلام يتحدون أي أحد أن يثبت

طعنًا واحدًا في حديث صحيح، وقد أُلِّفت في هذا الباب مؤلفات عظيمة، فمن كان طالبًا للحق نظر فيها ووجد شفاء سقمه.

ثالثًا: خلاصة كلِّ ما يُدعى ضدُّ السُّنة فلا يخرج عن: جهل بالسنة ومعناها والثابت منها من غير الثابت، وغالبًا ما يصحب هذا قصد سيئ وهوى.

رابعًا: يقال لمن يطعن في السُّنة: ما نسبة ما تستنكره من الأحاديث بالنسبة للآلاف المؤلفة من أحاديث السنة؛ كم الذي تدَّعي استنكاره: حديث، حديثان، عشرة، عشرون؟ ما نسبة هذه من آلاف الأحاديث التي لا لبس فيها ولا إشكال؟! وبهذا يتبين أن أعداء السُّنة قد وقعوا في مغالطة منطقية هي «التعميم الجائر»؛ فقد رأى أحدهم ـ لقصورٍ في نظره وجهل وهوًى في نفسه ـ قلة قليلة من الأحاديث فيها إشكال في زعمه؛ وإذا به يعمم حكمه بردِّ السُّنة جملةً! فأي إنصاف هذا؟

خامسًا: التنبُّه إلى التناقض والمغالطات التي تقع من الطاعنين في السنة.

خذ مثلاً: من أكبر الشُّبه التي يثيرها أعداء السُّنة الطاعنون في حجيتها: أنهم يقولون: النبي ﷺ قد نهى عن كتابة حديثه، حيث قال: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه**» [صحيح مسلم ٣٠٠٤]. وعليه فهذه الأحاديث غير مقبولة جملة وتفصيلًا.

فيقال: إن رسول الله ﷺ كما ورد عنه النهي عن الكتابة، فقد ورد عنه الإذن بها، بل الأمر بها في أحاديث أخر، وهذا شيء يطوونه ولا يروونه لأنه يخالف أهواءهم، حيث ذكروا حديث النهي، ولم يشيروا إلى أحاديث الإذن، وهي كثيرة.

منها: أنه ﷺ أمر أن يُكتب كلامه يوم الفتح لأحد الصحابة؛ فقال: «**اكتبوا لأبي شاة**» [أخرجه البخاري (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥)].

ومنها: أنه ﷺ قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاَّ حق**» وأشار إلى فيه. [أخرجه أبو داود (٣٦٤٧)]. والأحاديث في الإذن بالكتابة أكثر وأصح، فلأي شيء لم يعولوا عليها؟! وهل هذا إلا أمارة على أنهم يتّبعون أهواءهم!

وعلى كلِّ حال؛ فالجمع بين ما جاء من النهي عن كتابة الحديث والإذن بها يقال فيه: إن المنع جاء أولًا، ثم نُسخ بالإذن في الكتابة بعد ذلك.

فالنهي جاء أولًا خشية التباس القرآن بالسُّنة، فلما أُمِنَ الالتباس جاء الإذن، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، وقال بعض العلماء: النهي لم يكن مطلقًا، بل كان عن كتابة الحديث والقرآن في صحيفة واحدة، أما في صحيفتين فمأذون به.

وبغضِّ النظر عن كلِّ ما سبق: أريد أن ألفت النظر إلى ما في كلامهم من المغالطة والتناقض؛ حيث استدلوا على نفي الشيء بالشيء نفسه! بمعنى: هم ينكرون الأحاديث؛ فكيف يستدلون على إنكارها بالحديث؟! فهم بين خيارين: إما أن يؤمنوا بهذا الحديث فيسقط قولهم بالإنكار، وإما أن لا يؤمنوا به؛ فيسقط استدلالهم به!

خذ مثلًا آخر: مما يثيرونه من غُبار تجاه السنة: أنهم يقولون: الأحاديث النبوية فيها أشياء ضعيفة، فالثقة فيها ضعيفة! وهذا كلام هزيل، بل مغالطة مكشوفة؛ فأنت يا هذا تقول: هناك أحاديث ضعيفة؛

فكيف عرفتَ أنها أحاديث ضعيفة؟ لم تعرف هذا إلَّا من خلال علماء الحديث الذين حكموا عليها بالضعف؛ إذن: لِمَ قبِلت حكمهم بضعف أحاديث، ولم تقبل حكمهم بصحة أحاديث أخرى؟! وهل هذا إلَّا دليل التناقض بل والهوى الذي يتحكم فيك!

سادسًا: التركيز على أنهم حين يطرحون شبهاتهم قد يطرحون ما لا يفهمون؛ فليتفطَّن لهذا.

مثال هذا: من أشهر الشبهات التي أثارها القوم: شبهة ذكرها بعض المستشرقين، وهي أن الأحاديث كثيرة جدًّا، وهذا ما يشكِّك في ثبوتها، حتى إن البخاري يذكر عن نفسه أنه انتخب صحيحه من ستمائة ألف حديث؛ فيقولون: لا يمكن أن يصدر عن شخص واحد مثل هذا العدد من الأحاديث!

والحقيقة أن كلامهم هذا يدلُّ على جهلهم، وأنهم لم يعرفوا ما هي الأحاديث، ولم يتصوروا واقع الروايات.

فأولاً: الأحاديث ليست قولية فقط، بل إنها تشتمل على أفعاله ﷺ وتقريراته أيضًا، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يرصدون حاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في كلِّ صغير وكبير، والواحد من هؤلاء المنكرين لو سجلنا عليه في مدة سنة واحدة كلَّ حركة وسكنة وهمسة له على مدار الساعة لخرجنا بآلاف الأحاديث!

وثانيًا: الحديث في لسان السلف والمحدثين يُعدُّ براويه وليس بلفظه؛ فلو سمع عدد من الصحابة كلمة من النبي ﷺ فرووها؛ فرواية كل صحابي: حديثٌ مستقلٌّ؛ فمثلًا: حديث: «**نضَّر الله امرءًا سمع مقالتي**

فوعاها» هذا الكلام النبوي الشريف قد رواه أربعة وعشرون صحابيًّا؛ فهو عندهم: أربعة وعشرون حديثًا وليس حديثًا واحدًا!

وثالثًا: كثير من علماء الحديث يدرجون في الأحاديث: آثار الصحابة والتابعين؛ وعليه، فلا ينبغي أن تستكثر الأحاديث بعد هذا.

سابعًا: تنبه إلى عقيدة من يثير الشبهات عن السُّنة؛ فقد يكون من المصلحة أن لا يكون النقاش في شبهته بل في عقيدته أولًا.

فمثلًا: لو طعن ملحد في الأحاديث التي وردت بإثبات المعجزات النبوية، فقد تكون الحكمة أن يُبحث معه في إثبات وجود الخالق سبحانه أولًا؛ لأنه إذا ثبت وجود الربِّ القدير زالت شبهته؛ فالمعجزة الخارقة للعادة قد أجراها مَن هو على كلِّ شيء قدير ومَن يفعل ما يريد سبحانه.

ثامنًا: من المهم لإزالة الشبهة: جمع الأدلة والروايات التي تتعلق بالموضوع المثار؛ ومن ثَمّ النظر في أوجه الجمع بينها أو الترجيح بحسب القواعد العلمية.

فكم يدَّعي أعداء السُّنة إشكالًا في حديث، وفي رواية من رواياته ما يوضح الصواب ويزيل الشبهة من أصلها.

تاسعًا: ينبغي التنبُّه إلى أن جملةً من الشبهات التي يُلبّسون بها: لا دليل يسندها أصلًا، بل ولا شبهة دليل، وإنما هي دعوى مجردة أو إنكار مجرد، فيقول قائلهم ـ مثلًا ـ: هذا حديث مخالف للعقل؛ فإذا سألته: لِم هو مخالف للعقل؟ لم تجد عنده شيئًا!

عاشرًا: التحقق من ثبوت الحديث: ركنٌ أساس قبل البحث في

الشبهة التي تثار عليه، وما أكثر الأحاديث التي يطعنون فيها ويشغبون على السُّنة برمتها بناء عليها، والواقع أنها أحاديث ضعيفة أو مكذوبة!

🕮 لماذا كثرت شبهات أعداء السُّنة في هذه الأيام؟

لأن المنابر الإعلامية التي تروج لأباطيل أعداء السُّنة موجودة مع الأسف، وقد فُتحت أبوابها لكلِّ الطاعنين فيها على اختلاف مشاربهم؛ فالفضائيات التي يُستضاف فيها أعداء السُّنة كثيرة لا قليلة، ووسائل التواصل متخمة بهم أيضًا؛ فالقرآنيون يكتبون ويتكلمون، والعقلانيون والعلمانيون والملاحدة والنصارى وغيرهم.

ثم هناك من يستمع إليهم من المسلمين ويروّج لكلامهم ولو بغير قصد! فتجد أنه يكتب في مجموعات الواتس أو في حسابه في وسائل التواصل: «انظروا ما يقول فلان»! وقد يكون هذا بدافع الإنكار؛ لكنه نشر الشبهة من حيث لا يشعر، وكانت مِن قبلُ خاملة!

وعليه؛ فمن المهم أن نتواصى بإماتة الباطل وإخمال ذكر أهله قدر الإمكان.

فإن سمعتَ شبهةً تتعلق بالقرآن أو بالسُّنة أو بأحكام الإسلام: ما حاجة الناس أن تبثَّها بينهم؟ وهل تعلم أنك قد تكون سببًا في تضرُّر بعض الجهَّال بها؟ والأجدر بك أن تعرض عنها، وتطوي صفحًا عن ذكرها، وتنصح من يبثها في الناس سواء كان منكرًا أو مستشكلًا.

۞ وصايا خاتمة:

الوصية الأولى: تقدَّم أن الواجب تجاه شبهات أعداء الإسلام عمومًا: أن تُهجر، وأن يُعرض عنها تمام الإعراض، هذا واجبٌ شرعي

مُتحتم، والله يقول: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدَّثِّر: ٥]. والنبي ﷺ يقول: «**وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**» [صحيح البخاري (١٠)]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [الأنعَام: ٦٨]؛ (أعرض): فعل أمر، والأمر يقتضي الوجوب، فواجبٌ على المسلم أن يعرض عن الشبهات، ولا يرخي لها سمعًا، وأن يطلب السلامة؛ فإنه لا يعدلها شيء.

ونبينا ﷺ يقول كما في «الصحيحين»: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»، «**فاحذروهم**» فعل أمر يقتضي الوجوب.

إن التعرُّض للشبه مرضٌ يوهن قوة القلب ويضعف الإيمان؛ فحذارِ.

الوصية الثانية: تمسَّك بالجواب المجمل عن كلِّ شبهة، وهو: معرفتُك بالحق كافيةٌ في معرفة بُطلان ما خالفه، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يُونس: ٣٢]. فلا يلزمُ لمعرفةِ بُطلان الشبهة معرفة ما ينقضها على وجه التفصيل؛ فالشُّبَه لن تنتهي، إنَّما يكفي معرفةُ أنها مُعارِضَة للحقِّ فتُجتنب.

بمعنى: الباطل يُعرف من طريقين: معرفةِ القادح الناقض الذي يُبطل الباطل، وطريق أخرى: وهي أن تعرف الحق؛ إذن، كل ما ناقض الحق فهو باطل، فإذا أتاني ملبس بشبهة تتعلق بالربوبية أو بالنبوة أو بالقرآن أو بالسنة أو بالأحكام وأنا لا أعرف جوابها، فسأقول له وأنا مطمئن: أنت أتيتني بشيء لا أعرف جوابه تفصيلًا، هو عندي مُشتبه ولا مُشكلة في أن يبقى مُشتبهًا، لكنني أقطع أنه باطل، والدليل على هذا: أنه مُعارضٌ للحق، ولا يُمكن أن يكون شيءٌ يُعارض الحق إلَّا وهو باطل.

الوصية الثالثة: ضع دائمًا نصب عينيك موضعين من كتاب الله؛ تأمَّلهما بروية لا بعجلة:

أولهما: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ﴾ [القَصَص: ٨٦ ـ ٨٧].

فإذا علمتَ أنه أُنزل القرآن ـ والسُّنة شقيقته ـ رحمةً منه سبحانه؛ علمتَ أن جميع ما أمر به ونهى عنه فهو رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرجٌ من شيء منه، حيث تظن أن مُخالِفَهُ أصلح وأنفع، وعليه فلا تبالِ بمكر أعداء الوحي ولا يخدعُنَّك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الرُّوم: ٥٨ ـ ٥٩].

لقد أنزل الله تعالى في هذا القرآن الحقائق التي تُعرف بها الأمور وتنقطع بها الحجة، لكن أبى الظالمون إلَّا معاندة الحقِّ الواضح؛ فمهما جئتهم بآية تدلُّ على صحة ما جئت به فسيقولون للحق: إنه باطل، فاصبر على ما أنت عليه من الثبات على الوحي وتعظيمه، ووعد الله آتٍ لا ريب فيه، وستنال جزاء صبرك وثباتك عند ربك، فإياك أن يستخفك من قلَّ يقينه بالوحي؛ فإنك إن لم تجعلهم منك على بال وتحذر مكرهم وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على ما أنت عليه.

إن هذه الآيات ما نزلت عبثًا، فيجب أن نقف عندها مليًّا متدبرين، فما أحوجنا إليها في هذا العصر، والله المستعان.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة:

١ ـ رسالة «شُبهات حول السُّنة» للشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢ ـ كتاب «الأنوار الكاشفة» للشيخ عبد الرحمن المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الفصل الخامس والعشرون

حدود العلم الطبيعي (التجريبي)

العلم الطبيعي ـ باختصار ـ: دراسة الطبيعة والظواهر الطبيعية.

وهو نمط معين للمعرفة الإنسانية، يسعى لاستكشاف الطبيعة بمختلف ظواهرها وخصائصها والقوانين الحاكمة لها.

وعليه، فهو قاصر على المجال المادي المدرَك بالحواس، وقائم على المنهج التجريبي المعتمد على التجربة الحسية. فهم هذه القضية مهم.

وما من شكٍّ في أنه مفيد في مجاله، وانتفعت به البشرية كثيرًا، وساهم في رفاهيتها، ولكن يحدث الإشكال عندما يُتخطّى بعلمٍ من العلوم حدوده، فيخوض في مجالات العلوم الأخرى، ويحكم عليها نفيًا أو إثباتًا وهو فاقد الأهلية لهذا!

العلم التجريبي له حدود لا يستطيع تجاوزها، ولا يقدر على الحكم على ما هو خارج نطاق استدلاله، وهو المجال المادي المدرك بالحواس.

ودعني أوضح ما أريد بمثال: لنقدّر أنه رأى رجلٌ أحدَ العمّال يبحث عن المعادن تحت رمال شاطئ عن طريق جهاز الكشف عن المعادن، فتعجّب من دقة الجهاز وقدرته على الإعلام بما هو مدفون منها؛ فاشترى مثله، وشرع في استخدامه للبحث عن أشياء بلاستيكية وخشبية مدفونة تحت الأرض! فلمّا لم يجد شيئًا قال: «لا يوجد في هذا الشاطئ خشب ولا بلاستيك؛ لأنني استعملت هذه الآلة التي أثبتت كفاءتها في البحث عن المفقودات فلم أجد شيئًا»! من الواضح أن هذا الرجل قد ارتكب خطأ كبيرًا في استعمال الجهاز في غير مجاله.

تخيّل أنه ـ من شدة إعجابه بتلك الآلة ـ ذهب إلى شوطٍ أبعد؛

فقال: لا يوجد في الوجود خشب أو بلاستيك؛ لأنني كلما استعملت هذه الآلة لم أجد شيئًا، وأنا لا أصدق غيره!

خطؤه هذه المرة ليس في تصديقه المطلق لهذه الأجهزة بعد أن أثبتت كفاءتها في الكشف عن المعادن، إنما خطؤه في أنه قصر مصادر المعرفة على هذه الأجهزة فحسب؛ فجعلها مصدر المعرفة الوحيد!

إن جهاز الكشف عن المعادن ـ على الرغم من كفاءته في مجاله ـ لا يكشف عن كلِّ شيء في العالم!

بعض الناس ـ في معرض حماسته للعلم التجريبي ـ أضحى يرتكب خطأً مشابهًا؛ فيقول: إنه لن يصدق إلَّا ما رآه بعينيه، وإن العلم التجريبي هو مقصده الأوحد للكشف عن أي حقيقة! وهو بهذا يظلم العلم التجريبي، ويسيء فهم وظيفته من حيث يظن أنه يتبعه وينصره.

🕮 نقد الغلو في العلم التجريبي.

الغلو في العلم التجريبي واقعٌ لا يُجحد، وقد أُطلق عليه تسمية خاصة، وهي: **العِلموية**.

وهي: اتجاهٌ علميّ يحصر مصادر المعرفة وطرائق الاستدلال في التجربة والمشاهدة والإدراك الحسيّ، فهذا باب المعرفة الوحيد والأعلى؛ الذي يتعالى على كلِّ شيء!

هؤلاء الغلاة لما زعموا أن المعرفة منحصرة في العلم التجريبي، وأنه وحده الذي يجيب عن جميع ألغاز الحياة: قرّروا أنَّ غيره من العلوم ومناهج المعرفة لا يُعدُّ علمًا، ولا يُنتج معرفة.

والتيار الإلحادي المعاصر قد وجد في هذا الاتجاه ضالَّته، فطوّعه

ليكون سندًا له، ولذا فالملاحدة الجدد يعظِّمون العلم التجريبي تعظيمًا كبيرًا ويبالغون في قدراته حتى جاوزوا حدوده؛ وصدق من قال: إن كانت الطبيعة إلٰهَ الملحد، فإن العلمَ الطبيعيَّ كتابُه المقدّس، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

ونتج عن هذا أن زعموا أن العلم التجريبي ألغى جميع مبررات الإيمان بوجود الخالق سبحانه؛ فالبراهين محصورة في الأدلة العلمية التجريبية، وما لم يخضع للتجارب فليس بعلم؛ وحيث إن الدين ليس مبنيًّا على التجارب العلمية فهو ـ في زعمهم ـ مجرّد وهم.

والذي يعنينا الآن: النظر في هذه الدعوى العريضة؛ هل المعرفة منحصرة في العلم التجريبي، وأنه الطريق الوحيدُ الموصلُ إلى العلم اليقيني؟

الأمر بالتأكيد ليس كذلك، وما هذا الزعم إلا خطأً كبيرًا، ويتبين هذا بخمسة أوجه:

الوجه الأوّل: العلم التجريبي له حدود واضحة لا يمكن أن يتخطّاها، والمطالب الإلهية وصحة الدين وثبوت الغيبيات: قضايا تقع خارج حدوده؛ فليس له أن يحكم فيها أو يدَّعي نفيها.

أكرر ما ذكرته آنفًا: للعلم التجريبي إطار يعمل فيه، وحدود لا يستطيع أن يتعداها، وإذا خرج عن هذه الحدود فهو عاجز، والمتخصصون في العلم التجريبي ـ حقًّا ـ يعرفون هذا تمامًا.

ولأُقرِّب المسألة بمثال: هب أننا وجدنا صحن طعام أمام باب البيت، فأخذناه ليتمّ تحليله من قِبل مجموعة من أفضل علماء العالم؛

فعلماء التغذية سيخبروننا عن عدد السعرات الحرارية في الطعام، أما علماء الكيمياء الحيوية فسيحدثوننا عن العناصر التي دخلت فيه وعن كيفية ارتباطها مع بعضها، أما الفيزيائيون فلهم قدرة على تحليله وفق الجسيمات الأولية، وستكون وظيفة أهل الرياضيات عرض مجموعة من المعادلات التي تصف سلوك هذه الجزيئات.

ولنفترض أني سألت هؤلاء الخبراء مجتمعين: مَن صنع الطعام؟ ولماذا صنعه؟ وما الغاية من وضعه أمام الباب؟ وهل هذا الفعل صواب أم خطأ؟ فلن يستطيعوا الجواب! لأن تخصصاتهم تدور على طبيعة الطعام، أي على إجابة أسئلة «كيف»، ولا يمكنها إجابة أسئلة «لماذا».

إذن العلم الطبيعي يجيبنا ـ في أقصى مداه ـ عن كيفية عمل القوانين الطبيعية، ولكنه لا يجيبنا عن سؤال: لماذا تعمل هذه القوانين؟ فهذا سؤال خارجٌ عن نطاق قدرة المنهج التجريبي.

ومن هنا يتضح قصوره عن تفسير كافة الظواهر، كما تتضح حاجته الى علوم أخرى مكملة له، وأهم من هذا: الحاجةُ إلى الوحي الإلهي الذي أنزله العالِم بكلِّ شيء سبحانه.

خذ أمثلة على واقع العلم التجريبي وعجزه عن الإحاطة بكلِّ شيء:

أولًا: العلم التجريبي لا يستطيع تقديم أحكام أخلاقية: فما حقوق الإنسان؟ وما حقوق الحيوان؟ هل «الإجهاض، القتل الرحيم، الاغتصاب، الغش، الرشوة»: هل هذه أفعالٌ سائغة أم لا؟ العلم التجريبي لن يعطيك الإجابة.

إنه يساعدنا في وصف كيفية عمل العالَم، لكنه لا يستطيع تقديم أي حكم أخلاقي بالتصويب أو التخطئة، أو التحسين أو التقبيح.

وعليه، فاعتبار المنهج التجريبي الوسيلةَ الوحيدة للوصول إلى الحقيقة مع إنكار ما سواه: يلزم منه إنكار الأحكام الأخلاقية! فماذا يبقى لنا ـ معشر البشر ـ بعد هذه الفوضى؟!

ثانيًا: العلم التجريبي لا يستطيع تقديم أحكام جمالية تتعلق بالأذواق: فهل تلك اللوحة المعروضة جميلة؟ وهل صوت العصفور جميل؟ وهل قصائد المتنبي عذبة؟ العلم التجريبي لا يجيب عن هذا!

إنه يساعدنا في تفسير كيفية تلقينا الأصوات وكيفية تصورنا للألوان، لكنه لا يستطيع تقديم أي حكم جمالي.

ثالثًا: العلم التجريبي لا يستطيع إعطاء كيفية توظيف المعرفة العلمية.

فمثلًا: قد ساعد العلم التجريبي في تفسير كيفية تهجين الحمض النووي DNA، لكنه لا يبين طريقة توجيه هذه المعرفة المكتسبة؛ أنستخدمها في معالجة الأمراض الجينية؟ أم نستخدمها في صنع أسلحة بيولوجية؟ ستجد العلم التجريبي في هذه الزاوية صامتًا لا ينطق!

إنه يساعد في وصف كيفية عمل العالَم، ونحن من نقرر كيفية توظيف المعرفة المكتسبة. بعبارة أخرى: هو لا يستطيع أن يوجِّهنا إلى السلوك الذي يجب أن نختاره في حياتنا.

هذا العلم يُطلعنا ـ إلى حدٍّ ما ـ: على ما هو موجود، دون أن يوصيَنا بما «ينبغي».

رابعًا: العلم التجريبي لا يستطيع تفسير ما وراء الطبيعة ـ عالمِ الغيب أو الميتافيزيقيا ـ: كوجود الملائكة والجنِّ والحياة الآخرة، ولن

يحكم في هذه القضايا؛ لأنها تقع خارج إطار الطبيعة المحسوسة، ونطاق العلم التجريبي محصور فيها؛ أي فيما يلاحَظ ويجرّب.

إنه لا يحقُّ لأيِّ علم تجريبي أن يقتحم عالم الغيبيات؛ لأن يد التجربة الحسية أقصرُ من أن تمتدَّ إلى ما وراء الطبيعة لتثبت أو تنفي شيئًا منها.

الوجه الثاني: ادِّعاء أن المعرفة منحصرة في العلم التجريبي ينقض نفسه بنفسه، أو هو كما يقال: ذاتيُّ الدحض! لأن هذا الزعم مبنيٌّ على موقف فلسفيٍّ وليس على علم تجريبي، فكيف يؤمن أحدٌ بأن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها إلَّا عن طريق المنهج التجريبي وحده؛ في حين أنه لم يستخدم المنهج التجريبي للوصول لهذه الحقيقة؟!

بمعنى: قولهم: إن العلم التجريبي هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة: باطلٌ منطقيًّا؛ لأنه ليس نتاج تجربة؛ فإن كان هذا القول تقريرًا صحيحًا فالعلم التجريبي باطل!

الوجه الثالث: اعترف الملاحدة ـ أنفسهم ـ أن العلم التجريبي لا يتحلّى بتلك القوة التي قد يخادعون بها الجهال، حتى إن (ستيفن هوكينج) ـ الفيزيائيَ الملحدَ المشهور ـ يقول: (أي نظرية فيزيائية هي دائمًا مؤقّتة، بمعنى أنها فرضٌ فحسب، فأنت لا تستطيع أن تبرهن عليها، ومهما بلغت كثرة مرّات اتّفاق نتائج التجارب مع نظرية ما، فإنك لا تستطيع قط أن تتيّقن من أنه المرة التالية لن تتناقض النتيجة مع النظرية). إذن، الادّعاء بأن النظريات العلمية يقينية دائمًا: هو ـ باعتراف أئمتهم ـ غير صحيح.

ومما يزيد البيان أن النظرياتِ العلميةَ ليست جميعها يقينية: أنها

كثيرًا ما تتغير؛ فكيف يُدّعى أن النظريات العلميةَ السائدةَ اليوم يقينية، وقد تصبح متروكة بعد سنة أو سنتين؟

علماء الطبيعة يقررون أن المعرفة العلمية في تغيُّر دائم، وقليلة هي الأمور اليقينيةُ الثابتة، فالمعرفة العلمية المستعملة اليوم قد تصبح غدًا معرفة علمية منتهية الصلاحية، والكتب العلمية القديمة غالبها قليل الفائدة، حتى إن كثيرًا من مخازن الكتب المستعملة تتجنّب شراء الكتبِ العلمية المستعملة، ودأبت كثير من دور نشر الكتب الجامعية على أن تُخرج إصدارًا جديدًا محدّثًا لكلِّ مقرر علمي كلَّ ثلاثة أعوام، ويمكن لهذا التسارع في وتيرة الاكتشاف العلمي أن يغيِّر فهمنا وتفسيرنا للعلم الطبيعي جذريًّا خلال بضعِ سنين.

الوجه الرابع: العلومُ الطبيعية ليست على درجة واحدة، بل بعضها أقوى من بعض.

توصف العلوم الطبيعية عادة بأنها «علوم صلبة»، لكن ما يُغفل عنه ـ أو يُتغافل ـ: هو أن عددًا من العلوم الطبيعية لديها جانب سفلي ليّن، ومن ذلك تاريخيتها؛ فالنظريات التي طرحتها العلوم الطبيعية لتفسير نشوء الظواهر الطبيعية (مثل الديناصورات، القارات، الكواكب) تاريخية في جانب كبير منها وليست تجريبية، وذلك في تركيزها على حدث فريد لم يتكرّر فيُجرّب، ولا تمكن محاكاته في المختبر.

إذن، من المغالطات الكبيرة: تخييلهم للجهال أن العلوم الطبيعية على درجة واحدة قوية، والحقّ أنها درجات متفاوتة؛ فمنها مجردُ فرضياتٍ علمية، ومنها نظريات، ومنها حقائق، كما أن منها ما يخضع للتجربة الحسية المباشرة، ومنها ما هو من قبيل التفسير الظني للظواهر الطبيعية.

الوجه الخامس: طرق إثبات الوجود الخارجي للأشياء لا تقتصر على طريق الإدراك الحسيّ، وإخضاعِه للاختبار والتجربة، وإنما يمكن أيضًا إثباته عن طريق معرفة آثاره، فكثير من الحقائق التي يؤمن بها العلماء التجريبيون أنفسهم ويبنون عليها اكتشافاتهم: لم يتمَّ إثباتُها عن طريق الحسِّ والتجربة، فهم يسلّمون بصحة بعض الفرضيات التي ليس هناك سبيل لإدراكها إدراكًا حسيًّا، فلا أحد يمكنه أن يدَّعي أنه رأى البروتون او الإلكترون، ولكن الناس يلمسون آثارهما، وكذلك الحال في كلِّ ما يتصل بتركيب الذرة وخواصّها، وكذلك الحال فيما يتعلق بتركيب الأجرام السماوية البعيدة، وما يفصل بينها من مسافات شاسعة، مما لا نستطيع أن نخضعه لتجاربنا، أو نقيم الأدلة المباشرة على صحة نظرياتنا وفرضياتنا عنه.

إذن، كثير من القوانين الطبيعية المسلَّمة اليوم لم تخضع للتجربة، وإنما آمنّا بها لمعرفتنا بآثارها.

هذا عدا عن أن الذي يطالع كثيرًا من الآراء العلمية اليوم يجدها من قبيل تفسير الملاحظات وليست نتاج تجربة مختبرية، فقد يرى العالِم سلوكًا معينًا لبعض ما في الكون، فيفسره تفسيرًا خاصًّا؛ فهذا التفسير ليس تجريبيًّا، وانما هو استنباط واستنتاج لا غير، وكلما زادت الشواهد التي تؤيِّد تفسيره: قوي التفسير، إلى أن يصل إلى حدِّ النظرية أو الحقيقة العلمية، وربما بقي ظنيًّا، وربما فَقَدَ شواهده فيضعُف ويُلغى بعد حين.

وبهذه الأوجه الخمسة يظهر أن العلم التجريبي أحد طرق الوصول إلى المعرفة، وليس الطريق الوحيدة، ولا يمكن وصف النظريات العلمية التجريبية كلّها بأنها يقينية، بل كثير منها ظنيٌّ أو وهميّ.

🕮 هل العلم التجريبي يتعارض مع الإيمان بالله؟

الجواب بالتأكيد: لا. إنما هي دعوى إلحادية عريضة يعوزها الدليل؛ حيث يزعم الملاحدة أن ثمة تعارضًا بينهما؛ فإما العلم التجريبي وإما الإيمان بالخالق سبحانه.

وتُناقَش دعواهم هذه من أربعة أوجه:

الوجه الأول: ينبغي التذكير ابتداءً أن العلماء التجريبيين بشر، وليسوا موضوعيين دائمًا، بل يتأثّرون بالبيئة المحيطة بهم؛ بثقافتها، وسياستها، واقتصادها... إلخ.

إذن، الثقافة المحيطة بالعالم تؤثّر بشدّة في استنتاجات علماء هذه النظريات العلمية.

والثقافة المحيطة بكثير من العلماء اليوم هي ثقافة علمانيةٌ إلحادية تُزيّن قبول النظريات العلمية المعارضة للدين ـ كنظرية التطوّر ـ، فكون بعض العلماء تلقّوا هذه النظريات وتظاهروا بأنها صحيحة يرجع إلى أسباب نفسية أو اجتماعية أكثرَ من كونها علمية.

وقد اعترف بذلك عالِم الحيوان البريطاني الملحد ـ د. واطسون ـ حيث قال: (نظرية التطور نظرية مقبولة بشكلٍ عام، ليس لأنه يمكن إثبات صحتها بالأدلة المحكمة منطقيًّا، بل لأنها البديل الوحيد؛ فمن الواضح أن الخلق الخاص لا يمكن تصديقه).

الوجه الثاني: ليس العلماء المتخصّصون في العلوم التجريبية كلُّهم ملاحدة، بل ولا أكثرهم؛ إنما العكس هو الصحيح؛ فكثير من العلماء مؤمنون بوجود الخالق سبحانه.

ولو كان الصراع بين العلم التجريبي والإيمان بالخالق حقيقيًّا: فالمنطق البسيط يقتضي أن يكون العلماء التجريبيون كلهم ملحدين، والمؤمنون غيرهم؛ لكن ليس هذا واقعَ الحال؛ فكبار علماء العلم التجريبي عبر القرون كانوا يؤمنون بالخالق ولم يكونوا ملاحدة؛ مثل: بيكون، وغليلو، وكِبلر، ونيوتن، وماكسيل، وفَراداي؛ هؤلاء كانوا مؤمنين بوجود خالق حكيم أبدع الكون.

وهؤلاء ـ وهم أساطين العلم التجريبي ـ لم يروا أنه يعارض الإيمان بالخالق، بل اعتبر كثير منهم الإيمان بالله دافعه الرئيس للمضيِّ في البحث العلمي.

أحد الباحثين الغربيين واسمه (شالف) ألَّف كتابًا طبع في أمريكا عام (**٢٠٠٥**م)، وعنوانه: «مائة سنة من جوائز نوبل»؛ درس فيه أحوال العلماء الحاصلين على جائزة نوبل في القرن العشرين، فخلص إلى أن نسبة الملاحدة منهم لم تتجاوز سبعةً في المائة فقط!

الوجه الثالث: يسعى الملاحدة في أن يوهموا الناس أن العلم التجريبي كان في حرب ضروس مع الدين عبر التاريخ، وانتهت الحرب بانتصار العلم التجريبي على الدين! لكن هذا الزعم غير صحيح.

ليس يُنكر أن بعض رجال الدين النصارى وقفوا ضدَّ بعض النظريات العلمية في عصر النهضة، لكن محاربة بعض العلماء للإيمان بالله، لا تعني أن العلم نفسه في حرب مع الإيمان بالله.

وإذا كانت هناك نقطة سوداء في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في زمن معيّن؛ فإن هذا لا يصدُق على التاريخ الإسلامي؛ فكتاب الله حثَّ على

التفكّر والتدبّر في ملكوت السماوات والأرض واستخدام العقل، وكان المسلمون في القرون المتقدمة يولون العلم التجريبي السليم عناية فائقة، دون أن يعارضهم علماء الشريعة.

الوجه الرابع: أن العلم التجريبي يدلُّ على وجود الخالق وليس على الإلحاد؛ فإن من أقوى الحجج العقلية الحسية على وجود الله: الحجة الكونية أو دليل الخلق، كذلك الحجة الغائية، وكلتاهما تعتمد على العلم التجريبي.

والخلاصة: دعوى الملاحدة أن العلم التجريبي يعارض الإيمان بالخالق لا أساس لها، والحقُّ أن العكس هو الصواب.

العلاقة بين الإسلام والعلم الطبيعي «التجريبي».

سأحاول أن ألخِّص هذه العلاقة من خلال أسئلة خمسة مع جوابها:

السؤال الأول: هل الإسلام في صِدام مع العلم التجريبي؟

الجواب: «لا» بكل تأكيد.

لا وجود لهذا الصدام المزعوم إلَّا في عقول من اخترع هذه الفرية.

ولا ننسى أن المسلمين كانوا سادة هذا المجال في حقبة مضت، وكان الغرب يرحلون إليهم ويتعلمون على أيديهم.

إنما الإسلام يعارض ما كان منه خاطئًا، وما ترتبت عليه مفسدة راجحة.

وفي المقابل: فهو يحثُّ على تعلم ما تترتب عليه مصلحة راجحة.

السؤال الثاني: هل الإسلام يدلُّ على كلِّ ما جاء به العلم الطبيعي؟

الجواب: لا ؛ فالوحي ليس مقرر فيزياء أو جيولوجيا، إنما هو أعظم من هذا وأشرف، وإن كان قد وردت فيه إشارات تدلُّ على بطلان الصدام المزعوم، والباقي مسكوت عنه ولم يعارَض.

السؤال الثالث: هل العلم الطبيعي يدلُّ على الإسلام؟

الجواب: أما جميعه فلا، لكن فيه أشياء كثيرة تؤيد الوحي وتبرهن على صدقه.

السؤال الرابع: هل الإسلام يحكم على العلم الطبيعي؟

الجواب: نعم؛ لأن أي بحث علمي فهو خاضع لواحد من الأحكام التكليفية الخمسة.

فاعتقادنا ـ معشر المسلمين ـ: هو هيمنة الوحي على كلِّ شيء سواه، فهو المركز الذي ننطلق منه في التعامل مع كلِّ شيء، والمرجعيةُ النهائية التي تُردُّ إليها كافةُ المعارف والموجودات.

السؤال الخامس: هل العلم التجريبي يحكم على الإسلام؟

الجواب: لا بكل تأكيد؛ فالإسلام مصدره الوحي، والوحي ليس ماديًّا أرضيًّا، إنما نزل من السماء؛ من لدن حكيمٍ خبيرٍ ـ جل جلاله ـ، فالعلم التجريبي فاقدُ الأهلية ليكون حاكمًا عليه.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي الشباب خصوصًا، والكبار والصغار أيضًا بقراءة كتاب

لطيف ماتِع، يزيل كثيرًا من الشبهات التي ربما تُعَشْعِش في أذهان بعض الناس من التعارض بين العلم والإسلام، اسمه: «ألْف اختراع واختراع»، يتحدَّث ـ تفصيلًا ـ عن الاختراعات التي ظهرت على أيدي المسلمين، وهو مهم في تجلية جانب مهم من تراثهم.

الفصل السادس والعشرون

بين الإتقان والصدفة

تعظيم الصدفة أساس من أسس الإلحاد المعاصر؛ وليس يخفى مدى تأثيرِ هذا التيار على ناشئة المسلمين.

كما لا يخفى أن منهم من قد تنطلي عليه مغالطات الملاحدة في هذا الموضوع؛ كقولهم: الكون وجد من العدم عن طريق الصدفة؛ فلا يلزم أن يكون له خالق!

هذه الجملة قد تُشكل على من لم يكن عالمًا بخطئها؛ فهذا ما يدعونا لطرق هذا الموضوع.

الصدفة، وضوابط لحُسن فهمها

المراد بالصدفة في مجاري كلام الناس: وصفٌ لما يحدث من وقائعَ عَرَضًا وارتجالًا، بدون إرادة أو سبب معروف، أو بدون اتفاق أو توقع، أو بدون قدرة أو مهارة.

ولفهمها بعيدًا عن تلبيس الضالين، هذه ضوابط عشرة:

١ ـ نحن نفسِّر بالصدفة حَدَثًا من جهة كونه لا ترتيب لنا أو لا قصد في حصوله، وليس أننا نقرُّ بأن هذا الحدث بلا سبب.

بمعنى: ربما نستخدم كلمة صدفة للتعبير عن جهلنا بالأسباب المباشرة للوقائع أو قصدها، وليس لأن شيئًا يقع بلا سبب.

٢ ـ الصدفة مجرد وصف سلبي عدمي لا وجود له في الحقيقة، ولا يتصف بأي صفة وجودية؛ وعليه فنسبة إحداث أو تأثير له ضربٌ من العبث؛ فالعدم لا يثبت وجودًا.

إذن، حين ينسب أحد إلى الصدفة الإيجاد من العدم فقد أغرق في الوهم أو التضليل.

٣ ـ وجود شيء بلا سبب مستحيل عقلًا، ولا علاقة له بالصدفة؛ ومن ظن أن هذا يندرج تحت الصدفة؛ فليعلم أنها صدفة تخيلية مستحيلة الوقوع.

٤ ـ ما يقع صدفة لا يكون دائمًا ولا أكثريًّا؛ فالتكرر والصدفة ضدان.

فمثلًا: ربما يقول قائل: التقيت فلانًا اليوم في السوق صدفة ـ أي بلا ترتيب مسبق ـ، لكن من غير المقبول أن يقابله كلَّ يوم، ويقول: حدث هذا صدفة!

٥ ـ لا بد من التفريق بين ما في الذهن وما في الواقع؛ فقد يجوز في الذهن ما يمتنع خارجه.

قد يقدر الذهن أشياء، لكن في الواقع يستحيل وقوعها؛ فقد تتخيل ـ مثلًا ـ وجود عدد لا نهائيٍّ من السيارات، لكن في الواقع لا وجود لعدد لا نهائي من السيارات.

فهمُ هذا يكشف مغالطات إلحادية عدة.

٦ ـ العبرة في الأحكام الواقعية على الاستحالة أو الإمكان الواقعي، لا على الاستحالة أو الإمكان العقلي؛ فلو أنك أخذت مني حبة رمل ذات لون مميز، وذهبت بها إلى مكان لا أعلمه وألقيتها هناك، ربما ألقيتها في الربع الخالي أو صحراء نيفادا أو القطب الجنوبي أو شاطئ جزيرة غير مأهولة في المحيط الهندي أو بجوار منزلي، ثم أخذتُ طائرة وطرت عشوائيًّا في العالم أبحث عنها، ثم نزلت في مكان ما، وما أن بحثت بطرف إصبعي في الرمال إلا والحبة أمامي، من أول محاولة! هل هذا ممكن واقعيًّا أو مستحيل؟ بالتأكيد هو مستحيل، ومن ادَّعى هذا اتهمناه بالكذب أو الجنون،

مع أنه ليس مستحيلًا عقلًا، لكن العبرة في الأحكام على الإمكان الواقعي.

٧ ـ لا وجود للصدفة المحضة في عالم خلقه ربٌّ عليمٌ قديرٌ.

فمتى ما وُجد القدر ارتفعت الصدفة؛ فلا شيء في العالم يقع عشوائيًّا.

بمعنى: لا بأس بوصف الشيء أنه صدفة لجهلنا وقلة معرفتنا، والواقع أن له سببًا لكن نجهله أو لم نُرتّب له، لكن أن يقع شيء بصدفة محضة هذا مستحيل؛ فكلُّ شيء مقدر، والله تعالى خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

٨ ـ الصدفة يمكن أن يجاب بها عن سؤال: «كيف»، لكن لا يجاب بها عن سؤال: «مَن».

بمعنى: إذا قلتَ لي: كيف وقع الحادث؟ يمكن أن أقول: صدفة، لكن إذا سألتني: من أصابك في الحادث؟ فلا وجه لأن أقول: الصدفة!

٩ ـ ما كان متوقعًا أو نتاج أسباب معروفة لا يوصف بأنه صدفة.

١٠ ـ لا تطلق الصدفة على ما ظهرت فيه آثار القصد والعناية.

فمثلًا: لو أخبرتك أني رميت حجارة خلفي عشوائيًّا، ثم التفتُّ وإذا بها قد كونت حُجرةً جميلة مضبوطة الزوايا! فإن جوابك سيكون: كلامك ضربٌ من الجنون!

ولو رأيتَ سيارتي وفيها كدمة فسألتني فقلتُ: أصاب حجر ضخم سيارتي صدفة! هذا الكلام مقبول، لكن لو رأيتَها غدًا وقد أُصلحت؛

فسألتني، فقلتُ لك: الإصلاح حصل صدفة! الكلام هنا غير مقبول؛ فالإصلاح يحتاج إلى سبب وعناية، إلى حرفة ومهارة، إلى فعل مقصود؛ فالصدفة هنا جواب غير مقبول.

الإتقان والإحكام في هذا الكون

لا يمتري عاقل في أن الكون متقن محكم، والمراد بكونه متقنًا: ضبطُ نظامه، وحصولُ كلِّ شيء في مساره الصحيح.

وهذا دليل قطعي على وجود الخالق العظيم سبحانه؛ فإن وجود المخلوقات بعد عدمها دليل على وجود خالقها، وكونها على قدر من الدقة في الخلقة وبراعة في الإتقان وإبهار في الإحكام: دليلٌ على وجوده سبحانه أيضًا.

وهذا ما يسمى عند العلماء بدليل العناية أو دليلِ التخصيص أو دليل النظام.

كلُّ شيء في الكون وضع على هيئة مبهرة، موافقةٍ لمصالح الإنسان ومنافعه، كلُّ شيء قد أُحكم بنظام دقيق يسير وِفقه.

والعاقل يستدلُّ على الشيء بآثاره؛ فمن وجد آلةً مُحكمة قد وُضع كلُّ جزء فيها في موضعه لغايةٍ محدّدة: فسيعلم ضرورةً أن وراء هذا الإحكام صانعًا مبدِعًا.

أما العشوائية، أو ما لا قدرة له ولا علم ولا حكمة: فلا يصدر عنه شيءٌ، فضلًا عن أن يكون مُحكمًا مُتقنًا له وظيفة محدّدة يقوم بها.

ومن تأمل هذا العالم حقَّ التأمل علم قطعًا أن خالقه ـ سبحانه ـ قد

أتقنه غاية الإتقان، وهذا ما أرشدت إليه آيات الكتاب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السَّجدَة: ٧]، وقال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النَّمل: ٨٨]، وقال جل وعز: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

والاكتشافات العلمية المعاصرة قد تجلّى معها كثير من البراهين الكونية على هذا، وأضحت من أقوى الأدلة الحسية على ضرورة وجود الخالق سبحانه، وزادتنا معرفةً به وإيمانًا وتعظيمًا.

ويكفي لإدراك هذا: أدنى إطلالة على مخرجات علم الأحياء أو الفيزياء أو الكيمياء أو الجيولوجيا أو التشريح أو الفلك أو غيرها من العلوم.

فعن أي شيء أحدثك! أعن النِّسَب الدقيقة في ضبط الهواء والغازات المنتشرة في الكون؟

أم عن المسافة الدقيقة بيننا وبين الشمس، والتي لو اختلفت بقدر يسير لكانت الأرض أبردَ من المريخ أو أسخنَ من الزهرة، ولتعقدت الحياة؟!

هل أحدِّثك عن الغلاف الجوي الذي يحول ـ بفضل الله ـ دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلينا؟!

أم عن ماء البحار الذي يغطي ثلاثة أرباع الأرض، والذي لولا أن الله مَنّ به لاستحالت الحياة؟!

أم أحدثك عن الجاذبية الأرضية التي يعني أدنى تغيير في نسبتها استحالةَ الحياة عليها أيضًا!

هل أحدثك عن الدماغ أم عن القلب أم عن العين؟

أم أدعُ هذا وأحدثك عن شيء صغير جدًّا لم نره: «الذرّة»؛ يقول علماء الفيزياء: إن أي خاصية من خصائص الذرة لو اختلفت لكان من المرجح أن تكون الحياة مستحيلة!

نحن الآن نتحدث عن أشياء غاية في الدقة، بل فوق التصور؛ لك أن تعلم أن الثابت الكوني المتعلق بمعدل توسع الكون: يقول العلماء: إن فيه من الدقة ما لا يخطر على بال؛ بحيث إنه لو تغيرت دقة هذا الثابت سرعة أو بطءًا درجة واحدة فقط من درجات يبلغ عددها عشرة أُس مائة وعشرين لامتنعت الحياة في الكون! أرأيت هذه الدقة؛ واحد من عدد هائل يفوق التصور، وهو: واحد وأمامه مائة وعشرون صفرًا!

أكلُّ هذا كان صدفة؟ أم أنه صنعُ الله الذي أتقن كلَّ شيء؟! كل منصف يدرك الجواب.

الخلاصة: عندنا مقدمتان ونتيجة:

المقدمة الأولى: الكون متقن محدث، والدليل عليها: الواقع المحسوس الذي لا سبيل إلى الشكِّ فيه.

المقدمة الثانية: كلُّ ما كان متقنًا محكمًا لا يكون إلَّا من فاعل عليم حكيم قدير.

النتيجة: الكون له خالق عليم حكيم قدير جلَّ في علاه.

🕮 سبب تعظيم الملاحدة لموضوع الصدفة

من أكبر مآزق الملاحدة: تظاهرهم بمحبّة العلم التجريبي والعقلانية، مع إنكارهم وجود الخالق سبحانه؛ ذلك أنَّ العلم التجريبي

يدلُّ على أن الكون قد ظهر بعد أن لم يكن موجودًا وفق قوانينَ فيزيائيةٍ دقيقةٍ جدًّا، كما أنه يدلُّ على التعقيد الشديد للحياة، والمنطق السليم يقتضي أنه لا يمكن ظهور المخلوقات المعقَّدة إلَّا بخالق.

ومِن هنا يلجأ الملاحدة إلى تعظيم الصدفة ليوهموا أنفسهم وغيرهم بجواب يحلُّ هذه العُقدة: المستحيل يمكن أن يحدث صدفة!

الملاحدة يجعلون الصدفة مسؤولة عن ظهور جميع المخلوقات، وبالغوا في قدراتها حتى كادوا أن يعبدوها! يقول (جاك مونو) ـ العالم الفرنسي الملحد المتخصص في الطب ـ: «الصدفة وحدها هي مصدر كل هذا الابتكار في جميع المخلوقات»!

وداعية الإلحاد الجديد (ريتشارد دوكينز) ـ وهو دكتور في علم الأحياء ـ من أكثر من يعظِّم الصدفة ويتحدّث عنها، لا سيّما في كتابه: «صانع الساعات الأعمى»، حتى إنه قرر أنه يمكن أن يحصل صدفة أن نجد تمثالًا رخاميًّا يلوح بيده أمامنا فجأة، هذا ممكن وإن كان على احتمال ضعيف، لكنه ليس مستحيلًا! ثم ذكر أنه بمثل هذا الاحتمال الضعيف من الممكن نظريًّا أن بقرة تقفز فتحطّ فوق القمر صدفة! ثم بنى على هذا أن الأحداث التي تبدو مستحيلة ـ مثل ظهور الحياة على كوكب الأرض ـ قد تحدث مصادفة، فلا تحتاج في وجودها إلى خالق!

إن علينا أن نلغي عقولنا تمامًا إذا ما أردنا أن نصدق الملاحدة؛ فأي شيء أكثر استحالة من أن يحتمل إنسان ـ مجردَ احتمال ـ أن تمثالًا جامدًا يحرك يده، بل أن بقرة تقفز قفزةً فلا تجد نفسها إلَّا فوق سطح القمر! ناهيك عن ظهور هذا الكون صدفة من لا شيء.

🕮 هل يمكن أن يكون وجود الكون المتقن نتاج الصدفة كما يزعمون؟

هذا من أبطل الباطل، والردُّ عليه طويل جدًّا، لكني سأكتفي بسبعة أوجه:

أولًا: من تأمل كلام الملاحدة في الصدفة وجد أنهم يقدّسونها ويلبسونها صفات الربوبية؛ لأنهم يريدون أن تحُلَّ بديلًا عن الربِّ سبحانه في تفسير أصل الحياة وانتظامها؛ ولذا فقد وصفوها بصفات الرب القادر على كلِّ شيء! وكل العقلاء يدركون أن الصدفة ليست بكائن حتى تستطيع أن تخلق شيئًا، بل ليست بشيء في الحقيقة، فضلًا عن اتصافها بالحياة والقدرة والعلم والحكمة؛ فكيف يُعزى وجود الأشياء إليها؟

الملاحدة يفضّلون الإيمان بأي شيء سوى ربِّ العالمين سبحانه!

إن مما لا شك فيه أن كلمة الصدفة استُخدمت من قِبَلِهم بمغالطة وخداع؛ وذلك لصرف الجهال عن الاعتقاد بوجود خالق للكون بإحالتهم إلى بديل مألوف لديهم وهو الصدفة، والذي يضطرهم إلى هذا المسلك هو أنه من غير الممكن قبول وجود الكون من لا شيء؛ فهم لا يجرؤون على أن يصرحوا بهذا؛ بل يختبئون وراء ما يسمونه الصدفة لتكون بديلًا عن الخلق؛ فيرمون بهذه الكلمة ويمشون! دون أن يُعرِّفوا بهذه الكلمة أو يميطوا اللثام عن حقيقتها.

والسؤال الآن: هل تسمح كلمة الصدفة بتوظيفها بالطريقة التي يريـدون؟

بالنظر في استعمال الناس لكلمة صدفة ـ وقد تقدم شيء من هذا ـ نجد أنها تُستخدم للتعبير عن واحد من ثلاثة أمور:

١ ـ للتعبير عن عدم القصد من وراء الفعل، كأن تلتقي بصديق في سوق من غير موعد، فتقول: لقيته صدفة، أي بغير قصد مني أن ألقاه.

٢ ـ للتعبير عن وجود القصد لإحداث الفعل مع عدم توفر القدرة أو المهارة؛ كأن يرمي أعمى كرة السلة فيصيب الهدف، فيقال: إن إصابته للهدف كانت من قبيل الصدفة، أي ليست عن استحقاق ومهارة منه.

٣ ـ للتعبير عن عدم وجود رابط بين حدثين متزامنين أو متلاحقين؛ كأن تمرَّ سيارة بقرب عمارة تُبنى فتسقط عليها حجرة تصيبها؛ فيقال: أصاب الحجر السيارة صدفة.

يتضح من استخدام كلمة (صدفة) أنه لا علاقة لها بما يحاول الملاحدة إيهام الناس به، فالصدفة يقتصر التعبير بها على عدم القصد أو عدم القدرة أو عدم الارتباط، لكنها لا تتناول أبدًا عدم وجود فاعل! فلم يبقَ إلَّا أن استخدامها هنا تضليلٌ للناس وإيهامٌ لهم بوجود بديل معقول لمسألة الخلق.

وخلاصة القول: إن كلمة صدفة لا يصحُّ استعمالها في إيجاد شيء من لا شيء.

وقد يقول قائل: إنهم إنما يريدون بمقولتهم: «الكون نشأ صدفة» كونَه تطور من حالة أولية تسودها الفوضى إلى حالة منظمة كما نراها اليوم من دون الحاجة إلى منظِّم، ولا يريدون بذلك خروجه من العدم إلى الوجود.

والجواب عن ذلك: أنهم قلّما يشيرون إلى هذا التفريق، متعمِّدين دمج المسألتين: الإيجاد والتنظيم.

ثم: إن أرادوا التنظيم لا الخلق؛ فيقال لهم: إن هذا صرف للمسألة عن أصلها؛ فإن إخراج الوجود من العدم أعظم من إخراج وجود منظم من وجود غير منظم، فلماذا تركتم أصل المسألة وأعظم جانبيها وتعلقتم بالآخر؟ بمعنى: قبل أن تتحدثوا عن تنظيم الكون؛ أجيبونا: ما سبب وجود الكون؟ ولا إخال أكثرهم إلَّا سيعود مرغمًا للجواب السابق الساقط: وُجد صدفة!

ثانيًا: لو غضضنا الطرف وانتقلنا للحديث عما بعد وجود الكون، وما زعموه من أن الصدفة هي المسئولة عن وجود الدقة والتناغم في هذا الكون، فيقال: يدرك العقلاء جميعًا أن ما يحصل صدفةً يكون عشوائيًّا لا منظّمًا؛ **فالتعقيد والنظام يتضادَّان مع الصدفة والعشوائية.**

ثالثًا: يلبّس الملاحدة على الناس حين يصفون المستحيل بالممكن الذي احتمال وقوعه ضئيل جدًّا، وكلُّ العقلاء يدركون أن قفزة بقرة توصل إلى القمر! أو حركة يد تمثال رخامي، أو رمي مجموعة أوراق أثناء إعصار ينتج بيتًا ورقيًّا: أن هذه أشياء مستحيلة الوقوع، والتصديق بإمكان وقوع هذه الأشياء ضربٌ من السخافة، والأمر أوضح من أن يُطال في بيانه.

رابعًا: يرضخ الملاحدة المعاصرون لحقيقة أن هذا الكون المعلوم لنا وكلَّ ما فيه له بداية محدّدة، ويتضمن هذا أن ظهور الحياة على هذه الأرض له بداية أيضًا، وأنه محدد بفترة زمنية معيّنة، فلا يمكن إعطاؤه وقتًا غير محدود؛ ولو سلمنا جدلًا أنَّ الصدفة شيء فاعل؛ إلَّا أن الوقت قصير جدًّا لتكون الصدفة هي المسبب الحقيقي! خذ مثلًا: يقول (دوكينز) ـ رأس الملاحدة المعاصرين ـ: «فبمجرّد إعطاء وقتٍ أو فُرصٍ غير

محدودة، فإنّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يحدث»؛ وهذه مغالطة مرفوضة؛ فليس هناك شيء اسمه: وقتٌ غير محدود، أو فرص غير محدودة في هذا الكون.

إن كون ظهورِ الحياة على الأرض له بداية زمنية يشكّل معضلة كبرى لهم!

خامسًا: حين يقرر الملاحدة إمكانية ظهور الحياة على الأرض صدفة؛ فإنهم يخالفون كلًّا من العلم التجريبي والمنطق السليم، فعدا عن أن كلَّ محدَث فلا بد له من محدِث، والصدفة لا تُحدِث؛ فادّعاء إمكانية ظهور الحياة على الأرض مصادفة: باطلٌ؛ لأن هذا الظهور لا بد فيه من النظر إلى جوانب معقدة مختلفة:

الجانب الأوّل: لا بدّ قبل ظهور الحياة على كوكب الأرض أن يكون قابلًا للحياة أصلًا، ولكي يكون قابلًا للحياة فلا بدّ أن يكون فيه جملة من المعايير الفيزيائية المعيّنة، ومع عدم وجودها فالكون غير قابل للحياة.

ذكر علماء الفيزياء الفلكية أنه لا بدّ من وجود ستة وعشرين معيارًا فيزيائيًّا مضبوطًا بشكل دقيق جدًّا لكي يمكن أن تنشأ الكائنات الحيّة في أي موضع من الكون.

فمن الذي ضبط هذه المعايير؟ أهي الصدفة أيضًا؟!

الجانب الثاني: الأحياء يتكوَّنون من الخلايا، والخلايا مكوّنة من البروتينات، والبروتينات مكوّنة من الأحماض الأمينية، والبروتين مبني بطريقة معقّدة جدًّا، فيستحيل وجوده صدفة.

يقول أحد علماء الفيزياء: «إن صنع البروتين ببساطة من خلال ضخ الطاقة هو أشبه بتفجير قضيب من الديناميت تحت كومة من الطوب، وأن تتوقّع ظهور منزل»!

الجانب الثالث: البروتينات ترتبط وتتفاعل مع الدي إن أي (DNA)، وهو من أهمّ مكوّنات الخلية وتُخزّن المعلومات فيه، وظهور الدي إن أي صدفة أيضًا من المستحيلات القطعية.

الجانب الرابع: ليس الدي إن أي هو المكوّن الوحيد في الخلية، بل هناك مكوّنات أخرى لا بدّ من وجودها؛ فالخلية أقرب ما تكون إلى مصنع مصغّر يعمل فيه آلاف من القطع، وقد ذكر الدكتور (مايكل دينتون) ـ عالم الأحياء الجزيئية الأسترالي ـ: أن أصغر خلية بكتيرية ـ تلك التي تزن أقل من الغرام بترليون مرة ـ هي: مصنع حقيقي مصغّر، وقد احتوت على آلاف القطع البديعة التي تعمل كآلات جزئية معقدة!

هذه أربعة جوانب من جوانب عديدة لتكوّن الحياة، ونلحظ جيّدًا أن ظهور كلٍّ واحد من هذه الجوانب الأربعة صدفةً مستحيل، وإذا لاحظناها جميعًا مع بعضها فإننا نعلم أنه في غاية الاستحالة.

سادسًا: المسألة ليست في وجود الكون من العدم، بل ولا في إتقانه فحسب؛ بل أيضًا في استمراره على هذا الإتقان وعدم اضمحلاله.

بمعنى: سلمنا جدلًا أن الكون وُجد بضربة حظٍّ عشوائية ـ وهذا أبعد المستحيلات ـ فمن أين جاءه تماسُكُ نظامه؛ لِم لَم يُسرع إليه الخلل؟ ولِمَ لَم تنجم فيه الفوضى صدفةً أيضًا؟! ومن الذي يمسكه من أن يزول؟

هل الصدفة ـ نفسها ـ كانت هذه المرة هي القادر الرحيم الذي يحنو على هذا الكون فيحافظُ على نظامه قرونًا متطاولة؟!

هل تصالحت الصدفة مع عدوِّها ـ أعني الاستمرار والتَّكرار ـ لأجل رعايتنا؟!

هل هناك عقول تقبل هذه الترهات؟!

سابعًا: آخر من ينبغي أن يتكلم بهذه الهذيانات هم الملاحدة الماديون؛ فقد صدّعوا رؤوسنا بنفي كلّ شيء لم يثبت بالحسّ والتجربة؛ فيقال لهم: من أين لكم أن الكون وجد صدفة؟ ومن أين لكم أن الإبداع الذي فيه وجد صدفة؟ وفي أي مختبر جربتم هذا فوصلتم إلى هذه النتيجة؟

ألستم مَن ألزم بالتحاكم المذهب المادي النافي لكلِّ ما لم يثبته الحسُّ والتجربة؟

ألستم الذين نفيتم وجود العظيم الحليم سبحانه ووجود الغيبيات لأجله؟

إذن طبقوا منهجكم في مسألة الصدفة ونشأة الكون؛ ثم أعلمونا!

«وأول راضٍ سيرةً من يسيرها»!

حسنًا؛ لن أشقَّ عليكم في مبدأ الكون، وإنما سأطالبكم أن تثبتوا لنا بالتجربة أي شيء وُجد من العدم صدفةً بلا سبب!

ولن أشقَّ عليكم فأطالبكم بجبال أو بحار أو حيوانات؛ أثبتوا أن سيارةً وُجدت من العدم صدفة!

أو أثبتوا أن هاتفًا «جوّالًا» وجد من العدم صدفة!

بل أثبتوا أن فنجان قهوة وجد من العدم صدفة!

حسنًا؛ دعوا كلَّ ما سبق؛ وأثبتوا بالتجربة العلمية الحسية أن حبةَ رمل واحدةً وجدت من العدم صدفة!

أعتقد أنه سيطول انتظارنا، ولن نجد جوابًا!

لزيادة الفائدة

۞ أُوصي بأمرين:

١ ـ قراءة موضع مهم جدًّا في بيان الإتقان في هذا الكون من كتاب «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٣٩ ـ ٧٩٤) من طبعة دار عالم الفوائد.

٢ ـ الاطلاع على مقطع مدته خمس دقائق، أنتجتْه لجنة يقين لنقد الإلحاد واللادينية، بعنوان: «دليل الأفعال، هل الصدفة أوجدت الكون؟». منشور في الشبكة.

الفصل السابع والعشرون

نظرية التطور في الميزان

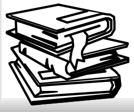

نحن هنا أمام موضوع مهمٍّ وكبير، فنظرية التطور هي حجر زاوية للفلسفة الإلحادية المعاصرة، ومن أبناء المسلمين من يتوهم صحتها، مع أن حجم المغالطة العلمية والعقلية فيها كبير، فهذا ما يدعونا للبحث فيها.

والموضوع علميٌّ عميق واسع، وسأحاول أن أختصره وأسهله قدر الإمكان.

التعريف بنظرية التطور

نظرية التطور ـ أو نظرية النشوء والارتقاء ـ نظرية مشهورة، لا أظن أحدًا لم يسمع بها، وهي التي أسسها تشارلز داروين، وأصلها اكتشافات كان يدوّنها للمظاهر الطبيعية التي شاهدها أثناء رحلة بحرية طويلة له على متن سفينة «بيغل»، فتولّدت لديه فكرة؛ وهي: أن هذه الحيوانات تطوّرت تدريجيًّا من كائن إلى كائن، ثم انتهى الأمر بإصداره كتابه المشهور: «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩م، ثم أصدر كتابه الثاني: «أصل الإنسان» عام ١٨٧١م.

خلاصة النظرية: أن الكائنات الحية تشترك في أصل واحد؛ هو كائن حقير ذو خلية واحدة، ثم أخذ في التطور والارتقاء، وتشكلت منه الأنواع الحيوانية مع مرور الوقت، وهذا التطور قائم على قانون الانتخاب الطبيعي الذي يقوم على المصادفة والعشوائية العمياء.

وقد تلقى هذه النظريةَ بالقبول كثيرٌ من الأكاديميين الغربيين ـ رغم وهنها الشديد، كما سيأتي ـ، واحتفى بها الملاحدة احتفاء لم تحظَ به أي نظرية سواها.

🕮 نظرية التطور.. حقيقةٌ علميةٌ، أم فرضيةٌ مُنتَقَدة؟

الواقع أن هذه النظرية ـ وأنا أصفها بالنظرية لشهرتها بهذا ـ أقرب ما تكون لحُلم يداعب دعاتها، وليست نظريةً علميةً قابلةً للتجربةِ العلمية المعتبرة، فضلًا عن كونها حقيقةً علمية.

على الرغم من مرور مائة وستين عامًا على النظرية؛ لم يقم دليل واحد صحيح على انتقال نوع من الكائنات الحية إلى نوع آخر (وليس التطور في النوع نفسه).

آلاف الأطنان من الصخور التي حُفرت: لم توجد بينها أحافير وسيطة لأنواع الكائنات الحية.

يوجد ثلاثة ملايين نوع من الكائنات الحية على وجه الأرض ـ بخلاف المنقرضة ـ ولا يوجد في السجل الأحفوري دليل علمي واحد يثبت وقوع التطور، وأن للكائنات أبًا مشتركًا واحدًا.

لا توجد ورقة علمية محكمة واحدة تثبت ظهور شِفرة جينية جديدة لبروتين وظيفي متخصص من خارج الحوض الجيني لأي نوع.

ألا يحق لنا أن نقول بعد هذا: إنها فرضية تخيلية لا حقيقةٌ علمية بل ولا نظرية.

ولا يزيدها التطور العلمي مع مرور الأيام إلا وَهْنًا وإشكالًا.

وما أكثرَ التطوريين الملاحدة الذين اكتشفوا هذه الحقيقة المرة؛ ومنهم الدكتور (مايكل دانتون) ـ المتخصص في علم الوراثة ـ؛ فقد ألّف سنة **١٩٨٥م** كتابًا ينتقدها سماه: «التطور: نظريةٌ في أزمة»! قرر فيه أن النظرية ليست أشبه بالطعام الذي لم ينضج، بل الذي لم يُطبخ أصلًا، ثم يراد من الآخرين أكله ولو بالقوة!

العجيب أنه بعد ثلاثين سنة أي عام **٢٠١٥**م ألّف كتابًا آخر سماه: «التطور: نظرية ما تزال في أزمة»! أوضح فيه أن الإشكالات على النظرية قد زادت! والكتابان مترجمان بالعربية، مطبوعان.

أوجه نقدها باختصار

منذ أن خرجت هذه النظرية إلى الناس وإلى اليوم وهي تُواجَه بنقدٍ عنيف من كثير من العلماء في تخصصات مختلفة؛ نظرًا لوهنها الشديد، والثغرات الكثيرة التي تشتمل عليها.

والإحاطة بكلِّ أوجه نقدها شيء لا تحتمله هذه المساحة الضيقة؛ لذا، فسأكتفي ببعض الأوجه الموجزة:

أولاً: العجز عن الإثبات

فمع عظيم الهالة التي خلعها الملاحدة على هذه النظرية؛ إلا أنها لا تزال في درجة الفرضية! وثمة عقبات كثيرة تعترضها:

الأمر الأول: التطور المُدَّعى شيء لا يمكن ملاحظته ولا تجربته، ولم ـ ولن ـ يتمكن التطوريون من تقديم صورة واحدة من صور التطور خضعت للتجريب والاختبار.

والعجيب أن أنصارها الملاحدة يزعمون أنهم يسلكون المنهج الطبيعي المنهجي، الذي خلاصته: أنه لا يمكن نيل العلم بحقيقة الوجود إلا عن طريق التجارب العلمية.

وينتقد أولئك أهلَ الأديان لمخالفتهم له؛ وها هم يخالفونه!

باختصار: النظرية تقول: بقاء الكائن الحيِّ إنما كان بسبب

الانتخاب الطبيعي؛ فما الدليل العلمي التجريبي على أنه تمّ انتخابه؟ وما الدليل على أنه لم يبق حيًّا إلَّا لمجرد الانتخاب؟ ولِمَ لا يكون هناك سبب آخر لبقائه؟ الجواب عندهم: لا جواب!

الأمر الثاني: هذه النظرية حافلة بالثغرات والفجوات التي لم تُسَد حتى الآن.

ومنها: فقدان الضروب الوسطى الانتقالية؛ فلم تكشف الحفريات عن شيء منها.

ومنها: فقدان الطفرة في الطبيعة، فلا يوجد في الواقع مثال واحد لطفرة طبيعية ولو لخلية واحدة، بل ولو لجزيء وظيفي واحد داخل الخلية!

ومنها: وجود الأعضاء التي بلغت الغاية في الدقة؛ وقد اعترف داروين ـ نفسه ـ في العين ـ البالغة منتهى الدقة والتعقيد ـ أن القول بأنها تكونت عن طريق الارتقاء الطبيعي: (ذلك يبدو ـ وأنا أعترف بذلك ـ كشيء منافٍ للعقل إلى أعلى درجة). هذا كلامه بنصه في كتابه «أصل الأنواع» ص**٢٩٣**.

وهذه الفجوات الكثيرة جعلت داروين ـ نفسه ـ يكثر من ترديد عبارات الشكّ والارتياب من نظريته في كتابه، وقد أحصى بعض الدارسين ما جاء منها فيه فبلغت أكثر من (٨٠٠) جملة ارتياب!

الأمر الثالث: ضخامة الشواهد الواقعية التي تناقض فرضية التطور؛ فإن الكائنات الحية ينطق تكوينها بأنها نتاج إحكام وإتقان، لا صدفة وعشوائية، وأمام هذه الحقيقة الجلية: تبدو هذه النظرية ظاهرة البطلان.

وقد صدق العالم التجريبي (كلوتز) حين قال: (الاعتقاد بالتطور يحتاج إلى كثير من السذاجة!).

ثانيًا: فساد منهج الاستدلال والاستنتاج.

ويظهر هذا بما يأتي:

١ ـ المبالغة في الاعتماد على الخيال والحدس.

حيث إن التطوريين لما لم يقفوا على ما يدعم نظريتهم من أحافيرَ واضحةِ المعالم، وأعضاءٍ متكاملة الصورة: لجأوا إلى الخيال والتخمين، وأضحى مُعتمَدَهم الأكبر، وصاروا كما قيل: «يبنون من الحبة قُبة»! وهذا خلل منهجيٌّ بيّن.

أضرب لك مثالًا: لقد عُثر عام **١٩٢٢**م في ولاية نبراسكا بأمريكا على حفرية (ضِرس)؛ فزعموا أنه يحمل صفات مشتركة بين البشر والقردة، واعتمادًا عليه: رسموا صورة جمجمة وجسد لصاحب الضرس، وسمّوه: (إنسان نبراسكا)، بل رسموا صورة زوجته! كل هذا بناء على الضرس! ثم اكتُشف بعد عدة سنوات أنه لا يعود لإنسان ولا لقرد؛ وإنما هو ضرس نوعٍ من الخنازير البرية الأمريكية المنقرضة!

فهل مثل هذا النوع من الاستنتاج له من البحث العلمي نصيب؟ أم هو ضرب من التخيلات؟!

٢ ـ الاعتماد على مطلق المشابهة.

فما أن يجد التطوريون أدنى تشابه في بعض الأجزاء حتى يجعلوا هذا دليلًا على التطور التدريجي والانتقال النوعي بين الأحياء.

وهذا منهج غير صحيح؛ لأن التشابه لا يعني بالضرورة التطور والانتقال؛ فلم يدَّعِ أحدٌ قط وجود تماثل تطوري بين الإنسان والأخطبوط بناء على أن عين هذا قريبة الشبه من عين هذا! وهل سيقول التطوريون إن التشابه بين الإنسان وثمرة البطاطا في عدد الكروموزومات ـ حيث إن كلًّا منهما لديه **٤٦** منها ـ يعني أن ثمة صلة تطورية بينهما؟! وهل تعلم أن التشابه الجيني بين الإنسان وديدان النيماتودا يبلغ **٧٥٪**؟ وأن حوالي **٦٠٪** من جينات الدجاج لديها نظير جيني بشري؟ وأن بين الإنسان وذبابة الفاكهة **٦٠٪**؟ بل بين الإنسان والفأر **٩٩٪**؟ بل بين الإنسان والموز **٥٠٪**؟!

الخلاصة: ما الدليل على أن تشابهًا بنسبةٍ ما بين كائنين يقتضي سلفًا مشتركًا؟

أُقرِّب هذا: هل كون رجلين يلبسان مقاس حذاء واحدًا يستلزم أنهما من قبيلة واحدة؟!

وهل التشابه بقدرٍ ما بين سلاح الرشاش ومصيدة الفئران يستلزم سلفًا مشتركًا بينهما؟!

مهما يكن من شيء؛ فإن وقوع تشابه بقدرٍ ما بين الكائنات الحية ليس مستغربًا عند أهل الإيمان؛ فالخالقُ لها جميعًا واحد، سبحانه وتعالى.

٣ ـ وقوع التطوريين في الدَّور (أو: الاستدلال الدائري).

أي البرهنة على المسألة بنفسها، والدَّور مغالطة منطقية يتحاشاها العقلاء.

ومن شواهد وقوعهم فيها: أنهم يستدلون بالأحافير على التطور، ويعتمدون على التطور في تفسير الأحافير!

بمعنى: إذا قلت لتطوريّ: لم هذان الكائنان متشابهان؟ أجابك: لأن لهما سلفًا مشتركًا، وإذا قلتَ: وما الدليل على أن لهما سلفًا مشتركًا؟ أجابك: لأنهما متشابهان! وهكذا في حلقة مفرغة لن نخرج منها.

ثالثًا: بطلان القواعد المركزية

هذه النظرية تقوم على أصلين:

أ ـ القولِ بالصدفة.

ب ـ الانتخابِ الطبيعي طويل الأمد.

أما الصدفة فقد مضى الكلام عنها في الفصل الماضي، وتبين أنها لا تصلح تفسيرًا علميًّا لنشأة الكون أو تطوره.

وأما الاعتمادُ على الانتخاب الطبيعي طويل الأمد: فمنقوض من وجهين:

١ ـ فقدان التناسق الاطرادي؛ حيث إن مبدأ الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح من كلِّ نوع يستدعي أن تكون الأعداد المنقرضة أضعافَ أضعافِ أعداد الأصناف الموجودة، غير أنه لا إثبات لهذا؛ فالأحافير المكتشفة لم تسعفهم بشيء البتة.

أعني: إذا كان عندنا اليوم ثلاثة ملايين نوع من الكائنات الحية، وبحساب هذا العدد مع المعدل الزمني لظهورها فلا بد أن يظهر كائنٌ حيٌّ جديدٌ كلَّ بضعة أيام، ولا بد من آلاف الكائنات المتحورة كلّ ساعة، أي أن الضروب الوسطى ينبغي أن تكون بالمليارات، لكن لم تكشف الأحافير عن شيء منها أبدًا.

بل الأحفورات الحديثة عبءٌ ثقيل مُحرج لهم؛ فهم ـ بسببها ـ بحاجة دائمة إلى التعديل على النظرية والاختصار أو التغيير؛ ولذا خرجت لنا أكثر من نسخة لها.

٢ ـ فقدان التناسق الزمني؛ فلا تناسب بين التطور المُدّعى والزمن؛ فالانتخاب أو تطور الحيوانات عبر الطفرات لا يتناسب مع زمن وجودها على وجه الأرض؛ فالوصول إلى النوع الحديث من أيِّ نوع من الحيوانات يحتاج إلى زمن أكبر بكثير من المقدّر عندهم.

هذا فضلًا عن استحالة حصول التعقيد المحكم عن طريق الانتخاب مهما طال الزمن.

وهذا الاعتراض الرياضي من أقدم وأهم الاعتراضات على النظرية؛ فالحسابات الرياضية تبين بوضوح استحالة حصول التطور المدّعى في المدة الزمنية التي يقدرونها لعمر الكون.

رابعًا: العجز عن التفسير البيولوجي.

حيث تقف النظرية عاجزةً عن تفسير كثير من المظاهر الجوهرية في الحياة، وقاصرةً عن بيانها، لا سيما مع ملاحظة ما يسمى بالتعقيد غير القابل للاختزال لجميع مظاهر الحياة، والمراد به: النظامُ المكوَّن من أجزاء شديدة التداخل والترابط، والتي يؤدِّي أي تغير فيها إلى فساد النظام وانحرافه عن مساره.

وهذه الأنظمة المعقدة غير القابلة للاختزال صُداعٌ في رأس مناصري النظرية؛ لأنها عصيّة على أن تُنتَج في ضوئها.

ومن أهم المظاهر البيولوجية التي تعجز فرضية التطور عن تفسيرها:

أ ـ نشأة الحياة؛ فالتطوريون عاجزون تمام العجز عن إبداء تفسير علمي منطقي لأصل بزوغ الحياة في ضوء نظريتهم: مِن أين أتت تلك الخلية الأولى؟ وكيف تحولت المادة الصماء التي لا حياة فيها إلى كائن حيّ؟!

أقول: قبل أن تحدثونا عن التطور حدِّثونا عن النشوء! فالأصل قبل الفرع.

والنشوء ـ باعتراف كبار الملحدين قَبل غيرهم ـ يستحيل تفسيره في إطار الرؤية التطورية.

اليوم وأمس وغدًا: هناك سؤال لا إجابة له في الفلسفة التطورية: كيف بدأت الحياة على وجه الأرض؟ وكيف للكون الذي تشكل في زعمكم من مادة عمياءَ بلا عقل أن ينتج كينونات تحكمها الغائيةُ والقدرةُ على التكاثر والكيمياءُ المشفرة؟

وإذا كان السؤال الأول في «الداروينية» بلا إجابة فكيف نتطلع لما بعده!

ب ـ تعقيد الخلية الحية؛ فالتقدم العلميُّ أثبت أن الخلية عالمٌ معقّد غاية التعقيد، حتى قيل: (إن الخلية لا تقل تعقيدًا عن مدينة نيويورك!)؛ وعليه، فتكونها صدفةً أمرٌ مستحيل.

ج ـ الوعي والذكاء: من أين جاء؟

وعمل الأنظمة البيولوجية كيف حصل؟ فالحياة وما فيها أشمل وأعقد من مجرد النشوء والتطور.

وعمل الأجهزة العضويةِ المعقدة الذي هو في غاية التداخل والإبهار: كيف تم؟

النظرية تقف عاجزة عن تقديم تفسير مقبول لهذا التعقيد والتناغم المثالي؛ إذ يستحيل عقلًا أن نظامًا متكاملًا كهذا قد حدث صدفة!

إن كلَّ عاقل يدرك أن أي آلة فلا بد لها من صانع، وكلما كانت الآلة أكثر تعقيدًا كان صانعها أكثر عبقرية!

خامسًا: تناقضها مع علوم ونظريات تجريبية أخرى.

خذ مثلًا: نظرية علمية حديثة هي: الحد الأدنى من الجينات؛ والتي قررت أنه لا يمكن لأيِّ كائن حي ـ مهما كانت بساطته ـ أن ينزل عن ٣٩٧ جينة، وهذه النظرية تقضي على نظرية التطور تمامًا؛ لأنها تقرر أن الحياة بدأت بصفر جينة ثم واحد جينة ثم اثنين وهكذا.

🕮 سبب حماسة الملاحدة لهذه النظرية مع كثرة الأوجه التي تدلُّ على ضعفها

هذه النظرية حجر الزاوية في المنهج الإلحادي، والكتابُ المقدس له، وهي التي تبناها الملاحدة وتحمسوا لها غاية الحماسة، ووسّعوا دائرتها لتشمل كلَّ مناحي الحياة.

والسبب: أنها طوق النجاة لهم! إنهم يرون أنها النظرية الوحيدة التي يمكن بها تفسير بداية الخلق دون الحاجة إلى الخالق.

باختصار: سِرُّ حماستهم: أنه إذا سقط التطور سقط الإلحاد!

فالكائنات الحية إما أنها جاءت عن طريق خلق خالق، وإما عن طريق التطور والارتقاء، ولا بديلَ ثالثًا!

وهم على استعداد لقبول أي شيء سوى الإيمان بالخالق سبحانه.

ومن الطريف هنا أن التطوري الملحد المشهور (دوكينز) أجريت معه مقابلة منشورة ومترجمة في يوتيوب: قرر فيها أن أصل الحياة ربما كان من بعض الكائنات المتقدمة تقنيًّا، وبَذَرُوهُ في كوكبنا؟! وذكر أنها فرضية مثيرة! إذن هو لا يمانع من كون الحياة مفعولة لفاعل حكيم؛ وإنما يعترض على نسبتها إلى الخالق ـ سبحانه ـ تحديدًا!

والإيمان بالكائنات الفضائية الخالقة عنده ممكن، أما الإيمان بالخالق العظيم سبحانه فغير ممكن! ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المائدة: ٤١].

يقول (دوكينز) ومن على شاكلته: كيف نؤمن بالله ونحن لم نره! وهل رأيتم الكائنات الفضائية؟!

دعكم من هذا؛ هل رأيتم الخلية الأولى؟

هل رأيتم السلف المشترك لأيِّ نوع حي؟

هل رأيتم الطفرات العشوائية؟

هل جربتم كلَّ هذا في المعامل؟

مرة أخرى: صدق الله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المائدة: ٤١].

الواقع أن **الملحد لم يؤمن لأنه لا يريد أن يؤمن!**

وإذا فهمنا سرَّ حماستهم لنظرية التطور لم نستغرب الإرهاب الشديد الذي مارسوه ضدَّ كل من يخالفهم فيها، وقد ألَّف الدكتور (جيري بيرغمان) كتابه: «ذبح المنشقّين»، وصف فيه ما يلاقيه معارضو النظرية

في بعض الأوساط العلمية، وقد بنى هذا الكتاب على مقابلة ثلاثمائة عالم وأكاديمي، وجميعهم بيَّنوا بمرارة ما يلاقونه بسبب عدم موافقتهم لها.

أضف إلى هذا أنه قد أنتج بعض أنصار نظرية التصميم الذكي فيلمًا وثائقيًّا هو: «مطرودون ـ غير مسموح بالذكاء»! يتحدث عن الإقصاء في المجتمع العلمي الإلحادي في الغرب لكلِّ من يعترض على تلكم النظرية، وقد انتشر هذا الفيلم الوثائقي كثيرًا، وتم عرضه في (١٠٥٢) مسرح في الولايات المتّحدة، وهذا ما لم يحدث لأي فيلم وثائقي قبله.

🕮 تنبيهات خاتمة

أولًا: يخطئ بعض الناس حين يظنون أننا نتحدث هنا عن نظرية علمية يتجادل فيها المتخصصون كما هو الشأن في أي مسألة علمية خلافية؛ هذا خطأ كبير.

نحن أمام عقيدة وفلسفة، أمام خرافة تريد أن تزيح الوحي والدين الحق ـ بل والعلم والعقل ـ عن طريق إيهام علمي وتلاعب في المصطلحات.

لذا، فلا مجال لمسلم أن يتساهل معها أو يسعى أحدٌ في: «أسلمتها»، أو يطوّع الشريعة وأدلتها من أجلها.

إن خلاصة نظرية التطور: **وجود المخلوقات بلا خالق ولا غاية، والقضية برمتها: صدفةٌ أَنشأت، وعشوائيةٌ عمياءُ انتخبت، ولا شيء أكثر!**

فهي إذن تتعارض مع الدين الحق والفطرة السليمة والعلم الصحيح والعقل الصريح؛ ولا مجال حينها لأي مهادنة أو مداهنة.

ثانيًا: هناك بُعدٌ آخرُ للفلسفة التطورية، وهو التطور الاجتماعي؛ لقد أثرت نظرية التطور في كثير من المتبنّين لها من حيث نظرتهم للحياة والناس والمجتمعات؛ فمساعدة الضعفاء ـ مثلًا ـ خطأ؛ لأنها تتعارض مع الانتخاب الطبيعي القائم على أن البقاء للأقوى!

وهذا (سبنسر) مؤسس «الداروينية الاجتماعية» كان يعارض ـ بسببها ـ تدخّل الدولة في الحماية الصحية لمواطنيها؛ فالبقاء للأقوى!

الحقُّ أنَّ جميع الأخلاق والقيم تصطدم مع أبجديات التطور؛ ولذا وجدنا لها أثرًا واضحًا في شريحة ليست قليلة في الغرب؛ من جهة تفضيلِ بعض الأعراق على بعض، والتمييزِ بين الناس بسبب اللون، واعتقادِ أن جنسًا أفضل من جنس.

وحدِّث ولا حرج عما نشأ بسبب هذا من تيارات ومذاهب ـ أيديولوجياتٍ ـ إجرامية، بل حروبِ إبادة، وكل هذا من سيطرة الثقافة الداروينية على تلك العقول.

ثالثًا: الطريق السهلة الواضحة في قضية الخلق، والمتوافقة مع الفطرة السوية: أن خالقًا عظيمًا حكيمًا عليمًا هو الذي خلق الخلق وأوجدهم من العدم، وهو الذي يدبّر شؤونهم، وهو الذي يجب عليهم عبادته، وآثار خلقه تدلُّ عليه قطعًا.

تأمل هذا في كلِّ شيء تقع عليه عينك من مخلوقاته؛ ستجد الصنع المتقن!

تأمله في خلق العين..

في عمل القلب..

في تخثّر الدم..

تأمله في خلق الزرافة..

وفي تلقيح زهرة الأوركيد..

تأمله في شريط الدي إن أي (DNA) الذي هو بنك معلومات مركزي!

تأمله في أي شيء.. في كلّ شيء.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ   تدلُّ على أنه الواحد

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فُصّلَت: ٥٣ ـ ٥٤].

لزيادة الفائدة

❁ أُوصي بالاستماع لندوة عقدتها لجنة (يقِين) عنوانها: «نظرية التطور في الميزان الشرعي والعلم». منشورة في الشبكة.

الفصل الثامن والعشرون

الإلحاد.. تناقضات ومغالطات

فتنة التيار الإلحادي المعاصر فتنة لا يمكن التغاضي عنها؛ فنشاط الملاحدة عبر وسائل التواصل ليس يخفى على مطلع.

والقوم يستخدمون أساليب خادعة، جاذبةٍ لضعيف المعرفة، ومنها المغالطات المنطقية؛ فلا بد من التفطن لها.

كما أن هذا المنهج المتهافت متناقض في نفسه، بل هو أكثر تناقضًا من أيِّ مذهب فكريٍّ آخر، وتناقض القول دليل فساده عند العقلاء.

وعليه؛ فمعرفة تناقضاتهم تزيد اليقين بضلالهم، وتوقظ المغرورين.

وأودُّ التنبيه على أنه قد يقول بعض الناس: لِم الحديث عن الإلحاد في هذه الأيام؟ وهل أصبحت قضية الإلحاد ظاهرةً في المجتمعات المسلمة لتستحقَّ التركيز عليه؟

والجواب: الإلحاد فكر شاذ، وسيبقى شاذًّا ولن يُمكَّن له بإذن الله؛ لكن: كون دعاته نشطين في هذه الأيام: هذا واقع لا يليق جحده، ونحن في زمنٍ الأبوابُ الفكرية فيه مُشرعة، ولا حدود لها.

ثُم إن الحديث عن الإلحاد ينبع من فداحته وخطره لا عن عدد المتأثرين به؛ فغنيّ عن البيان أن الإلحاد أشنع كفر وأفظع جريمة وقعت على وجه الأرض على الإطلاق، ثم مجرد تأثر قلة قليلة به كافٍ في أن يدقَّ فينا ناقوس الخطر؛ ففساد تُفاحةٍ واحدة يدلُّ على أن المناخ قابل لأن يفسد غيرها!

إذن، لا بد من تنبُّه وتنبيه، وتبصُّر وتبصير، وتفطّن وتحذير؛ (هذه تاءاتٌ مهمات)!

حقيقة الإنسان في ظلال العقيدة الإلحادية.

باختصار: هو مادة حية، صنعتها العشوائية بضربة حظ! عاشت لتموت، وتموت للاشيء! فلا أمل ولا غاية، ولا سعادة ولا محبة، ولا معنى ولا قيمة؛ إنما التيه والفراغ والعدمية والظلام، ولا وجود لشيء سوى مادةٍ صماء وعشوائيةٍ عمياء؛ خواءٌ ثم فناء!

الإلحاد تصور لا يمكن أن يعيشه الإنسان، والإيمان بالله تعالى هو ـ وحده ـ الذي يجعل للحياة معنى؛ لأنه يجعل لها غاية، كما يجعل لما بعد الموت غاية، والإنسان لا يستطيع أن يعيش في هذه الحياة من غير غاية.

في الإلحاد ليس للإنسان أي قيمةٍ أو فضيلة؛ فهو والفأرُ والنملة والبكتيريا في القيمة سواء! ولا فرق إلَّا في سعة الحوض الجيني؛ فهو فرق في الكمِّ لا في الكيف!

التاريخ الموجز للإنسان: أنه خلية أُحادية تطورت صدفة لتكون سمكة، ثم ارتقت إلى حيوان أحطَّ من القرد، ثم تطور فكان إنسانًا، فهو بكلِّ حال حيوان من جملة الحيوانات!

أيُّ قيمة للإنسان إذا فقد التكريم الإلهي وتسخيرَ ما في الكون له؟! لا قيمةَ البتة.

وإذا كانت كرامة الحياة الإنسانية في المنظور الإلحادي محضَ وهم؛ فما الذي يجعل حياتَه أشرفَ من حياة كلب أو بعوضة؟!

وما الذي يمنع من التخلُّص من كبار السن الذين لا يُنتجون، ومن الأطفال المصابين بعاهات، أو على الأقل جعلِهم حقلًا للتجارب الطبية؟!

🕮 معنى المغالطة، وسبب استعمال الملاحدة لها.

المغالطة ـ أو المغالطة المنطقية، أو المغالطة العقلية ـ: حُجّةٌ خادعة.

أي: هي حجةٌ باطلة تلبس لباس الحجة الصحيحة.

فمن أساليب الملاحدة ومناهجهم في التقرير والمناقشة: اعتماد أسلوب المغالطة الجدلية والتلبيس على المحاوِر؛ لتكون شِراكًا يصطادون به البسطاء، ولِيَلْتَفُّوا ـ أيضًا ـ على أيِّ إلزام لهم أثناء نقاشهم.

وهم في هذا لا يحترمون المنهج العلمي السليم في الحوار مطلقًا.

🕮 أمثلة على مغالطات الملاحدة

من مغالطاتهم العقلية وتلبيساتهم: أنه إذا ناظر المسلمُ أحدهم وبيَّن له قانون السببية، وأنَّ كلَّ حادثٍ لا بد له من مُحدِث؛ فإن الملحد يسأل بغباء: سلّمنا بأن الله خلق كلِّ شيء؛ فمن خلَق الله؟ ولم لا يُطبق قانون السببية عليه أيضًا؟!

وهذا سؤال فاسد؛ فالملحد سلّم أنه خالق، ثم يقول: من خلقه؟! فيجعل منه خالقًا ومخلوقًا في الجملة نفسها! وهذا تناقض واضح في بدائه العقول؛ لأن الخالق لا يمكن أن يكون مخلوقًا، كما أن المخلوق لا يمكن أن يكون خالقًا.

بمعنى: أهل الإيمان يقولون: الكون حادث، والحادث لا بد له من محدِث؛ فإذا كان سببُ الحادث حادثًا فلا بد لهذا الثاني من مُحدِث، وهكذا في الثالث والرابع وهلم جرًّا، لكن هذا معناه: أنّ وجود الحادث

معلَّق على عدد لا ينتهي من الأسباب المحدَثة، وهذا معناه: أنّه لن يحدث! إذن **لا بد لوجود الحوادث من سبب أزلي غير حادث.**

ثم يعود الملحد قائلًا: ولماذا لا نقول عنه كما نقول عن الحوادث: من أوجده؟!

إنّه سؤال في غاية الغباء؛ لأنّه ما دام الخالق أزليًّا غير حادث، فلا مجال للسؤال عن مُوجدٍ له!

يا هذا: لا شيء أوجده؛ لأنّه موجود منذ الأزل (لا بداية له).

وإذا قال: ما الدليل على أنّه أزليّ؟ نقول: وجود الأشياء الحادثة التي ما كانت لتحدث لو اعتمدت في وجودها على حادثٍ مثلها؛ **فوجود الحوادث دليلٌ على مُوجدٍ غيرِ حادث.**

ومن مغالطاتهم: **مغالطة تجسيد المُجَرَّدات،** أي معاملة شيء مجرّد غير مادي كشيء مادي.

إنهم يُجسِّدون المجردات خِداعًا! فيقولون: إن الطبيعة تختار الكائنات الملائمة، وتختار الأقوى! فهل الطبيعة شيءٌ موجود متصف بالعلم والقدرة والحكمة حتى يكون منها هذا؟!

ومن مغالطاتهم: **المصادرة على المطلوب**: أي جعل النتيجةِ مقدمة، والمشكلةِ حلًّا.

فيقال للملحد ـ مثلًا ـ: الكونُ مُتقَنُ الصنع، والإتقان يتنافى والعشوائية؛ فيرُد قائلًا: لكنا نرى أشياء متقنة وقد جاءت عشوائيًّا؛ فنسأله: ما هي؟ فيقول: هذا الكون؛ نراه متقنًا، وقد جاء من العشوائية!

فتلاحظ أن المطلوب من الملحد: إثبات أن الكون وجد بشكل عشوائي، فيرد قائلًا: دليلي على أن الكون وُجد بشكل عشوائي: هو أن الكون وُجد بشكل عشوائي!

وهذا ما يأنف عاقلٌ منصف من الوقوع فيه.

ومن مغالطاتهم: **المراوغة**؛ فتجد الملحد ـ لِيُوهم صحة نظرية التطور ـ يقول: نحن نرى الكائنات الحية تتطور؛ فالبكتيريا تكتسب مناعة ضد المضادات الحيوية؛ وهذا تطور!

وهذه ـ في الحقيقة ـ مراوغة؛ لأن ما يَتحدث عنه من تطور ليس هو نظرية التطور! فنظرية التطور تُقرر انتقال الكائن الحي من نوع إلى نوع؛ فتتطور السمكة إلى طائر مثلًا، أما تطور الكائن الحي داخلَ نوعه فليس محلَّ بحث أصلًا؛ فالبكتيريا التي اكتسبت مناعةً لا تزال بكتيريا، ولم تصبح ذبابة، والطفل الصغير الذي كبُر لا يزال إنسانًا ولم يصبح فيلًا أو كائنًا فضائيًّا!

وربما وجدته يقول: إذا كان لا يوجد الدليل الكافي من الرصد العلمي على نظرية التطور حاليًّا فإنه سيثبت لاحقًا!

وهذه مراوغةٌ بامتياز! فالدليل عند العقلاء يسبق المدلول، لكن عند الملاحدة: قرِّر ما تشاء ولا مشكلة؛ فالدليل سيأتي لاحقًا!

وهكذا فلتكن المعرفة!

ومن مغالطاتهم: **تجاهل المطلوب**؛ فيكون الحوار مع الملحد في شيء وإذا به يقفز إلى شيء آخر.

تسأله عن خالق الكون؛ فيجيبك عن قوانين الطبيعة وتفاعل المادة؛ فيتجاهلَ موضع البحث وهو «مَن»، ويتكلم عن «كيف»!

لو سألتُك: كيف صُنعت السيارة؟ فأجبتَ: «وفق قوانين الميكانيكا»؛ فالجواب صحيح، لكن لو سألتك مَن صنعها؟ فأجبتَ: «صنعتها قوانين الميكانيكا»! فجوابك ـ عند العقلاء ـ خطأ؛ فالقوانين تُفسِّر ما يقع، ولا تخلق ولا تصنع.

ومن مغالطاتهم: أنهم يَجهدون في تغطية ضعف المنهج الإلحادي عبر هجومٍ شرسٍ على الإسلام، ثم هم في طعنهم فيه يُغالطون؛ فتجدهم يكذبون عليه كذبًا صريحًا! أو يخلطون بين ما ثبت فيه وما لم يثبت، والصحيحَ وغير الصحيح.

أو تجدهم ينتقدونه، وما ينتقدون إلَّا مفاهيمَ لبعض الفرق المبتدعة الدخيلة على الإسلام.

أو ينتقدونه، وما ينتقدونه ليس إلَّا اجتهاداتٍ فرديةً لشخص معين، فيعمّمُون الحكم على الدين كله.

والعجيب أن كثيرًا منهم يطعن في الإسلام وهم يعترفون بجهلهم به!

تناقضات الملحدين:

التناقض هو اجتماع الشيء ونقيضه.

وهذه الصفة ملازمة لكلِّ دين باطل وفكر فاسد.

وإذا ابتليت بالاطّلاع على شيء من تقريرات الملاحدة فستجد نفسك أمام سيلٍ من التناقضات السخيفة المتهافتة.

والحقُّ أنه لم تشهد البشرية ـ في معتقداتها ـ تناقضًا مع الذات كتناقض من ينكر وجودَ الخالق سبحانه؛ إذ في إنكاره مكابرةٌ للعقل ودفعٌ للحِسِّ المشاهد، مع ما يؤدي إليه هذا القول من صراع مع جميع الكائنات التي تشهد بخلاف ما يقول، بلسان حالها ومقالها.

وأول ذلك: الصراع مع الفطرة السليمة، فالفطرة تشهد بوجود خالقٍ للكون، والإلحاد يقول بعدم وجوده! وهنا يقع الملحد في تناقض مع النفس؛ وذلك أن الإنسان بطبيعته مفكّر، ويعتمد التسلسل للأحداث، ويؤمن بأن جميع المنتجات والمستجدات التي يراها كلَّ يوم: لم تكن وليدة صدفة؛ فكيف يقبل أن يكون الكونُ وسماواتُه وأرضُه ونباتُه وساكنوه جاءوا من عدمٍ، ونشأوا بصدفة؟!

ثم إن الفطرة كما تُقرُّ بوجود أوَّليةٍ لكل حادث فهي تُقرُّ بوجود نهايةٍ له، وهو يشهد الفناء في كلِّ يوم بالموت، كما يشهد الحدوث بالحياة، وهذه الثنائية تُلزم النفس بحقيقة افتقار الإنسان لغيره، وأن ثمة مدبِّرًا له لا يمكن تجاهله.

وفي الجملة: فمعضلة الإلحاد تكمن في التناقض مع الذات، والربط الخاطئ بين الأشياء، مع المكابرة الصريحة للعقل والفطرة.

ومن جهة أخرى: يتناقض الملحد مع الفطرة في إنكاره لوجود الخير والشر واعتبارهما مفاهيم تواضَع عليها البشر، وهو ما يجعل الفطرة تعاني حيرة علمية وأخلاقية، كما تعاني ضبابية في التحسين والتقبيح؛ فالملحد لا يمكن أن يُقنع ملحدًا برأيه في قضية أخلاقية أو اجتماعية؛ إذ لكلٍّ منهما فَهمٌ للأخلاق والصواب والخطأ يختلف عن الآخر!

ويزداد الأمر غرابة حين يستدلّ بما يُسمى: «مشكلة الشر» على نفي وجود الله؛ فهذا عجيبٌ؛ فالملحد ليس عنده إلَّا شيءٌ مادي، وما الأشياء إلَّا ذرات مبعثرة اصطدمت فوُجد هذا الكون صُدفة! وعليه، فالأخلاق نسبية، ولا شر ولا خير أصلًا، وكلّ الأشياء تمشي باضطرابٍ أعمى بلا هدف؛ فكيف يستدل بعد هذا بالشر!

وما هو معيار الشرِّ أصلًا؟ إنه لا معيار إلَّا إذا أقرَّ الملحدُ بأن ثَمة ربًّا وضع في القلوب فطرةً تُميز بين الصواب والخطأ والخير والشر، أما على أصول الملاحدة فالأشياء كلها سواء؛ لا فرق بين أن تُطعم يتيمًا، أو تضع رصاصةً في رأسه!

ثم إن استدلال الملحد بمشكلة الشرِّ يدلُّ على أن مفهومه للربِّ مفهوم مغلوط؛ فأن يكون الرب خالقًا، واسع العلم والحكمة، له قُدرة وعزة، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، والكلُّ عبدٌ ذليلٌ له: هذا لا يفهمونه، أو لا يريدون أن يفهموه!

مفهوم الربِّ عنده باختصار شديد: أنه آلةٌ أو خادم ـ تعالى الله علوًّا كبيرًا ـ.

آلةٌ تفعل الأشياء التي «يُبرمَج» عليها، أو خادمٌ يُؤمر فيُطيع، ولا يفعل شيئًا سوى أن يُلبي رغبات الخلق، ولذا: إذا ما مسَّ أحدًا أدنى شوكة صاح: لا يوجد رب؛ إذ لو كان موجودًا لما تنغّصت الحياة!

هذا مفهوم الربِّ عند الملاحدة؛ فسبحان الله عما يصفون(١).

(١) مضى في الفصل التاسع الكلام عن مشكلة الشر، وبيان فساد تصورهم.

من تناقضات الملاحدة: اعتبارُهم الدين ـ والإسلام خاصةً ـ سبب الحروب في العالم.

والسؤال: هل بمجرد غياب الدين عن حياة الناس وإنكارِهم لوجود الخالق يصبح العالم في رخاء ويسوده الأمن؟!

وماذا سيقول الملحد إذا قلنا له: إن أكبر القتَلة على مدى التاريخ كانوا ملاحدة! فهل (ماو تسي) ـ أكبرُ قاتل معروفٍ في التاريخ ـ الذي قتل ما لا يقل عن خمسين مليون إنسان كان مسلمًا؟ لقد كان ملحدًا!

هل (ستالين) الذي قتل أربعة وثلاثين مليونًا كان مسلمًا؟ بل كان ملحدًا!

هل (هتلر) الذي تسبب في قتل الملايين ـ ما بين تسعة إلى عشرين مليونًا ـ كان مسلمًا؟ لقد كان لادينيًّا!

هل (لينين) الذي قتل أربعة ملايين كان مسلمًا؟ لقد كان ملحدًا!

والسلسلة طويلة؛ فماذا سيكون جواب الملحد الآن؟

إن كل ما فعله هؤلاء القتلة هو قانون الطبيعة الذي لخصه الملحد (فريدريك نيتشه) بقوله: «اقهر الضعفاء، واصعد فوق جُثثهم»!

قارن تعاليم الإلحاد مع تعاليم الإسلام: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ٩ ـ ١٠].

إن كلام (نيتشه) هذا هو النهاية المنطقية للإلحاد، وهذا ما وَعاه لينين وماو وستالين وأضرابهم.

وفي مقابل هذا: هل يعلم الملاحدة أن نبيَّ الإسلام ﷺ ـ الذي

يعادونه ويعادون دينه ـ لم يَقتل أصحابُه خلال كلِّ سنوات قتاله مع أعدائه ـ التي تقارب عشر سنين ـ: سوى ستَّمائةٍ وخمسةً وعشرين شخصًا فقط؟!

قد يقول قائل: الأسلحة ـ من حيث فتكها ـ بين الزمانين مختلفة؛ فلم يكن إذ ذاك قنابل ولا صواريخ ولا طائرات حربية!

فيقال: لو كان عند النبي ﷺ وأصحابه تعطّش للدماء ـ كحال أولئك الملاحدة ـ لكانت أعداد القتلى أكثر من هذا العدد بأضعاف كثيرة.

فهل كان عند التتار ـ أشباه أولئك الملاحدة ـ حين اجتاحوا بلاد المسلمين سنة (٦٥٦هـ) دبابات وقنابل عنقودية وطائرات حربية؟! وقد قيل إنهم قتلوا في بغداد وحدها ألفي ألف (مليوني) مسلم! [البداية والنهاية لابن كثير (١٧/ ٣٦١)].

لقد كان نبينا ﷺ نبي الرحمة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبيَاء: ١٠٧]، ودينه دين الرحمة، وأصحابه أرحم الناس بعده؛ فلم يكن منهم إذن تعطّش لسفك الدماء.

هذا هو السِّرُ لا غير!

وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يفتح مكة، ورِقاب من عادوه وآذوه وأخرجوه من بلده وقتلوا أصحابه: تحت يده؛ لو شاء أن يقطع منها الآلاف فلا شيء يمنعه؛ ومع ذلك؛ تدري كم شخصًا قُتل من المشركين يومئذ؟ أربعة وعشرون شخصًا فقط! وهؤلاء هم الذين بادروا بقتال الصحابة فقتلوهم. [الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٣٩٥)].

فأي شيء سيقول الملحد الآن؟!

ومن عدم جدية الملاحدة في بحث الأمور: خلطهم بين الأديان؛ فهم يعاملون الأديان جميعًا معاملة واحدة، ويحكمون عليها حكمًا واحدًا، لا فرق عندهم بين من يعبد الله العظيمَ ربَّ البشر، وبين من يعبد البقر والحجر والشجر!.. ظلمٌ وأي ظلم!

وخذ بعد هذا **أمثلة وجيزة على تناقضاتهم** على سبيل التمثيل لا الاستقصاء:

- يُنكر الملحد وجود الإلٰه الخالق، مع أنه يؤمن بأن الأكوان المتعددة خالقةٌ؛ وأن الكونَ خالقُ نفسه؛ والعشوائيةَ خلقت، والطبيعةَ خلقت؛ فلماذا الاعتراض على خلق «الإله» تحديدًا؟!

- يدَّعي الملحد أنه لا سبيل للوصول للمعرفة إلَّا بالتجربة، وأن كلَّ ما هو خلاف التجربة كلام فارغ وسفسطة، ولذا أنكر الدين والغيبيات والمعجزات، ثم هو يؤمن بنظرية التطور؛ مع أنها غيبٌ جملةً وتفصيلًا، فلا أحد رأى الخلية الأولى، ولا أحد لاحظ الطفرات العشوائية، ولا أحد شاهد الانتخاب الطبيعي ولا الضروب الوسطى، فضلًا عن أن يكون قد جرب شيئًا من هذا!

- يزعم الملحد أنه لا يؤمن إلَّا بالمادة الموجودة، ثم يؤمن بأن اللاشيء أتى بشيء! (فالخلية الأولى عنده أتت من لا شيء).

- يتحذلق الملحد قائلًا: بما أننا لا نرى الله؛ إذن هو غير موجود!

وهذه مكابرةٌ للعقل والحسِّ؛ لأننا لو اعتمدنا قاعدته في المجال العلميِّ الذي يتبجح به؛ فإنه ستسقط جميع أسس العلم التجريبي من أصلها، مع أن الملحد يزعم أنه يعتمد عليه؛ فلا أحد من العلماء رأى

الجاذبية، ولا الإلكترون، ولا الأثير، ولا الطبيعة الذرية.. في سلسلة طويلة من الحقائق العلمية.

فعدم رؤيتنا اللهَ سبحانه في الدنيا، وعدم إدراكنا لحقيقته لا يعني عدم وجوده، ويكفي العقولَ أن تستدلَّ على وجوده بآثار صنعه، فتطمئنَّ وتسكن.

ـ ولما حصر الملحدُ المدركاتِ بالمحسوسات: ردّ الأخبار الصادقة التي جاءت من طريق من أثبتت البراهين اليقينية صدقهم، وهذه مكابرة لما يعلمه كل العقلاء من أن العلوم تدرك بالحسِّ وبالعقل، وتدرك أيضًا بالأخبار الصادقة.

والعجيب أنهم في هذا متناقضون؛ لأنهم يجحدون الأخبار ويقبلونها في آنٍ واحد! فحين يستدلُّ أحدهم بنظرية ما؛ فإنه يقال له: هل طبّقتها بنفسك؟ فسيقول: لا، وإنما قام بها فلان، ونصَّ عليها علان! وهذه مناقضة لمنهجه المزعوم؛ حيث وصل إلى ما يعتقد عن طريق تصديق الخبر، وليس عن طريق الحس؛ فلِمَ يعيب الملاحدة على أهل الإيمان إذن قبول أخبار الغيب الدينية؟ فإن أخبار الملاحدة إذا كانت تتحدث عن محسوسات؛ فأخبار الرُّسل الغيبيةُ تتحدث عن محسوسات أيضًا؛ لكنها تُحس بعد الموت.

وإذا كانت هذه أخبارًا وتلك أخبارًا؛ فأخبار الرسل أولى بالقبول؛ لقيام البراهين القطعية على صدقهم.

إذن، المنهج الإلحادي منهج متناقض؛ يكذِّب بالشيء ويصدِّق نظيره، فهو ـ على سبيل المثال ـ يُكذّب بأن الله خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من طين ثم تناسل البشر بعده؛ لأنه عنده غيبٌ غير محسوس، وفي مقابل هذا يصدِّق بالتطور أو بالأكوان المتعددة، مع أن هذه غيب بالنسبة له أيضًا!

لكنه مقبول عنده لأن مصدره إلحادي، وذاك مردود لأن مصدره وحي قرآنيّ! فالمنهج منهج متناقض، ليس له حاكم إلّا الهوى.

ـ يسخر الملحد من مسلم يؤمن بما ثبت في السُّنة من سجود الشمس تحت العرش؛ فأيهما أولى بالسخرية: ملحد يقول: إن شمسًا ذات جرم كبير جدًّا، وحرارة عظيمة جدًّا، تسبح في الفضاء في مسار منضبط وحدود لا تخرج عنها قيد أنملة، والشمس وحركتها وانتظامها: كلّ هذا حدث صدفة دون خلق خالق! أم القول بأن الشمس التي خلقها الخالق العظيم القدير وصرَّفها حيث شاء؛ جعلها تسجد تحت العرش في مكان معين، دون أن ندرك حقيقته؟! لا شك أن القول الثاني أولى بالقبول عند كلِّ عاقل.

ـ يقول الملحد: إنه ذو عقل، ويدَّعي المحاكمة إلى العقل، ثم يُصدق أن المادة الصماء غيرَ العاقلة أتت بالعقل صدفة؛ فكيف ـ بالعقل ـ كان هذا؟!

ثم: كيف تثق بنتائج عقل برز للوجود صدفة!

ـ أخيرًا: يفترض الملحد أن الأمر الطبيعي هو عدم وجود الخالق، وأن الذي يدَّعي وجوده هو المطالب بالدليل.

والصواب هو العكس؛ فالأمر الطبيعي هو ما يؤمن به عامة البشر، وهو ما يجدونه ضروريًّا في نفوسهم، والذي يشذُّ عن هذا هو المطالب بالدليل.

فسبحان ربي العظيم؛ أفي الله شكٌّ؟! وكل شيء دليل عليه؛ حتى لسان الملحد الذي يتكلم بإنكار ربه دليل عظيم عليه سبحانه! لكن: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: ٤٦].

الفصل التاسع والعشرون
الوسوسة في الإيمان

اليقين: هو العلمُ التامُّ الذي ليس معه أدنى شكّ، الموجبُ للعمل.

واليقين الحق: هو الإيمان بالغيبِ ووعد الله ووعيده؛ بحيث لا يخالج القلبَ فيه شكٌّ ولا شبهةٌ.

اليقينُ سكونٌ للقلب وأمنٌ وطمأنينة، وهو رُوح الإيمان وحياتُه، بل هو الإيمان كلُّه، وأهله هم المخصوصون بالهدى والفلاح من بين العالمين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٤ ـ ٥].

وأهل النار على الضدِّ؛ فاقدون لليقين، قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثِيَة: ٣٢]

أهل اليقين: الحقُّ عندهم واضح وضوح الشمس ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٨].

لا يرتابون في حكم الله الشرعيّ أو القدريّ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المَائدة: ٥٠].

اليقين أعظم نعمة ينالها مسلم.

اليقين الراسخُ بالله ودينه ونبيه وكتابه ـ الذي لا تعارضه الشكوك ولا تضعفه الخواطر الرديئة ـ: هو النعمة التي لا تدانيها نعمة؛ فهنيئًا لأهل اليقين!

اليقين هو السعادة كلها، هو الرَّوح والفرح؛ فإنه إذا استقرَّ في القلب: امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كلُّ رَيبٍ وسَخَط، وهمٍّ وغم.

إنَّ القلب الذي تَجلّل باليقين وسطعت فيه أنواره: في سعادة غامرة، تهون معها كلُّ مُنغصاتِ الدنيا ومصائبِها؛ فمهما نزل به شيء منها هتف: كلا، إن معيَ ربي سيهدين!

إنه إذا استكمل العبد حقائق اليقين: صار البلاء عنده نعمة، والدنيا في عينه ظلٌّ زائل فلا تستولي عليه؛ وهل يتشاغلُ عاقلٌ بنُثارة طعامٍ عن مائدة عظيمة فيها ما لذَّ وطاب!

والخلاصة: مَن رُزق بردَ اليقين فهو في نعمة لا تُقدّر بكنوز الأرض، ولو سجد لله سجدة شكرٍ تمتدُّ طول حياته ما وفَّى هذه النعمةَ حقَّها.

ويُدرك هذا حقًّا من رأى ذاك المسكينَ الحائر، الذي تتقطع نفسه حسرات، قد تناوشته الوساوس والخطرات، فهو أسيرٌ في قبضتها، مُطوَّقٌ بقيدها، قد ناله من الضيق المستمر والعذاب النفسي ما لا يعلمه إلا الله، يسعى للفِكاك فلا يصل إليه، يبحث عن شيء من يقين تسكنُ به نفسه فلا يجده!

فاحمد الله أيها الموقن، يا من رضيتَ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، واثبت على ما أنت عليه، واحذر من نزغاتِ نفسِكَ الأمارةِ بالسوء، واحذر وساوسَ شياطينِ الإنس والجن، واحذر مكر أعداء الله الذين هم أحرص شيء على إضعاف يقينك؛ فإنه **كلما عظُم المطلوب كثرت العوارضُ والموانعُ دونه**، هذه سنةُ الله في خلقه، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الرُّوم: ٦٠].

لماذا الحديث عن الوسوسة في الإيمان؟

بعد الجولة السابقة التي تناولنا فيها موضوع الإلحاد وإشكالاته يجدر بنا أن نقف وقفة مع موضوع الوسوسة في الإيمان؛ فإن من الناس

من لديه إشكالاتٌ تتقاطع مع موضوع الإلحاد؛ فيَظنُّ ـ أو يُظنُّ ـ أن لديه شبهاتٍ إلحادية، والواقع أن مشكلته ليست في شبهة تحتاج إلى إجابة، وإنما هي وسوسةٌ شيطانية تحتاج إلى علاج، ولا يناسبه ـ بل لا ينفع معه ـ المناقشة بالحجج والأدلة، وهذا واقعٌ يعلمه كلُّ من جلس للناس واستمع إلى إشكالاتهم؛ فشريحةٌ ليست بالقليلة منهم مصابة في هذا الموضوع بالوساوس، قد يكون هذا عن وَسواس قهري، وقد يكون دون ذلك؛ أي هي خواطرُ رديئةٌ تنتابه.

والتفريق بين من لديه شكٌ أو إشكال ناتجٌ عن شبهة علمية أو فلسفية ومن عنده وسوسة: شيءٌ مهم جدًّا؛ فكلٌّ واحد منهما له طريقة في التعامل، ولو سلكنا مع هذا ما يحتاجه هذا لربما لم ننجح، ولربما كانت النتيجة عكسية.

مهما يكن؛ فلا أفشي سرًّا إن قلت: إن الوسوسة مرض منتشر في عصرنا، وقد تتعلق بأصل الإيمان، وقد تتعلق بأمور شرعية كالطهارة والصلاة والطلاق وغيرها، وقد تكون متعلقة بأمور أسرية أو اجتماعية أو غيرها، والأمر يحتاج من ذوي الاختصاص إلى الالتفات الجادِّ إليه.

🕮 ما هي الوسوسة وما مصدرها؟

الوسوسة: حديث النفس والشيطان بما لا نفع فيه ولا خير.

إنها أفكار أو صور ذهنية أو نزعاتٌ تتكرر وتتطفل على العقل، يصاحبها ضيق وانزعاج، بحيث يتمنى صاحبها مغادرتَها رأسه.

ولا ريب أن الشيطان هو الداعي إلى الوَسواس، فالموسوسون قد أطاعوه، ولبَّوا دعوته واتبعوا أمره.

وليس يخفى أن الوحي روحُ النفس، ولن يجد القلبُ له أمانًا ولا قرارًا ولا اطمئنانًا إلَّا حين تسري فيه الروح، فهو مادة الحياة الحقيقية، وآيةُ السعادة والاطمئنان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشّورىٰ: ٥٢].

وحين يبتعد القلب عن الله وعن العلم الصحيح به وبشرعه: تتسلط عليه الشياطين بأنواع المكائد.

وإنَّ أعظم ما يتسلّط به الشيطان على قلوب بني آدم: سلاحُ الوسوسة؛ فإنه يخلط الأمور ببعضها حتى ما يكادُ يَبين وجهُ الحق فيها إلا لمن عصمه الله منه، فالوسوسة مكيدة الشيطان الوَسواسِ الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق، ففي الصحيحين قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ**» [خ ٢٠٣٨، م ٢١٧٤].

وإذا تساعد الشيطان مع النفس الأمارةِ بالسوء عظُم البلاء، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ﴾ [يُوسُف: ٥٣].

وإذا تعلقت الوساوس بالإيمان بالله تعالى ـ بوجوده أو ربوبيته أو صفاته ـ أو كتابه أو نبيه ﷺ كانت بلية الوسوسة أعظم.

🕮 أهمية العناية بموضوع الوسوسة

إن إدراك تسلّط الشيطان ونزغاتِه ووساوسه ومعرفةَ حقيقةِ هذا: يولّد عند المرء وعيًا يعينه على إدراك طبيعتها، والموقفِ الصحيح منها.

والمتأمل في آيات القرآن يجد عنايةً بالتحذير من مكائد الشيطان

وإيحائه وإغرائه؛ لأن شرَّ النفس وفسادَها ينشأ من وسوسته، فهي مركبُه وموضعُ شرِّه، ومحلُّ طاعته.

إن الشيطان للعبد المؤمن بالمرصاد، مصداق هذا قوله تعالى عنه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧]. وقولُه تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

ومع ذا فقد أخبر سبحانه أنه ليس له سلطان على المؤمنين فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ [النحل: ٩٩]، فنفى سلطانه عمن اتصف بصفتين: الإيمان، والتوكلِ عليه.

والسلطان المنفيُّ هنا: سلطان الحجة والبرهان، وإبليس ليس له حجة ولا برهان، إنما سلطانه بالإغواء والوسوسة، فهو يتسلط به على الذين يتولَّونه، ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل: ١٠٠]؛ يتولّونه باتباع الهوى والاستجابة لتزيينه والغفلة عن ذكر الله، كما يتسلط على الذين هم به مشركون: وهم أشد ضلالًا ممن قبلهم.

فتبيّن أن **حقيقة سلطان الشيطان إنما هو سُلطان إغواءٍ لا سُلطان برهان.**

وهي ـ مع هذا ـ سلطة ضعيفة: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والشيطان له مداخل عدة، لكن أعظمها ضررًا: الوسوسة، التي هي طريقُه لفريق من المسلمين، عجَز عن إغوائهم بالطرق الأخرى، فخدعهم بخدعةٍ ظاهرُها الرحمة وباطنُها العذاب.

فإدراك أن هذه الوسوسةَ إنما هي من كيد الشيطان: بدايةُ الطريق

في صدِّ هذا الكيد ودفعِه، فإنَّ الإنسان حين لا يدرك أن ثمة كيدًا للشيطان عظيمًا؛ فسيغفل عن عدوِّه، وسيتسلط عليه دون أن يشعر، ولا يزال به حتى يصرعه، ويمسي أسيرًا له.

هل الوساوس تقدح في عقيدة المسلم؟

الوَسواس ما دام وسواسًا فليس له تأثير على عقيدة المسلم؛ فإن الله تجاوز عن هذه الأمة ما حدَّثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل، فليطمئنَّ من ابتُلي؛ وفي مسند أحمدَ [(٢٠٩٧)] بسندٍ صحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ، لَأَنْ أخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**». فدلَّ الحديث على أن الوسوسة لا يؤاخَذ المرء بها، بل صحّ في السُّنة أن كراهتها من صريح الإيمان. [صحيح مسلم ١٣٢].

لكن الخطر كامنٌ في الاسترسال معها؛ فلربما ترقّت به شيئًا فشيئًا؛ من صغير إلى كبير، حتى لربما وقع ـ بعد الوسوسة ـ في الشكّ والريب النفاقي، أي كحال المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، وهكذا يصل إلى حدِّ الانسلاخ من الدين بالكلية.

الوسواس القهري

سِمَةُ الوسواس القهري: وجود وساوس معينة في ذهن المريض رغمًا عنه، فيقع في شراك مجموعة من الأفكار المتعلقة بموضوع معين بحيثُ لا يستطيع التغافل عنها، مع ما تحمله له من همٍّ وغم، ورغم وعيه

بأنها تافهةٌ أو خاطئة؛ إلا أنه لا يستطيع إيقافها، بل ويشعر أنها تزداد معه أكثر، ومن هنا كانت معاناة الموسوس عميقة.

وللوَسواس القهري صورٌ ومظاهرُ عدة، وما يهمنا منها: وَسواس الأفكار، أي سيطرة فكرة معينة على ذهن المريض، وغالبًا ما تكون فكرة غير مقبولة.

ومنها: وساوس الاجترار، حيث تسيطر على المريض أسئلة متكررة لا يستطيع الإجابة عنها، كسيطرة سؤال: «خلقنا الله؛ إذن مَن خلق الله؟»، أو أفكارٍ رديئةٍ تتعلق بصفات الله، أو الخوفِ من الردة، أو ما شاكل هذا.

المهم أن الوسوسة المتعلقة بأصل الإيمان أخطر نوع منها.

علاج من ابتُلي بالوساوس التي تتوارد على إيمانه:

الكلام في هذا الموضوع طويل، وحسبي أن أشير إشارات.

الوصايا للمبتلى بالوساوس عشرٌ، يحتاج أن يعرفها هو، وأن يعرفها مَن كان حوله مِن أهله وأصدقائه؛ حتى يعينوه عليها ويحثُّوه؛ فمسئوليةُ هؤلاءِ تجاهَهَ عظيمة:

١ ـ الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

وهذه الاستعاذة إنما تبلغ أثرها حين تكون عن اعتقاد جازم بمعناها، بحيث يتوارد عليها اللسان والقلب، فإن العَوْذ والعِياذ: هو اللجأ إلى الشيء والاقترابُ إليه، ومن استعاذ بالله: اعتصم به ولجأ إليه؛ فأي كيد يصله وهو يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه معتصم بربِّ كلِّ شيء

ومليكِه! والله سبحانه يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فهو ـ سبحانه ـ سميع؛ يسمع استعاذتك فيجيبُك، عليمٌ؛ يعلم ما تستعيذُ منه فيدفعُه عنك.

ووالله؛ إن مَن استعاذ بالله بصدق وحضور قلب ليعيذنَّه الله، وليكفينَّه شرَّ شيطانه، وستضمحل الوساوس الباطلة، فالله ذو القدرة العظيمة، وإبليس ذو كيد ضعيف.

٢ ـ العلم الشرعي.

فإنَّ العلم يدفع عن المؤمن الشبهة، وإذا علمنا أن سلطان الشيطان إنما هو سلطان نزغ وإغواء لا سلطان حجةٍ وبرهان، وأنه قد يأتي للعبد من جهة أن ما يمليه عليه حجةٌ وبرهان ليحسَبَها الحيرانُ حقًّا وإنما هي كيد ووسوسة: فسيتبين أن طلب العلم الشرعي بإخلاص سبب من أسباب دفع الوسوسة ودحضها.

٣ ـ المداومة على تلاوة القرآن بتدبر، ولَهَجُ اللسان بالأذكار، في الصباح والمساء وعند النوم وفي كلِّ وقت.

فإن الذكر هو الحصن الحصين من الشيطان الرجيم، وفي حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه الطويل عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن يحيى بن زكريا عليهما السلام قال: «**وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلاَّ بذكر الله**» [أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) بإسناد صحيح].

هذه قاعدةٌ مهمة؛ فتأملها مليًّا: (كذلك العبد لا يُحرز نفسه من الشيطان إلَّا بذكر الله).

فاحرص على الأذكار بحضور قلب، ولا سيّما التهليل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ، لتكون حِرْزًا لك مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَك ذَلِكَ حَتَّى تمْسِيَ، كما ثبتَ في الصحيحين [خ ٣٢٩٣، م ٢٦٩١] عنه ﷺ.

٤ ـ قطع الاسترسال.

فلا ينبغي أن يسترسل المؤمن أو المؤمنةُ مع حبائل الشيطان وهواجسه.

إنَّ العلاج الناجع العاجل: التجاهلُ وقطعُ الاسترسال؛ ففي الصحيحين [خ ٣٢٧٦، م ١٣٤]: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**».

(**لينته**) ..إذن العلاج: عدمُ الاستجابة لهذا الوسواس صيانةً للنفس من أن يتسلّط عليها عدوّ الله، فإذا جاءك الشيطان بأفكار رديئة: لا تلتفت إليها، ولا تواصل التفكير بها، شتّت ذهنك، وأشغل نفسك، واخرج من المكان الذي أنت فيه، أو اتصل بصديقك وتحدّث معه، أو مارس رياضة.

اعصِ الشيطان مرة ومرتين وثلاثًا وسييأس منك؛ إن كيد الشيطان كان ضعيفًا.

أعيد ما قلتُ: أنفع شيء للمبتلى بالوساوس بعد اللجوء إلى الله:

الانتهاءُ وقطع الاسترسال؛ ولا سيما إن تعلقت الوساوس بالله العظيم؛ فإن الله تعالى جعل للعقول حدًّا تنتهي إليه ولا تتجاوزُه، ويستحيل أن تتجاوزَه، ومحاولةُ المحال من الباطل والسفه، فإذا وصلت العقول إليه تعالى وقفت وانتهت، فإنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخِر الذي ليس بعده شيء. وأوليته تعالى لا مُبتدأ لها، فتوقف ولا تسترسل.

وأنبه ـ قبل ختم هذه الوصية ـ إلى تنبيهين:

الأول: أن الخواطر قسمان: خواطرُ من قبيل الوسوسة، وهي التي لم تجتلبها شبهةٌ علمية؛ فهذه هي التي تُدفع بالإعراض عنها، وهي ما تقدم الحديث عنه.

وأما الخواطر التي أوجبتها شبهة حقيقية: فإنها لا تُدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها، ولا يجوز التأخر في دفعها.

الثاني: مِن الانتهاء وقطع الاسترسال: أن يقطع الإنسان سماع الشبه من شياطين الإنس، وأن يمتنع عن قراءة كلامهم والاستماع له؛ فإنه إذا كان شيطان الجن يوسوس، فشيطان الإنس يوسوس، ولربما كانت وسوسته أشدَّ، ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [النَّاس: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

٥ ـ صحبة الأخيار.

فإن في صحبتهم عونًا ورشادًا، ونصحًا وتوجيهًا، وتبصيرًا وتثبيتًا بتوفيق الله.

عَضَّ عليهم بالنواجذ؛ فإنهم خير زاد لك في الحياة، وأنفع عدة في مواجهة الوساوس.

٦ ـ كثرة الدعاء بصدق وإلحاح.

فإن الله هو وحده القادر على دفع البلاء. ولا يتخلص المرء من الشيطان إلَّا بالالتجاء إليه سبحانه، وهذا ما أرشدتنا إليه سورة كاملة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [النَّاس: ١ ـ ٦].

فادعُ وأخلص، وكرر ولا تيأس.

٧ ـ المجاهدة والمصابرة.

يجب أن يتسلح المبتلى بهذا؛ فالعلاج ربما لا يكون شيئًا سهلًا، قد يحتاج إلى وقت؛ إلى تصبر ومجاهدة، فليكن قويًّا متجلدًا، مستعينًا بالله، وما أقرب الفرج.

والعلاج قد يكون مؤلمًا في البداية، لكن بعد حين ستزول الخطرات وتضعف تدريجيًّا، حتى تصبحَ بلا قيمة بتوفيق الله.

٨ ـ الاجتهاد في فعل الأسباب التي تزيد الإيمان، واجتنابُ المعاصي.

فالإيمان القويُّ الصادق اليقيني يدفع جميع ما يضادُّه من الشبه المنافية له، فإن الحق يدفع الباطل، والشكوكُ لا تعارض اليقين.

لا بد من الجدية، ولا بدَّ من بذل الجهد في الترقِّي في مدارج الإيمان لمن كان حريصًا على سلامة نفسه وعافيتها.

٩ ـ العلاج الدوائي الذي يصفه الأطباء.

فالمزاوجة بين العلاج بالأذكار والرُّقية الشرعية مع العقاقير الطبية نافعة جدًّا بتوفيق الله، ولا تعارض بينهما.

إذن؛ زيارةٌ لطبيب نفسيٍّ ثقة، والاستجابةُ لبرنامج العلاج الذي يصفه: قد يكون سببًا نافعًا بإذن الله.

١٠ ـ التزام الوصايا النبوية العظيمة الواردة في هذا الباب.

فمن بلغت به الوسوسة حدَّ الشك في ربه، فعليه أن يتمسك بها، وخلاصة ما جاء في الأحاديث الصحيحة أمور خمسة:

أولاً: أن يقول العبد: آمنت بالله ورسله.

ثانيًا: أن يقول: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

ثالثًا: أن يتفُل عن يساره بعد هذا القول ثلاثًا.

رابعًا: أن يستعيذ بالله من الشيطان.

خامسًا: أن ينتهي عن هذه الوساوس.

وثمة وصية سادسة أوصى بها ابن عباس رضي الله عنهما؛ وهي قول: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، ففي سنن أبي داود [(٥١١٠)] بسند حسن أنه سأله رجل فقال: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قال: والله ما أتكلم به، فقال ابن عباس: «أشيء من شكٍّ؟» وضحك وقال: «ما نجا من ذلك أحد»، ثم قال له: «إذا وجدتَ في نفسك شيئًا فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]. والله تعالى أعلم.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بقراءة موضعين لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١ ـ منزلة اليقين من «مدارج السالكين» (٣/ ١٧٠) من طبعة دار عالم الفوائد.

٢ ـ وكلام له أيضًا في مسألة الوسوسة، لا سيما ما يتعلق بالعبادات في كتابه «إغاثة اللهفان» (١/ ٢١٩) وما بعدها من طبعة دار عالم الفوائد.

الفصل الثلاثون

أهمية التحصين العقدي

الحقيقة الماثلة أمام الأعين، ولا ينكرها اليوم عاقل، هي: أنه يُحدق بشباب المسلمين في طول العالم الإسلامي وعرضه: أهوالٌ عظيمة وفتن عاصفة، وعلى العقلاء أن يتنبهوا.

فالشباب والفتيات، والكبار والصغار: في مرمى سهام دعاة الشرِّ والفساد، من الملاحدة والمنصِّرين وأرباب البدع المغلظة والتيارات الفكرية المنحلة والغالية.

وأمام هذا الطوفان من الغزو العقدي المركّز ينبغي أن نصارح أنفسنا: إن استبعاد سقوط أحد من أبناء المسلمين في وحل الضلال القذر ضربٌ من خداع النفس والوهم الكاذب؛ فلا يقول من يعي: إنهم محصَّنون التحصين الكافي أمام سيل المذاهب الهدامة، وأنهم في منأى من غزوهم في فكرهم وأخلاقهم، وأنه يستحيل اختراقُهم وحرفُهم إما إلى غلوٍّ في الدين أو انسلاخ منه.

إذن، نحن في وسط وباء خطِر جارف؛ فما الذي بأيدينا من الإجراءات الاحترازية وأسباب السلامة؟

الجواب: لا مخرج بعد توفيق الله إلَّا التحصينُ والتأصيل والرسوخ العقديُّ الصحيح، هذا شيء أضحى اليوم ضرورةً قصوى، لا يُقبل التراخي فيه. وأودُّ هنا أن أنبه إلى أنه كلما عظُم الضلال وكثر انتشاره؛ فالخوف منه ينبغي أن يكون أعظم، والتحصين ضده ينبغي أن يكون أكبر. فالوباء المحدق بالإيمان أشد فتكًا وخطرًا من الوباء المحدق بالأبدان؛ والإجراءات الاحترازية ينبغي أن تكون تجاهه أشدّ.

وتأمَّل معي قول الخليلِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ

﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. إبراهيم إمام الحنفاء وأبو الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع ذلك يخاف على نفسه من الشرك! فماذا يقول من سواه؟ وصدق التابعي الجليل إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «مَنْ يَأْمَنُ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ»!

إذن: الخوف من الكفر والشرك والضلال: من المقامات الرفيعة لأهل الإيمان، فكلما كان الإنسان أعظم إيمانًا؛ كان أعظم خوفًا من الوقوع في ضدّه.

وتأمل التعليل في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] فمن سبب الخوف من الضلال: كثرة الواقعين في حفرته، إذ كلما كان الداءُ منتشرًا كان أخطر؛ لأن احتمال الإصابة به أكبر.

وإذا كان الوقوع في الضلال قديمًا مخوفًا؛ فإنه ينبغي أن يُخاف منه في هذا الزمان أكثر، فإن الشُّبه التي تُحسِّنه وتقربه إلى النفوس وتزين الانسلاخ من الإيمان أضحت أقرب من السابق، فسَيْلُ الشُّبه الجارف يُقذف اليوم على الناس من خلال وسائل التواصل والاتصال الحديثة، وهذا مما لا يخفى على البصير، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائلُ من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان**» [أخرجه الترمذي (٢٢١٩)]، وقال ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» [أخرجه مسلم (١١٨)].

وينبغي أن يُعلم أن الخوف الصادق من الكفر يستدعي العلم به وبمداخله، فالمجهول لا يُخاف، وكلُّ من كان بالشرِّ أعرف كان منه أخوف.

فمن أراد أن يبلغ الدرجة التي بلغها الصالحون من الخوف من الضلال، فعليه أن يعرف أصوله وفروعه، ودقائقه وذرائعه؛ وإثمه وعقابه؛ فينبعث في قلبه خوف صادق منه.

ولذا كان أكملَ الناس في هذا المقام أصحابُ النبي ﷺ، حيث كانوا أعلمَ بالحق، وأعلم بالباطل، وكانوا أقوم بالحق، وأبعد عن الباطل.

والتوحيد لا تقوم ساقه إلَّا على **هذين الأمرين**: العلمِ بالحق والتزامِه، والعلمِ بضده واجتنابِه، ومن قصّر في واحدٍ منهما دخلَ عليه من الخلل بحسبِ ذلك، وما أحسن ما يُروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (إنما تُنقَض عُرى الإسلام عروةٌ عروة، لمن نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية)، فالموفقون السعداء هم الذين يعلمون الحقَّ بتفاصيله، ويُوفقون إلى التزامه، وهم أيضًا الذين يعلمون الباطل بتفاصيله، ويُوفقون إلى اجتنابه.

أما الذي هو سادر في هذه الحياة، لا يفرق بين خير وشرّ، وإيمان وكفر، ونور وظلمة، فما أسرع وقوعه في العطب!

أثر تعلُّم العقيدة الصحيحة في الوقاية من الضلال.

العقيدة الصحيحة ـ عقيدةُ أهل السُّنة والجماعة، عقيدة السلف الصالح ـ هي الحصن الحصين بتوفيق الله من السقوط في حفرة الضلال؛ كفرًا كان أو بدعة؛ غلوًّا كان أم انحلالًا؛ ففيها الإقناع بالحق، والإجابة الشافية عن الشبهات، وفيها يتوافق المعقول والمنقول، وفيها السهولة والوضوح، وفيها التوسُّط بين الإفراط والتفريط، وفيها الاعتصام بحبل الله، والأخذ بأدلة الكتاب والسنة كافة.

فمن رسخ اعتقاده فيها فقد أخذ بسبب وثيق للنجاة.

الثمرات التي يجنيها المسلم من رسوخه عقديًّا

رسوخ المسلم في العقيدة الصحيحة وتعلُّمها سيجني منه كلَّ خير، وبيانها جميعًا يحتاج إلى مساحة واسعة، لكن سأقتصر على ثلاث من ثمراتها:

أولًا: أن يعرف الله.

ومن هو الله؟ إنه العظيم الذي يجب أن يكون في القلب أكبر من كلِّ شيء وأحب من كلِّ شيء وأخوف من كل شيء وأرجى من كل شيء.

إنه المتفرد في ربوبيته، والمتوحد في ألوهيته، شهدت بوحدانيته المخلوقات، وخشعت لعظمته الكائنات، وافتقرت إليه جميع البريَّات، الذي استوى على عرشه، يدبر أمر عباده؛ يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويجبر كسيرًا، ويُغني فقيرًا.

إنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

إنه الذي إذا عرفته عرفت كلَّ شيء، وإذا جهلته جهلت كلَّ شيء.

إنه الذي إذا عرفته وأحببته وعبدته فُزت بالسعادة التامة والنعيمِ المقيم، وفهمت الغاية من وجودك، وصار لحياتك قيمة؛ فالله ما خلقك لشيء قط إلَّا لتعرفه ثم أن تقوم بمقتضى هذه المعرفة من محبته وعبادته وحده.

هذه هي القضية الكبرى في حياتك، وكلما رسخت في العقيدة: كنت بها أقوم.

ثانيًا: إذا وُفقّت وتأصلت عقديًّا فزت بجائزة عظيمة؛ ألا وهي أن يكون قلبك سليمًا؛ فتعلُّم العقيدة الصحيحة يوصلك إلى هذا.

والقلب السليم هو الذي سلِم من كلِّ ما يبعده عن الله؛ فأسلم لله وسلِم وسلّم، وانجذبت روحه إلى إلهه محبةً وخوفًا، وإنابةً وتوكلًا، ودعاءً وإخلاصًا وإجلالًا وتعظيمًا؛ فلا يرجو سواه، ولا يخشى إلَّا إياه، ولا ينيب إلَّا إليه، ولا يتوكل إلَّا عليه، إذ ليس في قلبه شيء لغيره، ولا إرادة لما حرّم، ولا كراهة لما أمر؛ فيكون متحققًا بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النّجم: ٤٢].

وهذا هو الناجي يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلَّا من أتى الله بقلب سليم.

ثالثًا: مما يثمره التأصيل العقدي: بلوغ درجة البصيرة، ومن بلغها فهنيئًا له؛ فما أُوتي أحدٌ أفضل من بصيرة في دينه، ولو قصّر في العمل.

وتفاوت الناس في الفضل إنما هو بحسب تفاوتهم فيها.

قال بعض السلف ـ وقد ذكر السابقين ـ: «إنما كانوا يعملون على البصائر»!

صاحب البصيرة: الأمور عنده واضحة مكشوفة، يعرف واقعه وما حوله، ويدرك ما يضرُّه وما ينفعه، الحقُّ واضح له بإشراقه وأنواره، والباطل مظلم كالليل البهيم.

صاحب البصيرة على يقين وثبات، يسير في هذه الحياة على بيّنة من ربّه، يعبده على نور ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢].

إذن: بلوغ درجة البصيرة في الدين سبَبُه العناية بالعقيدة دراسة وتعلمًا وتمسكًا؛ فأين هذا ممن إيمانه إيمان مَرْبًى وإلْف، ودينُه دينُ عادةٍ ومنشأ، نشأ بين المسلمين فصار منهم، لكن ما خالطت بشاشة الإيمان قلبه؛ فهو تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة، فلو ابتُلي بمن يشككه لَشَكَّ، ولو زُين له الانتقال عن دينه لانتقل! فمن كان إيمانه على هذه الشاكلة فهو على خطر عظيم.

ذو إيمان البصيرة هو الذي يثبت بتثبيت الله إذا هبّت عواصف فتن الشبهات والشهوات؛ فقد استقرَّت قدمه في الدين الحق، وخالط الإيمانُ لحمه ودمه، قد شهد بقلبه وعقله حسنَ هذا الدين وجلالَه وكمالَه، فلو خُيِّر بين أن يُلقى في النار وبين أن يختار دينًا غيره لاختار أن يُلقى في النار ولا يغير دينه.

🕮 موضوعات ينبغي التركيز عليها لبلوغ ذوق طعم الإيمان

ثمة هدف يجب أن نجاهد أنفسنا ومن حولنا للوصول إليه؛ ألا وهو ذوق طعم الإيمان؛ فهو الضمان بتوفيق الله من الانحراف؛ فلو ذاق المسلمُ طعمَ الإيمان واستشعر حلاوته؛ فلن يستبدل به شيئًا ولو كان كنوزَ الأرض جميعًا.

لكن كيف الوصول إليه؟ أوضح هذا نبينا ﷺ في قوله: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**» [مسلم (٣٤)].

وعقيدة أهل السُّنة غايتها وخلاصتها: الوصول إلى هذا الهدف.

المقصود أني أوصي بالتركيز على الموضوعات الآتية، وهي عشرة كاملة، وقد ذُكر بعضها في فصول ماضية:

١ ـ الإيمان بالله تعالى، هذا هو المبدأ والمنتهى، ويتضمن: معرفة دلائل وجوده وربوبيته وألوهيته، وتعظيمَه تعالى بمعرفة أسمائه وصفاته.

لا بد من التفقه في هذا الباب؛ بمعرفة صفات الجلال والجمال والكمال لله تعالى، ومعاني أسمائه سبحانه.

٢ ـ «محاسن الإسلام»؛ فإن من أيقن بجمال الإسلام وحسنه ورُقِيّه لم يستبدل به غيره.

لو أنهم عرفوا الإسلام ما انحرفوا
عنه إلى غيره، لكنهم جهلوا!

يجب الاستيقان بأن الإسلام هو العقيدة التي تسكن لها النفس، والعبودية التي تسمو بها الروح، والشريعة التي تزكّي البدن؛ ويكفي أن قدم المسلم تُغسل في اليوم أكثر مما يُغسل وجهُ غيره! وفي أي دين سواه يكون تنظيف الفم وتخليل الأسنان عبادة؟!

لا بدَّ من الوعي بأن شريعة الإسلام جامعةُ الأخلاق السامية والآداب الرائعة؛ حتى إنها لم تُغفل مراعاة مشاعر الحيوان! فأي شريعة غيرِها منعت أن تُحَدَّ السكينُ أمام الشاة؟!

ينبغي إدراك أنه الدين الوحيد الذي تَوافق فيه المعقول والمنقول، وانتظمت جميع مناحي الحياة بشمولية بديعة ودقة تامة؛ ومع ذلك فهو الدين السهل الميسور: في اعتناقه واعتقاده وتطبيقه.

والخلاصة: معرفتك بما تحب تزيدك حبًّا فيه وحرصًا عليه.

والله لو علمت نفسي بمن هويت
جاءت على رأسها فضلاً عن القدمِ

٣ ـ دلائلُ النبوة، ينبغي دراسة هذا الموضوع دراسةً مُوعِبة، مع مطالعة الشمائل النبوية والسيرة العطرة.

٤ ـ تحقيق التوحيد، وتعميق الإيمان بالغيب.

٥ ـ مفهوم الولاء والبراء في ضوء الأدلة الشرعية، وأحكام التكفير وضوابطه، بعيدًا عن انحلال المنحلين وغلوِّ الغالين.

٦ ـ المعتقد الصحيح في باب القدر، والحكمةِ والتعليل في أفعال الله سبحانه؛ إذ هذا من أوسع الأبواب التي يلج من خلالها شياطين الإنس للتلبيس على الشباب.

٧ ـ المنهج الصحيح في التعامل مع الشبهات؛ بالنأي عنها، أو الاجتهاد في كشفها.

٨ ـ تعظيم أدلة الكتاب والسنة والتسليم لها وتقديمها على ما سواها، وملء القلب بهذا.

٩ ـ إزالة توهُّم التعارض بين العقل والشرع، مع معرفة مكانة العقل ووظيفته اللائقة به.

١٠ ـ معرفة مصادر التَّلقي عند أهل السنَّة والجماعة، ومناهج الاستدلال الصحيحة.

🕮 وصية بمراجع يُرجع إليها

كتب عقيدة أهل السُّنة أتباعِ السلف الصالح كثيرةٌ بحمد الله، وسأقتصر على شيء يسير ويتميز بالسهولة والوضوح.

إن أردت شيئًا سهلًا واضحًا فأوصيك بالاستماع لدروس الشيخ محمد بن صالح العثيمين في العقيدة، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ترك لنا إرثًا علميًّا نافعًا، بل جامعةً كاملة، ويتميز طرحه بالوضوح والدقة، لا سيما «شرح ثلاثة الأصول»، و«شرح عقيدة أهل السُّنة والجماعة»، و«القول المفيد»، و«شرح الواسطية».

كما أوصيك برسائل الشيخ عبد الرحمن السعدي في الاعتقاد، لا سيما في ردِّه على الملاحدة وبيان محاسن الإسلام، وقد سبق ذكرها في الفصل الثامن عشر.

وإذا أردت اقتناء كتاب جامع في العقيدة الصحيحة، وهو سهل واضح مليء بالأدلة فدونك كتاب: «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ، وإن أردت شيئًا مختصرًا فخذ «أعلام السُّنة المنشورة» له رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو على طريقة السؤال والجواب.

وإذا أردت أن تقتني كتابًا موسوعيًّا شاملًا في العقيدة فخذ «موسوعة العقيدة» التي أصدرتها «الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة» في ستة مجلدات.

وإذا أردت أن تترقى في هذا العلم فأوصيك أن تُبحر في كتب الإمامين الجليلين: ابن تيمية وابن القيم؛ فإنك ستجد العلم الصافي الثمين.

وإذا أردت موقعًا على الشبكة واسعًا، فيه ما يشفي ويكفي في العقيدة ـ أبحاثًا وكتبًا ومقاطع وفتاوى ـ فدونك موقع «الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة».

🕮 كيف نُحصّن أبناءنا عقديًّا؟

هذا السؤال أهمُّ سؤال ينبغي أن يوضع أمام كلِّ أب وأم، ومُعلِّم ومسئول!

من أهم المهمات اليوم: السعي في بناء جيلٍ محصّن عقديًّا؛ أي أنه قد أخذ «اللِّقاحات» اللازمة ضد وباء الشبهات والشكوك؛ ليكونوا على بيّنة وقوَّة في دينهم، وعافية من سهام أهل الضلال.

إننا نعيش في زمنٍ عصِيب! والخطر على الكبار كبير؛ فكيف على الصغار!

واستشعار المسئولية والأمانة هو البداية والأساس، ولنتذكر أن ثمة سؤالًا ينتظرنا في الآخرة: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته**» [خ ٨٩٣، م١٨٢٩]. وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلاَّ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**» [خ ٧١٥٠، م ١٤٢].

إن هذا الموضوع مِن السَّعة بحيث أعجز عن الإحاطة ببعضه في هذه الأوراق، لكنها وصايا سبعٌ مختصرة:

أولًا: سؤال الله لهم الهداية والثبات.

وهذا شيء لا ينبغي أخذه على محمل التهميش، كلا ثم كلا؛ هذا شيء مهمٌّ وأساس ومحوري، ينبغي عليك أن تخصص من وقتك شيئًا مديدًا للدعاء لأبنائك وأبناء المسلمين، وخذ الأمر بحزم؛ فالخطب جلل.

إن كنت مقصرًا في الدعاء لهم في السابق فلا تقصر في المستقبل، وإن كنت مجتهدًا فزِد اجتهادًا.

ثانيًا: أن نبدأ بأنفسنا؛ فمتى اهتممنا بتحصين أنفسنا وتأصيلها عقديًّا؛ انعكس هذا على من حولنا بالتأكيد، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ثالثًا: ضع نصب عينك أن من أسس التربية التي تسير عليها:

- غرس محبة الله وتوحيده ومراقبته في نفوسهم.

- طاعة النبي ﷺ الطاعة المطلقة.

- تعظيم الوحي، واحترام القرآن والحديث.

- ضَعفُنا أمام قوةِ الله وغِناه.

هذه أساسيات ينبغي التركيز عليها والتأكيد عليها كلّ وقت.

رابعًا: التركيز على غائية الحياة.

إن غياب الغائية في حياة بعض أبناء الجيل الصاعد شيء مؤسف؛ ولا ينبغي الغفلة عن هذا.

لِم أنا موجود في الحياة، لِم خلقني الله، ما هي الوظيفة الكبرى في حياتي؟

اغرس الإجابة عن هذه الأسئلة الوجودية في صميم فؤاد طفلك إن استطعت في كلِّ ساعة؛ علّمه أن عبادة الله أهم من كلِّ شيء وقبل كل شيء، وأن «المستقبل» الحقيقي الذي علينا أن نسعى إليه: هو المستقبل الأخروي، وما تحقيق المستقبل الدنيوي إلا وسيلة لتحقيق المستقبل الأخروي؛ فيُغرس فيه ـ مثلًا ـ: عليك أن تجتهد في الدراسة وتحرز أعلى درجاتها؛ لأنَّ المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله، ولأجل أن تنفع نفسك وأهلك ومجتمعك والمسلمين؛ فتزداد أجرًا.. ونحو هذا.

خامسًا: اغرس في طفلك «دِين القناعة».

فإذا أمرته بالصلاة فقل له: صَلِّ لأن الذي خلقك ـ سبحانه ـ أمرك بها، واصدق لأن الله يحبُّ الصدق، ولا تكذب لأن الله يبغض الكذب، وافعل الصواب لأن الله يراك، وكُل بيمينك لأن هذه سُنة نبينا وحبيبنا محمد ﷺ..

وبيّن له ـ دومًا ـ ثمرة طاعة الله ورسوله ﷺ.

اغرس فيه دين القناعة لا دين العادة!

سادسًا: إعداد بيئة صالحة مناسبة ـ أو غير سيئة على الأقل! ـ في الشبكة ـ أو السوشل ميديا ـ، بحيث لا يتجاوز طفلك حدودها.

لستُ بحاجة أن أنبّه إلى أن أكثر الأُسَر قد أصبحت الشبكة فيها واقعًا مفروضًا، بل جزءًا من الحياة؛ وشِباك الشبكة للصغار جاذبة، إذن علينا أن نتعاطى مع هذا تعاطيًا إيجابيًّا صحيحًا.

إن وسائل التحكم في إبحار صغارنا في الشبكة موجودة ولله الحمد من خلال بعض البرامج، وثمة مشاريع ممتازة سليمة في المواقع والقوالب المحببة للأطفال يمكن الاستفادة منها، وهي بديل مناسب لركام التفاهة والإسفاف الكبير.

سابعًا: ثمة وسائل جيدة نافعة ومفيدة، وهي تعليم العقيدة من خلال بعض الوسائل الممتعة، أو كتيبات التلوين التي صدرت بعنوان: «عقيدة الطفل المسلم» ونحوِها، تطرح أسس العقيدة بأسلوب سهل، ويستمتع الطفل معها بالتلوين، فهذه وما على شاكلتها نافعة وينبغي استثمارها، وتكمل ما تطرحه المناهج التعليمية وما يغرسه الآباء والمربُّون الصالحون.

الخلاصة: ضع موضوع البناء العقدي لابنك وابنتك نصب عينك، واصدق والجأ إلى الله في التوفيق لهذا، وسيفتح الله لك المغلقات، ويرزقك ما تتمنى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الفصل الحادي والثلاثون

سُؤالاتٌ عن العبادة

«**العبادة**».. موضوعٌ عظيمٌ وواسع، ويستحقُّ الحديثَ عنه والدندنة حوله كثيرًا؛ فأي شيء أهم من الوظيفة التي خُلقنا من أجلها.

وموضوعٌ بهذه السعة يقف المتكلم حائرًا أمامه؛ كيف يمكن أن يلخّصه في مساحة أسطر معدودة؛ لكن لعل تلخيصه في أصول مختصرة جامعة يُقرب ما نصبو إليه.

يمكن تلخيص أهم المهمات في موضوع العبادة في أربعة أصول:

أولًا: العبادة هي الجامعةُ لكمال محبة الله وخوفه ورجائه، مع الخضوع له والانقياد لأمره.

وهي الغاية من خلق الخلق؛ فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦].

ثانيًا: العبادة لها قيدان، ولها ركنان، ولها شرطان، وهي قسمان.

ـ العبادة لها قيدان: العبادة: اسْمٌ جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة؛ إذن لا تكون العبادة عبادةً إلا باجتماع هذين القيدين:

١/ أن تكون مما يحبه الله.

٢/ وأن تكون مما شرعه لعباده.

ـ العبادة لها ركنان: الركن الأول: غاية المحبة. والركن الثاني: غاية الذلِّ.

ولا عبادة إلَّا باجتماعهما.

وعـــبـــادةُ الـــرحـــمْـــنِ غـــايـــةُ حُـــبِّـــه
مـــع ذلِّ عـــابِـــدِهِ، هـــمـــا قُـــطـــبـــان
وعـــلـــيـــهـــمـــا فَـــلـــكُ الـــعـــبـــادة دائـــرٌ
مـــا دارَ حـــتـــى قـــامـــت الـــقـــطـــبـــان

ـ العبادةُ لها شرطان:

١/ الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

٢/ والمتابعة لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا تكون العبادة مقبولة إلا باجتماع هذين الشرطين.

ـ العبادة قسمان:

١/ عبادة ظاهرة.

٢/ وعبادة باطنة.

أمَّا العبادة الظاهرة: فهي الأعمالُ الصالحة التي تقوم بالبدن؛ كالصلاة والزكاة والحج والأذان ونحوها.

والعبادة الباطنة: هي الأعمال الصالحة التي تقوم بالقلب؛ كمحبة الله، وخشيته والإنابة إليه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك.

والأصلُ أن جنس العبادة الباطنة أفضل من جنس العبادة الظاهرة، بل العبادة الظاهرة إذا خلَت من العبادة الباطنة، كانت قليلة الأثر أو عديمة الأثر.

ثالثًا: المنة في العبادة لله ابتداءً وانتهاءً.

المِنَّة لله في العبادة، والفضل كلُّه لَه ابتداءً وانتهاءً، فمنه كان الإيجاد والإعداد والإمداد؛ فهو الذي مكَّن من الهداية لها؛ فأعطى

القدرة والقلوب والأسماع والأبصار، وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب، وهو الذي حبَّب الإيمان في القلوب، هو الذي خلق مشيئة العبادة في النفوس، ثم هو الذي يتفضل بقبولها ويثيب عليها، والعبادُ لا يستحقون عليه ـ سبحانه ـ شيئًا، فالأمر منه وإليه تبارك وتعالى.

واللَّهِ لولا الله ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

ولذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها ـ جعلنا الله منهم ـ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

رابعًا: أفضل العبادات: العمل على مرضاة الرب في كلِّ وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت.

فالعابد الصادق غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلًا في منازل العبودية، كلما رُفعت له منزلةُ عملٍ سار إليها واشتغل بها؛ حتى تلوح له منزلة أخرى؛ فهذا دأبه في السير حتى يضع عصا الترحال في هذه الحياة.

«لماذا أعبد الله؟ ولماذا أمرنا الله بعبادته؟ وهل هو بحاجة إلى عبادتنا؟ وإذا لم يكن محتاجًا إليها؛ فلماذا أمر بها؟!».

هذه أسئلة تدور على ألسنة بعض الشباب، وقد تكون مصدر إشكال لديهم، وإن كنت أظن أن السؤال منها سؤالٌ اعتراضيٌّ تعنتيٌّ أكثرُ من كونه سؤالَ بحث عن الحقيقة؛ لأن الناس بين من يؤمن بالله ومن لا يؤمن به؛ فمن كان مؤمنًا بالله فإن عنده من تعظيم الله والعلم به والأدب

معه ما يدرك به أن العبادة حقٌّ عليه لربه بموجب كونه عبدًا له، ومن كان ملحدًا فهو لا يؤمن بالله أصلًا؛ فما له وللبحث في عبادته أصلًا!

فما بقي إلَّا أنه سؤالٌ تشكيكيٌّ يبثه أعداء الله في نفوس ضعاف الإيمان.

ومع ضعف العلم قد يظن بعض الناس أن هذا السؤال التشكيكي صعب ومُشكل، وهو في الحقيقة أتفه ما يكون؛ وما كلُّ بيضاءَ شحمة، ولا كلُّ سوداءَ تمرة!

عندنا ههنا جواب خاطئ، وجواب صواب.

أما الجواب الخاطئ: فهو أن الله خلقنا لحاجته هو إلى العبادة! هذا جواب خاطئ بالتأكيد؛ فالله ما أمرنا بعبادته لحاجته إليها؛ ومن تصور صحة هذا الجواب توهم أن الطلب يفتقر إلى الحاجة دائمًا، وهذه نظرة مادية بحتة؛ فليس كلُّ من طلب شيئًا يكون محتاجًا إليه؛ فالمعلم يطلب من الطالب الاجتهاد في الدراسة لمصلحته لا لمصلحة المعلم!

إذن، قد يكون الطلب لمصلحة المطلوب لا الطالب.

فالله ـ جل في علاه ـ قد ثبت بالأدلة القطعية ـ النقلية والعقلية والفطرية والحسية ـ أنه الربُّ الخالق العظيم، والإله الحقُّ المبين؛ وإذا كان كذلك فإن له الغنى المطلق، والغنيُّ غنًى مطلقًا لا يحتاج إلى غيره؛ فأي حاجة له إلينا أو إلى عبادتنا، واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

عجيبٌ حال ابن آدم؛ يمتنُّ على ربه بعبادته أو يستكثرها! ﴿قُل

ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عَبَسَ: ١٧]! ومَن نحن أمام عظمة الإلهية وجلال الربوبية؛ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفُرقان: ٧٧]، وفي الحديث القدسي العظيم، يقول الله تعالى: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**» [صحيح مسلم (٢٥٧٧)].

إنه لن يفهم معنى العبادة وحقيقةَ عبوديةِ العبدِ لربه مَن لم يقدر الله حقَّ قدره.

إن حكمة العبودية وغايَتها إنما يطّلع عليها من عرف صفاتِ الرب ﷻ وعظمَته، وعرف معنى الإلهيةِ وحقيقَتها، وأنه سبحانه الإله الحق، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجَبُ إلهيته وأثرُها ومقتضاها.

ومَن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها لن يستقيم له معرفة حكمة العبادات وما شُرعت لأجله، ولن يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها أُوجد الثقلان، ولها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، ولأجلها خُلقت الجنة والنار، وأن فرضَ تعطيلِ الخليقةِ عنها فيه نسبةٌ لله إلى ما لا يليق به ويتعالى عنه؛ فإنه لم يخلق الإنسان عبثًا ولن يتركَه سدًى مهملًا، قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي لغير حكمة! وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القِيَامَة: ٣٦] أي مهملًا، لا يؤمر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يُعاقب.

فتبيّن أن الله ما أمرنا بعبادته عبثًا، أو لحاجته إليها؛ وإنما الجواب

الصحيح أن الله خلقنا للحقِّ، وهذا الحق يتضمن الحِكمة التي يحبها وشرع العبادة لها، وتتلخص في أمرين: العبادة حقٌّ له، وحاجةٌ لنا.

أما الأمر الأول: فهو أن العبادة حقُّه تعالى؛ «**حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**» هكذا قال الصادق المصدوق ﷺ [خ ٥٩٦٧، م ٣٠].

فهو سبحانه أمرنا بالعبادة لأنها حقه؛ ومن طلب حقَّه وجب أن يؤدَّى إليه ولو كان غنيًّا، وهذا ما يدركه كلُّ العقلاء؛ فالحق يؤدى لصاحبه بمقتضى كونه حقًّا له؛ لا بمقتضى كونه محتاجًا له؛ فلو كان لغنيٍّ عليك حقٌّ مالي، فهل لك أن تعترض وتقول: أنت غنيٌّ؛ فلمَ تطلب حقك؟!

والله تعالى له علينا حقٌّ عظيم من جهات عدة:

فأولاً: لكونه ربَّنا وخالقَنا، ونحن مخلوقون له، وإذا كان هناك خالق ومخلوق؛ فلا بد إذن من العبادة؛ هذه قضية بديهية!

وثانيًا: لكونه سيدَنا ومالكنا، ونحن عبيدُه المملوكون له، المقهورون تحت سلطانه.

وثالثا: لكونه رازقَنا والمنعمَ علينا، ونحن الفقراء إليه في كل شيء، ولا نغني عن أنفسنا شيئًا، ولا حول لنا ولا قوة إلَّا به؛ حتى في اللقمة التي نأكلها، والشربةِ التي نشربها، بل والنَّفَسِ الذي يتردد في أجوافنا.

ورابعًا: لأن له الكمالَ المطلقَ والجلالَ والجمال في ذاته وصفاته، والنفوس تحبُّ الكمال المطلق وتخضع له وتعظّمه؛ وعليه، فالله يُعبد لأنه أهلٌ أن يعبد، ومن تأمل طرفًا من كمال أسمائه وصفاته أدرك حقيقة هذا.

وهذا أمرٌ عظيم كم يُغفل عنه! والإشكال الذي يرد في شأن العبادة

لا يرد إلَّا مِن ضعفِ تعظيمِ الله، والعلاجُ أن يعود الإنسان إلى نفسه ليصلح هذا الخلل؛ فتفكَّر في عظمة الله يزول عنك الإشكال، واقرأ في كتاب الكون الفسيح، وتتبع مواضع الإتقان والإحسان في كلِّ صغير وكبير، وحينها تنجفل عنك الوساوس.

«**عَظِّم: تعبُد**».. هذه هي القاعدة باختصار؛ عظّم الله واقدره حقَّ قدره: وستعبدُه قطعًا؛ ستوقن أنه الجدير أن يُتألَّهَ له محبةً ورغبة ورهبة.

الخلاصة: العبادة حقُّه سبحانه الواجبُ له، الواجبُ علينا.

الأمر الثاني: الله أمرنا بعبادته لا لحاجته إليها؛ وإنما لحاجتنا إليها؛ إذن هو منعم متفضل علينا حين أمرنا بعبادته.

«**العبادة: حاجتُنا لا حاجته**»؛ فالله يريد أن ينفعك لا لينتفع بك، وصدق من قال: «كلٌّ يريدك له، إلا الله؛ فإنما يريدك لك»!

فالعِباد العُبّاد إنما يعملون لأنفسهم ولمصلحتها، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فُصّلَت: ٤٦]، ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فَاطِر: ١٨]، وفي الحديث القدسي السابق يقول تعالى في ختامه: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ**».

الخلاصة: الله اللطيف الكريم الرحيم سبحانه أمرنا بالعبادة لنفعنا وسعادتنا، وحصولِ الطمأنينة وانشراح الصدر بها في الدنيا، ثم لننال السعادةَ والنعيمَ المقيم في الآخرة بسببها.

العبادةُ ليست أثقالًا ولا أغلالًا يؤدِّيها الإنسان بضيقٍ وعنت

ومشقة، هذا لا يقوله من عرفها وذاق حلاوتها، إنما هي عبادات سهلة يسيرة، فيها الأُنس والبهجة والسعادة، ومن لم يذق فليجرب!

ومن لم يُجرِّب ليس يعرف قَدرَهُ
فجرِّبْ تجد تصديق ما قد ذكرناهُ!

من عرف العبادة فإنه ـ إن أنصف ـ سيدرك أن الأغلال ليست في العبادة، وإنما في الإعراض عنها!

نعم؛ الإعراض عن عبادة الله هو المشقة حقًّا؛ لأنه الغُربة مع النفس، والنُّفرة بين الجسد والروح، هو الضِّيق والتِّيه والضياع، هو الضنك والشقاء.

من لم يعبد الله تائهٌ بائس، حيرانُ عطشان، وإحصاءات الانتحار شاهدٌ لا يكذب! وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ودونك ما يصرح به أهل العبادة وأهل الإعراض عنها! فأيهم بالله أهدى سبيلًا؟!

أفَحَالُ معرضٍ ملحدٍ ضالٍّ يصف حاله بقوله ـ وهو أحد أساطينهم المعاصرين ـ: «جئنا من لا شيء، بلا شيء، لأجل لا شيء»!

أو قول آخر على شاكلته:

«جئتُ لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرتُ قُدّامي طريقًا فمشيت
وسأبقى سائرًا إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري!

لستُ أدري.. ولماذا لست أدري؟ لست أدري!».

أفهذا التيه والعدمية القاتلة أحسن حالًا ومآلًا أم حال العابد السعيدِ بعبادته؟!

أَيْنَ هَذَا مِنْ نَعِيم مَنْ يَرْقُصُ قَلْبُهُ طَرَبًا وَفَرَحًا وَأُنْسًا بِعبادته لرَبِّهِ وَطُمَأْنِينَةً بِذِكْرِهِ؟ حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ فِي حَالِ نَزْعِهِ: وَاطَرَبَاهُ! ويقول ثانٍ: «إنه لتمرُّ بالقلب أوقاتٌ يرقصُ فيها طربًا»، ويقول ثالث: «إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ»!

وإذا أردتَ مصداق هذا فانظر إلى حال من أسلم حديثًا ـ وفي الشبكة مئات المقاطع التي تحكي مشاعرهم بعد إسلامهم ـ تجدْ أن أول ما يذكرون من وصف حالهم بعد إسلامهم: أنهم وجدوا أرواحهم، وتصالحوا مع ذواتهم، ووضعوا كلَّ شيء في نصابه، وذاقوا من اللذة ما تعجز الكلمات عن التعبير عنه.. وصدق الله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك: ٢٢].

عبادةُ الله: نورٌ للبصيرة، وحياة للقلب، وسلامة من الضياع، وحفظ للعمر، وتعطير للأنفاس، وغسل للأدران، ودواء للأدواء، وعلاج للهموم.

العبادة: رونق الحياة وبهجتها وأُنسها، ومن عرف قدرها حقًّا لهج لسانه بحمد الله عليها أكثر من لهَجه بحمده على نعمة الصحة والمال والولد؛ فهي النعمة التي أكرمنا الله وأسعدنا بها.

هي النعمة التي لا نعمة فوقها!

إذن لا تقل: لِم أمرنا الله بعبادته؟ بل قل: اللهم لك الحمد أن أمرتنا بعبادتك!

لا تعجب من أن الله أمرنا بعبادته؛ بل اعجب لكرم معبودك العظيم سبحانه أن قَبِلَك عبدًا له، وتقبَّل عبادتك، مع ما فيها من غفلة وتقصير!

وثمة أمر آخر يتعلق بهذه الفقرة:

الله تعالى منَّ علينا بالعبادة لتتحقق إنسانيتنا.

نعم؛ عبادة الله تعيدك إلى إنسانيتك الحقة، أنت ـ إن وُفقت ـ عابد لربك لأنك إنسان؛ فالنفس البشرية مفطورة على العبادة، وفي أعماقها حاجة ملحة للتعبد؛ فهذه خاصةُ النفس البشرية شاءت أم أبت؛ فالإنسان حيوان متعبد، هذا جزء من حقيقة إنسانيته؛ فكما أنه متنفس وآكل وشارب ومفكر ولا بد؛ فكذلك هو متعبد ولا بد.

لا يمكن أن يخلو إنسان من العبادة البتة؛ فإن لم يضع العبادة في موضعها الصحيح؛ إن لم يعبد الله: عبد غيره حتمًا؛ عبد لذةً، عبد صنمًا، عبد معشوقًا، عبد مالًا، حتى لربما عبد ثوبه! قال ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ**» [البخاري (٢٨٨٧)].

إذن: **كل إنسان عابدٌ**؛ هذه قاعدة كلية لا استثناء فيها؛ حتى من يزعم أنه ملحد أو لا ديني: فهو في الحقيقة واقع في عبادة شهوته وهواهُ قطعًا، وصدق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال:

أرواحهم في وحشة وجسومهم
في كدحها لا في رضا الرحمٰن
هربوا من الرقِّ الذي خُلقوا له
فَبُلُوا برقِّ النفس والشيطان

الخلاصة: العبادة: واجبةٌ، ونعمةٌ، وحاجةٌ.

فكما هي واجبة علينا؛ فإنها نعمة نتنعم بها، وحاجة لنا بل ضرورة؛ فحياتنا بدونها مُظلمة بائسة.

في العبادات ما لا تُفهم حكمته!

هذا ـ أيضًا ـ مما يسأل عنه بعض الشباب ويستشكلونه.

وستكون الإجابة في خمس نقاط:

أولًا: جُلُّ العبادات واضحة المعنى مفهومة الحكمة، وما خفيت حكمته منها شيء قليل؛ فلو تأملتَ في أصول العبادات الكبار كالصلاة والزكاة والصيام والحج؛ فهذه لها حِكم جليلة جليّة، ولو سوَّدنا صفحات كثيرة في الحِكم التي تُلتمس من مشروعيتها فلن ننتهي.

نعم؛ ثمة أشياء يسيرة نقف عندها عاجزين عن معرفة الحكمة فيها؛ فلِمَ كانت صلاةُ الفجر ركعتين وصلاة المغرب ثلاثًا مثلًا؟ هذا سؤال ليس لأحد أن يجزم فيه بشيء، ويوكل العلم فيه إلى العليم الحكيم سبحانه.

ولاحظ أن الصلاة نفسها حكمتها ظاهرة، وإنما الخفاء في شيء من تفاصيلها.

ثانيًا: ينبغي التفريق بين ما خفيت حكمته وما عدمت حكمته، بين ما نجهل حكمته وما نجزم أنه لا حكمة فيه؛ فالأول واقع، وأما الثاني فلا وجود له في العبادات البتة.

أي: أن نجزم بأن شيئًا من العبادات عبثيٌّ لا حكمة فيه أبدًا: هذا ممتنع، ولا يمكن لأحد أن يدَّعيه في العبادات الشرعية البتة؛ فكونُ

الفجر ركعتين لا ثلاثًا ولا أربعًا هذا شيء نجهل حكمته، لكن لا يمكنُ لأحد أن يجزم بأنه لا حكمة فيه.

ثالثًا: ليس من شرط التعبد معرفةُ الحكمة.

إذا ثبت أن العبادة حقُّ الله على العباد؛ فلم يبقَ أمامهم إلا أن ينصاعوا ويطيعوا.

أي: ليس من شرط القيام بالفعل فهمُ أدقِّ التفاصيل؛ بل يكفي صحةُ السبب وسلامة الغاية للقيام به.

خذ مثلًا: أكثر الناس يستخدمون الجوال وهم لا يفهمون كيفية عمله؛ كيف ينتقل الصوت من طرف إلى طرف، هذا شيء غير معلوم عند أكثر الناس، ومع ذلك لم يؤثر في استعمالهم لهذا الجهاز؛ إذ يكفي أنه يلبّي حاجتهم، وليس شرطًا أن يفهموا أدقَّ التفاصيل فيه.

خذ مثلًا آخر: أكثر الناس لا يعلمون كيفية عمل السيارة، ولم يسمعوا قط بأنه تحصل عمليةُ احتراق يتمُّ فيها حرق مزيج الهواء والوقود، إلى آخره؛ ومع ذلك ما سمعنا أحدًا قط اعترضَ أو امتنع عن استعمالها بسبب جهله بالتفاصيل؛ هذا والسيارة أو الجوال شيء حسيّ، أما العبادة ومشروعيتُها وثوابُها ففيها جانب غيبيّ؛ ونحن نقطع بأنها توصلنا إلى أعظم غاية ومنفعة لنا وهي رضا الله تعالى.

إذن، لا ينبغي البتة التردد في قبول العبادة والقيامِ بها لجهل الحكمة منها؛ **فمبنى العبودية على التسليم، ومن التسليم عدم الاسترسال في التنقير عن تفاصيل الحكمة** في الأوامر والنواهي والمقادير.

إنْ ورد الشرع بذكر حكمة وفهمها العقل كانت زيادة في البصيرة،

وإن لم تظهر لم يوهن ذلك في انقياد العابد الصادق، ولم يقدح في امتثاله؛ وهذه أعظم حكمة: أن تُسلّم لأمر الله وتنقاد له وأنت لا تفهم الحكمة؛ ليتجلّى صدق عبوديتك لله سبحانه.

رابعًا: ينبغي على الإنسان أن يدعَ الغرورَ ويتحلَّى بالتواضع؛ فما يعلمه قليل جدًّا بالنسبة لما يجهله، والعقولُ أضعفُ من أن تُحيط عِلمًا بكلِّ شيء، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسرَاء: ٨٥].

ونحن **نستدلُّ في موضوع الحكمة بما علمنا على ما جهلنا**. وهذه قضية مضى الكلام فيها في فصول سابقة، وقد علمنا أنه لا يستطيع أحدٌ من الخلق الاطلاعَ على جميع مكنون حكمته سبحانه.

ومن لم يُسَلِّمْ بهذا يلزمه مساواة المخلوق بالخالق في معرفة المصالح وجميع دقائق الحكمة، وكيف يستوي ربُّ الأرباب والمخلوقُ من التراب! وهل يُسوّى بين الظلوم الجهول وعلامِ الغيوب!

والخلاصة: أن من لم يتواضع في طلب الحق فلن يصل إليه؛ فلا يتعب ولا يُتعب!

تذكّر كمال الربّ ونقص العبد، واعلم أن قصور العلم لا ينتهض معارضًا(١).

خامسًا: مهما أشكل عليك شيء من مسائل الشرع أو القدر فإني أوصيك باستحضار جوابٍ سهلٍ مريح، وأسميه: **استذكارَ الأصل**.

---

(١) تحسن مراجعة الفصل العاشر (لله حكمة بالغة) واستحضار الضوابط الخمسة عشرة المذكورة هناك.

بمعنى: أشكل عليك شيء من مسائل القدر أو الشرع، أو أشكل على غيرك وأردتَ أن تحاوره فيه؛ قد يكون من الحكمة عدم البحث في المسألة مباشرة؛ أي لا تهجم عليها مباشرة، وإنما ارجع ـ مع نفسك أو محاورك ـ إلى البداية، عبر المراحل الآتية:

أولاً: ثبوت ربوبية الله تعالى؛ هل الله الربُّ العظيم موجود أم لا؟ ما الذي تعتقده؟

فإن كنت مطمئنًا بالجواب فانتقل للمرحلة الثانية، وإلَّا فارجع وعالج نفسك في هذا الموضوع، واستحضر أدلة وجود الله وربوبيته.

ثانيًا: ثبوت الصفات العليا؛ فالربُّ العظيم سبحانه متصف بالصفات العليا الكاملة من جميع الوجوه، ولا يمكن أن يكون ربًّا إلا وهو كذلك، ومن ذلك اتصافه بالحكمة البالغة والعلم الواسع الشامل. إذا كنت مطمئنًا بهذا فانتقل إلى المرحلة الثالثة، وإلَّا فعالج نفسك وتأمل في أدلة الصفات وشواهدها في الوجود.

المرحلة الثالثة: ثبوت صدق النبي محمد ﷺ وصحة رسالته؛ فإذا كنت موقنًا بهذا فانتقل إلى المرحلة الرابعة وإلَّا فعالج نفسك في هذا المقام، واستحضر براهين صدق النبي ﷺ.

المرحلة الرابعة: صحة الإسلام؛ فإن كنت موقنًا بأن الإسلام هو الدين الحقُّ المنزل من عند الله فانتقل إلى المرحلة الخامسة؛ وإلَّا فعالج نفسك في هذا المقام، واطلع على براهين صحة الإسلام.

المرحلة الخامسة: حفظ القرآن والسُّنة، فإن كنت موقنًا بهذا فالحمد

لله، وإلَّا فعالج نفسك في هذا المقام واعرف البراهين القوية التي تدلُّ على أن القرآن والسُّنة محفوظان بحفظ الله.

خذ الأمر بهذه الطريقة؛ مرحلةً مرحلة، وحينها ستصل إلى الموضع المشكل وقد هان أمره بعون الله.

إن تدرَّجتَ هذا التدرُّج فسيهون الإشكال أمام ناظريك بإذن الله؛ فإن من استيقن بهذه الأمور الخمسة فستهون عنده أي قضية شرعية أو قدرية مشكلةٍ عليه، ولن تؤثر على إيمانه، وسيضع الإشكال في محلِّه الصغير، بل وسيسهل عليه حلُّه بتوفيق الله.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بشيء سبق أن أوصيتُ به، أَلَا وهو:

قراءة «رسالة العبودية» تلك الرسالة العظيمة لشيخ الإسلام ابن تيمية، فمَن قرأها أُوصيه أن يُعيد قراءتها، ومن لم يقرأها أُوصيه أن يقرأها.

الفصل الثاني والثلاثون

الأبراج حقيقة أم خيال

الأبراج ـ أو البروج ـ جمع بُرج، وهي: المواقع التي تنزلها الشمس خلال السَّنة، وهي اثنا عشر برجًا[١]، وكل ثلاثة بروجٌ منها تمثّل فصلًا من الفصول الأربعة.

فالفلكيون قسموا «مدار الشمس» الذي تقطعه في السَّنة إلى اثني عشر قسمًا، كلّ منها يسمى برجًا، يشغل كلُّ برج منها **٣٠** درجة من درجات الطول، وكل برج منها تكون الشمس مسامتة فيه لعدد من النجوم تضمها خطوط موهومة، وتعطي صورة معينة لشيء من الأشياء.

والتعلق المذكور معنا في هذه الحلقة لا يتعلق ببروج الشمس فقط، بل أيضًا بمنازل القمر واقترانه بالنجوم أيضًا.

ومنازل القمر: هي المواقع التي ينزلها القمر كل ليلة، وهي ثمانيةٌ وعشرون منزلًا، كل ليلة ينزل منزلًا منها.

وعلم الفلك ومعرفة النجوم من أخذ منه طرفًا صالحًا زاده إيمانًا بالله وتعظيمًا، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [يُونس: ٥]، هذا كله من الحق الذي خلق الله ﷻ السماوات والأرض وما فيهما من أجله، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفُرقان: ٦١]، فذكر تعالى البروج في مقام الثناء على نفسه جل في علاه، والتنبيه إلى آياته العظيمة.

---

(١) وقد جمعها الناظم في قوله:

حمل الثور جوزة السرطان ... ورعى الليث سنبل الميزان
ورمت عقرب بالقوس جديًا ... ملأ الدلو بركة الحيتان

مهما يكن من شيء؛ فبحثُنا هنا ليس متعلقًا بعلم الفلك، إنما بما يسمى بالتنجيم في لباسه المعاصر.

يرتبط مفهوم التنجيم بالكواكب وبالأبراج الفلكية، وهو من الأساطير التي سرت في الأمم القديمة، ولم تزل إلى اليوم؛ إذ ربطوا بين الأجرام السماوية وحركاتها ونزولها في أبراجها ومنازلها، وبين الأقدار والحظوظ، كما ربطوا بين الوقت الذي يولد فيه الشخص وبين سلوكه وطباعه وشخصيته التي تتأثر بالبرج الذي ولد في فترته أيضًا، فيقولون مثلًا: المولودون في برج العقرب يتَّسمون بالغموض والسرية، بينما المولودون في برج الحوت يتميزون بالجموح، إلى آخر ما سيُبيّن إن شاء الله.

🕮 سبب الحديث عن هذا الموضوع

ظاهرة ادِّعاء علم الغيب والتنجيم والكهانة والتعلق بالأبراج: نوعٌ من الجاهلية القديمة الحديثة.

وهي بلية كبرى في هذا العصر، لا سيما مع غلبة تأثير وسائل التواصل الحديثة على عقول الناس وحياتهم، فكثيرٌ من الشباب والفتيات ـ لقلة العناية بالعقيدة ـ يخوضون غمار هذه الأشياء التي تعود عليهم بالشرِّ الوبيل وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا! فكم تلك المواقع أو الحسابات التي تعجُّ بها الشبكة وترفع لافتة: «حظك معنا»، أو «حظك في برجك»، أو تلك الكتب أو المجلات التي تحوي الأبراج التي يذكرون فيها ما يذكرون من سعود أو نحوس: أنت مولود في برج الجدي؟ إذًا ستفوز بجائزة مالية هذا الأسبوع، أو ستتعرف على صديق جديد، إلى آخر هذا الهذيان.

هناك مواقع كثيرة انتشرت والوصول إليها من أسهل ما يكون، موقع الشيخ الروحاني فلان، موقع الشيخة الروحانية أم فلان: ماذا تريد؟ نحن بين يديك، اطلب وتمنَّ، تريد معرفة الغيب؟ تريد جلب حبيب؟ تريد تحصيل مال؟ ما عليك إلَّا أن تتواصل معنا ونحن نوصلك إلى ما تريد! ومن لا علم عنده أو ضعف إيمانه يتساهل في مثل هذا الأمر.

من الشباب أو الفتيات من لا تبدأ يومها إلَّا بأن تلقي نظرة على موقع توقعات الأبراج، فتتسمر عيناها على الخانة المخصصة لبرجها، فإما أن تبتسم متفائلة، وإما أن تغلقه وتبقى يومَها عابسة!

ومع بداية كلِّ عام جديد، تنهمر التوقعات السنوية من كل حدب وصوب، لتملأ شاشات التلفزة ووسائل التواصل.

لقد أصبحت عملية التخطيط للعام الجديد لدى كثيرين مرتبطة بتوقعات برجهم، فلا يقومون بأي خُطوة قبل التأكد من أن الحظ من نصيبهم!

من النساء من تحدد موعد الولادة في عملية قيصرية ليناسب تاريخُ ولادة طفلِها برجًا معينًا؛ لأجل أن يكون في زعمها على شخصية معينة!

وشريحة من الفتيات والشباب أصبحوا يبنون علاقة الصداقة على معرفة الأبراج؛ فمن الأبراج في زعمهم ما يتفق معهم ومنها ما لا يتفق!

بل حتى في الزواج: يقول أو تقول: هذا من برج كذا فلا يناسبني!

قرأت لأحدهم يقول: «لا يمكنني أن أبدأ أي مشروع جديد قبل التأكد من أن برجي مناسب لهذه الخُطوة»!

وقرأت لإحداهنَّ تصف شغفها بتوقعات الأبراج بـ«الأكسجين»، وتقول: «لا أنتظر بفارغ الصبر التوقعات السنوية للأبراج فحسب، بل أبدأ كلَّ أيامي بقراءة برجي وما تحمله الكواكب والأفلاك لي ولعائلتي»! واقع مؤسف مع الأسف.

🕮 أسباب التعلق بالأبراج

إن محاولة معرفة الغيب وما سيحدث في المستقبل والبحث عما تخبئه الأيام القادمة عن طريق قراءة الأبراج أو الكف أو الفنجان: بات منتشرًا كثيرًا هذه الأيام وخصوصًا بين النساء صغيراتٍ أو كبيرات، وتعود ظاهرة الهوس بالأبراج نتيجة لعدة أسباب؛ منها:

١ ـ الهروب من واقع كئيب! فأحدهم يحاول الهروب من واقعه إلى التعلق بأوهام واستشراف مستقبل أفضل.

٢ ـ التقليد: ليس خافٍ أن صورة واحدة أو منشورًا يُكتب في وسائل التواصل اليوم كافٍ في أن يتأثر به كثيرون يتابعون الكاتب.

إنَّ داء التقليد مشكلة؛ فهي تريد أن تصبح مثل صديقتها: تبدأ يومها بالقهوة وقراءة حظها في برجها! هذه حقيقة واقعية؛ فالتعلق بالأبراج يمكن أن يأتي حبًّا في تقليد الآخرين ومتابعة لما يسمى «الموضة» السائدة.

٣ ـ الفضول والرغبة في التسلية: فقد تكون البداية نوعًا من الفضول وحبِّ الاستكشاف أو التسلية.

ولا يخفى أن اكتشاف المجهول له لذة عند البعض: شيء جديد، والفراغ كبير؛ فلم لا نجرب! ولكنها مع الأسف تجربة قبيحة، وقد تتحول مع الوقت إلى إدمان وهوس.

٤ ـ تُوفر الأبراج إحساسًا بالراحة؛ حيث يمكن أن تكون قراءة الأبراج مريحةً لبعض الناس؛ إذ تميل الأبراج إلى التحيز تجاه الأشياء الإيجابية ولا تتوقع كثيرًا من الأمور السلبية، لذا فيمكن أن تخدعهم سريعًا.

٥ ـ الشعور بالسيطرة: فمن الناس من يرغب ـ عن طريق معرفة ما يكون في المستقبل؛ وهو الزيف الذي تخبره به الأبراج ـ في أن يسيطر على حياته في زعمه ويتحكم بها.

٦ ـ قد ساعد تبني بعضُ وسائلِ الإعلام للأبراج ومن يدّعون أنهم علماء في الفلك، وإظهارُهم المستمرّ على الشاشات ـ إلى تطبيع هذا المنكر.

🕮 التأصيل الشرعي لموضوع النجوم والأبراج والتعاطي معها.

التعلُّق بالأبراج والنجوم والكواكب الذي نتحدث عنه يسمى بالتنجيم، والتنجيم هو: تعاطي علمِ النجومِ المذموم.

وذلك أن علم النجوم منه ما هو مذموم وهو التنجيم، ومنه ما هو غير مذموم.

والمُنجِّم هو: من يتعاطى التنجيم، وهو من جنس الكُهّان والعرّافين.

وهذا الأمر المتعلق بالنظر في الأبراج أجمع العلماء على تحريمه؛ فلا خلاف بين أهل العلم على أن النظر فيها لمعرفة المغيبات أمرٌ يخالف الشريعة، كما أنه أمر يخالف العقل؛ فإنه لا ارتباط بين الحوادث الأرضية وبين الكواكب والنجوم ومنازلها واقترانها، ومن زعم أن ثمة علاقة فهو كاذب ملبس.

لا ترقب النجم في أمرٍ تحاوله
فالله يفعلُ لا جَدْيٌ ولا حمَلُ

وتأصيلًا للموضوع يقال: إن علم النجوم ينقسم إلى قسمين: مذموم وغير مذموم:

القسم الأول ـ وهو المذموم ـ: هو علم التأثير.

والقسم الثاني ـ غيرُ المذموم ـ: هو علم التسيير.

علمُ التأثير: ينقسم إلى نوعين: الأول: تأثير عملي. والثاني: تأثير علمي.

علم التأثير العملي: هو اعتقاد أن للنجوم والكواكب تدبيرًا لهذا الكون، أو تأثيرًا على سلوكنا، وأن ما يكون على وجه الأرض من أحداث إنما هو انفعالٌ لفعل النجوم والكواكب.

وأصل عبادة الأصنام بعضه راجعٌ إلى ذلك، فالأصنام إنَّما هي تماثيل يتذكر بها العابدون معبوداتهم السماوية أو الأرضية.

الأرضية: فينصِبون أصنامًا للأولياء والصالحين تُمثلهم.

والسماوية: حيث يجعلون هياكل ـ بيوتًا وأبنية ـ يصورون فيها صورًا للكواكب والنجوم، أو يجعلون لها أصنامًا ويتقربون إليها.

النوع الثاني: **علم التأثير العلمي**، وذلك يرجع إلى استدلال أصحاب هذا الدجل بحركات النجوم والكواكب واقترانِها وافتراقها على الحوادث المستقبلة الغيبية، أي يزعمون أنه بهذا تُعرف أمور الغيب، فإذا ظهر النجم الفلاني سيحصل كذا وكذا.

ولا شك أن هذين النوعين شركٌ بالله تعالى.

أما الأول: فشركٌ ظاهرٌ في الربوبية، فالله ﷻ هو الملك السيد المدبر لشئون الكون وحده لا شريك له.

وأما الثاني: فإنه إشراكٌ مع الله ﷻ في علم الغيب؛ فالله ﷻ عنده ـ وحده ـ علم الغيب، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النَّمل: ٦٥]، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللَّهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلاَّ اللَّهُ..**» إلى آخر الحديث. [صحيح البخاري (٤٦٩٧)].

إذن، كلُّ من جزم أن غدًا سيكون كذا من أمور الغيب، أو الأسبوع القادم، أو الشهر القادم، فإنه بهذا قد ادعى مشاركته مع الله ﷻ في علم الغيب، والله ﷻ هو المتفرد به.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يَنْفِيَ عِلْمَ الْغَيْبِ عَنْ نَفْسِهِ، مَعَ أَنَّهُ خِيرَةُ خَلْقِ اللَّهِ، فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعرَاف: ١٨٨]. إذن هذان النوعان حكمهما شركٌ أكبر. وصدق من قال:

علم النجوم وعلم شرع محمدٍ ... في قلب عبدٍ ليس يجتمعان
ألها دليل سعادة أو شِقوة ... لا والذي برأ الورى وبراني
من قال بالتأثير فهو معطلٌ ... للشرع منتحلٌ لقول ثانِ

وقد قال النبي ﷺ: «**من اقتبس علمًا من النجوم: اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**» [أبو داود ٣٩٠٥]، فالتنجيم داخلٌ في السحر من جهة أن السحر: ما خفي ولطُف ودقَّ سببه، وفيه تأثيرٌ خفيٌّ على النفوس، وهذا شأن التنجيم، وهو من جهة أخرى داخلٌ في حكم الكهانة، والكهانة والسحر، حكمهما متقاربٌ إلى حدٍّ كبير.

ثمة **نوع ثالث** يرجع إلى التأثير العلمي، لكنه ليس شركًا أكبر، إنما هو شركٌ أصغر، وهو ما يزعمه أرباب هذا الدجل من أن الأمور التي تقع: وقوعها بسبب تأثيرٍ من هذه الكواكب والنجوم، والله هو الخالقُ حقيقةً، وهذه مجرد أسباب.

والحقُّ أن ما يذكرونه وهميات؛ فما جعل الله الكواكب أسبابًا لحصول هذه الأمور، فهؤلاء اعتقدوا سببًا لم يجعله الله سببًا، لا شرعًا ولا قدرًا، فكان هذا شركًا أصغر.

ولاحظ ـ يا رعاك الله ـ أن علماء الإسلام لا ينفون أن يكون شيءٌ من الكواكب سببًا لشيء ما يكون على وجه الأرض، والشريعة لا تنكر شيئًا واقعًا، فربما يجعل الله ﷻ شيئًا مما يكون في الأجرام السماوية سببًا لشيءٍ حسيٍّ أو شرعي يقع على وجه الأرض؛ فالشمس مثلًا سببٌ لإنضاج الثمار، وقد يكون السبب شرعيًّا كالتخويف، كما قال النبي ﷺ عن الشمس والقمر: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ**» [خ ١٠٤٨]، فهما إذن سببٌ لحصول الخوف من العباد، فهذا القدر ليس داخلًا فيما نتحدث فيه، نحن نتحدث عن جعل الأجرام السماوية سببًا لشيءٍ، والواقع أنها ليست سببًا، إنما هو شيءٌ يتوهمه هؤلاء في عقولهم؛ ومن شواهد هذا قول النبي ﷺ إثر مطرٍ نزل: «**قال الله ﷻ: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**» [خ ٨٤٦، م ٧١].

كذلك فيما يتعلق بالاستدلال بما يكون في السماء على ما يكون في

الأرض من أمور الغيب، فلا شك أن هذا نوع من الدجل، بدليل ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن الشمس أو القمر إذا خسفتا أو كسفتا فإنَّ ذلك أمارة على أن عظيمًا سيولد أو سيموت، فبيَّن النبي ﷺ بطلان هذا الوهم، وقال: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ**»، فدلَّ هذا على أن ما يزعمون باطلٌ.

ولا يوجد أيُّ نوعٍ من الدراسات العلمية، أو تقريرٌ من مراكزَ بحثيةٍ علمية موثوقة يثبت وجود رابط بين الأبراج وبين ما يتعلق بصفات الأشخاص، أو حوادث الأرض.

هذا كله عن القسم الأول المذموم وهو علم التأثير، **أما علم التسيير**: فهو معرفة حركات النجوم والكواكب ومواقعها للانتفاع بذلك؛ إما بمعرفة مكانٍ أو معرفة زمان؛ فهذا مباح؛ **أما معرفة الزمان**: فإن أهل المعرفة بهذا الأمر يستدلُّون مثلًا بظهور القمر في منزلٍ معين على أن فصل الشتاء قد دخل، فيبنُون على هذا مصالح لهم كالزراعة.

وقد يكون استدلالًا على مكان، كأن يُستدل بالنجوم على الاتجاهات.

وعلى كلٍّ: فلا حرج على الإنسان في معرفة ما يتعلق بالكواكب، لأجل أن ينتفع في أمر دينه أو دنياه، وربما كانت هذه المعرفة مشروعة كمعرفة القبلة أو الزوال؛ وإن كانت هذه في الأزمنة المتأخرة أصبحت قليلة الفائدة مع وجود هذه الأجهزة الحديثة.

🕮 حكم من يطالع شيئًا من هذه الأبراج

مطالعة هذه الأبراج في الصحف أو التواصل مع المنجمين عبر وسائل التواصل والاتصال أو مشاهدتُهم، لها أحوال:

الحال الأولى: أن يكون الاطلاع على سبيل الاختبار والامتحان أو كشفِ تلبيسهم وفضحهم، فهذا لا بأس به، وقد يتعين.

الحال الثانية: الاطلاع على سبيل الفضول أو التسلية، أو كما يقولون باللسان المعاصر: «حب الاستطلاع»، دون تصديق لهذا الدجل؛ فهذا أمرٌ منكر محرم، وفاعله عاصٍ لله ورسوله ﷺ، قد عرّض نفسه للفتنة وإيمانَه للزوال؛ وفي «صحيح مسلم» [(٥٣٧)] من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه قال: يَا رَسُولَ اللهِ أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّانَ، قَالَ: «**فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ**»؛ فههنا نهى النبي ﷺ عن إتيان الكهان والاطلاع على إفكهم، ويدخل في هذا مطالعة الأبراج؛ ففاعل ذلك آثم لعصيانه الله ورسوله ﷺ.

ويترتب عليه أيضًا وعيدٌ خاص وهو أنه لا تُقبل له صلاةٌ أربعين ليلة؛ ففي «صحيح مسلم» [(٢٢٣٠)] قال النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**». ومعنى هذا أنه يجب عليه أن يصلي، ومع ذلك لا ثواب له في صلاته، عقوبة على ما اجترح.

أما الحال الثالثة: فهو أن يأتي إلى الكاهن فيسأله فيصدقه، أو يقرأ الأبراج ويصدّق ما فيها، فهذا الذي يتنزل عليه حديث النبي ﷺ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ» [أخرجه أحمد (٩٥٣٦) بسند صحيح]، ومما أُنزل على محمد ﷺ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النَّمل: ٦٥]؛ وعليه، فمن صدق أن أحدًا يعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه فقد كفر، حيث كذّب بما أَنزَل الله على رسوله ﷺ.

الخلاصة: أبراج الحظِّ وما جرى مجراها من ادعاء علم الغيب ـ كقراءة الكفِّ والفنجان ونحوها ـ خيالٌ لا حقيقة، ويحرم النظر فيها وترويجها بين الناس، ولا يجوز تصديقها، بل هذا من شُعب الكفر والقدح في التوحيد، إضافة إلى أن الشغف بها من ضعف العقل؛ فكيف يُظنُّ أَن مواليدَ برجٍ ما لهم صفات معينة! فإنه يولد في الساعة الواحدة الألوف، وهؤلاء لاَ يحملون قطعًا الصفاتِ نفسها، فضلًا عن مواليد اليوم نفسه، فضلًا عن مواليد الشهر نفسه!

وأنت ترى توأمين، ولدا في الساعة نفسها، ومع ذلك فشخصية كلِّ واحد منهما تختلف عن الآخر تمامًا، فأين أثر البرج هنا؟! وكان ينبغي حسب زعمهم أن يكونا متطابقين!

ومما يدل على بطلان كلامهم أيضًا: اختلافُ المنجمين أنفسهم في أشياء عدة، كاختلافهم في دلالة الأبراج على طباع الخلق وصفاتهم، وقد قارن أحد الباحثين بين ما طرحته مجلتان تعرضان الأبراج صدرتا في يوم واحد؛ فوجد أن كلَّ مجلة ذكرت في كلامها عن برج معين عكس ما ذكرته المجلة الأخرى! مما يدلُّ على أن القضية ليس لها أي أساس علمي، ولا تعدو أن تكون تلبيسًا على ضعفاء العقول.

ووالله لو قَلَبَ أحدٌ كلام الأبراجيين عشوائيًّا، فجعل السَّعْدَ نحْسًا، والنَّحْسَ سعدًا، والذكرَ أنثى، والأنثى ذكرًا، ثمَّ حَكَم؛ لكانت أحكامُه مِن جنس أحكامهم! تصيبُ تارةً وتخطئ تارات؛ فما ثَمّ إلَّا الحَدْسُ والتخمينُ والظُّنونُ الكاذبة والكلامُ العائمُ المحتمل!

فالواجب إذن الحذرُ من التعلُّق بها، والتواصي بهجرها لله، والتوكلُ عليه سبحانه في كلِّ الأمور والرضا بقدره.

احذر أن تلعب بأهمِّ ما تملك وهو إيمانُك، فالمقامُ ليس مقام تسلية، بل هو في غاية الخطر، وقد يعصف بإيمانك بالكلية.

أهم المفاسد المترتبة على قراءة الأبراج والتعلق بها

في قراءة الأبراج وتصديقها مفاسد كثيرة، لا سيما بالنسبة لكثيرين أضحت قراءةُ الأبراج ومتابعتُها عندهم هوسًا وإدمانًا، وأسوق لك بعض هذه المفاسد:

أولًا: الكفر بالله تعالى ـ على ما سبق بيانه ـ ويا بؤسًا لمن خسر دينه.

ثانيًا: عدم قبول الصلاة ـ على ما مضى بيانه ـ.

ثالثًا: الوهن والضعف وترك الأسباب المشروعة؛ فقد يظن الناظر في الأبراج أنه لن ينجح فيدعُ العمل؛ فيكونُ هذا سببًا لفشله وفوات الخير عليه، وكل هذا بسبب الوهم الذي أحدثه التعلق بالأبراج.

رابعًا: ضعف التوكل على الله تعالى وتركُ الالتجاء إليه واستخارتِه.

خامسًا: في هَذِهِ الْأَبْرَاجِ نَشْرٌ لِعَقِيدَةِ الْجَبْرِ الضَّالَّةِ الَّتِي تؤدي بالْإِنْسَانِ إلى اعتقاد أنه لا اختيار له ولا قدرة؛ فهو من مواليد برج معين له صفات معينة ولا حيلة له في أن يتقدم ويتطورَ ويحسن من سلوكه.

سادسًا: تضييع الوقت فيما لا فائدة فيه، بل في شيء محرم.

سابعًا: الوقوع في وهم السيطرة؛ فكثير من الأشخاص الذين يقرأون أبراجهم بانتظام يبحثون عن التوجيه وليس الراحة، فهم يبحثون عما يجب عليهم فعله عن طريقها، حيث يمكن للأبراج أن تصنع لمن يتابعها وهم

التحكم والسيطرة على الحياة، من خلال معرفة ما سيحدث لهم في المستقبل، وكلُّ هذا وهم لا حقيقة له.

ثامنًا: الخطأ في اتخاذ القرارات: فمهما كان هدف الشخص الذي يتابع الأبراج ـ سواء أكان البحثَ عن صداقة أو إدارةَ ميزانيةٍ مالية أو كان يعاني من مشاكل صحية ـ فالأبراج ستسبب له كثيرًا من المشاكل، إذ لها تأثير كبير على سلوكه واتخاذه لقراراته، والمعلومات التي يحصل عليها من الأبراج لا أساس لها، والاعتمادُ عليها سيمنعه من اتخاذ قرارات حكيمة، أو تطويرِ نفسه وإمكاناته.

تاسعًا: هَذِهِ الْأَبْرَاجُ تُصِيبُ النَّاسَ بِالْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ، فإذا حملت الأبراج أخبارًا مستقبلية مؤلمة وقع في قلوب المصدقين اليأسُ والقنوط، وسيدخلون في دوامة القلق والاضطراب النفسي؛ فالتأثر بالأبراج يقود إلى القلق من المستقبل، فيصبح الشخص مدمنًا على أفكار خيالية، وتنمي هذه العادة حسَّ الخضوع لأحداث قد لا تحصل أبدًا.

إن نتائج التعلق بهذه التوقعات مرعبة حقًّا؛ وقد قرأت في إحدى الصحف العربية أن شابًّا يعاني من ضائقة مادية، بدأ في متابعة برجه يوميًّا لعله يستمع إلى خبر إيجابيّ وواعدٍ بانفراجة قريبة، وبعد أن فشلت التوقعات: تأزمت حالته النفسية، وأقدم على الانتحار!

عاشرًا وأخيرًا: قد يعاقب الله المتعلق بالأبراج بنقيض قصده؛ وفي هذا يقول ابن القيم: «لا يكادُ يُعْرَفُ أحدٌ تقيَّد بالنجوم فيما يأتيه ويَذَرُه إلا نُكبَ أقبحَ نكبةٍ وأشنعَها؛ مقابلةً له بنقيض قصده، وموافاةُ النُّحوس له من حيثُ ظنَّ أنه يفوزُ بسَعْدِه. فهذه سنةُ الله في عباده التي لا تُبدَّل، وعادتُه التي لا تُحَوَّل: أنَّ من اطمأنَّ إلى غيره، أو وَثِقَ بسواه، أو رَكَنَ إلى

مخلوقٍ يدبِّره؛ أجرى اللهُ له بسببه أو من جهته خلافَ ما عَلَّق به آمالَه.
وانظُر ما كان أقوى تعلُّق بني بَرْمَكَ بالنُّجوم، حتى في ساعات أكلهم وركوبهم وعامَّة أفعالهم، وكيف كانت نكبتُهم الشَّنيعة» [مفتاح دار السعادة ٣/ ١٢٢٣].

ما علاج الإدمان والهوس بالأبراج؟

نحن في هذه الفقرة من حديثنا لا نتحدث عن تسلية عابرة، نحن نتحدث عن مرض نفسي وقع فيه بعض الناس وهو التعلُّق الشديد بالأبراج أو ما يسمى «هوسَ الأبراج»، وما أذكره ليس مبالغة؛ فهناك ـ حقًّا ـ أناس صرعى ـ وإن شئتَ فقل: أسرى ـ لهذه الأبراج، والأمر في تنامٍ، والله المستعان.

مسكينٌ ـ والله ـ من وقع في براثن هذا المرض؛ فهو في حال بائسة غالبًا.

أن تكون مهووسًا بالأبراج هو أمر شبيه بأن ترى العالم من خلال ثقب صغير في نفقٍ ضيق! ستفقد القدرة على الاستمتاع الصحيح بحياتك أو الاهتمام بأي شيء بعيدٍ عن هوسك.

أهم خطوة في علاج التعلق بالأبراج ـ الذي هو معاندة لله ولشرعه ـ: تقوى الله، وتعظيمُ أمره، وتذكُّرُ عذابه، ومن ثم المسارعةُ إلى التوبة.

أنت إذا كنت مسلمًا فلا خيار لك أن تتردد في قبول حكم الله في هذا الموضوع وقد سمعته؛ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

تُب، واصدق في التوكل على الله، أحسِن الظنَّ به، ارجُ منه الخير؛ فالخير كله بيده.

فــوِّض الأمــر إلــيــهِ هــو أولــى بــك مــنــكَ

هذا وثمة أسباب أو خطوات مساعِدة للتغلب على الهوس بالأبراج:

١ ـ ابتعد عن مصدر الداء: قُربك من مصادر تزوِّدك بتوقعات الأبراج كبرامجَ تلفزيونية أو مقاطعِ يوتيوب أو حساباتٍ في وسائل التواصل؛ يمكن لهذا القرب أن يطيلَ أَسْرك في هذا البلاء، وسيساعدك وضع مسافة بينك وبين هذه المصادر على التحرُّر منه بتوفيق الله.

توقف عن تغذية الهوس، ولكي تكسِر هوسك فعليك أن تُجوِّعه!

الأمر صعب في البداية، لكنك ستبدأ بعد فترة قصيرة ـ بتوفيق الله ـ بالشعور أنه يخفُّ ويضعف شيئًا فشيئًا.

٢ ـ أشغل وقتك بأشياء أخرى غيرِ توقعات الأبراج، قم بعملٍ مفيدٍ جديدٍ بعيدًا عنها، مارس هواية جديدة، وستجد بعون الله طريقةً لتتخطى ما أنت فيه.

٣ ـ اصبر وصابر!

إذا أردتَ أن تتخلص من هذا التعلق، عليك أن تُجبر نفسك على ذلك، وأحيانًا يكون الأمر صعبًا؛ فلا تيأس واصبر فما زال بإمكانك النجاح، وكلُّ ما في الأمر أنك قد تحتاج وقتًا أطول.

٤ ـ شتِّت تفكيرك عن الأبراج.

تذكّر السبب وراء محاولتك التخلص من هوسك بها حتى تتمكن من رؤية ما هو أبعد وتتمتع بالحياة ويسلم لك دينك، وليكن لديك عدّة مُلهيات محببة لك، حيث يمكنك اللجوء إليها عندما تخطر لك أي أفكارٍ تتعلق بالأبراج؛ كإلهاء نفسك بالرياضة أو قراءةِ كتب مفيدة أو مفاكهةِ زملاءَ فضلاء.

٥ ـ تعلم أن تعيش اللحظة.

تعلّم أن تكون مثابرًا باستمرار؛ فبدلًا من التفكير في المستقبل: أشرِك حواسَّك كلها بكل ما يحدث من حولك، لاحظ ما يحدث أمامك واستثمر ما يمكنك استثماره، بدلًا من التفكير في المستقبل والخوف منه. والله تعالى أعلم.

لزيادة الفائدة

۞ أُوصي بقراءة مقطع في غاية النفع من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه تَنبيهٌ طَريف على تكذيب التاريخ لأحكام المنجمين في كتابه «مفتاح دار السعادة»(٣/ ١١٧٥ ـ ١٢٧٣) من طبعة دار عالم الفوائد.

الفصل الثالث والثلاثون

كيف نفهم الأدلة الشرعية؟

(١)

نحن الآن أمام موضوع من الموضوعات الساخنة التي تُطرق باستمرار، والأخطاء المتعلقة بها جَسيمة وخِيمة، والتأثر بها من الشباب كثير.

إننا نُعاني من إشكالية كبيرة، وهي: أن بعض الناس لا يعرف الجواب الصحيح لهذا السؤال: **كيف نفهم آيات القرآن وأحاديث السُّنة؟**

والسبب في ذلك: أننا نعيش في خِضَمٍّ فوضَويَّة معرفية؛ وذلك أن الأدلة الشرعية أضْحَت في كثير من الأحوال ـ مع الأسف الشديد ـ حِمى مباحًا يعبث فيه من شاء، ويفسِّر برأيه، ويقرِّر بهواه، بل لا تجد جُرأة في الكلام على الشؤون الاقتصادية أو الفلكية أو الصحية أو غيرها كما تجدها عند الكلام على القضايا الشرعية ومعاني الكتاب والسنة، ودُونك وسائل التواصل، والقنوات الإعلامية وما فيها من مقالات، وتغريدات، ومقاطع، ومقابلات، فهذا يقول: من حقي أن أفهم الوحي كما يَحْلُو لي، وآخر يُقرِّر نظرية المعنى السَّيال المتحرك، وثالث يريد أن يطبق على الأدلة نظرية موت المؤلف، ورابع يقرر قاعدة تاريخية النصّ، وخامس يسلُك مسلك التأويل، وسادس، وسابع، وثامن..

إنها فوضى فكرية كبرى(١)!

أعداء الشريعة يريدون اليوم الإجهاز عليها من خلال العبث بأصول وقواعد فهْم أدلتها.

---

(١) أحدُهم ـ ومِثْلُه كثير ـ غزير المقاطع، وفي كل مقطع يطرُق بحثًا في آية أو حديث فيأتي بفهْم جديد ما عرفه أحد من أهل الإسلام قط، ولا راعى فيه ضوابط علمية ولا سياقات لُغوية ولا شيئًا من هذا، فيأتي بما يُضحك الثَّكْلَى، والمؤسف أنَّ المشاهدات له بالآلاف!

يريدون هدْمها من الداخل؛ وذلك بجعل أدلتها هلامية فضْفاضة، أو نسْبيَّة في دلالتها، أو أنهم يحصرون حَاكميتها في وقت التنزيل، وعليه فإنها تُحَيَّد ويتلاشى تأثيرها في أوساط المسلمين، ولا تعدو أن تكون تراثًا شعبيًّا ـ أو «فلكلور» ـ نفخر به كما نفخر بالتراثيات، دون أن تكون حاكمة على حياتنا، ومُؤَطِّرة لمواقفنا.

إذن، لا بدَّ من طرح هذا الموضوع، ولا بدَّ من الدَّندنة حوله كثيرًا؛ دَرْءًا لهذه الفوضى العلمية الجامحة.

لا بدَّ من تأصيل أن لِفَهْم أدلة الشريعة قواعد منضبطة، وضوابط مُحكَمة، لا يصحُّ بحال إهمالها.

لا بدَّ مِن أن نَعِيَ أن هناك ضالِّين يبثُّون الشُّبه، ويُمَيِّعُون الدين، ويُلوِّثُونه بالأهواء.

لا بدَّ أن نحذر، فالنبي ﷺ قال: «**إذا رأيتم الذين يَتَّبِعُون ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سمَّى الله، فاحذروهم**» [خ ٤٥٤٧، م ٢٦٦٥].

🕮 هل نحن بحاجة إلى ضوابط لفهم الدين؟

يقول بعض الناس: الدين واضح بحيث يفهمه الجميع، وليس لأحد أن يحتكر تفسير الدين؛ وليس ديننا دين كهنوت!

وهذا الكلام مجمل؛ فيه حقٌّ وباطل، وبيان ذلك: أن أدلة الوحي ليست على درجة واحدة؛ فمنها ما يفهمه كلُّ أحد، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النِّساء: ٧٧]، ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النِّساء: ٣٦]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ١]، فهذه واضحة ويفهمها كلُّ واحد.

لكن منها ما يختصُّ بفهمه العلماء، نعم؛ لا يوجد في شريعتنا كهنوت ولا بطارقة ولا رِجال دِين بالمفهوم الكنسي، لكن هناك علماء، هناك أهل ذِكْر، هناك من يحسن الاستنباط من الأدلة، وإلَّا فما فائدة قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النّحل: ٤٣]، وما فائدة قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٨٣]، وما فائدة قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عِمرَان: ٧]، وما فائدة قوله ﷺ: «**فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم**» [الترمذي (٢٦٨٥)].

إذن، الجملة السابقة فيها اشتباه، بل فيها مغالطة، فينبغي التَّنبّه لها.

ومراد بعض من يطرحها: أن يشرع الباب أمام كل مُغالط ليُحرِّف الكتاب والسُّنة كيفما يريد، دون أن تقال في حقِّه كلمة!

نعم، طلب العلم غير محصور في أحد، لكن الكلام في الدين محصور؛ فلك الحق أن تَدرُس وتتعلم، فإذا بلغتَ مبلغًا من العلم، وصرت راسخًا فيه، فتكلَّم وقرِّر ما تصل إليه باجتهادك في ضوء تقريرات أهل العلم، أمَّا مع الجهل؛ فليس لك ذلك، فالشريعة شيء واسع وعظيم، وهناك حقائق شرعية، وهناك حقائق عُرْفية، وهناك حقائق لغوية؛ فعلى أيِّها سيحمل الجاهل النصّ؟ هناك ترادف واشتقاق واشتراك، هناك دلالات للأفعال ولحروف المعاني، هناك دلالات للإضافة وللعطف، هناك دلالات للأمر وللنهي، هناك عموم وتخصيص، هناك إطلاق وتقييد، وناسخ ومنسوخ، ومُجمَل ومُبيَّن، هناك أحكام تكليفية ووضعية، هناك مباحث للتعارض والترجيح، هناك أحاديث صحيحة وأحاديث ضعيفة، هناك آثار للصحابة، فعلى أيِّها يُعوّل الإنسان؟ وهناك أدلة مختلف فيها: عُرف، ومصالح ومرسلة واستحسان.. إلى آخره.

إذن: ثَمَّة مقامات في فهْم الأدلة هي مقامات اجتهادية تحتاج إلى علم وملكة تُكتسب بعد أن تتأسس في النفس قواعد فهْم أدلة الكتاب والسُّنة في ضوء منهج السلف، وإلَّا فإن الجاهل الذي «يركب رأسه» ويخبط في فهْم الأدلة خبْط عشواء؛ فإنه سيضرُّ أكثر مما ينفع، وسيأتي بالمضحكات المبكيات.

ودَعْني أضرب أمثلة: أحدهم فهم من قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المَائدة: ٦] أن الكعب هو مؤخر القدم أو العَقِب، وليس العظم النَّاتِئ الذي في أسفل الساق، فكان يغسل قدَمَه إلى العقب وليس إلى الكعب!

وذُكر عن أحدهم أنه سمع حديثًا أن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: «الْحَدُوا لِي لَحْدًا، وانصِبُوا عليَّ اللَّبِن نصبًا، كما فُعل برسول الله ﷺ» [صحيح مسلم (٩٦٦)]. واللَّبِن معروف، وهو: الطُّوب المصنوع من الطِّين، لكن ذاك فهمها: اللَّبَن، فكان كلما مات ميتٌ جاء بإناء لَبَن فصَبَّه على القبر اتباعًا للسُّنة في زَعمه!

وآخر ذُكر أنه سمع الحديث الثابت في «الصحيحين» [خ ٥٤٦٨، م ٢٨٦] أن النبي ﷺ: أُتِيَ بصبيٍّ يُحنّكه فبال عليه، فأتبعه الماء، فظنَّ هذا المسكين أن النبي ﷺ هو الذي بال على الطفل، وظن هذا من السنة! والله المستعان.

🕮 كيف الجمع بين ضوابط فهم الدين وثبوت الاجتهاد في بعض الدين؟

الجواب عن هذا سيكون بفهْم أصلين مهمين:

الأول: الاجتهاد شيء، والتَّشهّي شيء آخر.

والثاني: وجود الخلاف لا يُلْغي وجوب الاتباع.

اتباع الوحي هذا قدْر واجب على كلِّ أحد في كلِّ حال؛ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشّورىٰ: ١٠] هذه قضية مُنتهية.

فيَنتُج عن هذين الأصلين: أن ثَمَّة مناهج علمية منضبطة تَحكُم التعامل مع المسائل الاجتهادية بحسب حال المتعاطي معها؛ مجتهدًا كان، أم مُقلدًا، أم كان بينهما، إذن لا فوضى في هذه المسائل ولا عبثية ولا اتباع للهوى.

وليس للإنسان إذا اختَلف العلماء أو اشتبَهَت المسألة على الناظر فيها أن يَتشهَّى، أو يختار ما يوافق هواه، أو ـ كما يقولون ـ: يختار ما يتَوافَق مع مُعطيات العصر؛ إنما يجب أن تكون غاية المسلم: أن يسعى إلى رضا الله وإصابة حُكْمه قدْر الإمكان؛ لأنه ـ قَلْبًا وقالبًا، حالًا ومآلًا ـ عبدٌ مملوك للملك العظيم سبحانه، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعَام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

🕮 أهمّ المناهج العصرية المنحرفة في فهم الكتاب والسنة.

المناهج المخالفة للمنهج السَّوي في فهْم الأدلة كثيرة، **لكنها تجتمع على أمرين:**

تحريف الكَلِم عن مَواضِعه، واتِّباع المُتشابِه.

والمساحة التي أتحدث فيها ضيقة، لذا سأقصُر كلامي على منهج واحد، هو: المنهج الحَدَاثي في تقويم الأدلة وفهْمها، إذْ هذا المنهج هو الأكثر حضورًا اليوم في وسائل الإعلام والتواصل.

سأُلَخِّص كلامي عن هذا المنهج في ست نقاط:

النقطة الأولى: المشروع الحَدَاثي مشروع غربيٌّ صِرْف، لا يَمُتّ لتراثنا بصلة، فهو منطلق من منظومة غربية، وهو إفراز لفلسفة غربية، ونتاج ثقافة غربية، ويسعى لإسقاط تجربة الغرب تجاه دينهم على دِيننا، كما يسعى لمعاملة دِيننا كما عامل أولئك كتابهم المقدس، إذن كلامهم كلّه ما هو إلَّا اجْترار لِمَا قاله حَداثِيُّو الغرب، وهم في هذا يتجاهلون خصوصية الحالة الغربية، والفِصام الواقع بين العلم والكنيسة، بين دِينهم والعقل، إذْ لا يخفى أنَّ أولئك ما قامت ثورتهم التنويرية إلَّا على أنقاض دِينهم وموروثاتهم.

النقطة الثانية: يُؤسِّس الفكر الحَدَاثي موقفة الأوَّلي من الوحي من خلال أمرين:

الأمر الأول: هو إنكار كونه وحيًا من الله؛ أي: نقْلُه من الوحي الإلهي إلى الوضع البشري.

الأمر الثاني: إنكار حِفْظه، والزعم بأنَّ القرآن قد تَمَّ التلاعب به، أما السُّنة فإنهم يسعون إلى الطعن في العِصمة النبوية، وتجريد السُّنة كلًّا أو بعضًا من كَونها وحيًا، أو أنهم يطعنون في حفْظها وبقائها.

النقطة الثالثة: يسعى الحَدَاثِيُّون إلى تَغييب المرجعية التي يستند إليها المسلم في معتقده وعبادته، فيُصاب حينها بحالة من التِّيه والتَّشتُّت والشكّ في كلِّ شيء، يصبح مفتوحًا على كل احتمال، ليس عنده قطْع لا بعقيدة ولا بأيّ ثابت؛ ليتحول الإسلام فينا إلى طُقُوس باهتة تتلاعب بها الأمزجة والأهواء.

النقطة الرابعة: من مسالكهم: إلْغاء أيّ جهود لعلماء المسلمين

المتقدمين، فلا عبرة بإجماعهم، ولا بفهمهم، ولا بقواعدهم، واختراع مناهج بديلة مخترعة.

ومن هذا الباب: تقعيد نظرية المعنى السَّيال المتحرك، بمعنى: الوحي جميعه حمَّال أوجه، وليس له معنًى واحد مُراد لله سبحانه، ولكل أحدٍ أن يفهمه بحسب ما يريد، ومن الزاوية التي ينظر من خلالها.

ومن هذا الباب: القول بتاريخية النص الشرعي، وحصْر حاكميته في زمن معين، ومكان معين، أو ما يسمونه: «الزَّمكانية».

ومن هذا الباب: دَعْوى أن النص مِلْك للقارئ لا للكاتب، ثم يسقطون ذلك على أدلة الكتاب والسنة.

ومن هذا الباب: الترويج للاكتفاء بالقرآن وحده، ولا حاجة للسنة.

النقطة الخامسة: أكثر ما يُجالِد الحَدَاثِيُّون ويحاربون عليه: رفْض تأصيل أصول الاستدلال؛ لأنه لن تسقط حاكمية الوحي إلَّا بتفكيك الأصول الحافّة به.

النقطة السادسة: يمكن أن أُلَخِّص غاية هذا المشروع الحَدَاثي في كلمة واحدة، أَلَا وهي: أنه يَدُور على **نزْع القداسة عن الوحي**، أو على الأقلّ: التشكيك فيه، والعنوان البَرَّاق المرفوع لهذا: إعادة قراءة التراث، والتراث ليس إلا (الكتاب والسنة)، وإعادة القراءة لا يُراد بها القراءة طلبًا للهداية منه، إنما ـ كما تقدم ـ ممارسة النقد عليه، وزَعْزَعة الثقة به، وخلْع قُدسيّته، وهدْم مُسلَّمَاته، وخاتمة المطاف عندهم: الوصول إلى «الأَنْسَنة» لا الإلهية، والعقل لا الوحي، والدنيا فقط لا الآخرة.

هذا هو المشروع باختصار، وعلى أهل الإسلام أن يأخذوا حِذْرَهم.

📖 كيف نفهم أدلة الكتاب والسنة فهمًا صحيحًا؟

سأُلَخِّص الجواب بتقسيمه إلى شطرين، في كلِّ شطر أصول وقواعد:

الشطر الأول: القواعد الأساسية.

الشطر الثاني: أصول الفهم.

أمَّا الشطر الأول فهو: القواعد الأساسية، وإن شئتَ فقُل: المُقدِّمات المُمَهِّدات لفهم النص، والتي لا يُمكن أن نفهم النصّ الشرعي إلا بعد استحضارها واستصْحابها، **وتتلخص في عشر قواعد:**

القاعدة الأُولى: الوحي هو المرجع المُتحاكَم إليه، المُقدَّم على غيره، ولا هداية إلا به.

إن الكتاب والسنة هما مصدر التلقّي، هما مرجع المسلم في كلّ صغير وكبير، هما المُحَكَّمان، وإليهما رَدّ التنازع؛ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] والخير والبركة والهداية لا سبيل إليها البَتَّة إلَّا من طريق الوحي؛ قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠].

وسبب التقدُّم والقُدْسية والمرجعية ثلاثة أمور:

أولاً: أن القرآن كلام الله، والسنة وحيٌ من الله غير مَتْلُوّ.

إذن، استفاد الوحي قُدْسيته وعظمته من هذه الجهة.

ثانيًا: إحكام الوحي وعصمته، وسلامته من كلِّ نقص وخلل؛ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: ٢]، قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هُود: ١].

ثالثًا: أنه لا سبيل إلى الهداية إلَّا به.

القاعدة الثانية: الكتاب والسنة صِنوان لا يتعارضان ولا يفترقان، ولا غِنى لأحدهما عن الآخر.

وهذا ما تقدَّم الحديث عنه في فصول ماضية تفصيلًا.

القاعدة الثالثة: الدين كامل، فلا حاجة إلى تكميله وترقيعه؛ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: ٣] وقال جل وعلا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأنعَام: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: ٨٩].

القاعدة الرابعة: ظواهر الأدلة مُرادةٌ للمتكلِّم بها، مفهومةٌ لدى المخاطَب.

الأصل في مقصود الخطاب ـ وهو ما لأجله يتكلم العاقل ـ: أنه يقصد معنى، ويريد أن يفهمه المستمع، وإذا لم يكن الأمر كذلك فسيكون الكلام أَلْغازًا وأَحاجي، أو كلامًا هُلامِيًّا سَيَّالًا لا يُنتفع به ولا حاجة إليه، وليس هذا شأن الوحي ولا يليق به، فالله جل وعلا وصَف القرآن بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يُونس: ٥٧]، وقال سبحانه في وصف القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القَمَر: ١٧].

والقرآن جاء وصْفه بأنه: بيان، وتبْيان، ومُبين، إذن لا يمكن أن يكون الله سبحانه قد أنزل كلامًا لا معنى له، ولا يمكن أن لا تَعلَم الأمة في مجموعها معناه.

فتحصل أن الله تعالى له حُكْمٌ مراد بكلامه يمكن الوصول إليه، ويُصيبه مَن يصيبه، ويخطئه مَن يخطئه؛ وإلَّا فما فائدة الأمر باتباعه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣].

وإذا كان الحال ـ كما يقول الحَدَاثِيّون ـ أن النصوص هُلاميَّة، وكل أحد يفهم ما يريد، إذن كيف سنحكم بالقرآن؟ والله يقول: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

وكيف ستكون هناك مؤاخذة؟ والله جل وعلا يقول: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وما فائدة النهي عن القول على الله ﷻ بلا عِلم إذا كان لكل أحد أن يتكلم في النصوص بما يشتهي ويفهمها بما يشاء؟!

القاعدة الخامسة: لا تعارض بين صحيح المنقول وصحيح المعقول.

وهذا ـ أيضًا ـ ما طال الحديث في بيانه في فصول ماضية.

القاعدة السادسة: أدلة الوحي محفوظة.

وهي باقية على هذا الوصف (الحفْظ) مُنْذُ فجر عهْد النبوة وإلى يومنا هذا.

الوحي محفوظٌ في السُّطور والصدور والأوراق، محروسٌ مُصان، فلا مجال للشكِّ أو أن تتزعزع الثقة في ذلك.

القرآن محفوظ من التغيير والزيادة والنقصان، ولا يمكن لأحد أن

يزيد فيه حرفًا أو يُنقِص، والسنة محفوظة بما قيَّض الله لها من جهود الحفظ والحراسة، فلا يكذب أحدٌ عليها أو يخطئ فيها إلَّا ويَتبيَّن هذا لأهل العلم، وهذه أيضًا قضية قد سبق التفصيل فيها في فصلٍ ماضٍ.

القاعدة السابعة: لا تعارض بين أدلة الشريعة ومقاصد الشريعة.

وهذه مسألة أَوَدُّ أن أقف عندها وقفة:

لا شكَّ أن للشريعة الإسلامية مقاصد عظمى، وكلّيات كبرى، ولكن قد يُوظف هذا الموضوع عند بعض الناس توظيفًا خاطئًا؛ وذلك ما قد سرى في أُطروحات بعض من يسمى: «النُّخب المثقفة» ذات التوجهات الحَداثية والعقلانية والعصرانية، حيث لا يَفتؤون ينادون بضرورة التمسك بمقاصد الشريعة، وكليات الشريعة، ورُوح الشريعة، لكن تحت الكلام ما تحته، ووراء الأَكَمَة ما وراءها! إذ الغاية هي التحرُّر من الالْتزام بمدلولات الأدلة أمرًا أو نهيًا.

وأصحاب هذه الأطروحة يفرضون تعارضًا مَوهُومًا بين هذه المقاصد الشرعية الكبرى وأحكام الأدلة الشرعية ـ التي يعتبرونها فرعية ـ، وعليه، فلْتُعتبر المقاصد ولتَسقط تلك الأحكام!

توضيح هذا: أن بعضهم يأتي إلى مفهوم مُستجلَب من ثقافة أجنبية على الشريعة، أو مفهوم ناتج عن ضغط الواقع الذي يعيشه، ثم يُلْبِسُه لباس المقاصد، ويضرب به دلالات النصوص، واعتَبِر هذا في مصطلحات: «العدل»، «الحرية»، «المساواة»؛ فيأتي أحدهم ـ مثلًا ـ إلى حديث في البخاري [(٣٠١٧)] وهو قوله ﷺ: «**مَن بَدَّلَ دِينه فاقْتُلوه**» فيقول: هذا حديث يتعارض مع رُوح الشريعة، وإحدى كُلّياتها وهي الحرية؛ إذن لنُبطِل هذا الحكم في مقابل حفْظ المقصد الكُلّي (الحرية)!

أو يأتي إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [آل عِمرَان: ١٣٠] فيقول: من مقاصد الشريعة: حفْظ أموال الناس وتنميتها، إذن فليُعطَّل مدلول الآية حفاظًا على مقاصد الشريعة!

والحقُّ أن هؤلاء يجعلون اتباع الأدلة مُجرَّد وسيلة، وليس غاية يُسعى إليها، فالغاية في زعْمهم: تحقيق المقاصد التي يَرُومُون؛ بهذه الوسيلة أو بغيرها.

📖 **أمَّا الحق في هذا الموضوع فيتبين بالأصلين الآتيين:**

الأصل الأول: لا تعارض بين أصول الشريعة وفروعها، ولا تعارض بين المقاصد الشرعية وبين أدلّتها.

فالمقاصدُ الشرعية: خلاصةُ أدلة الشريعة، وليست قسيمةً أو نِدًّا لها، وأنَّى يكون هذا! والمقاصد الشرعية ما هي إلا خُلاصة نظر شامل، واستقراء تامٍّ للأحكام الشرعية التفصيلية، أوْصَلَت إلى إدراك القواعد الكلية؛ وعليه فلا يمكن أن يُعارِض البناءُ أساسَه.

إنما الواقع هو أن التعارض حاصلٌ بين الأدلة الشرعية وأهواءٍ حُكِمَّت في الشريعة وأُلْبِسَت لباس مقاصدها ـ أو رُوحها ـ بإسقاط ما يُعارضها من الأحكام.

الأصل الثاني: أعظم غاية ومقصد يسعى الإنسان إليه: هو بلوغ الهداية إلى الصراط المستقيم، ولا سبيل إلى هذا إلَّا بالاتباع التامِّ التفصيلي الدقيق للنبي ﷺ؛ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٥٨].

القاعدة الثامنة: القول على الله بغير عِلم خطرٌ عظيم؛ يقول سبحانه:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النّحل: ١١٦ ـ ١١٧].

إذن: قبل أن تخوض في تفسير القرآن أو شرح الأحاديث: تذكَّر هذا المعنى جيدًا، واعْلَم أن الوحي ليس شيئًا هَيِّنًا، إنه شيء عظيم، يجب فيه الاحتراس والاحتياط، فلا يتكلم الإنسان فيه إلَّا بعلم.

تكلَّم بما تشاء من اقتصاد أو رياضة أو قضايا اجتماعية..، وقلْ برأيك وما تظنه صوابًا، ولو أخطأت فالخطْب يَسير، أمَّا أدلة الشريعة فشأن آخر؛ فقِفْ وترَيَّث واحذَرْ؛ فالقول على الله بغير علم إثمه عظيم.

القاعدة التاسعة: الشريعة صالحة لكلِّ زمان ومكان، ومن بلَغَتْه أدلة الوحي فهو مُلزَم باتباعها إلى آخر يوم في هذا الدنيا، فالرسالة عامة للثَّقلين: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، حتى عيسى عليه الصلاة والسلام ـ وهو النبي والرسول الكريم ـ إذا نزل في آخر الزمان فإنه سيحكم بهذا الوحي المُحمَّدي.

إذن: مَن أنزل هذا الوحي ـ وهو الله جل وعلا ـ عَليم بما كان وبما سيكون، فلا عُدول عن هذا الوحي، وليس لأحد أن يُقدِّم عليه غيره، ولا أن يَحصر حَاكِميّته في زمن معين أو مكان معين.

إذن، دَعْوى «تاريخية الأدلة» وأنها جاءت لمعالجة أوضاعٍ اجتماعية في التاريخ الماضي ـ وقت نزول الوحي ـ وأن صلاحيتها انتهت بمُضِي ذلك الزمان: هذه دَعْوى كُفرية ضالَّة، مُكذِّبة للقرآن والسُّنة، ومخالفة للمعلوم من الدين بالضرورة.

القاعدة العاشرة والأخيرة: الأخْذ بصحيح الوحي ثمرة الإيمان بأُلُوهية ربنا سبحانه، ونُبوّة نبينا ﷺ، فالمقام إذن مقامٌ عظيمٌ؛ **فإمَّا تعظيم الوحي والْتزامه واعتقاد حَاكِميّته، وإلاَّ فلا إيمان!**

إنَّ البحث في فهْم الأدلة وتحكيمها يجب أن يُنظر إليه على هذا الأساس؛ إمَّا إيمان مع الْتزام الوحي، وإمَّا أنه لا إيمان؛ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء: ٦٥].

لزيادة الفائدة

۞ أتمنَّى من طالب الفائدة ومُحبّ الاستزادة: أن يطلع على نُبْذة في موضوع أصول الفقه، وأُرشِّح له كتابًا صغيرًا لطيفًا نافعًا لفضيلة الشيخ: محمد ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، اسمه «الأصول من عِلم الأصول».

الفصل الرابع والثلاثون

كيف نفهم الأدلة الشرعية؟

(٢)

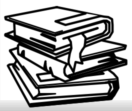

توقف الحديث في الفصل الماضي قبل بيان الأصول الحاكمة لفهم الكتاب والسُّنة، وهذا أوان بيانها بعون الله.

الأصول والضوابط الحاكمة لفهم الكتاب والسُّنة كثيرة، ولا يمكن استيعابها هنا جميعًا؛ لكن سأقتصر على أربعة أصول كبار، من أهم تلكم الأصول.

الأصل الأول: لا تُفهم الأدلة إلاَّ وفق القواعد الأصولية.

«أصول الفقه»: هي القواعد المؤسِّسة لفهم أدلة الكتاب والسُّنة، والقوانينُ الضابطةُ لمنهجية الاستنباط منها ومعرفةِ الراجح والمرجوح.

«أصول الفقه» علمٌ شرعي جليل يؤصّل المعالمَ العلمية الحارسة لثغور الشريعة؛ بحيث لا يُخاض فيها إلَّا بعلم.

ومؤلفات هذا العلم كثيرة، ومباحثه مشهورة، تدور في الجملة على أربعة مباحث: الأدلة، والأحكام التكليفية والوضعية، ودلالات الألفاظ، ومبحث الاجتهاد والتقليد والإفتاء.

والمقصود أنه لا يمكن فهم الشريعة فهمًا صحيحًا إلَّا من خلال أصول الفقه وقواعد الاستنباط، وهي متقررة معلومة عند الصحابة ﵃ والتابعين وأتباعهم، حتى جاء الإمام الشافعي فجمع معاقدها وضمَّها في كتابه العظيم: «الرسالة»، ثم توارد العلماء من بعدُ على الأخذ بها والتصنيف فيها والاستدلال عليها وشرحها، ومن أمثلتها: قاعدة الأصل أن الأمر يقتضي الوجوب، والنهي يقتضي التحريم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويُحمل العامُّ على الخاص، والمطلق على المقيد، والحقيقة الشرعية مقدمة على الحقيقة العرفية.. إلخ.

الأصل الثاني: فهم السلف الصالح معيار الفهم الصحيح لأدلة الشرع.

إن اتباع سبيلِ سلف هذه الأمة الصالح أصلٌ أصيل عندنا معشر أهل الإسلام، فنتكلم بما تكلم به السلف الصالح، ونسكت عما سكتوا عنه، ونفهم النصوص بفهمهم.

والسلف الصالح هم الذين حازوا الخيرية بنص الحديث المتفق عليه: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» [خ ٢٦٥٢، م ٢٥٣٣]، فهم أصحاب النبي ﷺ وتابعوهم، وأتباع التابعين، فهؤلاء هم الغرة من هذه الأمة، ومن مُدح سلوك سبيلهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التّوبَة: ١٠٠]، وقال النبي ﷺ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**» [أحمد ١٧١٤٥، أبو داود ٤٦٠٧].

وجاء التحذير من سلوك غير سبيل أهل الإيمان، والسلف أولى الناس بوصف الإيمان: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النِّساء: ١١٥]. كما حثنا ربنا سبحانه على اتباع سبيل المنيبين إليه فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، وأولى الناس بهذا الوصف ـ بعد الأنبياء ـ: السلف الصالح.

كما أمر سبحانه أن نكون مع الصادقين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التّوبَة: ١١٩]، قال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: (مع أبي بكرٍ وعمر وأصحابهما).

فتبين أن فهم السلف للأدلة مقياسٌ لمعرفة الصواب والخطأ؛ فما وافقه صواب، وما خالفه خطأ؛ فهم أعلم من غيرهم بالكتاب والسنة،

وأعلم بلغة العرب، وهم أعظم الناس تقوى وصلاحًا، ولا يمكن أن يكون الحق غائبًا عنهم وفاز به من بعدهم، وما أحسن ما قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]: (وأما أهل السُّنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلَّا وقد بادروا إليها) [(٧/٢٧٨)].

ويتأسس على هذا: أنه ليس لأحد أن يخترع في الأدلة معاني لم يعرفها السلف؛ وعليه فلو جاء أحدٌ مثلًا إلى قبر النبي ﷺ وسأله الشفاعة استدلالًا بالآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٤]؛ لقلنا: هذا الاستدلال باطل؛ لأن الصحابة والتابعين وأتباعهم ما فهموا من الآية المجيء إلى قبره ﷺ بعد وفاته، وإنما المجيء إليه في حياته.

الأصل الثالث: لا تُفهم أدلة الشريعة إلا في ضوء لغة العرب.

أي أن فقه الشريعة مرهون بفقه اللغة، الذي يراعي الألفاظ والسياق؛ فالله تعالى أنزل كتابه بلسان عربي مبين، قال جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يُوسُف: ٢]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فُصِّلَت: ٣] إذن لا يُعقل الوحي ولا يعلم إلَّا من طريق لغة العرب، ولذا قال التابعي الجليل مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب».

وعليه، فلا يأتين أحدٌ ـ مثلًا ـ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النِّسَاء: ٣] فيفهمَ منه جوازَ أن يجمع الرجل بين

تسع نسوة! إذ ليس من مسالك العرب في لغتها الإخبارُ عن العدد تسعة بهذا الأسلوب.

وعليه، فمن أراد أن يفهم القرآن والسُّنة فليعلم أنهما من طريق اللغة العربية يُفهمان؛ أي من خلال معرفة طرائقها في استعمال الألفاظ والتراكيب، والوقوفِ على دلالات الألفاظ في زمن الوحي.

وهذا ما يقطع الطريق على الحداثيين الذين جعلوا الوحي ـ قرآنًا وسنة ـ مفتوحًا على مصراعيه لكلِّ معنى، دون القطع بأي معنى؛ قابلًا للتأويلات وتوليد المعاني المحدثة، حتى قال أحدهم: «إن القراءة التي أحلم بها [يريد قراءة القرآن] هي قراءة حرة إلى درجة التشرد والتسكع في كل الاتجاهات»! وليته جعل تسكعه وتشرده بعيدًا عن كلام الله العظيم! فلقد أبان كلامه أن القوم أهل عبث لا أهلُ بحثٍ عن الحقيقة؛ وليت شعري؛ هل سيقبل أن أُسقط مسلكه هذا على كلامه؟ هل سيقبل أن أعبث بكلامه وأحمله على أي معنى أشتهيه حتى ولو كان عكس ما تدل عليه ألفاظه؟ أي عبثٍ هذا!

الأصل الرابع: لا تُفهم الأدلة إلا بضم بعضها إلى بعض، واعتبارِها كنصٍّ واحد.

أي أننا لا نأخذ بطرفٍ واحدٍ منها ونهمل الباقي؛ وإنما نأخذُ بجميع النصوص ونؤلّفُ بينها؛ فإنه لا تعارض بينها؛ إذ مصدرها واحد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨] أي ادخلوا في جميع الإسلام لا في بعضه دون بعض.

وعليه، فلو قال قائل ـ مثلًا ـ: قد ثبت في صحيح البخاري [(٧٤٣٥)] أن النبي ﷺ قال: «**إنكم سترون ربكم عِيانًا**» أي في الآخرة، لكن في

القرآن ما ينفي هذا وهو قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعَام: ١٠٣] وإذا تعارض الدليلان قدَّمنا القرآن! فالجواب: أنه لا تعارض؛ فالإثبات ورد بشيء والنهي ورد بشيء آخر؛ فالإثبات للرؤية، والنفي للإدراك، والجمع بين الدليلين يقتضي أن يقال: الله تعالى يُرى بلا إدراك، والإدراك هو الإحاطة؛ فأنت ترى البحر ولا تحيط به رؤيةً لسعته، والله أكبر وأعظم.

أمثلة لما أُخطئ في فهمه من الأدلة بسبب إهمال هذه الأصول:

المثال الأول:

من المفاهيم التي عظُم خطؤها في هذا العصر: نسبةُ حريةٍ باطلة إلى الإسلام، حيث زعم بعضهم أن الإسلام يبيح التنقل بين الأديان كما يحلو للإنسان، فالتزم بما تشاء واترك ما تشاء ولا ملامة عليك! وتشبَّثوا في هذا ببعض ما حرّفوه من أدلة الشرع.

وأشهرها ثلاث آيات: الأولى: قوله جل وعلا: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، والثانية: قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]. والثالثة: قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافِرون: ٦].

وإذا تأملتَ في حال كثير من هؤلاء وجدت أن مشكلتهم أنهم منهزمون نفسيًّا، لذا فهم يحاكمون الإسلام إلى الفكر الغربي، ويطالبونه أن يذوب فيه، وأن لا تكون للمسلمين هُوية، وأن تختفيَ معالمه ومميزاتُه.

يريدونه مرآةً عاكسةً لغيره فحسب.

لقد أخطأ هؤلاء خطأ كبيرًا، فالإسلام هو الدِّين الحق المنزل من

عند الله، المستعلي على غيره، له مقاصده وحِكمه وأحكامه، وليس مطالبًا بموافقة غيره من الأديان أو أوضاع المجتمعات، فمن آمن بأحكامه كلها، فإنه سيسعد في الدنيا والآخرة، ومن كفر به فلن يضر إلَّا نفسه، ولن يضرَّ الإسلام شيئًا: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٦].

مهما يكن من شيء؛ فإن أدلة الشرع كلها، وإجماعَ المسلمين قاطبة: قد قام على أن الدين الحقَ الذي لا يقبل الله من أحد سواه ـ بعد البعثة المحمدية ـ هو دين الإسلام الذي بُعث به نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، وليس للمرء الخيارُ في الدخول فيه أو الإعراضُ عنه أو الخروجُ منه، بل هو ملزم بالتزامه ومتوعَّد بالخلود في النار إن أعرض عنه: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفَتْح: ١٣].

أما عن استدلالهم بقوله جل وعلا: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، فيقال فيه: هذه الآية ليست للتخيير بين الإيمان والكفر، إنما هي للتهديد والتخويف، وهذا أسلوب عربي معلوم، والدليل على أنها للتهديد قوله سبحانه عقيبها: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

إذن، هي تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد أن جاءه النذير، كما أن فيها إظهارَ غنى الله سبحانه؛ أي هذا الحقُّ من ربكم، فإن آمنتم فإنكم لن تنفعوا الله بإيمانكم، وإن كفرتم فلا تضرُّونه بكفركم، وعليه؛ فليس في الآية لهم مستمسك فيما يقررون.

أما عن قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، فما أكثر ما يحرف معنى هذه الآية مع الأسف الشديد!

هذه الآية (لا) فيها إما أن تكون للنفي، أو تكون للنهي؛ فإن كانت للنفي: فالآية إخبارٌ منه تعالى أنه لا قدرة لكم على أن تكرهوا أحدًا للدخول في الدين؛ لأن الدين النافع أساسه ما في القلب من الاعتقاد، وما في القلب لا سبيل إلى الإكراه عليه. أما إن كانت (لا) هنا للنهي، فالمعنى: لا يُرغم أحد على الدخول في الإسلام ـ ممن تؤخذ منه الجزية ـ إذا بذلها، مع ملاحظة أن هذا لا ينفعه عند الله ﷻ؛ فإنه إن مات على غير الإسلام فهو من أصحاب النار، وعليه لعنة الجبار.

وعلى كلٍّ، فالإكراه في هذه الآية راجع إلى قضية الدخول في الدين، وليس إلى الخروج منه، فالخروج من الإسلام شأن آخر، ولم يقل أحد قط من أهل العلم إن هذه الآية تدلُّ على أن للمرء الخيار في أن يترك الإسلام متى شاء، كلا والله، بل النصُّ والإجماع على أن المرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل حدًّا.

أما قول الله ﷻ: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافِرون: ٦]: فهذه جملة براءةٍ لا جملةُ إقرار؛ أي: لكم دينكم الضالُّ المحرَّف، أبرأ إلى الله منه ولا أتبعه، وليَ ديني الحقُّ الذي أنزله الله ﷻ، إذن هي جملة براءة لا جملة إقرار، فهي في المعنى كقوله تعالى في سورة يونُس: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٤١﴾ [يُونس: ٤١].

وسبحان الله العظيم! كيف يعمَون عن المحكمات الواضحات، ثم

يُلبسون على الناس بآيات ما حملوها على وجهها! وصدق ﷺ: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم**». [خ ٤٥٤٧، م ٢٦٦٥].

المثال الثاني:

حديث: «**ناقصات عقل ودين**». ولا أظن أن حديثًا أسيء فهمه وكثر اللغط حوله في هذا العصر كهذا الحديث، مع أنه بحمد الله واضح لا إشكال فيه عند من لزم التسليم للشرع، وحسُن ظنه به.

قال أعداء الدين وبعض الجاهلين: هذا الحديث فيه انتقاص من المرأة وهضمٌ لمكانتها، وعلى إثر هذا طعن اللادينيون في الإسلام، ونفى صحة الحديث أو تأوّله على غير وجهه آخرون؛ إما لجهلهم، أو لوقوعهم تحت ضغط الانهزامية أمام الغرب.

ومهما يكن من شيء؛ فالحديث مخرجٌ في الصحيحين [(خ ٣٠٤ من حديث أبي سعيد، م من حديث ابن عمر ٧٩)]، متفقٌ على صحته، ونصه كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**» فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**».

هذا هو الحديث، وبيانُ الصواب في معناه، وإزالةُ ما يُستشكل سيكون في الأوجه العشرة الآتية بعون الله:

أولًا: الحديث له سياق معين فلا يجوز إخراجه عنه، ولا المزايدة عليه، فقد فُسِّر أوله بآخره، والمتعجلون والمنحرفون طاروا بأوله ولم يُنعموا النظر في آخره؛ فيا هؤلاء ويا هؤلاء: الحديث قد فسّر نفسه بنفسه: فمعنى نقصان عقلها: أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل، ونقصان دينها: أنها تمكث أيام حيضها لا تصلِّي ولا تصوم؛ إذن: كما أن نقصان دينها لم يُرَد به النقصانُ السلوكي ـ أي فجورُها وضعفُ خشيتها لربها ـ؛ فكذلك نقصانُ عقلها: ليس النقصانَ السلوكي، وإنما هو ضعفُ ضبطِها وذاكرتِها، وهو شيء جبلِّي، كما أن حيضها جبلِّي.

فالحديث إذن يتحدث عن شيء خلْقي لا خُلقي، وليس فيه اتهامُ المرأة بالبلادة أو سوء الفهم والغباء، واسمع التوضيح النبوي كما في رواية ابن عمر في مسلم، قال ﷺ: «**أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ: فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ؛ فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ مَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ؛ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ**». فهذا تفسير النقصان باللفظ الصريح الفصيح؛ فمن أين فهمتم الانتقاص؟!

باختصار: العقل فيه شيئان: ذاكرة وذكاء، والحديث ينبئ عن نقصانٍ تعلق بالذاكرة وليس بالذكاء.

ثانيًا: السياق يوضح أن الحديث بعيد عن الانتقاص كلَّ البعد؛ فالنبي ﷺ إنما ذكر موضوع النقصان توطئةً لتعجُّبه من قوة تأثير المرأة على الرجل وسلطانها عليه، مع ما هي عليه من ضعف الضبط وقلة التركيز، وما عليه هو من قوة وحزم. فأين الانتقاص؟!

ثالثًا: المعنى الذي دلَّ عليه الحديث لم تنفرد به السُّنة، بل هو مؤيِّدٌ

لما في القرآن، فقد قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]. ومعنى تضل: تنسى.

رابعًا: هذا الحديث قد تحدث به ﷺ في جمع من النساء فاستشكلنه وسألن النبي ﷺ عن مراده؛ فقلنَ: «وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟»؛ وكأني بهنَّ يقلن: هذا الكلام غريب علينا؛ قد عهدنا الشرع يكرم المرأة ويقدرها؛ فما المراد بهذا الكلام؟ فما كان منه ﷺ ـ وهو الرؤوف الرحيم بأمته ـ إلا أن بيّن المعنى بأوضح عبارة، فيها الكفاية والشفاء.

والسؤال: ماذا كان موقف الصحابيات الكريمات بعد أن سمعن التوضيح؟ هل اعترضن؟ أو ـ على الأقل ـ راجعنه؟! الجواب: ما كان منهن إلَّا التسليم والقبول، لم؟ لأنه كلامٌ حق، وفيه إخبار بواقع يعرفْنَه في أنفسهن.

خامسًا: الحكم في الحديث ـ كما يكثر هذا في الشريعة ـ مبني على وصف أغلبي، فأغلب النساء هكذا، ثم هو كما تقدم: تعلق بوصف خَلقي يتعلق بالضبط والحفظ، ولا تُشم منه رائحة الطعن في النساء.

أما الفطنةُ والذكاء فمواهب يهبها الله لمن يشاء من الرجال أو النساء، وقد تفوق بعضهن كثيرًا من الرجال؛ فإنك إذا نظرت إلى خديجة وعائشة وفاطمة وأمِ سلمة وأمثالِهن رضي الله عنهن رأيتَهن بلا ريب أذكى وأرجحَ عقلًا من كثير من الرجال، بل لا مقارنة!

سادسًا: لو قلتُ: النساءُ في الجملة أضعف بِنيةً وعضلاتٍ من الرجال؛ فهل انتقصت النساء؟ الجواب بالتأكيد لا، كذلك الأمر لو

قلت: الرجال أقدر من النساء على ضبط الشهادة وتحمُّلها، لا سيما في الشؤون المالية؛ لكثرة ممارستهم لها: لم أكن منتقصًا للنساء.

كما أني لو قلت: النساء أرقُّ وألطف من الرجال لم أكن منتقصًا للرجال.

ولو قلت: إن دماغ الرجل أكبر وتركيزه أشدّ، وإمكاناته البصرية أقوى، أما الإمكانات السمعية لدى المرأة فأقوى، ومهارات التعاطف لديها أكبر، والشفقة والرحمة عندها أشدّ: لم أكن في أي كلمة منتقصًا له أو لها، والعلاقة بين الرجل والمرأة ليست نِدِّية إنما تكاملية.

إذن حقيقة الحال: أنها قُوى ومواهب، وقد أعطى الله كلَّ فريق ما يناسبه ويليق به، فجمال المرأة في أنوثتها، وجمال الرجل في رجولته؛ وبهذا تستقيم الحياة؛ عقلٌ غالب عند الرجال، وعاطفةٌ غالبة عند النساء، الرجل يسود المرأة بعقله وركادته، وتسوده هي بقلبها وعاطفتها، والحمد لله أن الأمر كذلك؛ وإلَّا فلو كانت المرأة مساوية للرجل في مستوى تفكيره وحسابه للعواقب وجموده وحزمه: كيف سيكون طعم الحياة؟

كيف سيكون حالنا لو كانت الأم والزوجة والابنة والأخت كالرجل لا تغلبها العاطفة؟!

سابعًا: سبب تنصيف شهادة المرأة في الأمور المالية ونحوها: أنها أكثر غفلة ونسيانًا من الرجل، وأقل اهتمامًا بهذه الشؤون، وأيضًا لما يمرُّ بها مما له أثر في تركيزها ونفسيتها؛ فالحيض له أثر، والحمل له أثر، والرضاع له أثر، ولا ينازع في هذا عاقل، ناهيك عن أمر رابع: وهو غلبةُ العاطفة وسرعةُ الاستجابة الوُجدانية الانفعالية؛ فكلُّ هذا مما يؤثر

على شهادتها تحملًا وأداءً؛ فتحتاج أن تتقوى بأخرى، وحقوقُ الناس ينبغي الاحتياط فيها، وحفظُها من الضياع.

ثامنًا: ينبغي أن يلاحظ أن جعل شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد ليس فيه انتقاص للمرأة؛ لأن الشهادة أصلًا ليست تشريفًا أو حقًّا يُزاحَم عليه؛ إنما هي تكليفٌ ومشقة وعناء؛ فالتخفيف عن المرأة فيها وإقامة من يعاونها عليها من بنات جنسها: هي في الحقيقة مراعاةٌ لها ورفقٌ بها.

تاسعًا: لو كانت الشريعة تنظر إلى المرأة على أنها مخلوق غبيٌّ لا يفهم لوجدنا لهذا أثرًا ظاهرًا في الأحكام الشرعية، ولكن لا شيء لهذا؛ فالأصل أن المرأة كالرجل، و«**النساء شقائق الرجال**» كما في الحديث الصحيح [أبو داود ٢٣٦، الترمذي ١١٣]؛ فهي مثله في أصل التكليف، وفي العبادات والأوامر والنواهي، وفي التملك والتصرفات المالية، وفي العقوبات الشرعية وفي الجزاء الأخروي، اللهم إلَّا في مواضع معينة اقتضتها اعتبارات عادلة، وليس منها احتقار المرأة أو النظرة الدونية لها كما يُرجِف عُمْيُ البصائر.

عاشرًا: لو كانت الشريعة تميل إلى إهانة المرأة أو الحطِّ من قدرها لم تَقبل شهادتَها مطلقًا، لكن الواقع أنها جعلت شهادة امرأتين تقابل شهادة رجل في مواضع.

بل إنها قد قبلت شهادة المرأة الواحدة منفردة في مسائل شرعية كثيرة تُعرف عند الفقهاء بالمسائل التي لا تطلع عليها إلَّا النساء؛ كالرضاع والولادة وعيوب النساء ونحوها؛ فقد اتفق الفقهاء في الجملة على قبول شهادة امرأة واحدة في هذه القضايا.

إذن الموضوع برمّته: مراعاةٌ لخصائص الرجل والمرأة، وما يُحسنه وما تُحسنه، مع اعتبارِ الفروق الفردية بينهما، وحفظِ الحقوق وتحقيقِ المصالح.

المثال الثالث:

مما أسيء فهمه أيضًا: ضربُ الزوجات الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ [النِّسَاء: ٣٤].

وتوضيح الصواب في الآية من خلال الأوجه الآتية:

أولًا: ينبغي حين البحث عن حكم الإسلام في قضية معينة أن يُنظر في الأدلة كلها، وليس أن نجتزئ دليلًا من بينها فنسلط الضوء عليه ونغفل غيره؛ فلن نفهمه حينئذٍ فهمًا صحيحًا، إذن حتى نفهم هذه القضية فلنفهم قبل ذلك كيف وجّه الإسلام التعامل بين الزوج والزوجة؟ وما هي الوصايا الكثيرة التي جاءت حاثَّة على البرِّ والإحسان والإكرام للزوجة؟ وإذا كان هذا نصًّا واحدًا في الضرب؛ فإن مقابلَه عشراتُ النصوص في البرِّ والإحسان.

وليس من العدل أن نغفل تلك النصوص الكثيرة ونقف عند نص واحد فقط نفهمه بمعزل عنها، وإذا جمعنا بين النصوص كلها ونظرنا فيها معًا اتضحت القضية تمامًا.

ثانيًا: لا بد أن نفهم جيدًا جواب هذا السؤال: كيف يرى الإسلام العلاقة بين الزوج والزوجة؟ الجواب: إنه يراها علاقة سامية، علاقة شراكة في حياة، بحيث يكونان كأنهما روحٌ واحدة في جسدين.

الزواج في ضوء الإسلام: مؤسسة تقوم بأهمِّ وظيفة اجتماعية، وكلا طرفيها عليه مسؤولية: فالزوج له القيادة والإدارة والإنفاق، والزوجة لها التربية وتنظيم البيت وإشاعة روح السعادة فيه، وحتى تقوم هذه المؤسسة بواجبها على أكمل وجه فلا بد من أن يكون الرباط بين الزوجين وثيقًا جدًّا: حبًّا ومودة وتفاهمًا.

لكن قد يحصل ما يكدر صفو هذه العلاقة؛ فما هو الحل؟ لقد وضع الإسلام الحل للحالات الطارئة: فإذا كان الخلل من جهة الرجل فله حل، وإذا كان من جهة المرأة فله حل.

وهذه الآية من سورة «النساء» تتعلق بالعلاج إذا كان الخلل حاصلًا من جهة المرأة، والعلاج بيد الرجل.

العلاج ههنا مرتب: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]:

النصيحة والتذكير، فإن صلح الحال وإلَّا انتُقل إلى الحل الثاني: الهِجران في المضجع، فإن لم يصلح الحال انتُقل إلى الحل الثالث وهو الضرب!

وهنا وصلنا إلى مربط الفرس في الجواب: ضرب الزوج لزوجته!

ثالثًا: هل الضرب هو العلاج الأول؟ الجواب كما سبق: لا، إنه آخر علاج، حين يُسقط في يد الزوج، وحين تُستعمل بقية العلاجات وتكون النتيجة سلبية؛ هنا يأتي العلاج بالضرب، إذن هذه قضية أولى ينبغي ألَّا نغفلها: العلاج بالضرب هو آخر علاج، ولا يُلجأ إليه إلَّا بعد استنفاد بقية الحلول.

رابعًا: ما هو الضرب؟ حين يسمع المرء الضرب في هذه الآية فينبغي أن يعي أنه ليس ما قد يتبادر إلى ذهنه: ضربٌ عنيف، تكسيرُ عظام، إسالةٌ للدماء، تعدٍّ على الوجه والمناطق الحساسة في الجسد، كلا! لقد بينت السُّنة حدود هذا الضرب، إنه «ضربٌ غيرُ مُبَرِّح»، أي غيرُ مؤثر، بمعنى أنه مجرد رسالة، مفادها: تأنيبُ النفس وليس إيلامَ الجسد، قال عطاء: قلت لابن عباس: ما الضرب غيرُ المبرح؟ قال: (بالسواك ونحوه)! [تفسير الطبري (٦/٧١٢)] أي بهذا العود الصغير! وقال القرطبي [في تفسيره (٥/١٧٢)]: «كاللكزة ونحوها، فإن المقصود منه الصلاح لا غير».

إذن، هو ضرب محبٍّ مشفق، وليس ضربَ منتقم جبار، إنه كضرب الأب المحب لابنه حين يقصر، وهل في هذا عيب أو إشكال؟

خامسًا: ما هو السبب المقتضي للضرب؟ حين نفهم ما سبق فإننا سنفهم جيدًا أن السبب المقتضي للضرب ليس أدنى مخالفة أو أقلَّ تقصير، ليس الأمر كذلك قطعًا، إنه بالتأكيد قضيةٌ كبيرة تقتضي التدخل بهذا الحل بعد أن تفشل بقية الحلول.

حين يُهدَّد كِيان المؤسسة الاجتماعية الكبرى (الأسرة) بالهدم؛ فلا يملك قائد المؤسسة أن يراها تتهدم ولا يحرك ساكنًا، إن العقل والمنطق يقتضي أن يتدخل بنوع من القوة المغلفة بالمحبة لإعادة الاستقرار إلى ربوع الأسرة التي أشرفت على التفكك.

سادسًا: يجب أن نفهم أيضًا أن الشرع حين كفل للزوج حقَّ التوجيه والتأديب لزوجته ـ في حدود الضوابط السابقة ـ فإنه كفل للزوجة حقَّ اختيار زوجها ابتداء، وحق فسخِ عقدِ النكاح ـ بضوابطه الشرعية ـ إذا لم

ترغب في الاستمرار فيه، فليست الزوجة مرغمة في الاستمرار مع شخص لا تطيق التعايش معه، ولها الحق شرعًا في أن تطلب الانفصال عنه. وعليه، فمتى ما تعسَّف الزوج في استعمال الحق، فللزوجة أن ترفضه زوجًا، لأنه لا يستحقُّ أن يكون زوجًا.

سابعًا: ينبغي أن لا ننسى أن الآية التي أذنت باستعمال العلاج بالضرب هي نفسُها التي هددت الأزواج وأنذرتهم بعدم البغي وتجاوز الحد: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٣٤] أي: فإياكم والظلم؛ فالله عليٌّ كبير، قادر على أن ينتقم منكم!

لزيادة الفائدة

۞ أُوصيك بثلاثة كتب، ارجع إليها لفهم ما يشكل عليك وما لا يشكل من أدلة الشريعة:

١ ـ «تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ».

٢ ـ «تفسير السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ».

٣ ـ «شرح رياض الصالحين» للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

الفصل الخامس والثلاثون

فلسفة الطاقة في الميزان

نحن أمام فتنة عظيمة تزينت لفئام من الناس ففتنوا بها، ظنوها ماء عذبًا يرويهم، وما هي إلَّا سراب لا حقيقة له، لبست لباس العلم، وما هو إلَّا علم زائف، تسمياتٌ جذابة: تطوير الذات والقدرات، وتنميةٌ بشرية، وما هي عند التحقيق إلَّا طقوس وثنية، وبوابة عريضة لمرور الأفكار المسمومة.

تلكم هي فلسفة الطاقة وعلومُها وتطبيقاتُها المختلفة.

والعاقل لا يعجلُ بردٍّ ما لم يحط به علمًا، ويطلب البينة.

نحن بحاجة إلى تسليط الضوء على هذا الموضوع نظرًا لأن فيه التباسًا لدى من لم يدرك ما وراء العناوين البراقة.

ولأن في رواج هذه الفلسفة رواجَ فكر عقدي وافد أجنبيٍّ عن عقيدة الإسلام.

نحن بحاجة إلى طرح هذا الموضوع لأنَّ التوحيد رأس الأمر والقضية الأهم، وحماية جنابه أعظم واجب، وفلسفة الطاقة تكدِّر صفوه، بل قد تعود على أصله بالنقض.

نحن بحاجة للكلام عن هذا الموضوع ليعلم الغافل أن العقائد الوثنية لم تمُت، بل لها حضور بأقنعة جديدة، وأن التوحيد متى غُفل عن التذكير به وتكرارِ تعليمه نُسي؛ وحينها فما أسرع تسلُّل القوادح فيه، وهذا الموضوع شاهد صدق.

وقبل أن أسترسل أقدِّم بأربع **مقدمات مهمات ممهدات**:

١ ـ العقل يقضي بأنه لا ينبغي رفض الجديد لأنه جديد، كما لا ينبغي قبوله لأنه جديد.

لا ينبغي ـ عند العقلاء ـ التشنجُ أمام الفكرة الجديدة ورفضُها ابتداء، كما لا ينبغي أيضًا قبولها بدون سند علميٍّ صحيح.

إذن القاعدة هھنا: رفضُ الجديد لأنه جديد اتباعٌ للهوى، وقبولُ الجديد لأنه جديد هو اتباع للهوى أيضًا.

والواجب قبول الحقِّ لأنه حقٌّ، وردُّ الباطل لأنه باطل، بغضِّ النظر عن ميولنا وأهوائنا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النِّسَاء: ١٣٥].

٢ ـ ليس كلُّ ما لبس لباس العلم كان علمًا صحيحًا.

ينبغي التفريق بين العلوم الصحيحة والعلوم الزائفة، وعدم التفريق بينهما مشكلة كبيرة، والمرجع هم الموثوقون من أهل التخصُّص؛ فالطبُّ له أهله، والفيزياء لها أهلها، والفقه الشرعيُّ له أهله.

إنه حين تغيب الحدود بين الصحيح والزائف: تطفو الخرافات والأكاذيب الخادعة.

٣ ـ تجربة الشيء مرةً أو مرتين ثم وجود أثر حسن ليس دليلًا قاطعًا على صحته، فلربما وافق قدرًا، ولم يكن ما جُرب سببًا، وقد يكون المؤثِّر سببًا آخر مغفولًا عنه.

إن إثبات صحة ممارسة معينة له طرقه المعروفة؛ فهي إما أن تُعرف عن طريق خبر غيبيٍّ يخبر به الصادق المصدوق ﷺ، وإما عن طريق التجربة الحسية المتكررة من ذوي الخبرة، والنتائجِ الإيجابية لوسائل الإثبات العلمية المعتبرة، أما: «جربتُ فانتفعتُ»، و«جرب فلان فاستفاد»: فليس هذا الكلام برهانًا علميًّا يُبنى عليه.

٤ ـ حديثنا هنا إنما هو فلسفة الطاقة وتطبيقاتها وفروعها وإن اختلفت أسماؤها: من دورات استشفائية إلى العلاج بالطاقة إلى الريكي إلى قانون الجذب إلى أطلق عقلك المارد، إلى غير ذلك مما فيه تعلُّق بالطاقة ومفاهيمها، أما الدورات التي لا تمتُّ إلى هذا بصلة فليست مقصودة؛ كدورات إدارة الوقت أو التخطيط أو الإلقاء أو غير ذلك؛ فهذه لا علاقة لنا بها في هذا المقام، نبَّهت إلى هذا دفعًا للالتباس.

🕮 التعريف بفلسفة الطاقة ومجالاتها.

هي منظومة من العقائد والطقوس، مستقاةٌ من فلسفات وثنية باطنية شرقية، عمادها اعتقاد الحلول ووحدةِ الوجود وتأليهِ الإنسان، تدّعي السعي في تحقيق التوازن الطاقي للنَّفْس، والوَحدةِ مع الروح الكونية أو المطلق، ولها تطبيقات متعددة تتعلق بالاستشفاء وجلب السعادة وجذب الآمال وغيرها، ويندرج تحتها جملةٌ من الممارسات والقوانين؛ كالريكي وقانونِ الجذب وفلسفة الشاكرات واليوغا والكارما وغيرها مما قد تأتي الإشارة إليه.

وهذه الفلسفات كما أشرت: شرقية المصدر: صينية وهندية، ثم وجدت لها رواجًا في الغرب نتيجة المادية الطاغية والجفاف الروحي الذي يئنُّون تحت وطأته، فتهافتوا عليها علَّها تمطر صحراء قلوبهم القاحلة، والحقُّ أنها لم تزدهم إلَّا تيهًا.

ثم تسلَّلت هذه العلوم الزائفة إلى العالم الإسلامي، وأقبل عليها كثير من الشباب والفتيات، مع أننا مستغنون عنها ومكتفون بعقيدتنا وشريعتنا؛ لكن التلبيس كبير، والتقليد والفضول يفعل فعله، والجديد له

لذَّته، فكيف وهو تحت لافتات براقة؛ كالتنمية البشرية وتطوير الذات وتحقيق السعادة وحصول الشفاء وجلب الثراء، ويصحبها شهاداتٌ ونيلُ لقب له رنّته: «مدرب معتمد»!

ويمارس أرباب هذه الفلسفة نشرَها بين الناس في الغالب عبر أربعِ وسائل: عقدِ الدورات، وتأليفِ الكتب، وإقامةِ المحاضرات، وتقديمِ الاستشارات.

ومنهجهم قائم على استعمال مصطلحات علمية في غير محلِّها، وتزييف التجارب العلمية، والبناء على أدنى ملابسة، كما أنهم يسلكون مسلك التدرُّج؛ إذ لا يوضحون كلَّ ما عندهم لأول وهلة أو في المستويات الأولى من الدورات؛ فما يذكرونه في البدايات في الغالب مقبول، إنما تتكشف الحقائق في المستويات العليا، وحين الوثوق في المتعلم، وفي أخبار من تاب وأماط اللثام عما رأى وسمع عبرة، وسيجدها من يبحث عنها منشورة في الشبكة.

🕮 المخالفات الشرعية في فلسفة الطاقة.

هذه الفقرة أهم فقرة في موضوعنا، وهي السبب الأهم في تخصيصه بالحديث؛ إذ لولا وجود مخالفات في علوم الطاقة تمسُّ عقيدة المسلم ما كان بنا حاجة إلى الكلام عنها.

وأنبِّه قبل بيانها إلى أمرين:

الأول: أن المخاطر العقدية التي سأذكر بعضها بعون الله ستتكشف لك إذا بحثت في أصول هذه العلوم وخلفياتها التي هي الديانات الشرقية أو ما استقاه الغرب منها، وكذا إذا رجعت إلى ما يطرحه الغرب منها في

دوراتهم ومؤلَّفاتهم ومحاضراتهم؛ فإنهم أكثر صراحةً ووضوحًا، بخلاف من كان في بلاد المسلمين؛ فإنهم قد يمارسون شيئًا من التقية، ولا يصرحون ولا يصارحون الناس بكلِّ ما فيها، وربما حلّوا طرحهم بشيء من ذكر الله أو ربطوه بمفهوم شرعيٍّ بضرب من التكلف، وهذا لا يقدم أو يؤخر شيئًا؛ فالحقيقة الناصعة لا يمكن إخفاؤها خلف هذا الستار؛ فدين محمد ﷺ وهذه الشعوذاتُ العصرية ضدّان لا يجتمعان.

الثاني: أنا هنا في مقام التنبيه على أخطاء لتطبيقات موجودة، بغضِّ النظر عن قصد من يمارسها أو علمه بما فيها؛ فلربما كان منهم من هو مغترٌّ أو جاهل بالحقيقة.

أقول بعد هذا: المخالفات الشرعية في فلسفة الطاقة وتطبيقاتها كثيرة وخطيرة، وسأسوق منها بعضها بعون الله:

أولًا: تأليه الإنسان!

من أعظم مخالفات فلسفة الطاقة وما يرجع إليها: التأصيل لتأليه الإنسان!

نعم: تأليه الإنسان، إما بلفظ صريح أو موارب؛ فالعقائد الوثنية التي انبثقت عنها هذه الفلسفة تقوم على أساس أن الإنسان فيه شذرة من الألوهية؛ وعليه فهو المتصرف في أقداره والمتمكنُ من تشكيلها بحسَب ما يريد.

وأنت إذا اطَّلعت على دوراتهم وكتبهم تجد تعظيمًا واضحًا للذات البشرية؛ فهم يتحدَّثون عنها كما يتحدثون عن خالق الكون المتصرِّف فيه بما يشاء؛ فأنت الذي تُسعد نفسك وتُشقيها، وأنت الذي يَمنعُها أو يُعطيها، وأنت الذي ترسم قدرك بريشة وعيك، فقوة عزيمتك لا تُقهر،

وعقلك الباطن هو الذي يستجيب لك ويلبِّي حاجاتك! ولا تحتاج إلى أكثرَ من أن توقظ العملاق الذي بداخلك!

انظر شيئًا من مقولاتهم ـ وأستغفر الله من سوقها، لكنها ضرورة البيان ـ:

هذا أحدهم يقول: «أنت صاحب قدرة مطلقة وحكمة ليس لها حدود، وذكاء لا نهائي... لديك إمكانات الله وقوتُه على خلق عالمك».

وثانٍ يقول: «يجب أن نكتشف بأنفسنا أن في داخلنا إلهًا»!

وثالث يقول: «أنت يا من تسعى للربِّ في الخارج: هذا الذي تسعى إليه هو أنت»!

ورابع يقول: «نحن آلهة مقنعة»!

وخامس يقول: «أنت النظام الذي أوجد كلَّ الواقع الموجود في الكون... أنت لست في حاجة لأي شيء، بل أنت من يصنع الأشياء بمشيئتك الخاصة»! ثم يقول: «أنت كامل، ودورك أن تعطي من كمالك لكلِّ الكون»!

ولو كان المجال يتسع لسقتُ أقوال عشرة وعشرين، ولا والله ما هذا كلام مغمورين بل هو كلام أساطينهم.

إن قبيحًا بمخلوق ضعيف، أوله نطفة، وآخره جيفة، وفي جوفه البول والعذرة: أن يتبجح بهذا الكلامِ القبيحِ.

أما أهل الإسلام فإنهم يقولون: اللهم أنت ربنا ونحن عبيدك، ماضٍ فينا حكمك عدل فينا قضاؤك، لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا، ليس لنا من الأمر شيءٌ ولا مثقالُ ذرة، كلنا جائع إلَّا من أطعمتَه، وعارٍ

إلا من كسوتَه، وضالٌّ إلَّا من هديته، ما شئتَ كان وإن لم نشأ، وما شئنا إن لم تشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلَّا بك.

ثانيًا: ـ وهو مرتبط بالأمر الأول؛ فهما أمران متداخلان ـ: علوم الطاقة الزائفة ترشَح منها عقيدة كفرية، ألا وهي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، فهم يراوحون بينها، وفي ظلماتها يتخبطون، ومعناها: أن الله ـ تعالى علوًّا كبيرًا ـ يحُل أو شيءٌ منه في مخلوقاته، أو يتحد الخالق والمخلوق فيكونان شيئًا واحدًا، أو أن الله تعالى هو كلُّ شيء في الوجود أصلًا، عز ربنا وجل.

والحقُّ الذي لا يمتري فيه مسلم أن الله تعالى عالٍ على خلقه بائن منهم؛ ومن قال بخلاف هذا فقد كذَّب القرآن والسُّنة.

وهذه العقيدة التي أشرتُ إليها متجذرة في الديانات الشرقية كالطاوية والهندوسية والبوذية والكنفشيوسية، التي هي أصول فلسفة الطاقة بلا ريب؛ فكلها متفقة ـ في الجملة ـ على الاعتقاد بوحدة الوجود، وأن في ذات الإنسان ألوهيةً أو شرارةً من ألوهية.

والطاقة بجميع تطبيقاتها وطرائق الاستشفاء بها ـ من الريكي والبرانا والتشي كونج والتاي شي والفونج شوي وغيرها ـ: هي في زعمهم طاقة منبثقة عن الكلي الواحد الذي منه تكون الكون وإليه يعود، ولها قوته وتأثيره، سواء سميت الطاقة أو الطاقةَ الحيوية أو طاقةَ الحياة أو الطاقةَ الكونية أو الطاقةَ الروحانية أو سميت قوةَ الحياة أو قوةَ الشفاء أو الوعيَ أو الوجودَ الكلي أو غيرها من التسميات، أقول: هذه الطاقة عندهم هي الإله أو جزء من الإله، تحُل في المخلوقات أو تتحدُ بها، ويسعى ممارسو هذه الخزعبلات إلى الاتصال بها؛ لأنها هي التي تعطي وتمنع،

وتشفي وتُمرض، وتُسعد وتُشقي، فهم يمدُّون أيديَهم لأجل أن تدخل هذه الطاقة إليهم، أو يمارسون رياضة التنفس لأجل أن تتدفق في مسارات الجسم، أو يجلسون جلسات التأمل مع غلق العينين وترداد كلمات معينة لأجل الخروج من وعيهم والوصول إلى ما أسموه الإدراك الأسمى، أي: إلى الاتحادِ مع الخالق.

ويزعمون أنهم يمارسون هذه الطقوس سعيًا في استعادة التوازن الطاقيّ في الجسم؛ أي الانسجامِ مع الكون ومن ثم الاتحادِ به؛ لتكون لدى الإنسان قوةٌ تمكِّنه من منح الشفاء لنفسه ولغيره، ويكون بها متحكمًا في كلِّ ما يقع منه وله.

باختصار: الاتصال بالطاقة يعني الاتحادَ مع المطلق (الإله)، ومن ثم العودةَ إلى المنشأ الإلهي، والترقي إلى ألوهية النفس؛ فالإنسان في زعمهم إلهٌ منسي، قد انفصل عن حقيقته الإلهية، فإذا استعاد تلك الطاقةَ المفقودة: اقترب من حقيقته، ومن ثَم تحكّم بالواقع.

ثالثًا: الوقوع في الشرك الأكبر؛ وهذا في حقِّ من اعتقد أنه هو أو عقلُه الباطن أو الطبيعةُ أو الطاقةُ: يشاركون الله في الخلق أو التدبير، وهذا كثير في تطبيقاتهم.

رابعًا: وصل دعاة العلاج بالطاقة وقانونِ الجذب إلى حدِّ تداول تمائم عصرية لاستجلاب الطاقة الكونية من أحجار كريمة ورموز هندوسية وبوذية تجلب السعادة والعافية والرزق في زعمهم، فثمة أحجار تجلب السعادة، ومجسمات تجذب شريك الحياة، وأقراص معدنية تجذب الغنى، وأساور وقلائد وأقراط ترفع في زعمهم الطاقة الإيجابية وتطردُ

الطاقة السلبية عنك وعمن حولك، والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**» [أخرجه أحمد (٣٦١٥)].

خامسًا: من مساوئ هذه العلوم الزائفة أنها تُضعف تعلقَ القلب بالله والتوكلَ عليه ومحبتَه ورجاءَه والخوفَ منه، لأن الإنسان تحت ظلال هذه العلوم الزائفة قد استغنى بنفسه عن ربِّه ـ عياذًا بالله ـ، ولربما تحلل قلبه من حقائق العبودية شيئًا فشيئًا؛ حتى لربما انسلخ منها بالكلية.

سادسًا: إقصاءُ الإيمان بالقدر؛ وهذه نتيجة حتمية لهذه الفلسفة؛ فإذا كنت أنتَ من يخلق قدره ويتحكم في حياته؛ فما الحاجة إلى الإيمان بالقدر!

هذا عدا انحرافات أخرى كثيرة، تتعلق بالإيمان بالملائكة وبالغيب وباليوم الآخر وبالروح وباتخاذ الأسباب، إلى غيرها مما يستدعي التوسع فيها مساحة أكبر.

الخلاصة: أستطيع أن أختصر وصف هذه الفلسفة بأنها: **مجمعُ ضلالات، وشعوذةٌ سارقة.**

بعبارة أخرى: **هي شعوذةٌ وثنيةٌ في قوالبَ عصرية، مطعّمةٌ بإلحاد غربيّ، ليس لها رصيد علميّ، إنما تبيع الوهم وتسرق أموال الناس.**

🕮 شبهة وجوابها

يقول أنصار الطاقة: إن المقصود بالطاقة وجلبها والاتصال بها.. إلى آخره: إنما هو جذب الطاقة الإيجابية وطرد الطاقة السلبية!

نعم، هذا ما يذكرون، والدعاوى سهلة، لكن العبرة هل ما يُذكر صحيح أم لا!

في الفيزياء: لا يوجد شيء اسمه طاقة موجبة وطاقة سالبة! هذا الشيء الذي أقاموا الدنيا عليه وما أقعدوها وهمٌ لا حقيقة له! الطاقة شيء واحد، وتُعرّف بأنها: القدرة على إنجاز شغل معيّن، أو: القدرة على القيام بالعمل.

وأولئك حين يتحدثون عن الطاقة لا يتحدثون عن الطاقة المعروفة التي لها وجود ويمكن قياسها ـ كالطاقة الحرارية أو الكهرومغناطيسية أو الحركية ـ إنما يتحدثون عن شيء لا وجود له إلَّا في رؤوسهم!

يقولون: جسمك يجذب ذبذبات أو شحنات! فمن أين لهم هذا؟ الجسم فيزيائيًّا متعادل الشحنات وليس له طاقة جاذبة، والذبذبات: هي ترددات موجَبة تفسر ما لدى الأجسام من مرونة، ولا تمتلك خاصية جاذبة.

لقد ربطوا تركيز الطاقة بالتشافي أو الجذب، وهذا دجل علمي.

لقد صدّعوا رؤوس العالم بقانونِ الجذب؛ يقولون: الإنسان يجذب ما يريد من خلال تفكيره فيه؛ لأنه حين يركّز على ما يفكر فيه يكوّن طاقة، وهذه الطاقة تجذب ما يريد أن يحدث؛ أي أن جزئيات الكون تتأثر بتفكير الإنسان بفعل الطاقة! فالفكر يصنع الواقع، وتركيزك وتأملك تستطيع بهما تغيير الكون من حولك! أي أنك لو فكرت أن شيئًا ما يتحرك يمينًا فسيتحرك يمينًا، وإذا فكرت أنه يتحرك شمالًا فسيتحرك شمالًا! بل حتى العمليات الجراحية يمكن أن تجرى عن طريق الأفكار فقط!

هذا ليس ضربًا من المزاح! هذا شيء مكتوب في كتب منتشرة، ويقال في دورات تدفع فيها أموال.

أعيد وأكرر: الطاقة لا تجذب، والترددات لا تجذب، وما يذكره أهل قانون الجذب وعلمِ الطاقة شيء باطل، بل ومضحك عند المتخصصين.

والمؤسف أنهم يُلبّسون؛ فيقولون مثلًا: ثمة طاقة تحيط بجسم الإنسان، وحجمها ولونها يتغير وِفقًا لصحة الشخص النفسية والعضوية، كما يمكن بها معرفة احتمالِ إصابة الإنسان بالأمراض مستقبلًا! قالوا: وهذا شيء مثبت قد تمَّ تصويره!

والواقع ـ كما بيّن الفيزيائيون ـ أن هالة الطاقةِ المدعاةَ التي يزعمون تصويرها ما هي إلَّا تفريغ كهربائي للوسط المحيطِ بالجسم المصور، وأن الشكل واللون ليسا إلا نتيجة لعواملَ فيزيائيةٍ بحتة تتعلق بمحيط الجسم، ويمكن التلاعب والتحكم بها.

إذن، القوم غارقون في وهم كبير أو كذبة كبرى!

ولربما قالوا: ولكن يبقى أن هناك احتمالًا.. ربما كلامهم صحيح!

والجواب: نحن أمام منظومة متكاملة من التقرير الذي لم يقم عليه دليل، بل هو مصادم للعلم المثبت؛ فمن أين يأتي الاحتمال؟!

ثُم: دعك من هذا وأخبرني: كيف عرفت يا أيها المتكلم أن ههنا طاقة موجبة وسالبة، وذبذبات وجذبًا؟ هل رأيت هذا بنفسك؟ هل أجريت تجربة علمية مستوفية الشروط العلمية؟ الجواب قطعًا: لا؛ إذن ما بقي إلا أنه أخبرك بهذا المدرب الفلاني أو دوّنه في كتابه وأنت صدقته. حسنًا؛ وجود الطاقة وتفاعلاتها بالصورة التي تذكر إما أن يكون أمرًا غيبيًّا أو أمرًا حسيًّا؛ أما كونه غيبيًّا: فأنت مسلم، وتعلم أن الغيب لله، قال

تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ [يُونس: ٢٠]، ولا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي، وليس في الوحي شيء من هذه الخزعبلات! فما بقي إلا أنها شيء حسيّ؛ والأمور الحسية إما أن تشاهَد أو تقاس ويعلم وجودها بالمقاييس العلمية المعروفة، وطاقتكم لا سبيل إلى قياسها؛ فما بقي إلا أنها علم زائف!

أضف إلى هذا أمرًا آخر: هل حدّثت نفسك: لِمَ لا توجد جامعة علمية واحدة أو مركزٌ علمي لهما مكانة مرموقة تعترف بهذا النوع من علوم الطاقة؟

دونكم الفيزيائيين وأقسام الفيزياء، والأطباء وأقسام الطبِّ في الجامعات المعروفة في بلادنا وخارجها: سلوهم: هل يوجد شيء اسمه الطاقة والجذب إلى آخر ما تذكرون؟

هل رأيتم من الأطباء الموثوقين من قال: إنه يمكن التشافي عن طريق الطاقة الإيجابية وقوة النية؟!

أليس هذا مؤشرًا واضحًا على أن ما عليه القوم لا طائل تحته، بل هو كالحرث في الماء!

ثم تأمل أيضًا: القوم يقولون: إنك يمكن أن تجذب أيَّ شيء إليك، وبتركيز النية تحقق كلَّ ما تصبو إليه، وبعقلك الباطن تستطيع نيل أي شيء! فهلا سألتَ من يطرح هذه الأباطيل: لِمَ تأخذون أموالًا طائلة على الدورات والكتب التي تطبعونها؟ لم لا تجعلونها مجانية، وتحققون بنيتكم وطاقتكم المكاسب المتوقعة! إذ ستجدونها بعد قليل بمجرد تفكير مركز عميق في حساباتكم؛ فهذا ما تقررونه!

لماذا تربحون من جيوب الشباب وبإمكانكم الربح بالجذب والنية والطاقة؟!

وأمر آخر أهمّ: إذا كان بالإمكان جذب أي شيء وتحقيقُ كلِّ غاية بقوة العزيمة وقوة الأنا وبالجذب وبالمارد القابع بين الأضلع: فإننا نودُّ أن نلفت انتباهكم إلى أن ثمة فقراءَ ومجاعاتٍ وحروبًا في العالم، وثمة تضخمًا ومشاكل اقتصاديةٍ وسياسيةٍ واجتماعيةٍ كثيرة، وهناك أوبئة وأمراض تئنُّ منها بلاد فقيرة؛ وأنتم أقدر الناس على التحكُّم بالطاقة وتسليط الذبذبات على السلبيات لتمحقها! فأين أنتم عن تقديم المساعدة وحلِّ المشكلات؛ أتُشغلون بإقامة الدورات وتأليف الكتب وتتركون العالم يئنُّ تحت وطأة هذه المعضلات، مع أن بأيديكم الحل السحري ـ كما تقولون ـ!

ألا ليت المخدوعين يستيقظون!

قد يقول قائل: هذه الدورات يقدمها دكاترة متخصصون وحملة شهادات عليا في تخصصاتهم!

ما رأيك ـ أيها القارئ الكريم ـ أن أكتب في ورقة بخطّ عريض كلمة: «ماجستير»، وفي أخرى: «دكتوراه»، ثم أوقع عليها وأختم؛ فهل ستشتري مني الورقتين بألف ريال؟!

هل هناك من يحترم نفسه يقبل أخذها ثم يتشبَّع بما لم يُعطَ ويقول: أنا الدكتور فلان!

ما أسهل أن تُشترى اليوم شهادة دكتوراه، والشبكة مليئة ببائعي هذا الوهم؛ لكن ما القيمةُ العلمية لشهادات عليا غيرِ معترَفٍ بها؟

خذ هذه: أحد أكبر المروّجين لهذه الترهات في العالم العربي، يعرّف نفسه بأنه الدكتور فلان، حاصل على الدكتوراه من جامعة كذا بالولايات المتحدة الأمريكية!

وقد دخلتُ أنا وغيري إلى موقع هذه الجامعة؛ فوجدتها مجرد معهد يتبنى هذه العلومَ الزائفة، ويمنح شهادتَي الماجستير والدكتوراه بالمراسلة في حدود سنة وعدة أشهر، لكن هذه الجامعة المزعومة غيرُ معترف بها من أي جهة رسمية في أمريكا، وقد صرحوا هم أنفسهم في موقعهم بهذا! ثم يأتي من يأتي ويخدع السذَّج بكونه دكتورًا! فأي عبث هذا؟

ثم لو سلمنا أن ممن يقدم هذه الترهات من هو حاصل على شهادة عليا من جامعة معترف بها؛ فستجد شهادته في تخصص آخر وليس في الطاقة؛ لأنه ـ بوضوح ـ: لا توجد جامعة معترف بها تمنح شهادة في هذه العلوم الزائفة.

🕮 شبهة أخرى:

بعضهم يقول: ما تذكرون من مساوئ لفلسفة الطاقة صحيح، لكن هذا ما عند الغرب، أما ما يُطرح في بلاد المسلمين فمختلف!

الجواب عن هذا من ثلاثة أوجهٍ أسوقها مختصرة:

أولا: من أين لكم ما ذكرتم؟ فحتى بعض مَن ينتسب إلى الإسلام وُجد عندهم مثل ما وجد عند الغرب من الضلالات سواءً، مع فرقٍ في القدْر وأسلوب الطرح.

وغاية ما يتميزون به: السعيُ في وضع مسحة دينية على ترهات الطاقة، إما بأدلة لا تصح كحديث: (تفاءلوا بالخير تجدوه) وهو مكذوب

على النبي ﷺ، وإما بتأويلات مستكرهة، أو ليّ أعناق النصوص، أو اعتساف في الاستدلال.

ثانيًا: لم نجد ممن يطرح هذه الفلسفة والتطبيقات في بلاد المسلمين إنكارًا صريحًا لضلالاتها ـ مع أن المقام مقامُ إيمان وكفر ـ، بل بالعكس: لا نجد منهم إلَّا تمجيدًا لرواد الطاقة الغربيين، وحثًّا على قراءة كتبهم وفخرًا بالتتلمذ عليهم، بل ما راج أمر هؤلاء بين أبناء المسلمين إلا بتباهيهم أنهم تتلمذوا على أيدي كبار المدربين العالميين من الهندوس والملاحدة الروحانيين وغيرهم، وبما حصَّلوه منهم من شهادات واعتمادات.

ثالثًا: إذا أردت الحكم على فكرة فانظر إلى أصولها، فإنك لن تجنيَ من الشوك العنب! وما يروج في بلاد المسلمين من هذه الأباطيل إنما هو فرع عما يُبث هناك، وإذا فسد الأصل فسد الفرع، ولن تفلح عمليات التجميل والأسلمةِ المزعومة، ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وإن من فضل الله أن وفَّق ولاةَ الأمر في بلادنا إلى منع هذه الخزعبلات والتشديدِ على عدم إقامتها، فقد صدر في عام (١٤٣٨هـ) أمر سام من الملك سلمان ـ وفقه الله ـ بمنع ممارسة نشاط العلاج بالطاقة أو التدريب عليه في المملكة، ومنع استيراد أو تصدير أو فسح أو نشر أو عرض الكتب والمواد السمعية والمرئية المتعلقة بنشاط العلاج بالطاقة أو التدريب عليه.

كما سبق هذا قرارٌ من جهات الاختصاص بمنع ممارسة نشاط البرمجة اللغوية العصبية.

وهذا ما يُذكر فيُشكر.

ومع ذلك فيبقى أن شبكة الإنترنت فضاء مفتوح، يصعب التحكم فيه.

🕮 ما البديل عن هذه العلوم الزائفة؟

البديل هو تحقيق التوحيد، توحيدِ الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

البديل هو تعظيم الله وتحقيق العبودية لله، وصدق الاتباع لنبيه ﷺ.

البديل هو أن يكون الله ورسوله ﷺ أحبَّ إليك مما سواهما، وأن تصدق في التوكل عليه، وأن تنخلع من الاعتماد على حولك وطولك، وأن ترجو الله وتخافَه.

البديل هو العمل بقوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**» [مسلم (٢٦٦٤)]. تأمّله مليًّا واجعله دستورًا لك؛ فكلُّ جملة منه تنقض ركنًا من علم الطاقة المزعوم.

البديل هو في بذل الأسباب والجدّ والعمل وترك التكاسل والاتكاءِ على الأماني.

البديل في تحقيق الإيمان بالقدر؛ بعلم الله وكتابته، وبمشيئته وخلقه.

البديل في الرقية الشرعية والتداوي المباح.

البديل في الحذر من دعاة الشرِّ وبائعي الوهم.

البديل في أخذ العلم الصحيح عن أهله.

البديل في الوعي وعدم الميل مع أيِّ ريح.

البديل في الاعتزاز بديننا وإرثنا وقيمنا.

البديل في صدق التوبة والاجتهاد في التضرُّع لله ودعائه. والله تعالى أعلم.

لزيادة الفائدة

۞ أوصي بكتاب اسمه:

«التطبيقات المعاصرة لفلسفة الاستشفاء الشرقية»، طبعته وزارة الصحة في المملكة العربية السعودية عن طريق المركز الوطني للطب البديل.

الفصل السادس والثلاثون

مزالق في التفكير

نحن في عصر صاخب، متخمٍ بالآراء والمعتقدات، والخلافات والنقاشات، فمن لم يكن صاحب تفكير صحيح ومنهج سليم في التعاطي مع هذا الزخم الفكري الكبير: كيف سيعرف الصواب من الخطأ؟ وكيف يصل إلى شاطئ الأمان بعيدًا عن تيارات الانحراف الجارفة؟

واعتبر في هذا بأقرب شيء يلامس حياة الناس اليوم: أظن أننا نتفقُ على أن وسائل التواصل أضحت وجبةً لا بد أن يأخذ الصغار والكبار منها حظهم يوميًّا، وهي محرك كبير لعجلة الأفكار، وجُلُّ وسائلِ التواصل ميادينُ نقاشٍ حامٍ ومستمرٍّ على مدار الساعة، ومنصاتُ عرضٍ وطلبٍ للآراء.

وأمام هذه التخمة الفكرية يحتاج المسلم أن يتحلَّى بالنضج والوعي ليسلم من الطفيليات العقلية الضارة، لا سيما والمزالق التي تقدح في التفكير منتشرة؛ كالحكم بغير دليل، أو توهمِ ما ليس بدليل دليلًا صحيحًا، أو الانخداعِ بزخارف القول، أو الانسياقِ وراء مغالطات منطقية، أو الاستسلامِ للتقليد الأعمى، إلى آخر ما هنالك، ومعها يحتاج المتبصر إلى أن يتسلح بقواعد التفكير الصحيح المستمدة من نور الوحي؛ ليكون طرحه أو قبوله للأفكار أو ردّه لها مبنيًّا على أساس صحيح.

والفصول الماضية قد نُثر فيها من ضوابط التفكير الصحيح أو مزالقه شيءٌ كثير، وفي هذا الفصل تلخيص لتلك وزيادة.

🕮 المغالطات المنطقية.

المغالطات المنطقية: هي أنماط شائعة من الحجج الباطلة التي تتخذ مظهر الحجج الصحيحة.

المغالطة المنطقية: حجة خادعة لا تحترم المنهج العلمي.

والغالب أن تستعمل لخداع المحاور وتلبيس الحقيقة عليه، أو التفلتِ من إلزامه.

وقد سبق التعريج على شيء من هذا الموضوع في فصول ماضية، ولا بأس من إشارات إليه في هذا الفصل؛ فهو وثيق الصلة بموضوعها.

المغالطات كثيرة، وسأشير إلى ثمانية مشهورة، منها:

١ ـ مغالطة الحجة العاطفية، أو الاحتكام إلى العاطفة: وهي أن يستعمل شخص العاطفة واللعبَ بالمشاعر أثناء استدلاله للتأثير على حكم الطرف الآخر.

إن من غير المطلوب أن ننسلخ من عواطفنا، ومن غير المطلوب أيضًا وضعُ العاطفة موضِعَ الحجة؛ لأنها لا تنهض حجةً أو أساسًا لاعتقاد.

مثالها: أن يقرر أحدٌ كلامًا خاطئًا، فإذا نوقش فيه قال: أنتم لا تعلمون كم الزمن الذي قضيته في الإعداد، وكم تعبت وكم سهرت!

هذه مغالطة؛ إذ لا يصلح وضع العاطفة موضع الحجة.

ويلاحظ أن هذا المسلك المغالِط ينهجه أهلُ الغلو والتطرف؛ فقد يُميلون السذَّج بمغالطات عاطفية؛ فليُحذَر.

٢ ـ مغالطة: تغيير الموضوع، وتسمى مغالطةَ الرِّنجة الحمراء، وهي أن يطرح الشخص ـ حين يعجز عن مقابلة الحجة بالحجة ـ موضوعات أخرى سوى ما هو موضوع النقاش، ليشتت انتباه الطرف الآخر، ويسلم من ظهور ضعفه.

إذن، هي نوع من التهرب، وكان اللائقَ: المناقشةُ بالحجة أو الاعترافُ بالخطأ أو العجز.

مثالها: أن ينصح إنسان آخر في شأن خطأ وقع فيه؛ فيردّ عليه قائلًا: بدل أن تنصحني انظر إلى ما يفعله قريبك فلان! أو يردُّ قائلًا: وأنت يقع منك كذا وكذا! وهذا تهرب واضح، فالموضوعان منفصلان، وكون فلانٍ أخطأ خطأً أكبر من خطئك: هذا لا يجعل خطأك صوابًا!

٣ ـ مغالطة الاستدلال الدائري، أو الدَّوْر أو المصادرة على المطلوب.

وتعني: جعل النتيجةِ: المقدِّمةَ المستَدَلَّ بها؛ فالمغالط هنا لم يزد في النتيجة على أن أعاد المقدمة مع تلاعب في الألفاظ، أي أن استدلاله «لفٌّ ودوران» ـ كما يقال ـ على النتيجة، على حدِّ قول الشاعر:

كأننا والماء من حولنا قومٌ جلوس حولهم ماء!

مثالها: أن يقول من يناصر نظرية التطور: نظرية التطور نظرية صحيحة، فإذا قيل له: ما الدليل؟ قال: لأنها حقيقة!

وبأدنى تأمل تجد أنه لا فرق في الواقع بين كلمتي صحيحة وحقيقة؛ فكأنه قال: هي صحيحة لأنها صحيحة!

٤ ـ مغالطة التحريف، وتسمى مغالطةَ رجلِ القَش.

وهي أن يعمد أحدٌ إلى تشويه قول خصمه وحجتِه وربطِها بنتائجَ أو أفكارٍ لا يقول بها ولا يستلزمها كلامه، والقصد غالبًا: محاولةُ إفحام خصمه بهذا الأسلوب غير الأخلاقي؛ لأنه مفلس من الحجة.

مثالها: أن يقول ناصح: علينا أن نتابع الأبناء ونراقب تصرفاتهم ودخولهم إلى الشبكة، فيقولُ خصمه: إذن أنت تتّهمهم في أخلاقهم، أو أنت فاقد الثقة بهم، أو يقول: أنت تريد أن تخنُقَهم!

وهذه مغالطة؛ لأنه لا تلازم ضروريًّا بين المراقبة والاتهام، أو بين المتابعة والخنق!

مثال آخر: أن يقول ناصح: علينا أن نتمسك بشرعنا وعاداتنا الحميدة، فيردُّ آخر: إذن أنت تريد أن تجعلنا نعيش في الظلامية ونرجع إلى القرون الوسطى!

وهذه مغالطة بعيدة عن الحقيقة؛ فكلام الناصح هنا لا يستلزم هذا الذي ذُكر البتة.

٥ ـ **مغالطة التعميم المتسرع**: كأن يلحظَ شخص ملحوظة على آخر فيصدرَ حكمًا عامًّا يشمل كلَّ من يشارك هذا الآخر في وصف ما.

أي أنه يجعل من حَبَّة واقعة: قُبَّةَ تعميمات!

ومَن رأيتَه يُصدر الأحكام العامة الواسعةَ دون التحقق من انطباقها على جُل من وصفهم؛ فاغسل يدك من رقيِّ تفكيره!

وهذا مع الأسف خطأ تسمعه كثيرًا؛ تجد أن رجلًا تعامل مع شخص من جنسية ما فأساء التصرف معه، أو سافر إلى بلد فحصل له موقف سيئ مع أحدهم؛ فيصدر حينها حكمه العام: أهل البلد الفلاني فيهم وفيهم! كم قابلت منهم يا هذا حتى يكون حكمك عادلًا؛ أمِن أجل خطأ شخص واحد وصَمْتَ أهلَ البلدِ كلَّهم بهذا الوصف؟!

أو تجد أنه لقي مَن عليه سيما الاستقامة فلم يتبسم في وجهه؛ فصار يقول: المتدينون شرسون!

أو تأخر إمامٌ عن موعد الإقامة دقيقتين فأصدر حكمه العام: الأئمة غير منضبطين!

العدل يقتضي أن تضع الأشياء في نصابها، والتعميم المتسرع ينافيه.

٦ ـ مغالطة الشخصنة، وتسمى الحجة الشخصية.

وهي أن يترك شخصٌ مقارعة حجة محاوره بحجة أقوى، ويذهبَ إلى الطعن في شخصه، ويجعلَ طعنه دليلًا كافيًا على إسقاط كلام صاحبه!

وهذا علامة ضعفِ العلم والإفلاسِ من الحجة؛ كأن يتحاور اثنان في نظرية التطور مثلًا، فيقول أحدهما: هذه النظرية فيها ثغرات وخلل، فيرد عليه الآخر: كونك تطعن في النظرية هذا دليل على محدودية فكرك، ولم أكن أظن أنك بهذا المستوى العلمي الضحل! ويظن أنه بهذا قد انتصر على خصمه!

وتلاحظ أن هذا المتكلم هرب من المناقشة العلمية إلى تجريح خصمه، والذي يمكن أن يردَّ عليه قائلًا: موضوع النقاش هو النظرية وليس فكري؛ فناقش حجتي ودعك مني!

٧ ـ مغالطة القسمة الثنائية الزائفة.

وهي ما يقع فيه بعض الناس من فرض أن الممكن خيارانِ لا ثالثَ لهما، دون أن يكون قد حصر جميع الاحتمالات الممكنة.

ويفعل هذا غالبًا من يريد التأثير على الجهال وإرغامَهم على موافقته على ما يريد بطريقة غير مباشرة.

مثالها: أن يقول قائل: «إن لم تكن ليبراليًّا فأنت متزمت متشدد مؤدلج»!

لماذا يا هذا؟ ألا يمكن أن أكون لا هذا ولا هذا! ألا يمكن أن أكون مسلمًا مستقيمًا، مترفِّقًا راقيًا؟

٨ ـ مغالطة السبب الزائف.

وتحصل هذه المغالطة حين يُخلط بين المعية والسببية.

إن إثبات وجود علاقةِ سببيةٍ بين حدثين يستلزم أكثر من مجرد حصولهما معًا.

وقريب منها **مغالطة البعدية**؛ بمعنى: وقع عقيبه؛ إذن بسببه! ولا تلازم بين الأمرين؛ كما أنه إذا كان الفجر يقع عقب صياح الديك؛ فصياحه ليس سبب طلوع الفجر كما لا يخفى.

السببية تتطلب أكثر من مجرد التعاقب، وبسبب الجهل وعدم التدقيق قد يُربَط بين الأمرين على جهة السببية؛ كما ذُكر أن سُكان إحدى الجهات انتشر عندهم الجدري بعد أن شاهدوا الجمل لأول مرة؛ فوقر في نفوسهم أن رؤيةَ الجمل سببُ المرض!

كما ذُكر أن رجلًا توفي عقب بدء السكان مزاولة حرفة الخزف؛ فانفضَّ الجميع عن هذه الحرفة؛ لأنها تُسبب الموت في ظنهم!

وهذه الأمثلة تقرب لنا فهم ما نسمعه من بعضهم أنه مارس بعض طقوس الطاقة ـ وقد مضى التفصيل فيها في الفصل الماضي ـ فشعر

براحة! أو لبِس تميمة فوجد بعدها نشاطًا، أو سأل كاهنًا أو طالع برجه فوقع له أمر سعيد؛ وكل هذا قد وافق قدرًا، وليست هذه الأشياء أسبابًا لما وقع.

الخلاصة: ثمة ظواهر كثيرة يبدو للمتعجل الربطُ بينها وافتراضُ السببية، والواقع أن الصلة بينها معدومة.

قواعد وصايا جامعة تعصم ـ بتوفيق الله ـ من مزالق التفكير

وهي عشرون قاعدة ووصية مختصرة:

١ ـ الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره.

فلا تبادر بالحكم على شيء حتى تُحكم تصوُّره.

٢ ـ الحق في مسائل النزاع واحد؛ يصيبه من يصيبه ويخطئه من يخطئه.

فاحرص على الوصول إليه، أما القول بنسبية الحقيقة فقول ينقض نفسه بنفسه!

٣ ـ تزويق العبارة وتنميق الألفاظ، أو السب والشتم لا يثبت حقًّا ولا يبطل باطلًا.

ففرّغ عقلك للحجة، ودعك مما سواها.

٤ ـ دلائل الحق وبراهينه تتعاون وتتعاضد، لا تتناقض ولا تتعارض.

والتناقض دليل البطلان، وما سلِم من المقالات من التناقض: إلَّا ما جاء من عند الله.

٥ ـ الحق قيمته في ذاته لا في قائله، وواجبٌ قبولُه مهما كان قائلُه.

فالحقُّ مقدم على الخلق؛ وبه يعرف الرجال ولا يعرف هو بهم.

والصواب فوق الأشخاص؛ وعليه: فـ«مَنْ جَاءَكَ بِالْحَقِّ فَاقْبَلْ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا بَغِيضًا، وَمَنْ جَاءَكَ بِالْبَاطِلِ فَارْدُدْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ حَبِيبًا قَرِيبًا»[١].

٦ ـ لا يكاد يخلو قولٌ باطلٌ من شوبٍ من حقّ؛ فلا تغترَّ به.

قال العلماء: لا يروجُ الباطل في الناس إلا بعد أن يُحلّى بشيءٍ من الحق؛ ولذا فأهل الكفر والبدع بجميع أصنافهم لبَسوا الحق بالباطل، وبسبب الحقِّ اليسير الذي معهم عظمت الفتنة بهم؛ حيث يُضلون به خلقًا كثيرًا عن الحق المحض الذي يجب الإيمان به، ويَميلون بهم إلى الباطل الكثير الذي هم عليه؛ فلا ينبغي تحسينُ قولٍ غلب عليه الباطل لوجود حق يسير فيه.

٧ ـ لا نقاش في البديهيات والضروريات العقلية.

وهي المعارف العقلية الأولية، أي التي توجد بداهة في الذهن؛ كمبدأ السببية وامتناع إجماع النقيضين وارتفاعهما ونحوِ هذا؛ فهذه لا يقام لها برهان، ولا يقبل فيها جدال، بل لا يجادل فيها إلَّا مُصاب في عقله.

٨ ـ إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل.

فلا توردْ ولا تقبلْ نقلًا ـ أيَّ نقل ـ إلَّا بعد التحقُّق من صحته، ولا تورد ولا تقبل دعوى إلا بدليل يتعين المصير إليه.

---

(١) هذا ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه، أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/١٣٤)،

٩ ـ ليست العبرة بالاستدلال إنما بصحة الاستدلال.

وعليه: فليس كل من أدلى بحجة يكون مصيبًا.

فلا تغترَّ بمجرد أن أحدًا ساق حجة؛ فلا يخلو أحدٌ من حجة حتى ولو كان مُبطلًا ضالًّا؛ فالعبرة بصحة الحجة لا بمجرد إيرادها، ولو كانت مزخرفة.

١٠ ـ رُبَّ كلمةِ حقٍّ أريد بها باطل؛ فخذ حِذرك وتفطن.

فقد يكون اللفظ صحيحًا، لكنّ المعنى الذي أراده المتكلم باطل، وقصده من ورائه سيئ؛ كما قال علي رضي الله عنه لمن قال من الخوارج المارقين: لا حكم إلا لله: «كلمةُ حقٍّ أريد بها باطل» [صحيح مسلم ١٠٦٦].

١١ ـ الكثرة ليست دليل الصحة.

أي أن انتشار القول وكثرةَ مناصريه لا تستلزم بالضرورة صحته؛ فقد ينتشر الباطل، ويُمسي الحق غريبًا؛ فلا تغترَّ؛ فالعبر بالحجة الصحيحة، لا بالقلة والكثرة.

حقِّق ودقِّق، وزِن بالقسطاس المستقيم، واحذر المصدر الخاطئ.

لا تكن أسيرًا للشائعات، ولا إمعة خلف سلطة الغوغاء، ولا تتشرب كلَّ رأي كأنك إسفَنجة.

لا تكن كحاطب ليلٍ؛ يحمل حزمة حطب ربما تخللتها أفعى.

١٢ ـ العقل محدود فلا يكلَّف ما لا يطيق.

فإعماله في محلِّه من التوفيق، وتحميله ما لا يطيق حماقة وخِذلان.

١٣ ـ عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول؛ فقد يثبت بدليل آخر.

أي أنه إذا انتفى دليل واحد فلا يستلزم هذا انتفاء المدلولِ المطلوبِ إثباته؛ لأن ذلك المدلول قد يثبت بأدلة أخرى غيرِ ذاك الدليل.

إذن، انتفاء الدليل المعين الخاص لا يستلزم انتفاء المدلول؛ مثال ذلك: أن طلوع الشمس ثابت بأدلة عدة؛ كالمشاهدة والنور والحرارة، فإذا انتفى دليل المشاهدة والنور في حقِّ الأعمى ـ مثلًا ـ فلا يستلزم هذا انتفاء طلوعها، فثمة دليلُ الحرارة.

ولو قال ملحد: نحن لم نرَ الله؛ قيل: إذا كانت المشاهدة دليلًا على ثبوت الشيء؛ فعدم مشاهدته لا يدلُّ على عدمه؛ إذ قد يثبت وجوده بدليل آخر كآثاره؛ فالله تعالى لم نرَه؛ لكن علمنا وجوده بأدلة أخرى كمخلوقاته وآياته.

١٤ ـ الجهل البسيط خير من الجهل المركب.

الجهل البسيط: عبارةٌ عن عَدَم المعرفةِ مع عَدَمِ تلبُّسٍ بضِدٍّ.

وأما الجهل المرَكَّب: فهو عدم معرفة الحقِّ مع اعتقاد ضده، وهو جهل أربابِ الاعتقاداتِ الباطلة.

فالجاهل جهلًا بسيطًا يجهل ويعلم أنه يجهل فسيكون متواضعًا غالبًا، لا يأنف من التعلُّم، ولا يجادل بالباطل، بخلاف الجاهل جهلًا مركبًا؛ وهو الذي يجهل ويجهل أنه يجهل؛ فإنه في الغالب مستكبر عن التعلم واتباع الحق لأنه في زعمه على علم.

وأهل الجهل البسيط لا يعرفون الحقَّ ولا ينصرونه ولا يعادونه

غالبًا، وأهل الجهل المركَّب يحسبون أنهم على هدى وهم على ضلال؛ فيعادون الحقَّ ويعارضونه.

فَهْمُ هذا مهم؛ لتُميّز فيمن تحاور بين هذا وهذا؛ وتعرفَ من أين أتى الخلل في التفكير.

١٥ ـ التعصُّب لغير الحقِّ قبيح، والمواقف المحمودة لا تكون مجرد ردود أفعال، والتوسُّط في الحب والبغض والمدح والذم: فضيلة.

١٦ ـ لكلِّ قاعدة شواذ؛ فلا تُسقط القاعدة بالمثال الشاذ.

فالتعميم في غير محلِّه خطأ، وإسقاط القاعدة العامة بمثال شاذ خطأ أيضًا؛ فشرب الدخان مضرٌّ؛ فلا تسقط هذه القاعدة بحجة أن فلانًا شرب ولم يمرض!

أعطِ القاعدة قدرها، وضَع الشاذَّ في حجمه الواقعي.

١٧ ـ لا تَسقط في فخِّ التَّكرار.

كم هي الأفكار والأحكام الخاطئة التي يتكرر طرحها مع تكرار الأسلوب أو تغييره؛ وذاك ليصبح الباطل ـ مع كثرة إعادته ـ حقيقةً لا تقبل الجدال، أي: **بالتكرار تُمرَّر الأفكار!** على قاعدة بعضهم: اكذب ثم اكذب حتى يصدِّقك الناس! وهذا لا يؤثر شيئًا في قناعات العقلاء؛ فالقاعدة عندهم: التكرار لا يجعل الخطأَ صوابًا!

١٨ ـ الحقُّ مُرٌّ عند من لم يتهذب، والكِبْر والحسد واتباع الهوى وحمية الجاهلية والتقليد الأعمى والغلو: هذه من أعظم الصوارف عن الحق.

١٩ ـ بين الشهوة والشبهة رباط وثيق؛ وقليلٌ من يتفطن!

٢٠ ـ شأن العقلاء: التؤدةُ والاستفصال والتقسيم وعدم العجلة في التعاطي مع الآراء قبولًا أو ردًّا.

وأهل البلادة بالضدِّ!

🕮 وصايا تتعلق بالبصيرة في دين الله، والوقاية من المزالق الفكرية الموقعة في الضلال.

بين يدي خمس عشرة وصية:

١ ـ لا هداية إلَّا من طريق الوحي، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سَبَإ: ٥٠].

والذكاء بلا توفيق لا ينجي من الضلال.

والناس في آرائهم بين توفيق وخِذلان؛ قد يكون الرجل من أذكياء الناس؛ ويعمى عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس؛ ويُهدى لما اختُلف فيه من الحقِّ بإذن الله، إذ لا حول ولا قوة إلَّا به.

فمن اتكل على نظر عقله: خُذل. ولذا كان النبي ﷺ يكثر من قول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». [الترمذي ٢١٤٠].

٢ ـ القلب إن لم يشتغل بالحقِّ اشتغل بالباطل.

والنفس فيها نوع من الكبر، وميلٌ إلى الخروج عن ربقة العبودية، فحاذِر ورابط، واكسرها بسوط الافتقار، وذكّرها أن شرابَ الهوى حُلْوٌ، لكنه يورثُ الشَّرَقَ!

٣ ـ كلما قرب القلب من الله زالت عنه معارضات السوء، وصار نور كشفه للحق أتمَّ وأقوى، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات

وضعف نور كشفه للصواب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فاتقِ تُسدَّد.

٤ ـ مبدأ كلِّ أنواع الضلالات: من تقديم الرأي على الوحي، واختيار الهوى على الشرع.

والنجاة في طلب الهدى لا في اتباع الهوى.

والهوى ضدُّ الحق، وهو مرعى الشيطان ومرتعُه؛ فتجرد عنه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: ٢٦].

واعلم أن مسالكَه دقيقة، والسلامةَ منه عزيزة، لأن النفس تكره خلافه، مع أن طوق النجاة في اقتلاعه منها؛ ففي الهوى: الهوان والرَّدى.

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى
من الناس إلا حازمُ الرأي كامله

٥ ـ مجرد ورود الشبهة القادحة في الحق ليس دليلًا على صحتها، وحسن سبكها ليس أمارةَ صدقها، وعدم العلم بالجواب عنها ابتداءً ليس دليلًا على عدمه.

فإذا ابتليتَ فتماسك ولا تضعف أمامها.

٦ ـ المعارضون للكتاب والسُّنة القادحون فيهما: هم معرضون في أول سلوكهم، معارضون في منتهى سلوكهم.

فالإشكال عندهم من الأساس؛ أعرضوا فعارضوا، وإلَّا فلو أقبلوا على النَّهَل منهما ابتداءً صادقين: لسلّموا وما اعترضوا؛ لكنهم أنفقوا في

غير شيء نفائس الأنفاس، وأتعبوا أنفسهم وحيَّروا من خلفهم من الناس، ضيعوا الأصول فحرموا الوصول، وأعرضوا عن الرسالة، فوقعوا في بيداء الحيرة والضلالة.

٧ ـ ما اتهم أحدٌ دليلًا للدين إلَّا وكانت الآفةُ من الذهن العليل، لا في نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يُشكل عليك وينبو فهمك عنه: فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم، ولم تؤتَ مِفتاحه بعد؛ فسل مُعلِّم إبراهيم أن يعلِّمك ومفهِّم سليمان أن يفهمك، واصدق النية، واطلب العلم من معدِنه، وستصل لشفاء عِيِّك، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العَنكبوت: ٦٩].

٨ ـ أعداء الرسل في كلِّ زمان ومكان: يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا؛ فلا تستغرب تكالبهم، ولا تهولنَّك علومهم.

٩ ـ الله يحبُّ من عبده العلم واليقين لا الجهل والشكَّ، فهذانِ مؤلمان للقلب غاية الإيلام، والدواء الشافي: تحصيل العلم وأسبابِ اليقين.

١٠ ـ الشبهة داء، والتعرض للداء خطر عظيم.

والسباحة في لُجج البحار ليست إلا لأهل التأهل التام.

لا تحُم حول الحمى واطلبِ العافية، وحذارِ من المجازفة؛ فسلامة دينك لا يعدلها شيء، ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعَام: ٦٨].

١١ ـ الغلو في العقل أُسُّ الضلال.

والله تعالى أعطانا العقول لندرك بها القريب لا البعيد، وهبنا إياه ليكون موصلًا إليه لا قاطعًا عنه، دالًّا على قدرته لا مضلًّا عن حكمته.

١٢ ـ لا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

ومن تبحَّر في المعقولات، وميَّز بين البينات والشبهات: تبيَّن له أن العقل الصريح أعظم الأشياء موافقة لما جاء به الرسول ﷺ.

١٣ ـ معرفة الحقِّ كافية في معرفة بطلان ما خالفه، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يُونس: ٣٢]، فلا تستشرف إلى معرفة جواب كلِّ شبهة؛ فهذا لا مطمع فيه؛ إذ لا حدَّ لما تقذف به النفوس من الأهواء!

يكفي أن تعرف الحقَّ بدليله لتستيقن أن ما خالفه باطل، ونحن نعلم علمًا عامًّا كليًّا أن كلَّ ما خالف الوحي باطل، وأما معرفة تفاصيل البطلان فهي لبعض الناس دون بعض؛ فمن جهلها لم يضرَّه شيئًا، ومن كان أعرف بفساد الباطل كان أعرف بصحة الحق.

١٤ ـ فرقٌ بين مُحالات العقول ومَحارات العقول.

يجب التفريق بين ما يقصُر العقل عن دَرْكه وما يعلم العقل استحالته؛ بين ما لا يعلم العقل ثبوته وما يعلم العقل انتفاءه.

والرسل صلوات الله عليهم وسلامه قد يخبرون بمحارات العقول، ولا يخبرون بمحالات العقول.

١٥ ـ لزوم جادة السلف أَمَنة من الانحراف، والبركة مع الأكابر (الراسخين في العلم).

وصية خاتمة

بعد أن يسَّر الله لنا هذا التَّطوافَ في الفصول الماضية في مسارب الفكر ومشكلاته وتحدياته: نتوجه إلى الله تعالى بالحمد، ونسأله سبحانه أن يجعل هذا الكلام في ميزان كاتبه وقارئه.

ولا أجد وصيةً أحسن من التذكير بقوله تعالى في ختام سورة «الروم»: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الرُّوم: ٦٠].

إن من لا يقين عنده ولا صبر: خفيفٌ طائش، تلعب به الأهواء والشهوات كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف.

فما أحوج المسلمَ في هذا الزمان أن يجعل هذه الآية دُستور حياته.

«كن بصيرًا صابرًا».. هذه رسالة الأوراق التي بين يديك وخلاصتُها، وفصوله كلُّها لم تَعْدُ أن تكون وقفاتٍ مفصلةً مع الآية، واغترافًا من معينها، وإيصاءً بما أرشدت إليه: دعوةً للصبر على الحقِّ، ووصيةً بالثبات عليه، وتبصيرًا بأساليب المرتابين الصادِّين عن اليقين، الذين يبتغون الفتنة ويقلبون الأمور ويسعون بكلِّ حيلة، ويقعدون بكلِّ صراط.

فكن بصيرًا صابرًا.. اصبر على ما أُمرت باعتقاده والعمل به، فصاحب اليقين ثابت؛ فإنَّ وعد الله حق، ولقاؤه قريب، وما قدمتَه لن يضيع، ومن وفّى: وجد الجزاء الأوفى!

البصير الصابر: على بيِّنة من ربه، لم يستفزَّه المبطلون، ولم يستخفَّه الذين لا يوقنون؛ فهو ماضٍ في طريق هجرته إلى ربه، لا يبالي بهم ولا يلتفت إليهم.

ومن ضعُف صبرُه ويقينُه: استفزه هؤلاء واستخفوه، وشبّهوا الأمور عليه وجذبوه، فصار مِثلَهم شاكًّا مرتابًا؛ ضيّع اليقين؛ فخسر الخسران المبين؛ والله المستعان.

اللهم ارزق المسلمين ـ صغارًا وكبارًا ـ البصيرة في دينهم والثبات عليه، وأعذهم من مضلات الفتن..

يا رب جنِّبهم طرائقها التي ... تفضي بسالكها إلى النيران
يا رب واهدهم بنور الوحي كي ... يصلوا إليك فيظفروا بجنان
يا رب كن لهمُ وليًّا ناصرًا ... واحفظهم من فتنة الفتان
وانصرهمُ يا رب بالحق الذي ... أنزلته يا منزل القرآن

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

والحمد لله رب العالمين

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول: التحديات التي تواجه الشباب	٩
الفصل الثاني: العقل: حقيقته، وحدوده، وموقف الإسلام منه	١٩
الفصل الثالث: العلاقة بين النقل والعقل	٣١
الفصل الرابع: الإيمان بالغيب	٤٥
الفصل الخامس: براهين نبوة نبينا محمد ﷺ/ ١	٥٧
الفصل السادس: براهين نبوة نبينا محمد ﷺ/ ٢	٦٧
الفصل السابع: براهين نبوة نبينا محمد ﷺ / ٣	٨١
الفصل الثامن: براهين نبوة نبينا محمد ﷺ/ ٤	٩٧
الفصل التاسع: مشكلة الشر	١١٣
الفصل العاشر: لله حكمةٌ بالغة	١٢٩
الفصل الحادي عشر: الهداية والإضلال	١٤٧
الفصل الثاني عشر: الاحتجاج بالقدر على المعاصي	١٦٥
الفصل الثالث عشر: نسبية الحقيقة	١٨١
الفصل الرابع عشر: بين الشك واليقين	١٩٧
الفصل الخامس عشر: دعوت فلم يُستجب لي!	٢١٣
الفصل السادس عشر: الحرية بين الإطلاق والتقييد	٢٢٩

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع عشر: فوضى القراءة والتلقي ٢٤٥
الفصل الثامن عشر: المنهج الصحيح في التعامل مع الشبهات ٢٦٣
الفصل التاسع عشر: المنهج الصحيح في التعامل مع اختلاف العلماء .. ٢٧٩
الفصل العشرون: حاجتنا إلى الدين ٢٩٧
الفصل الحادي والعشرون: حقوق السُّنة على الأمة ٣١٥
الفصل الثاني والعشرون: حجية السنة ٣٣١
الفصل الثالث والعشرون: حِفظ السنة ٣٤٧
الفصل الرابع والعشرون: شبهات أعداء السنة ٣٦٥
الفصل الخامس والعشرون: حدود العلم الطبيعي (التجريبي) ٣٨٣
الفصل السادس والعشرون: بين الإتقان والصدفة ٣٩٩
الفصل السابع والعشرون: نظرية التطور في الميزان ٤١٥
الفصل الثامن والعشرون: الإلحاد.. تناقضات ومغالطات ٤٣١
الفصل التاسع والعشرون: الوسوسة في الإيمان ٤٤٧
الفصل الثلاثون: أهمية التحصين العقدي ٤٦٣
الفصل الحادي والثلاثون: سُؤالاتٌ عن العبادة ٤٧٩
الفصل الثاني والثلاثون: الأبراج حقيقة أم خيال ٤٩٧
الفصل الثالث والثلاثون: كيف نفهم الأدلة الشرعية؟١ .... ٥١٥
الفصل الرابع والثلاثون: كيف نفهم الأدلة الشرعية؟٢ .... ٥٣١
الفصل الخامس والثلاثون: فلسفة الطاقة في الميزان ٥٤٩
الفصل السادس والثلاثون: مزالق في التفكير ٥٦٩
وصية خاتمة ٥٨٧
فهرس المحتويات ٥٨٩

مراقي الوعي
تنبيهات على مزالق فكرية

لمتابعة جميع اصداراتنا، مرر ماسح (الباركود)

@ ESDARAT

إصدارات تأصيل منهج السلف:

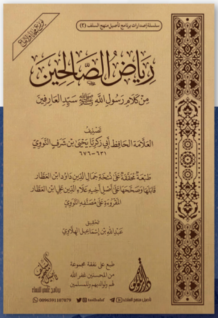

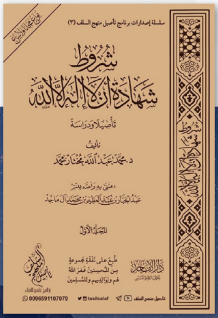

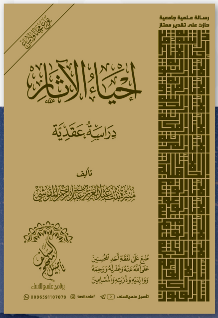

تأصيل منهج السلف
برنامج علمي للنساء

تأصيل منهج السلف tasilsalaf 0096591107079